



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة باتنة 1

قسم اللغة العربية وآدابها

كلية اللغة والأدب العربي والفنون

المدائح النبوية في الشعر الأندلسي في القرن الثامن الهجري
مضامينها و أشكالها الفنية
لسان الدين بن الخطيب وابن جابر "أنموذجا"

أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه العلوم في الأدب العربي

إشراف الأستاذ:
الشريف بوروية

إعداد الطالب:
السعيد قوراري

لجنة المناقشة

الإسم واللقب	الرتبة العلمية	الجامعة الأصلية	الصفة
كمال عجالي	أستاذ التعليم العالي	باتنة	رئيسا
الشريف بوروية	أستاذ التعليم العالي	باتنة	مشرفا و مقررا
جمال سعادنة	أستاذ محاضر أ	باتنة	عضوا مناقشا
رزيقة طاوطاو	أستاذ محاضر أ	أم البواقي	عضوا مناقشا
ليلي بن عائشة	أستاذ محاضر أ	سطيف	عضوا مناقشا
لزهر فارس	أستاذ محاضر أ	تبسة	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 1437هـ - 1438هـ
2016 م - 2017 م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ وَنَسَّيْتُ
وَمَهَيَّيْتُ وَمَمَاتَيْتُ لِلَّهِ
رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ
وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ
الْمُسْلِمِينَ﴾

[الأنعام: الآية: 162]

/ تحية للمشرف

أحيي: أستاذي الفاضل الدكتور الشريف بوروبة. وأقف له وقفة إجلال وتقدير، وأعترف مسبقاً بأنني مهما بالغت في تحبير كلماتي وديباجة عباراتي، فإنني أجد نفسي مقصراً في إيفائه حقه على كل ما قدم من خدمات ووجه لي من إرشادات وأسدى لي من نصائح وتصويبات.

أستاذي الكريم: لقد أهدت إلي الأمل وأبعدت عني شبح اليأس، وفتحت لي صدرك الرحيم وبذلت جهداً لا ينكر في تقويم العمل الذي أشرفته عليه

فلكم مني أطيب المنى.

السعيد قوراري

مقدمة

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا) ⁽¹⁾ وصلى الله وسلم وبارك على إمام المتقين، وسيد المرسلين وأعلم أهل الأرض أجمعين وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، وورثة الأنبياء، العلماء الريانيين، وعلى من سار على نهجهم، واتبع سبيلهم إلى يوم الدين، أما بعد:

كانت الحياة الأدبية في المشرق والمغرب والأندلس مواراة بالحركة والنشاط في القرن الثامن الهجري، ففي الأندلس والمغرب لقي الأدباء تشجيعا كبيرا من رجالات الدولة، الذين كان كثير منهم يقول الشعر، ويتذوقه، ويفتح لهم مجالسه، ويناقشهم، ويتخذ منهم رؤساء لدواوين الإنشاء، ويستوزرهم. وقراءة عميقة في كتب ذلك العصر مثل الإحاطة والنافضة والكتيبة الكامنة لابن الخطيب، ونثر الجمان لابن الأحمر، والعبر لابن خلدون وغيرها، تعطينا صورة واضحة عما كان يزخر به هذا القرن من الشعراء الذين كانت تتجاذبهم دول الأندلس والمغرب المتعددة المتناحرة المملأى بالاضطرابات والفتن والصراعات. أما في المشرق العربي آنذاك فنجد المماليك قد جمعوا الشام ومصر والحجاز وغيرها في دولة واحدة، حققت -رغم وجود عدد من السلبات- كثيرا من الازدهار والقوة والأمن، مما ترك آثارا طيبة على الحياة الفكرية والأدبية، وخلفوا أشعارا كثيرة، عبرت عن روح ذلك العصر من خلال المقاييس الفنية التي كانت سائدة فيه.

كانت الصلات الفكرية والأدبية بين المغرب والمشرق العربيين وثيقة سريعة مستمرة، تمدها قوافل الحجاج والمعتمرين ومحبي جوار الرسول صلى الله عليه وسلم والتجار بمدد مستمر لا ينقطع، يحمل معه - فيما يحمل - الفكر والعلم والتصوف والأدب والكتب، بالإضافة إلى الكثير من المغاربة الذين يمموا وجوههم قبل المشرق، حازه ومصره وشامه، طالبين فيه الأمن الذي افتقدوه في بلادهم آنذاك، ولقد حفظت لنا الكتب أسماء كثيرين، منهم ابن عربي وابن خلدون وابن جابر وأبو جعفر، وغيرهم.

تركت هذه الهجرة آثارها المتعددة على الحياة الدينية والفكرية والأدبية بعامة، وعلى الشعر بخاصة، وعلى المديح النبوي موضوع بحثي بصورة أخص .

(1) - سورة الكهف . الآية:1.

فالمدائح النبوية تحثل مكانا مشرقا في ديوان شعرنا العربي، واكتست رداء الصدق؛ حيث كان حب سيد الخلق صلى الله عليه وسلم هو الدافع إليها، فاختلفت بذلك عن غيرها من المدائح التي كانت من الأغراض الدنيوية دافعها الأول.

وعلى امتداد العصور التي تمتد بيننا وبين عصر النبوة الزاهي راح الشعراء ينثرون مدائحهم على أعتاب الحبيب صلى الله عليه وسلم، إذن فهي مدائح تتميز بطول الامتداد الزمني كما تميزت بالكثرة من حيث الكم أيضا؛ إذ لا يمكن حصر جميع مدائح الرسول صلى الله عليه وسلم في عصر من العصور، فضلا عن حصر ما أبدعه الشعراء طوال هذه الحقبة الطويلة.

نخلص من هذا أن المدائح النبوية تميزت بالكثرة والشمولية، فقد حاولت الإحاطة بجوانب السيرة العطرة لسيد الخلق صلى الله عليه وسلم و تقديمها في بيان شعري أخذ. ومن المحطات التي توقف لديها الشعراء تعداد صفاته الخلقية والخلقية وإظهار الشوق لرؤيته وزيارة قبره والأماكن المقدسة التي ترتبط بحياة الرسول صلى الله عليه وسلم، مع ذكر معجزاته المادية والمعنوية ونظم سيرته شعرا والإشادة بغزواته وصفاته المثلى والصلاة عليه تقديرا وتعظيما.

ويظهر الشاعر المادح في هذا النوع من الشعر الديني تقصيره في أداء واجباته الدينية والدنيوية، ويذكر عيوبه وزلاته المشينة وكثرة ذنوبه في الدنيا، مناجيا الله بصدق وخوف مستعظفا إياه طالبا منه التوبة والمغفرة. وينتقل بعد ذلك إلى الرسول صلى الله عليه وسلم طامعا في وساطته وشفاعته يوم القيامة.

وغالبا ما يتداخل المديح النبوي مع قصائد التصوف وقصائد المولد النبوي التي تسمى بالمولديات.

ومن المعهود أن هذا المدح النبوي الخالص لا يشبه ذلك المدح الذي كان يسمى بالمدح التكسبي أو مدح التملق الموجه إلى السلاطين والأمراء والوزراء، وإنما هذا المدح خاص بأفضل خلق ألا وهو محمد صلى الله عليه وسلم ويتسم بالصدق والمحبة والإخلاص والتضحية والانغماس في التجربة العرفانية والعشق الروحاني.

أسباب اختيار الموضوع:

أمال فيما يتعلق بالبواعث التي حدث بنا إلى اختيار هذا الموضوع، فإننا نجملها فيما يلي:

أولا: حيننا للأدب العربي بوجه عام، والأندلسي منه على وجه الخصوص، والرغبة في الكشف عن إبداعات شعراء الأندلس، وتقديرهم بسمات خاصة.

ثانياً: الحب العظيم للرسول صلى الله عليه وسلم، ولا غرو في ذلك فلا يؤمن المسلم إيماناً كاملاً حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، كما يتسم هذا الحب بالصدق والعاطفة السامية القوية، لنيل رضا وشفاعة النبي.

ثالثاً: تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم عند ذكره وإظهار الخشوع والخضوع مع سماع اسمه، لأن كل من أحب شيئاً خضع له. ومما يذكر في هذا السياق أن كثيراً من الصحابة (ض) إذا ذكروا اسم الرسول صلى الله عليه وسلم، بعد وفاته، خشعوا واقشعرت جلودهم وبكوا. كذلك كان كثير من التابعين ومن تبعهم يفعلون ذلك محبة له والنظر إليه وتهيباً وتوقيراً.

رابعاً: وقوفنا على النتاج المعرفي للسان الدين بن الخطيب بوصفه أحد أبرز شعراء وأدباء الأندلس والذي رأى فيه ابن خلدون: « آية من آيات الله في النظم والنثر والمعارف والأدب، لا يساجل مداه، ولا يهتدي فيها بمثل هداه »⁽¹⁾ وبالطبع فإن من بين ما وقفت عليه عند هذا الشاعر والأديب فنه الشعري بالذات، وذلك من خلال قراءتي المتكررة لديوانه، وهو الأمر الذي أتاح لي استكشاف مناح عدة من براعة هذا الشاعر وتميزه في خطابه الشعري.

خامساً: أن ابن الخطيب احتل مكانة عظيمة في تاريخ الأندلس بعامة، ومملكة غرناطة بخاصة، فهو الأديب والوزير الذي حاز قصب السبق في مجال الأدب والوزارة، فلقب بذي الوزارتين، وكان نموذجاً فريداً، قلما يوجد به زمان.

سادساً: بيان مدى إتباعه للسابقين من عصور الأدب الزاهية، ومعارضته إياهم، من خلال إبداعاته الشعرية المتنوعة، ثم إبراز الجديد على بعض قصائده.

سابعاً: محاولة الكشف عن الروافد العلمية التي امتاح منها ابن جابر، ومعرفة مصادر معرفته، العلمية والثقافية.

ثامناً: معرفة حياة وآثار هذا العالم الأندلسي (ابن جابر) الذي كان حضوره الواضح في الحياة العلمية والثقافية الإسلامية.

تاسعاً: وقد دفعنا إلى اختيار لسان الدين بن الخطيب وابن جابر أنهما قد اشتركا في انتمائهما إلى قطر واحد، هو الأندلس، وقد عنينا بموضوع واحد هو المديح النبوي الذي

(1) - ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون. المقدمة، ج7. دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1959م.

خصاه بقصائد طويلة، الأمر الذي جعل بين مديحهما النبوي بعض الصفات والميزات المشتركة .

لقد عرف شعرنا العربي - منذ نشأته الأولى وحتى أيامنا الحاضرة- مئات الدارسين والباحثين الذين بذلوا قصارى جهدهم، وجادوا بعصارة أدمغتهم، ووهبوا الغالي والنفيس في البحث عما في هذا الشعر من نواذر، وأغان وموشحات، وفنون وحكم وبيان وفصاحة لسان... لكنهم لم يهتموا بالمدائح النبوية، ولم يفرّدوا لها بحثًا مستقلًا، ولم يعنوا بترجمة ناظميها، كما لو كانت هذه القصائد غريبة على بيئتنا، لم تعط أصحابها شهرة وصيتًا، فكأننا بالمؤرخين للشعر وللشعراء يغفلون هذه الناحية ليغيبوا أشرف وجه من وجوه الشعر العربي، وليطمسوا صفات أشرف البشر، لأن كثرة الإغفال والإهمال- في رأيهم- تؤدي إلى النسيان فالضياع. ولكن بفضل الله تعالى ومنته عني بهذا النوع من الأدب رجال محبوبون لله تعالى، متيمون بحب رسوله الكريم، تلهج ألسنتهم بالصلاة عند سماع خير الأنام، وتفيض أعينهم بالدموع شوقًا لزيارة سيد ولد آدم عليه السلام.

ومن هنا جاءت أهمية الموضوع- في نظرنا- وهو إبراز جانب الروح الدينية في القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي في الأندلس. وكذا إبراز تلك العاطفة المشبوبة الصادقة المشبعة بالروح الصوفية الهائمة بحب الرسول ﷺ . من خلال فن المديح الديني في مضمونه وشكله، وهذا من خلال الشاعرين «لسان الدين بن الخطيب وابن جابر» .

ومن هذا المنطلق فإن البحث يطرح في هذا السياق سلسلة من الأسئلة التي تشكل الإجابة عنها على متن هذا البحث:

- ما المقصود بفن المدائح النبوية؟.
- ما مضامينها وأشكالها الفنية؟ .
- ما هي دوافع النظم في هذا الفن؟.
- ما هي أوجه التداخل بين المدائح النبوية و شعر التصوف؟.
- بما تميزت المدائح النبوية في تشكيلها الفني؟.
- ما هي جماليات الشعر المدحي عند كل من لسان الدين بن الخطيب، وابن جابر؟
- ماهي الأشكال الفنية للمدائح النبوية عند ابن الخطيب وابن جابر؟.

أهداف البحث: لكل مشروع علمي أهداف، ولبحثي هذا غايات نرجوها أهمها:

1-أسباب اهتمام الأندلسيين بهذا الفن.

- 2- تقديم دراسة متكاملة عن المدائح النبوية عند لسان الدين وابن جابر، من حيث المضامين والأشكال الفنية التي انتهجتها.
- 3-المساهمة في فتح نافذة على المدائح الأندلسية في القرن الثامن الهجري بشكل عام، فما تقدمه هذه الدراسة من نتائج يمكن لها أن تساهم هذه الدراسة من نتائج يمكن لها أن تساهم بفاعلية في بحث يهتم بالمدائح عموما في ذلك العصر.
- 4- محاولة تقديم إضافة متواضعة في مجال الدراسات الفنية لشعرنا العربي لاسيما الأندلسي منه.

أما عن موضوع بحثنا الموسوم «المدائح النبوية في الشعر الأندلسي مضامينها وأشكالها الفنية، لسان الدين بن الخطيب وابن جابر أنموذجا»، فقد جاء على النحو التالي: مقدمة، ستة فصول وخاتمة.

أما المقدمة، وهي التي نتحدث فيها الآن، فأودعناها الكلام عن أسباب اختيار البحث، وعرضا لفصوله ومباحثه، وأهم مصادره، ومنهجي في البحث، وختمتها بالشكر والامتنان لمن هو أهله.

وقد تناولنا في **الفصل الأول** مفهوم فن المديح في الاصطلاح اللغوي والفني ، ونشأته وتطوره. ثم وقفنا عند المديح في الأدب العربي وعوامل نشأته، وتطوره عبر العصور. كما تطرقنا للمديح الديني، وكذا المديح النبوي حيث تعرضنا لنشأته وتطوره ودوافعه. وبعدها تحدثنا عن شعر المديح النبوي في الأدب المغربي والأندلسي. لنسلط بعدها الضوء على موضوعات ومضامين شعر المديح النبوي. خاتمين هذا الفصل بالكشف عن العلاقة بين المديح النبوي وشعر التصوف.

أما **الفصل الثاني** فقد أفردناه لترجمة حياة الشاعرين لسان الدين بن الخطيب وابن جابر، مع دراسة ديوانيهما وطبعاتهما، والأغراض والموضوعات التي احتواها كل منهما، لنعرج بعدها على موضوعات قصيدة المديح النبوي في ديواني الشاعرين. منهيين هذا الفصل بإجراء مقارنة بينهما من حيث الموضوعات والقوافي.

وقد توجهت عناية **الفصل الثالث** : إلى تحديد مصطلح البنية، ونقصد بذلك بنية القصيدة المديحية عند الشاعرين، كما تعرضنا لمطالع قصائدهما وكذا المقدمات، حيث كانت المقدمات الغزلية والطلبية ومقدمة الشوق والحنين. وبعدها كانت دراسة عنصر من

عناصر بناء القصيدة عندهما ألا وهو حسن التخلص، مختتمين ذلك بالعنصر الأخير الذي هو حسن الختام أو المقطع. وكان ذلك عن طريق دراسة نماذج لكل منهما

بينما اهتم **الفصل الرابع** بدراسة المعجم الشعري: حيث تناولنا في:

الألفاظ والأساليب: ما يلي: ألفاظ الشوق و الحنين المباشرة، الألفاظ الدالة على الحنين الألفاظ الدالة على الحرب والسلاح، ألفاظ التوسل والشفاعة وطلب الاستغاثة.

وفي مستوى التركيب، درسنا مايلي: تعاقب وتكرار الألفاظ والأساليب، تعاقب وتكرار الأسماء، ومنها: ألفاظ الليل والنهار، تعاقب وتكرار صفات الرسول صلى الله عليه وسلم، وتكرار ذكر الأماكن المقدسة، وتعاقب وتكرار أسماء الحبيبة، وتكرار الأفعال وتعاقبها، وتكرار وتعاقب الأساليب الإنشائية. ومن هذه الأساليب: أسلوب النداء، أسلوب الاستفهام، أسلوب التمني، أسلوب الأمر والنهي .

لنلج مباشرة في بناء الصورة في شعر المدائح النبوية، حيث عرضنا مفهوم الصورة ووسائلها وغايتها عند القدماء، لنتناول بعد ذلك التشبيه ودوره في خلق الصورة، ثم تحدثنا عن الاستعارة وبيننا دورها في خلق الصورة عند الشعارين «لسان الدين وابن جابر». دون أن نهمل الصورة الكنائية التي كان حضورها قويا في شعر المدائح النبوية. رفقة نظيرتها البديعية وما تضمنته من محسنات.

وفي جانب الموسيقى فقد كان لها صدى هي كذلك من خلال الموسيقى الداخلية وكذا الخارجية.

وفي **الفصل الخامس** كان حديثنا عن مستويات التناص عند الشعارين، فقد تتبعنا تلك الظاهرة التناصية في مدائحهما، والتي كان حضورها مكثفا، كما صاحب ذلك تنوع في منابعها، ولذا فقد اكتفينا بالحديث فيها على خمسة مصادر هي: القرآن الكريم، والحديث الشريف، والموروث الشعري العربي، والأمثال والحكم العربية، الأحداث التاريخية قصد معرفة الآلية التي اعتمدها الشاعران في استحضار تلك المنابع ضمن دائرة التركيب اللغوي للمدائح النبوية.

أما **الفصل السادس** فقد اختص ببحث الأشكال الفنية للمدائح النبوية عند الشعارين. فكانت المولديات، و الموشحات، والرسائل الشعرية، و المعارضات عند ابن الخطيب.

وعند ابن جابر كانت البديعيات، و الخمسات، والمعارضات، والمعشرات أهم الأشكال الفنية في مدائحه النبوية.

وختمنا بحثنا باستعراض أبرز النتائج التي توصلنا إليها من خلال دراستي للمدائح النبوية عند ابن الخطيب وابن جابر، وأعقبنا بثبت المصادر والمراجع.

و دراسة المدائح النبوية كظاهرة أدبية وفنية محكومة ببواعث خاصة جعلتنا نتجه إلى المنهج التاريخي في استقصاء المراحل الأدبية التي مر بها فن المدائح النبوية عبر العصور المختلفة وصولاً إلى العصر الأندلسي وبلاد المغرب، ونظراً لكثرة شعراء المدحة النبوية فقد وقع اختيارنا على مشاهيرهم. منهم ابن الخطيب وابن جابر. ثم المنهج الوصفي التحليلي الذي يصف الظاهرة، ثم يتتبعها بالتحليل. وأخيراً المنهج النفسي المدعم باستقراء النص الشعري، وهو وسيلتنا في قراءة النصوص والكشف عن مضامينها وخصائصها الفنية. ذلك أن فن المدائح النبوية في -نظرنا- ليس فيه مبالغة أو تجاوز، بل تقصير وعجز، فقد أجمع المسلمون على أنه لا يجوز إطرء النبي صلى الله عليه وسلم، أي مجاورة الحد في مدحه بادعاء الألوهية فليتنجب المادح للنبي صلى الله عليه وسلم هذا الإطرء ويعتقد أنه عبده ورسوله ثم ليقبل في مدحه بعد ذلك ما شاء، فإنه لا يعد إطرء في حقه عليه الصلاة والسلام.

مادة البحث: تتمثل مادة البحث فيما صدر عن ابن الخطيب وابن جابر من مدح ضمناها في ديوانيهما، فقد اعتمدنا على ديوان لسان الدين بن الخطيب "الصيب و الجهام والماضي و الكهام" الذي حققه الدكتور محمد الشريف قاهر. وعلى ديوان ابن جابر الأندلسي "نظم العقدين في مدح سيد الكونين أو الغين في مدح سيد الكونين" الذي حققه الدكتور أحمد فوزي الهيب، دون النظر إلى سواهما حيث استندنا على كثير من القصائد والمقطوعات والنتف ذات الطبيعة المدحية، فجعلتها على اختلاف حجومها ضمن نطاق المدحة الخطيبية الجابرية .

أما فيما يخص مصادر البحث ومراجعته فمن الحق أن ننوه بكتب جديدة أمدتنا بالشيء الكثير في الدراسة وهي:

1- ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام: لسان الدين بن الخطيب.

2- ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين : ابن جابر الأندلسي.

3-الإحاطة في أخبار غرناطة: لسان الدين بن الخطيب.

4-نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب: المقري،أحمد محمد التلمساني.

5-المدائح النبوية في الأدب العربي. زكي مبارك.

أما عن الصعوبات التي اعترضت طريقنا في هذه الدراسة. فهي صعوبة التمييز بين أغراض عديدة تتداخل في ما بينها في شعر لسان الدين وابن جابر ، كما هو الحال في قسم كبير من شعرنا العربي القديم ، ونعني بها الفخر والمدح والرثاء ، فكم من مقطوعة جمعناها في المدونة ثم حذفناها فيما بعد لأنها ليست من المدح ، وإنما هي من الرثاء أو الفخر. لكن كل هذا لم يثن من عزمنا بفضل ما لقيناه من تشجيع كبير من طرف أستاذي المشرف، الذي يطيب لنا أن نتقدم إليه بالشكر الجزيل على مساعدته القيمة وحسن توجيهه في تسهيل وصولنا إلى مبتغانا.

وإننا لنرجو ختاماً أن تكون دراستنا هذه حلقة تضاف إلى سلسلة الدراسات التي اهتمت بتراثنا العربي الإسلامي القديم ، وإن أملنا لو طيد في أن تثري تصويبات السادة الأساتذة أعضاء اللجنة العلمية الموكول إليها أمر مناقشة هذه الرسالة بمختلف مباحثها ، وأن تسلط الأضواء الكاشفة على ما يعترها من جوانب قصور لا يخلو منها أي عمل بشري ، وما من ريب في أن ذلك سيتيح لنا فرصة ثمينة لتصويبها وتدارك ما فيها من نقص ، رقياً بها إلى شكل أمثل قدر الإمكان ،والكمال لخالق البشر ، وحده ، دون سواه .

«فإني رأيت أنه لا يَكْتَبُ إنسانٌ كتاباً في يومه إلا قال في غده: لو غَيْرَ هذا لكان أحسن، ولو زيدَ كذا لكان يُستحسنُ، ولو قُدِّمَ هذا لكان أفضل،ولو تُرِكَ هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبرِ، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر.».

فإلى أساتذتي الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة جميعاً ، دون استثناء ، أتوجه بخالص التحية ، المقرونة بعميق الشكر ، ووافر الامتنان كفاء اجتهادهم في تتبع دقائق ما ورد في جهد العمل الذي بين أيديهم.

وواجب الشكر يفرض علينا أخيراً أن ننوه بمجهودات كل من قدم لنا يد العون ولو بكلمة طيبة ، وهي صدقة ، كما هو معلوم . والله الأمر من قبل ومن بعد وهو ولي التوفيق والعاصم من الزلل والهادي إلى سواء السبيل. والحمد لله رب العالمين،،،

الفصل الأول

فن المديح: النشأة والتطور

المبحث الأول: فن المديح : مفهومه ونشأته وتطوره .

المبحث الثاني: تطور المديح في الأدب العربي عبر العصور.

المبحث الثالث: المديح الديني .

المبحث الرابع: فن المديح النبوي، نشأته وتطوره ودوافعه

المبحث الخامس: موضوعات ومضامين شعر المديح النبوي

المبحث السادس: أوجه التداخل بين المديح النبوي وشعر

التصوف

1- فن المديح : مفهومه ونشأته وتطوره:

1-1- المديح: في الاصطلاح اللغوي:

المديح فن الثناء ولغة التقدير، ومجال الفضائل والمثل تخليدا للقيم والأخلاق. عرف عند العرب منذ القدم؛ إذ كان يعبر عن روح العصر.

عرفه "ابن منظور" في لسان العرب بقوله: «المدح: نقيض الهجاء وهو حسن الثناء. يقال: مدحته مدحة واحدة ومدحه بمدحه ومدحا ومدحة . هذا قول بعضهم، والصحيح أن المدح المصدر. والمدحة الاسم، والجمع مدح، وهو المديح والجمع المدائح والأماديح»¹.

الأخيرة على غير قياس، ونظيره حديث وأحاديث؛ قال أبو ذؤيب:

لَوْ كَانَ مِدْحَةٌ حَيٌّ مُنْشِرًا أَحَدًا أَحْيَا أَبَاكُنْ، يَا لَيْلَى، الْأَمَادِيحُ

قال ابن بري: الرواية الصحيحة ما رواه الأصمعي، وهو:

لَوْ أَنَّ مِدْحَةً حَيٌّ أَنْشَرْتَ أَحَدًا أَحْيَا، أَبَوَتَكَ الشُّمُّ، الْأَمَادِيحُ

«والمدائح: جمع المديح من الشعر الذي مدح به كالمدحة والأمدوحة، ورجل مادح من قوم مدح ومديح ممدوح. وتمدح الرجل: تكلف أن يمدح. ورجل ممدح أي ممدوح جدا. ومدح للمثني لا غير. ومدح الشاعر وامتدح . وتمدح الرجل بما ليس عنده: تشبع وافتخر. ويقال: فلان يتمدح إذا كان يقرظ نفسه ويثني عليها. والممدوح: ضد المقابح»².

«المدح : مدح: مدحا ومدحه: أحسن الثناء عليه، ضد ذمه. مادحه: مدحه، تمدح: افتخر بما ليس عنده. تكلف أن يمدح وقرظ نفسه وأثنى عليها والرجل: مدحه، و- إلى الناس: طلب مدحهم. تمادح القوم: مدح بعضهم بعضا. امتدح: اتسع. المدحة ج: مدح: الاسم من مدح ما يمدح به- المديح: ج مدائح- والأمدوحة: ج اماديح: ما يمدح به-

الممدوح: ضد المقابح»³، هو ذكر للشمائل والمناقب فنقول: مدحه مدحا أثنى عليه بما له من الصفات، نابع عن عاطفة الاحترام، والتقدير والتبجيل⁴.

قال الثعالبي¹:

¹ ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم. لسان لعرب، مادة: مدح، ج16. ط1. دار صادر، بيروت، 1374هـ-1955م.

² المصدر نفسه . مادة : مدح .

³ -المنجد في اللغة والإعلام. ط21. دار المشرق، بيروت، لبنان، 1960. ص: 751

⁴ -مجمع اللغة العربية. المعجم الوسيط. ط2. دار المعارف، مصر، 1973م. ص: 857.

وَكَمْ غَلًا لِلْمَجْدِ شَيْدَتْهَا تَنْبِي عَلَيْهَا أَلْسُنُ الْمَدْحِ

أما في "أساس البلاغة" للزمخشري: «مدح: مدحه وامتدحه وممدح وممدح، يمدح بكل لسان العرب تتمدح بالسخاء، وهو يتمدح إلى الناس أي يطلب مدحهم»² .
والمديح في اصطلاح الأدباء والنقاد غرض شعري جوهره الشكر، والثناء والتتويه بمناقب الممدوح.

وخلع أبو البقاء الكفوي على المدح ظلا فلسفيا فقال: «المدح هو الثناء باللسان على الجميل مطلقا، سواء أكان من الفواضل، أو من الفضائل وسواء أكان اختياريا أو غير اختياري، ولا يكون إلا قبل النعمة، ولهذا لا يقال: مدحت الله، إذ لا يتصور تقدم وصف الإنسان على نعمة الله بوجه من الوجوه لأن نفس الوجود نعمة من الله تعالى»³.

1-2- المديح في الاصطلاح الفني:

المدح كما رأينا في المعاجم هو حسن الثناء، ومن العسير أن نستدل على تاريخ محدد لاستخدام هذا المصطلح للدلالة على فن شعري بعينه له خصائصه ومميزاته ولغته وموضوعاته وذلك لان الميل على تقبل الثناء غريزي في الإنسان، ولا شك أن الشعراء كما يقول الدكتور بدوي طبانة منذ أن عرفوا: «تلك الطبيعة في الإنسان اتخذوها سببا إلى الأقوياء ووسيلة إلى أصحاب السلطان ليحتموا بقوتهم ويحيوا في ظلال نعمتهم،

¹ - ولد عبد الرحمن الثعالبي سنة 785هـ بوادي سبر شرق مدينة الجزائر، تنتمي أسرته إلى قبيلة الثعالبة من عرب المعقل، التي قطنت سهول متيجة، وهو من أشهر أعلام الجزائر، عاش في القرن التاسع الهجري، تعلم في قريته ثم انتقل إلى بجاية سنة 802هـ. أخذ عن الشيخ أبي زيد الوغليسي، والشيخ أبي عثمان المنقلاتي والشيخ المشدالي، ثم انتقل بعدها إلى تونس سنة 809هـ، ومنها إلى القاهرة ثم عاد إلى الجزائر وأسس الزاوية الرحمانية. اشتغل بالتدريس إلى أن توفي سنة 875هـ. من مؤلفاته: "الجواهر الحسان في تفسير تلمسان" سنة 833هـ، "العلوم الفاخرة في أحوال الآخرة" و: "روضة الأنوار ونزهة الأخبار" و: "المختار من الجوامع في القرآن" و: "مختصر ابن حاجب في الفقه" و: "رسائل في التصوف والجهاد ومحاربة الكفار" .

ينظر ترجمته في: أعلام مدينة الجزائر و متيجة. مسعود كواتي ومحمد الشريف سيدي موسى: تصدير: عبد الحميد حاجيات. ط1. دار الحضارة، الجزائر، 2007م. صص: 94-95 .

² - الزمخشري، جار الله أبي القاسم محمود بن عمر. أساس البلاغة. تحقيق: عبد الرحيم محمود. دار المعرفة، بيروت، (د،ت). ص: 324.

³ - غازي طليمات ، عرفان الأشقر. الشعر في العصر الأموي. ط1. دار الفكر، دمشق، مكتب الأسد، (د،ت). صص: 326-327 .

وأولئك يمدون لهم في حبل العطاء ليثيخوا محامدهم في الناس فيمتد سلطانهم ويسبق ذكرهم»¹.

والمديح هو فن من فنون الشعر الغنائي يقوم على عاطفة الإعجاب، ويعبر عن شعور تجاه فرد من الأفراد، أو جماعة أو هيئة- ملك على الشاعر إحساسه، وأثار في نفسه روح الإكبار والاحترام لمن جعله موضع مديحه. وفي هذا الفن من الشعر تعداد للمزايا الجميلة، ووصف للشمائل الكريمة، وإظهار للتقدير العظيم الذي يكنه الشاعر لمن توافرت فيهم تلك المزايا وعرفوا بمثل هاته الصفات والشمائل.

والمديح من أقدم الفنون الأدبية، عرفتة الشعوب البدائية يوم رفعت إلى الآلهة صلواتها وقدمت القرابين إلى أصنامها ووضعت نفسها تحت وصاية زعمائها وأبطالها. فمنذ فجر التاريخ أحس الإنسان بالفوارق الاجتماعية بينه وبين أخيه الإنسان. ورأى الأقدار تضع وترفع وتعطي وتمنع، لذلك سعى إلى إرضاء من هم فوقه، وسواء أكان هذا المديح صادرا عن قرارة نفسه أم من أطراف لسانه فهو يعترف بالأفضلية لمن سبقوه بالغنى أو الشجاعة والقوة أو الفهم والذكاء.

ونظرة المادح إلى الممدوح تشترك مع الناس جميعا في النظر إلى الزعيم والقائد والوجيه والغني والأمير نظرة خاصة فيها الكثير من الإجلال والإكرام؛ يعبر فيها صاحبها عن ذاته بما يتوفر لديه من ضروب القول والحديث والبيان شعرا ونثرا².

« ولسنا ندري كيف جاءت المدائح الأولى عند الإنسان الأول، ولكن النقوش القديمة تحمل على صفحاتها الحمد والثناء لأشخاص وجماعات وتشيد بالقواد أو الملوك وتتحدث عن انتصاراتهم ومواهبهم، وتمنحهم ألقابا ونعوتا وصفات تسمى، في عرفنا اليوم، مدائح. فقد نشأ الإنسان على خوف من القوة والبطش فلذلك رأيناه يمجد البحر والرعد والأسد والمطر والشمس والقمر والنار ويتوجه إليها خاضعا خاشعا مبديا إعجابه . وسرعان ما اكتشف فكرة الإله ، فجعل لكل شيء إله، في بادئ الأمر، ثم توجه إلى

¹ - بدوي طبانة . قدامة بن جعفر والنقد الأدبي . مطبعة مخيمر، القاهرة، 1954م. ص: 39 .

² - ينظر: إميل ناصف. أروع ما قيل في المديح. (د،ط). دار الجيل ، بيروت، (د،ت). صص: 08-09.

الآلهة بصلواته وعبادته وتضرعاته فغدت هذه كلها مدائح، إلى أن اكتشف فكرة الإله الواحد فأصبحت مدائحه صلاة»¹.

هذا النوع من المديح عرف عند المصريين القدامى مكتوبا على ورق البردى يتوجه فيه الفلاح المصري إلى سيده الفرعون، كما عرف عند أهل الصين القدامى في كتبهم الدينية وملاحمهم مثل كتاب "كونفوشيوس" أو الهندية "الماها بهارتا" أو "الرمايانا". وعرف هذا المديح أيضا عند الفرس في كتابات "زرادشت".

وقد استمر هذا المديح عند اليونانيين، وهذا في الإلياذة والأوديسة حيث تتجلى معاني القوة والشجاعة والبطولة، وإشادة بالخير والعدل والحق. ثم يأتي القرن الخامس عشر ليقوم الانجليز والفرنسيون على لسان شعراء "التروبادو" منهم، يمجدون البسالة والشجاعة وكرم الأخلاق، ولم يتخلف عنهم الألمان والأسبان في مدح الزعماء والقواد والملوك².

1-3- المديح في الأدب العربي:

مثلما سبق و أن قلنا أن الأمم جميعا كانت تكرم عظماءها في أمور الدين والدنيا على السواء أما العرب فقد كانوا يرسمون إعجابهم وتقديرهم حينما كانوا يتوجهون إلى مادحيهم .

فالمديح يعتبر أبرز الفنون الشعرية عند العرب، رافق الشعر منذ نشأته الأولى فعلى الرغم من التطورات التي طرأت على العملية الشعرية ومن التبديل الذي أصاب الشعر من حيث المفاهيم والمقاييس، فإن المديح لم يغب في يوم من الأيام عن مسرح الشعر « بل ظل هو الأصل وسائر الفنون الشعرية هي الفرع. يتناوله الشعراء ويصرفون إليه كل عناية واهتمام كأنه استقر في أذهانهم أن الشاعر خلق ليكون مداحا، فإذا نظم شعرا في غير المدح كان كالرامي الذي يرمي سهاماً طائشة بعيدة عن إطار هدفها، فحلم كل شاعر أن يسخر عبقريته في هذا الاتجاه فيجعل شعره بابا للرزق ومفتاحا للثروة. إلى أن طبع الأدب العربي بطابع المديح وبات من الصعب أن نعثر على شاعر عربي من

¹ - إميل ناصف. أروع ما قيل في المديح . ص : 10.

² - المرجع نفسه . ص : 10 .

العباقر لم يصطنع المديح. لدرجة أن امتلأت الدواوين بهذا اللون وغدت قصائدها تشكل القسم الغالب في نتاج الشعراء¹.

1-4- عوامل نشأة فن المديح:

لقد نشأ فن المديح عند العرب، إعجاباً بالفضيلة وثناء على صاحبها، واهتزازاً أمام النبيل، وإكباراً للمرءة والشجاعة. ويكفي أن نقول أن لطبيعة الحياة الجاهلية آنذاك ونظم المعيشة الأثر في انتشار وذبوع هذا الفن. والإنسان بالفطرة يحب الإطراء مهما يكن قسطه من الفهم والعظمة، ومفطور على المجاملة تقرباً من الناس واكتساباً لودهم.

«والبدوي بالأخص. ذاتي في تصرفاته ومشاعره، شديد اليقظة والالتفات إلى ما يمس فرديته وعرضه، مرهف الحساسية، سريع التأثر،... غيوراً على شرفه وعرضه، وعلى ضيفه وعلى من يستجير به، حريصاً على الظهور أمام الناس بمظهر الرجل المحترم، والبطل الشجاع، والكريم الأبوي، يمتدح بين القوم، ويثني على خصاله وفعاله»².

وقد أخذ الشعراء يمتدحون شيوخ القبائل والأبطال فينسبون إليهم فضائل ذلك العصر من تسامح وحكمة وكرم ومرءة وإباء وعدل وشجاعة... إلخ، وهذا طبعاً كنتيجة من نتائج النظام القبلي السائد آنذاك.

فالمجتمع العربي في العصر الجاهلي هو مجتمع فروسية، فكانت القيم فيه جماعية أكثر منها فردية، فالشاعر يتغنى بالقيمة التي تحرص عليها التقاليد القبلية، ثم تطور الأمر بعد ذلك فأصبحت هذه القيمة محل تعلق الأفراد، وتحول المديح بالتالي إلى أن يكون ثناء موجهاً للفرد، يقول الدكتور شوقي ضيف: «إن الشعراء الجاهليين كان عندهم مديح واسع يمتدحون فيه مناقب قبائلهم وساداتهم. وكانوا كثيراً ما يمدحون القبيلة التي يجدون فيها كرم الجود متحدثين عن عزتها، وإبائها وشجاعة أبنائها وما فيهم من فتك بأعدائهم وإكرام لضيوفهم ورعاية لحقوق جيرانهم، وكان بعض السادة يمتد مآثرهم إلى من حولهم من القبائل فكان يتصدى لهم شعراؤها يمدحونهم بمكرماتهم التي أدوها كأن يفتكوا أسيراً على نحو ما فعل خالد بن أنمار بابن أخت المثقب العبدى، فكان جزاؤه منه مدحة جيدة»³.

¹ - إميل ناصف . أروع ما قيل في المديح. ص : 11 .

² - المرجع نفسه . ص : 11 .

³ - شوقي ضيف . تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي). ط2. دار المعارف، مصر، 1965. ص: 21.

والذي زاد الشعراء إقبالا على مديح الزعماء هو ما كان يحدث بين القبائل من تنافس في الشعر، فكل قبيلة تجرد شاعرها للذود عنها وامتداح قوادها وأبطالها والتغني بمآثرها .
ولعل من بين عوامل انتشار المديح في العصور الأدبية الأولى. وخاصة في مجتمعات الصحراء « تلك المقدسات التي كانوا يلتزمون بها من ضيافة وحسن الجوار والتي كان يلتزم بها كل عربي ويؤدي فروضها كاملة مهما يكن شأنه. وكان قضاء هذه الموجبات يترجم في معظم الأحيان مديحا للغير أو فخرا بالذات»¹ .

فالمديح في أول عهده مدرسة أخلاق تعمل على بلورة المثل العليا وترسيخها. وحض الناس على تشجيعها واحتمال كل ما تتطلبه من حزم وصبر وشدة .
فالقائد العربية المعروفة لن تخلو من مقطوعات يمدح فيها الشاعر قيمة من تلك القيم أو الفضائل التي حصرها قدامة بن جعفر في الشعر الجاهلي ورآها في العقل والعفة والعدل والشجاعة² .

فلم يكن المقصود من المديح كسب المال أو المنفعة الفردية كما يصير إليه الحال عندما يتخصص شعراء في هذا الفن، وحينما يتجه هذا الفن إلا الأفراد طلبا للنوال، يقول ابن رشيقي في هذا الشأن «وكانت العرب لا تتكسب بالشعر وإنما يصنع أحدهم ما يصنعه فكاهاة أو مكافأة عن يد لا يستطيع على أداء حقها إلا بالشكر إعظاما لها»³ .

فالشعراء وهم يتوجهون إلى ممدوحهم تتوفر فيهم هذه الميزات وهذه الخصال إنما يجعلونهم مثلا يقتدى به ورجلا كاملا تتبلور في شخصه هذه الفضائل .

2- تطور المديح في الأدب العربي عبر العصور:

2-1- في العصر الجاهلي:

في بادئ الأمر كان المديح عبارة عن شعر مناسبات ليس بمقدور المال أن يفياها حقها. إذ كان إقرارا بفضل أو إمعانا في شكر أو تقديرا لموقف، فالشاعر كان يجد نفسه مجبرا عن التعبير عن مشاعره وأحاسيسه دون جزاء أو معروف. وكان الناس يأخذون شعره

¹ - إميل ناصيف. أروع ما قيل في المديح. ص: 12.

² - ينظر: قدامة بن جعفر، أبو الفرج، نقد الشعر. تح: محمد عيسى منون. ط1. القاهرة، 1934م. ص: 39.

³ - ابن رشيقي، الحسن بن رشيقي القيرواني. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. ط1. مطبعة

السعادة، مصر، 1907م. ص: 49.

دليلاً يتناقضونه للتأكيد على قرب الممدوح من الفضيلة أو ابتعاد المهجو عنها. «كما كان الشعر الجيد من المديح يتحول إلى أمثال سائرة تتناقلها الأجيال»¹.
فقد قال امرؤ القيس بيتاً يمدح فيه بني تيم قوم المعلى الذي أحسن إليه وأجاره حين طلبه المنذر بن ماء السماء :

أقرَّ حشاً امرئ القيسِ بنِ حُجْرٍ بُنُو تيم مصابيحِ الظلامِ²

فمنذ ذلك اليوم قيل لبني تيم «مصابيح الظلام» .

والدليل على ابتعاد ذلك الشعر عن المادة ديوان زهير بن أبي سلمى الذي يدور أكثره على مدح هرم بن سنان بن عوف وغيرهما لإقافهما حرب داحس والغبراء بين قبيلتي عيس وذيبيان ودفعهما ديات القتلى من الطرفين والتي بلغت ثلاثة آلاف بعير .

ولم يكن شعر المديح وسيلة للتكسب إلا عندما يقال للممدوحين ما يرضي كبرياءهم من إرضاء لنزواتهم الإنسانية، فيعمدون إلى الهدايا والعطايا والأموال يغدقونها على الشعراء يستحثون قرائحهم لنظم الأشعار في التغني بأعمالهم. «فكان نتيجة ذلك أن ذاق الشعراء حلاوة العطاء، فانشغلوا به عن كل شيء وسهل عليهم أن ينظموا قصيدة من بضعة أبيات من الشعر ليتقاضوا لقاءها مبلغاً من المال يسد حاجتهم لفترة»³.

وبعد الشاعر النابغة الذبياني كبير شعراء التكسب في العصر الجاهلي. فهو أول من مهد طريق التكسب لمن جاء بعده. والذي لا يرقى إليه شك هو أن النابغة هو أول الشعراء الكبار الذين در عليهم شعرهم الثروة والنعيم. ويكفي الشاعر الجاهلي أنه يتكسب بشعره أفضل من السؤال، لأن عفة النفس عنده قبل كل شيء، ولا سيما عند زهير وطرفة والحطيئة. على خلاف الأعشى الذي شذ عن هذه القاعدة إضافة إلى النابغة، فإن الغالب على الشعر الجاهلي يظل بعده على التكسب .

2-2- في صدر الإسلام: بمجيء الإسلام خفت الشعر عامة. باستثناء شعر الكافرين الذين يناضلون الرسول، مما حدا بالرسول صلى الله عليه وسلم للذود عنه وعن الدين الجديد. فالنبي أبي أن يمدحه الشعراء إلا بما يتصف به ويدعو الناس إلى اعتناقه، مثل الخصال والفضائل التي

¹ - إميل ناصيف. أروع ما قيل في المديح. ص: 13.

² - امرؤ القيس، حجر بن الحارث الكندي. الديوان، تح: د: درويش الجويدي. (د،ط). المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، (د،ت). ص: 301.

³ - إميل ناصيف. أروع ما قيل في المديح. ص: 13.

تخدم الدين والرسالة التي أتى من أجلها « فالمديح مقبول، برأي النبي، مادام صادقا ويرمي إلى غاية سامية، ومادام لا ينجم عنه إلا الخير. أما إذا تحول إلى نفاق، فأقل ما يستحقه المداح هو أن يحثى في وجه التراب. وقد تدهورت منزلة المديح منذ بداية الإسلام نتيجة لتلك التطورات «¹.

فالشاعر أرفع منزلة من الخطيب في أول الأمر وهذا لحاجتهم إلى الشعر لتخليد المآثر، فلما تكسبوا به وتولوا به الأعراس، صارت الخطابة فوقه. «وهكذا كان الشاعر المتكسب محتقرا في عهد النبي والخلفاء الراشدين، فكان عمر بن الخطاب لا يكثر للمديح وقد صرف همه إلى تركيز الوحدة القومية والخروج بها وبالدين إلى ما وراء حدود الجزيرة العربية، وكان علي بن أبي طالب لا يرضى التزلف الذي يأتيه الشعراء في مدائحهم «². فالخلفاء الراشدون يؤكدون على قيمة الشعر ويرونه أفضل من المال.

2-3- في العصر الأموي: بانقضاء عهد الخلفاء الراشدين عادت الخصومات بين العرب مثلما كانت عليه في الجاهلية. فهناك أحزاب تتصارع بالسيف والكلمة. كما أنه لكل حزب شعراء ناطقون باسمه. مادحون زعماءه ومروجون لسياسته ويهجون خصومه. وبفعل هذه الأحداث والصراعات تحول الشعر من جديد إلى وسيلة للتكسب وخاصة على أيدي الخلفاء الأمويين الذين شجعوا هذا الاتجاه في الشعر وأغدقوا بسخاء على شعراء المديح الذين توافدوا إلى الشام من كل الأقطار المجاورة. فجمعوا حولهم أقطاب الشعر يبذلون لهم المال للدفاع عن سياستهم وإظهار حقهم في الخلافة إثر موقعة صفين. فكان الشاعر بمثابة الناطق الرسمي باسم هذا الحزب أو ذلك. مما دفع بالشعراء إلى التهافت على الخلفاء طامعين بلقب شاعر الخليفة، وإذا لم يبلغوا هذا المقام قنعوا بما دونه منصرفين إلى الولاة والحكام أو غيرهم يطلبون الثروة ويتوسلون الشفاعة لديهم للوصول إلى باب الخليفة. « فجيرير يمدح الحجاج أولا وتوسلا لبلوغ الخلفاء عبد الملك وسليمان ويزيد وهشام... لكنه يقصر عن مزاحمة الأخطل في احتلال المركز الأول في بلاط عبد الملك «³.

فكل هذه الظواهر أدت إلى نتائج سيئة في حياة الأدب العربي، فجعلت الشعر أسير المال مقيدا بقيود المادة لم يستطع أن يتخلص منها طوال مدة طويلة من الزمن، ونشأ من

¹ - إميل ناصيف. أروع ما قيل في المديح . ص : 15 .

² - المرجع نفسه . ص : 15 .

³ - المرجع نفسه . ص : 16 .

ذلك ثلة من الشعراء همهم التزاحم على أبواب أولياء الأمر، مكررين كل المعاني السابقة في المديح مما يؤدي بهم إلى الوقوع في فخ الكذب وهذا طبعا على حساب الذوق الأدبي وعزة وكرامة الشاعر والمستمع. ففي عهد بني أمية لم نلف أي شاعر لم يركب سفينة هؤلاء عدا شعراء الغزل مثل عمر بن أبي ربيعة أو جميل بن معمر وغيرهم .

2-4- في العصر العباسي: لقد تبوأ شعر المديح مكانة رائعة في الشعر العربي مع بداية العصر العباسي، فقد أصبحت سائر الأبواب تبدو إلى جانبه صغيرة«فقد تفرقت الدولة الإسلامية شيعا، وتقسم الملوك مناطق العالم الإسلامي، فازدادت موارد الرزق عند شعراء المديح وأصبح هم كل شاعر أن يسافر إلى أمير يكفيه، أو قائد يحميه. فرأينا أسماء بعض الشعراء تقترن بأسماء بعض الخلفاء والأمراء، من ذلك المتتبي وسيف الدولة، أبو تمام والمعتصم، البحتري والمتوكل...»¹. فالتكسب بلغ أشده في ذلك العصر. وبلغ في افتضاح أمره، حيث أن الجاحظ حذر الناس من الوقوع في شرك المتكسبين. فقصاصد المديح متشابهة تبدأ بالنسيب ثم تذكر الطريق التي سلكها الشاعر لبلوغ الممدوح والصعوبات التي اعترضته، والنوق التي أقلته حتى وصوله إلى ممدوحيه .

وبالتالي ظل المديح آخذا بمقدمة الشعر العربي حتى ضيع عليه الكثير من المعاني الإنسانية وصرفه عن مواطن فنية كان قادرا على اكتشافها والإبداع فيها .

2-5- بعد العصر العباسي: بانتقال المسلمين إلى الأندلس انتقل المديح إليها وأخذ الشعراء يقدون أساليب المشاركة. والذي ساعد على ازدهار شعر المديح هو ما حصل من تفرق الدويلات في عهد ملوك الطوائف. وتنافس الأمراء على احتضان أرباب الشعر والكلمة.«أما في عصر الانحطاط فقد ألح الشعراء على القديم وعادوا يكررونه دون تبديل في صورته ومعانيه حتى سقط الشعر على أيديهم كما سقط العالم السياسي للمسلمين في ظلمات داجية»².

وفي القرن العشرين عادت جذوة المديح إلى النفوس، ففي مصر نشأ شعراء الملوك والخلفاء يتجهون حيناً إلى قصور الآستانة وآخر إلى قصور القاهرة. أما في لأدب الحديث فإنه يمجّد شعراء إجمالاً لما اقترن به خلال العصور من ألوان التكسب والتذلل .

¹ - إميل ناصيف . أروع ما قيل في المديح . ص : 17 .

² - المرجع نفسه . ص : 17 .

3- المديح الديني: لعل المتصفح للكتب الدينية يلاحظ ذلك الإكثار من ذكر الله تعالى و بيان معجزاته، والاعتراف بفضله على المخلوقات. وبالتالي جعل الشعراء منذ القيم يسرون على تقديسه من خلال لجوئهم إلى الطبيعة كسر من أسرار جماله وعظمته. قال حسان بن ثابت:

تَعَالَيْتَ رَبُّ النَّاسِ عَنِ قَوْلِ مَنْ دَعَا سِوَاكَ إِلَهًا أَنْتَ أَعْلَى وَأَمَجْدُ¹

ثم نجد أبا العتاهية يرى عظمة الخالق- عز وجل- في كل شيء يقول:

وَأَنْتَ مَعْرُوفٌ وَلَسْتَ بِمَوْصُوفٍ وَأَنْتَ مَوْجُودٌ وَلَسْتَ بِمَحْدُودٍ
وَأَنْتَ رَبٌّ لَا تَزَالُ، وَلَمْ تَزَلْ قَرِيبًا بَعِيدًا، غَائِبًا، غَيْرَ مَفْقُودٍ²

وكان أغلبية الشعراء يشاركون في هذا المدح الديني حتى تطور فأضحى أقرب إلى النسب مع شعراء المتصوفة الذين مزجوا الفلسفة والعقل في شعرهم. رغم هذا لم يتطور هذا الشعر كما تطور في مديح النبي محمد خاتم الأنبياء صلی اللہ علیہ وسلم، وفي الثناء على رسالته التي جاء بها والاعتزاز بفضله والإشادة بمحامده .

كما لا يخفى على كل واحد منا أن المديح كان يقال للملوك والزعماء تمجيذا للقوة والعظمة وهذا بغية نيل غرض دنيوي ومكسب مادي، وكان الإنسان يعتقد بوجود الآلهة. فكان يتوجه بصلواته لها بهدف الرضى والتقرب والتماس المغفرة بقوله: «أيها الإله الأعظم» وفي ذلك خضوع وخشوع للآلهة ولرجل الدين وقوام المدح في هذا المقام هو الوازع الديني، وهذا ما عرف عند قدماء المصريين³ .

كما نقرأ في الأساطير الصينية والهندية مثل "كونفوثيروس" أو "مهابهارتا" أو "الراماينا" يسيطر عليها الاحترام والتقدير .

وورد في التوراة خضوع لملك الملوك ودعوة إلى تقديس البطولة وإكبار الزعامة. وفي مزامير داوود صلاة تتوجه إلى الله منها هذا المقطع «أنت مالك كل امرئ، لأنك واضعي بيدك في

¹-حسان بن ثابت الأنصاري.الديوان. تح: وليد عرفات، ج1. طبعة أمناء سلسلة جب التذكارية، (د،ت). ص: 306 .

²-أبو العتاهية، إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان العنزي.الديوان، شرح:د/وفاء الباني قمر، بإشراف: حنا الفاخوري. ط1. دار الجيل للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1424هـ-2004م . ص:72

³- سامي الدهان .المديح. ط4 . دار المعارف ، القاهرة ، 1980م . ص : 09

بطن أمي، أحمدك، أشكرك فقد أتيت بالأعاجيب في خلقي، كونت عظامي في الخفاء، وصنعتني على عينيك... أنا لا أحصى نعمك فهي أكثر عددا من الرمل»¹ .
فهذا المديح ديني اقتبس الشعراء منه والمادحون .

وفي الآداب اليونانية أساطير تسرد سير الحروب، وانتصارات الأبطال وتمجد الشجاعة وتشيد بالخير والصلاح. فاشتهرت الإلياذة* والأوديسة** .
أما في أدبنا العربي فيمكن لنا ذكر:

3-1- مديح العزة الإلهية: عرف عند العرب منذ البعثة المحمدية، فكان جل جلاله معشوقا والشاعر المادح عاشقا، وكان اسم المصطفى يطغى على القصيدة باعتباره رمز الله .
يقوم الشعر الديني على ثلاث دعائم "الغزل العذري والخمريات والرمز"، فكان ينظم على شكل غزل وخمريات في المعاني والألفاظ، عماده وجوهره أشبه بحالة السكر تفيض على قلوب المحبين إلا أن سكر الخمرة زائل وسكر المحبة ذاتي لازم² .

كما أن مديح العزة الإلهية يمكن اعتباره ضربا من ضروب الشعر الديني، فهو قائم على الحب الإلهي ويعرف في عرف أصحابه بأنه حالة ذوقية أشبه بالسكر، فالموقف الصوفي يقوم على أساس تغييب الذات، للوصول إلى حالة تتحد فيها المعاني والصور والأشكال والعروج إلى المطلق غاية الصوفي والسكر طريقة. فالخمرة مجرد تلويح إلى معاني خاصة تدور على المحبة الإلهية ووصف الوجد الروحي، خمرة مقدسة ترتبط

¹ - سامي الدهان . المديح . ص : 09 .

***الإلياذة:** هي ملحمة شعرية يونانية تحكي قصة حرب طروادة وتعتبر مع الأوديسا أهم ملحمة شعرية إغريقية للشاعر الأعمى هوميروس المشكوك في وجوده أو أنه شخص واحد الذي كتب الملحمة ، وتاريخ الملحمة يعود إلى القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد . وهي عبارة عن نص شعري، ويقال أنه كتبها مع ملحمة الأوديسا، وقد جمعت أشعارها عام 700 ق.م بمدة مائة عام من وفاته وتروي قصة حصار مدينة طروادة .

****الأوديسة:** هي ملحمة شعرية وضعها هوميروس في القرن الثامن قبل الميلاد. وتتكون من 24 جزءا .

تبدأ الملحمة من منتصف القصة، ثم تروي ما حدث بالبداية وتنتهي بوصول البطل إلى الجزيرة .

² - غازي شبيب. فن المديح النبوي في العصر الملوكي، أشرف عليه وراجعه: ياسين الأيوبي. ط1. المكتبة

العصرية، صيدا، بيروت، 1998م. ص: 34 .

بالتجلي والمشاهدة¹.

وأشهر شعراء المتصوفة: السهر وردي(ت587هـ)،ابن الفارض (ت632هـ)، وابن عربي(ت638هـ) وأبو العباس المرسي(ت686هـ) و العفيف التلمساني(ت690هـ)، وابن عطاء السكندري (ت709هـ) وغيرهم .

يقول الأعشى متضرعا إلى الخالق لطلب الخلق، فبيده التعويض عما تلف :

أَلَمْ تَغْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةً أَرْمَدَا وَعَادَاكَ مَا عَادَ السَّلِيمَ الْمُسَهَّدَا
وَمَا ذَاكَ مِنْ عَشْقِ النَّسَاءِ وَإِنَّمَا تَنَاسَيْتَ قَبْلَ الْيَوْمِ خُلَّةَ مَهْدَدَا
وَلَكِنْ أَرَى الدَّهْرَ الَّذِي هُوَ خَاتِرٌ إِذَا أَصْلَحْتَ كَفَّايَ عَادَ فَأَفْسَدَا
شَبَابٌ وَشَيْبٌ، وَافْتِقَارٌ وَثَرْوَةٌ فَلِلَّهِ هَذَا الدَّهْرُ كَيْفَ تَرَدَّدَا²

فهذا الشعر الديني قائم على حب الله، والوفاء له والإخلاص له والممزوج بالحمد والدعاء والمناجاة والتوسل.

يقول مالك بن المرحل في حمد الله :

حَمْدُ الإِلهِ وَاجِبٌ لِدَاتِهِ وَشَكَرُهُ عَلَى عِلَا هَبَاتِهِ
نَحْمُدُ سُبْحَانَهُ وَنَشْكُرُهُ وَمِنْ ذُنُوبٍ سَلَفَتْ نَسْتُغْفِرُهُ
ثُمَّ نَوَا إِلَى فَضْلِ الصَّلَاةِ عَلَى الرُّسُولِ الطَّاهِرِ الصِّفَاتِ
مُحَمَّدٌ ذِي الكَلِمِ الفَصِيحِ وَالفَضْلُ وَالتَّقْدِيسُ وَالتَّسْبِيحُ
صَلَّى عَلَيْهِ رَبُّنَا وَ سَلَّمَ كَمَا هَدَى بِنُورِهِ وَ سَلَّمَ³

فشعر التصوف ضرب من التضرع لطلب القرب.ومما جاء في معناه .

أ-لغة: وسل فلان إلى الله وسيلة إذا عمل عملا تقرب به إليه، والواصل: الراغب إلى الله وتوسل إليه بوسيلة إذا تقرب إليه بعمل...وفي حديث الآذان: اللهم آت محمدا الوسيلة، هي في الأصل ما يتوصل به إلى الشيء، ويتقرب به وقيل هي الشجاعة يوم القيامة،

¹- ينظر: صونيا بوعبد الله . قصيدة المديح النبوي بالمغرب الأوسط في القرنين 8-9 الهجريين . رسالة الماجستير.إشراف د/علي عالية، جامعة باتنة،2011م .ص: 36 .

²- الأعشى، ميمون بن قيس.الديوان. دار بيروت للطباعة والنشر، لبنان، 1406هـ-1986م. ص: 45 .

³- مالك بن عبد الرحمن المالقي الأندلسي.الديوان، تح:عبد الله بن محمد، مراجعة محمد الحسن الدد والشنقيطي. ط1. دار الذخائر للنشر والتوزيع، الرياض،2003م. ص:42 .

وقيل هي منزلة من منازل الجنة¹.

ب- اصطلاحاً: عرف من طرف الفقهاء بأنه يكون بتقوى الله والإيمان بالرسول، وطاعته، وذكروا صيغته، وأدعيته، يكون التوجه فيها للخالق.

يقول ابن تيمية:

إِلَهِي تَرَى حَالِي وَفَقْرِي وَفَاقَتِي وَأَنْتَ مَنَاجَاةُ الْحَقِيقَةِ تَسْمَعُ
إِلَهِي لَنْ خَيْبَتِي وَطَرْدَتِي فَمَنْ ذَا الَّذِي أَرْجُو سِوَاكَ فَيُدْفَعُ²

يمكن تصنيف موضوعات التوسل إلى صنفين: صنف يتصل بالشاعر، يعالج همومه: طلب العفو والستر، وقضاء الحاجة، وحسن الختام، والأمن من الخوف، ودفع المصائب، والكوارث، وغير ذلك مما يعترض الإنسان في حياته الخاصة، والعامّة. وصنف: يتصل بالجماعة التي تحيط بالشاعر، ويمجتمعه، والمسلمين على العموم، كونهم يعانون ما يعانيه فيلتمس من الله أن يفرج كربهم. لأنه صاحب الملكوت الحي الذي لا يموت، يقول حسان بن ثابت:

وَأَنْتَ إِلَهُ الْحَقِّ رَبِّي وَخَالِقِي بِذَلِكَ مَا عُمِّرْتُ فِي النَّاسِ أَشْهَدُ
تَعَالَيْتَ رَبَّ النَّاسِ عَنْ قَوْلِ مَنْ دَعَا سِوَاكَ إِلَهًا، أَنْتَ أَعْلَى وَأَمْجَدُ
لَكَ الْخَلْقُ وَالنَّعْمَاءُ وَالْأَمْرُ كُلُّهُ فَيَاكَ نَسْتَهْدِي وَ إِيَّاكَ نَعْبُدُ³

فقد تميزت مدائح حسان بن ثابت ومرثيته ببكاء الأرض والتشوق لرؤية النبي والفرديوس الأعلى، هي نزعة دينية صوفية تتم على الهدى والرشد، وهو نوع من الوعي الكوني وإدراك سماوي غيبي يحسه القلب:

نورًا أضَاءَ عَلَى الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا مَنْ يُهْدِي لِلنُّورِ الْمُبَارِكِ يَهْدِي
يَا رَبُّ فَاجْمَعْنَا مَعًا وَنَبِيَّنَا فِي جَنَّةِ تَنْبِي عِيُونَ الْحُسَدِ
فِي جَنَّةِ الْفَرْدُوسِ وَاكَتَبْنَا لَنَا يَا ذَا الْجَلَالِ وَذَا الْعُلَا وَالسُّودِ⁴

إن حب الرسول الكريم كان له أثره البالغ عن طريق الرؤية والسماع وحتى إن كان الغياب يبقى الحاضر الغائب لما عرف عنه من التفرد في شخصيته والتميز جعل منه من عظماء

¹ - ابن منظور. لسان العرب، مادة: وسل .

² - ابن تيمية، تقي الدين أحمد . قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة. (د، ط). بيروت ، (د، ت). ص: 170.

³ - حسان بن ثابت الأنصاري. الديوان . ص: 306 .

⁴ - المصدر نفسه . ص: 209 .

التاريخ. حتى أعداؤه وقت البعثة يقرون بمكانته، فقد وصفه أبو سفيان-قبل إسلامه- فقال: « ما رأيت أحدا يحبه الناس كحب أصحاب محمد محمدا »¹.

3-2- المديح الديني السياسي:

وقد ارتبط بمدح آل البيت وأمور الخلافة وما كان من صراع، فأثارت هذه الأحداث المؤلمة عاطفة الشعراء المتشيعين واستمدوا من استشهاد الحسين بن علي وتوالي المصائب على آل البيت فكانت الأشعار التي تلقى في عاشوراء في رثاء الإمام الحسين- رضي الله عنه- إحياء للذكرى بدموع تعبر عن حبه الشديد له كذلك ما كتبه ابن هاني في مدح الفاطميين. حيث قال في مدح المعتر لدين الله الفاطمي:

مَا شِئْتَ لِأَمَّا شَاءَتْ الْأَقْدَارُ فَاحْكُمُ فَأَنْتَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ²

ومن أعلام المديح الديني السياسي: الفرزدق، الكميت بن زيد، دعبل الخزاعي، والشريف الرضي...

3-3- المديح النبوي: كانت حياة العرب قبل مجيء الإسلام عبارة عن قبائل تتصارع وتتناحر. فلما ظهر النبي محمد دعا إلى وحدة العرب واجتماعهم تحت راية الإسلام لينفذهم من فوضى تعكر صفو حياتهم. وهزت تلك الدعوة المحمدية الممالك المجاورة فوفقت بين مصدقة ومكذبة ووقف الشعراء منها موقف الدفاع أو الهجوم.

فالمدافعون عن الرسالة النبوية امتدحوا خصال النبي وشمائله وغدا مديحهم أشبه بمديح الأجراد والكرماء من رؤساء القبائل، يخلو من ذكر الدين والتقوى والأخلاق. على غرار كعب بن زهير الذي مدح النبي بقصيدة سارت على الزمان وقلدها الشعراء على مر العصور، يعتذر فيها من النبي ويطلب عفوه لما بدر منه حيث قال:

إِنَّ الرَّسُولَ نَوْرٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ مَهْدٌ مِنْ سَيُوفِ اللَّهِ مُسْتَوْلُ³

وبالتالي يكون قد بلغ منتهى المديح العربي القديم، حيث جمع الكرم والعتو والتسامح والشجاعة والوقار والسيادة والقداسة في شخصية محمد صلى الله عليه وسلم.

¹ - محمد قطب . واقعنا المعاصر.(د،ط) . مكتبة رحاب الجزائر، (د ، ت) . ص :23.

² - ابن هاني، أبو القاسم محمد بن هاني الأزدي الأندلسي. الديوان. دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1405هـ- 1985م .ص: 146.

³ - عبد عون الروضان . موسوعة شعراء صدر الإسلام والعصر الأموي. دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن،(د،ت) . ص : 273 .

ثم انبرى حسان بن ثابت يدافع عن النبي وعن دعوته الجديدة فإذا رسالته هدى للناس:

وأحسنُ منك لم ترَ قطُّ عيني، وأجملُ منك لم تلِدِ النساءُ
خُلِقَتْ مبراً من كلِّ عيبٍ كأنك قد خُلِقْتَ كما تشاء¹

وسار الشعراء على منوال حسان بن ثابت. حتى القرن السابع الهجري، حيث وضع محمد بن سعيد البوصيري قصيدته الهمزية الشهيرة التي زادت على أربعمائة بيت فيها حياة النبي ومزاياه ومعجزاته، ورسم مولده في ليلة غراء وضعت فيها أمه آمنة بنت وهب. ثم ينتقل إلى وصفه كرجل في قصيدة أخرى يقول فيها:

كالزهرِ في ترفٍ والبدرِ في شرفٍ والبحرِ في كرمٍ والدهرِ في همم²

وهذه القصيدة الميمية سميت «البردة» فحفظتها الأجيال الإسلامية، وتولتها المطابع، وشرحها الشارحون، وعارضها الشعراء على مدى العصور.

وكان الاهتمام بالموضوع على مدى العصور لما فيه من التبرك والتضرع فلا عجب لهذا الكم الهائل من القصائد لأن فيه أجران: أجر الصلاة وهو الامتداح وأجر الإجابة والتحسين³. فقد أتت المدائح النبوية لمعارضة تيار اللهو والمجون. كما يمثل دعوة إلى التمسك بالدين، أشهر أعلامه: البوصيري (ت696هـ)، وابن معتوق (ت707هـ)، ابن نباتة المصري (ت710هـ)، الشهاب محمود الحلبي (ت725هـ).

كما كان للمديح النبوي صيت ذائع له شعراؤه ومتلقوه في العصر المملوكي، وتعد "الكواكب الدرية في مدح خير البرية" للبوصيري (ت696هـ) من أبداع وأروع ما نظمه الأدباء الشعراء في المديح النبوي ومن أجود ما تفتقت به أذهانهم في بلاد المغرب الإسلامي في القرن السابع الهجري. وقد تأثر ببردة البوصيري في العصر الحديث أحمد شوقي في همزيته المعروفة.

وُلِدَ الْهُدَى فَالْكَائِنَاتُ ضِيَاءٌ وَفمُ الزمانِ تَبَسُّمٌ وَثَنَاءٌ⁴

¹ -حسان بن ثابت الأنصاري. الديوان . ص : 19 .

² -البوصيري، محمد بن سعيد. الديوان، شرح وتعليق: د: محمد التونجي. ط1. دار الجيل، بيروت، لبنان، 2002م. ص: 427 .

³ - ينظر: محمد أحمد درنيقة. معجم أعلام شعراء المدح النبوي، قدم له وضبط أشعاره: ياسين الأيوبي. ط1. دار مكتبة الهلال، بيروت، لبنان، 1996م . ص : 10 .

⁴ - أحمد شوقي. الشوقيات. ط1. دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (د،ت) . ص : 34.

وكذلك "تهج البردة" التي تقع في تسعين ومائة بيت ومطلعها :

رِيْمٌ عَلَى الْقَاعِ بَيْنَ الْبَانِ وَالْعُلْمِ أَحَلَّ سَفْكَ دَمِي فِي الْأَشْهُرِ الْحَرَمِ¹

ويمكننا القول أن الشعراء المغاربة سباقين إلى الاحتفال بمولد النبي عليه الصلاة والسلام، فكانت قصائدهم ذكرا لمناقبه الفاضلة وسيرته العطرة والوقوف على الأماكن المقدسة.

فقد كانوا يستفتحون قصائدهم بمقدمات غزلية صوفية، يتشوقون فيها إلى زيارة الحرم النبوي طالبين الشفاعة يوم القيامة لتنتهي القصيدة بالدعاء والصلاة عليه.

ومن أشهر الشعراء المغاربة الذين عرفوا بالمديح النبوي مالك بن المرحل* في قصيدة يعارض فيها البوصيري.

شَوْقٌ كَمَا رُفِعَتْ نَارٌ عَلَى عِلْمِ تَشَبُّبٌ بَيْنَ فُرُوعِ الضَّالِّ وَالسَّلَامِ²

وله الهمزية في مدح خير الأنبياء:

المصطفى اهتديت عزّ ثنائي فيا طيب إهدائي وحسن هدائي

أزاهيرُ روضِ تجتني لعطارة وأسلاكُ درِ مصطفى لصفاء

ويبرز انفعال الشاعر لذكر النبي محمد صلى الله عليه وسلم في الصلاة عليه قوله:

وَصَلِّ يَا رَبِّ عَلَى خَيْرِ الْأَنَامِ وَحْيِهِ عَنِّي بِأَطْيَبِ السَّلَامِ

ثُمَّ عَلَى الصَّحَابَةِ الْأَخْيَارِ مَا دَامَ ذَكَرَ رَبَّنَا الْغَفَّارِ³

وإذا كان الشعراء قد امتدحوا الرسول ونبوته، « فقد امتدحوا آله وأهل بيته، يدفعهم الألم والحرمان في كثير من الأحيان، فأظهروا عاطفة الدين ممزوجة بعاطفة السياسة، وقد

¹ - أحمد شوقي . الشوقيات، مجلد 3 . ص : 191 .

* مالك بن المرحل: هو أبو الحكم مالك بن عبد الرحمن المالقي الأندلسي، كان إمام وقته وأديب زمانه، وشاعرا مطبوعا سريع البديهة ولد سنة 604هـ بمالقة وتوفي في 699هـ، وله قصيدة تزيد عن ألفي بيت وسماها "التبيين والتبصير في نظام كتاب التسيير" وله كذلك "الوسيلة" نظم، وأرجوزة في النحو، و"الواضحة"، نظم في العرائض، وديوان شعر، ومن أشهر آثاره العلمية "موطأ الفصيح" في نظم فصيح ثعلب النحوي الشيباني الشهير بابن المرحل. ينظر ترجمته في: الإحاطة ج3. لسان الدين بن الخطيب. ص: 303 وما بعدها.

² - مالك بن المرحل . ديوان موطأ الفصيح . صص: 09-10 .

³ - المصدر نفسه . ص : 30 .

الفصل الأول:- فن المديح: النشأة والتطور

ألحوا على تصوير الفواجع التي أَلمت بأهل البيت كمقتل الحسن والحسين وإحياء تلك الذكرى في المآتم¹ .

فجرى شعرهم في الدواوين كما جرت الدماء في تلك الفواجع.

ولن نوفي حق هؤلاء الشعراء في مديح النبي ﷺ، لأن ذلك يطول، بل نؤكد أن الشعراء اتجهوا إلى نبيهم كلما ضاقت بهم الدنيا وأحاطت بهم الأحداث ونالتهم المصائب والكوارث .

¹ - إميل ناصيف، أروع ما قيل في المديح .ص: 25 .

4- فن المديح النبوي، نشأته وتطوره ودوافعه:

4-1- النشأة والتطور: المدائح النبوية؛ فضلاً عن أهميتها الإبداعية كمنط جوهري من أنماط الشعر العربي؛ تعد بمثابة خيوط نورانية تصل ماضي الأدب العربي بحاضره، فهي لون أدبي خاص، ينفرد بأنه لون عميق الأصالة، قادر على الاستفادة من مستجدات العصر والمذاهب الأدبية الوافدة والمستحدثة من دون أن يتغير طابعه الأساسي، ومن دون أن يفقد جذوره وعراقته وملامحه المميزة. ولا شك في أن المدائح النبوية قد تطورت؛ وتتطور؛ شأنها شأن سائر الأنماط والألوان الأدبية، وقد ساهم في تطويرها وإنضاجها دخول شعراء كبار إلى ميدان الإنشاد الديني والمديح النبوي عبر عصور مختلفة؛ بدءاً بحسان بن ثابت وكعب بن زهير ومروراً بالشريف الرضي والبوصيري.

أول ما ظهر من شعر المديح النبوي ما قاله عبد المطلب إبان ولادة محمد صلى الله عليه وسلم، إذ شبه ولادته بالنور والإشراق الوهاج الذي أنار الكون سعادة وحبوراً، يقول **عبد المطلب**:

وَأَنْتَ لَمَّا وُلِدْتَ أَشْرَقْتَ الْأَرْضُ وَضَاءَتْ بِنُورِكَ الْأُفُقُ
فَنَحْنُ فِي ذَلِكَ الضِّيَاءِ وَفِي النُورِ وَسُبُلِ الرَّشَادِ نَخْتَرُقُ¹

وتعود أشعار المديح النبوي إلى بداية الدعوة الإسلامية مع قصيدة "طلع البدر علينا"، وقصائد شعراء الرسول صلى الله عليه وسلم كحسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وكعب بن زهير صاحب اللامية المشهورة:

بَانَتْ سَعَادُ قَلْبِي الْيَوْمَ مَتَّبُولُ مَتِيمٌ إِثْرَهَا لَمْ يَفِدْ مَكْبُولُ²

وقد استحقت هذه القصيدة المدحية المباركة أن تسمى بالبردة النبوية؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كسا صاحبها ببردة مطهرة تكريماً لكعب بن زهير وتشجيعاً للشعر الإسلامي الملتزم الذي ينافح عن الحق وينصر الإسلام وينشر الدين الرباني ونستحضر قصائد شعرية أخرى في هذا الباب كقصيدة الدالية للأعشى التي مطلعها:

أَلَمْ تَعْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةَ أَرْمَدَا وَعَادَاكَ مَا عَادَ السَّلِيمُ الْمُسَهَّدَا³

¹ - ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري . أسد الغابة في معرفة الصحابة،

ج1. تحقيق: عادل أحمد الرفاعي. ط1. بيروت، لبنان، 1417هـ - 1996م. ص: 119.

² - كعب بن زهير . الديوان . قراءة: د. محمد يوسف نجم ، دار صادر، بيروت، لبنان. ص: 84.

³ - الأعشى . الديوان . ص: 45 .

ومن أهم قصائد حسان بن ثابت في مدح النبي الكريم عينيته المشهورة في الرد على خطيب قريش عطار بن حاجب .

إِنَّ الذَّوَابَّ * مِنْ فَهْرٍ وَإِخْوَتِهِمْ قَدْ بَيَّنَّا سُنَّةَ لِلنَّاسِ تَتَّبِعُ¹

ولا ننسى همزيتة المشهورة في تصوير بسالة المسلمين ومدح الرسول ﷺ والإشادة بالمهاجرين والأنصار والتي مطلعها:

عَفَّتْ ذَاتُ الْأَصَابِعِ فَالْجَوَاءُ إِلَى عَذْرَاءٍ مَنْزِلَهَا خَلَاءُ²

ومن أهم شعراء المديح النبوي في العصر الأموي الفرزدق ولاسيما في قصيدته الرائعة الميمية في مدح زين العابدين والتي نوه فيها بآل البيت واستعرض سمو أخلاق النبي الكريم وفضائله الرائعة، ويقول في مطلع القصيدة:

هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ * * وَطَأْتَهُ وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالْحُلُّ وَالْحَرَمُ³

وقد ارتبط مدح النبي ﷺ بمدح أهل البيت وتعداد مناقب بني هاشم وأبناء فاطمة كما وجدنا ذلك عند الفرزدق والشاعر الشيعي الكمي الذي قال في بائيته:

طَرِبْتُ وَمَا شَوْقًا إِلَى الْبَيْضِ أَطْرُبُ وَلَا لَعَبًا مَنِّي وَذُو الشُّوقِ يُلْعَبُ⁴

ويندرج ضمن هذا النوع من المدح تائية الشاعر الشيعي دعبل الخزاعي التي مدح فيها أهل البيت قائلاً في مطلعها:

مَدَارِسُ آيَاتٍ خَلْتُ مِنْ تَلَاوَةٍ وَمَنْزِلٌ حَيٍّ مَقْفَرُ الْعَرَصَاتِ⁵

ويذهب الشريف الرضي مذهب التصوف في مدح الرسول ﷺ وذكر مناقب أهل البيت وخاصة أبناء فاطمة الذين رفعهم إلى مرتبة كبيرة من التقوى والمجد كما في داليتة:

شَغَلَ الدَّمْعُ عَنِ الدِّيَارِ بِكَأُونَا لِبِكَاءِ فَاطِمَةَ عَلَى أَوْلَادِهَا⁶

* الذَّوَابَّ: الأعالى والمقصود هنا: السادة-و فهر أصل قريش هو فهر بن غالب بن الضر بن كنانة.

¹-حسان بن ثابت الأنصاري. الديوان . ص :232.

*البطحاء:هي أرض منبطقة في وسطها مكة.

²-حسان بن ثابت الأنصاري. الديوان. ص :11 .

³- الفرزدق . الديوان، مجلد2. دار صادر.ص:178.

⁴- الكمي بن زيد . الهاشميات. ص:27 .

⁵-دعبل بن علي الخزاعي.الديوان.تح:إبراهيم الأميوني.ط1.دارالكتب العلمية،لبنان،1998/1418.ص:52

⁶-الشريف الرضي، الديوان،مجلد2، شرح:يوسف شكري فرحات.ط1.دار الجيل، بيروت،لبنان،1415هـ/1995م. ص:68.

ويقول أيضا في لاميته الزهدية المشهورة التي مطلعها:

راحل أنت والليالي نزول، ومضر بك البقاء الطويل¹

وللشاعر العباسي مهيار الديلمي عشرات من القصائد الشعرية في مدح أهل البيت والإشادة بأخلاق الرسول ﷺ وصفاته الحميدة التي لا تضاهى ولا تحاكي.

ولكن يبقى البوصيري الذي عاش في القرن السابع الهجري من أهم شعراء المديح النبوي ومن المؤسسين الفعليين للقصيدة المدحية النبوية والقصيدة المولدية كما في قصيدته الميمية الرائعة التي مطلعها :

أمن تذكر جيرانٍ بذِي سلمٍ مزجت دمعًا جرى من مقلّةٍ بدمٍ
أم هبت الریح من تلقاءِ كاظمةٍ وأومضَ البرقُ في الظلماءِ من إضْمٍ²

وقد عورضت هذه القصيدة من قبل الكثير من الشعراء القدامى والمحدثين والمعاصرين، ومن أهم هؤلاء الشعراء ابن جابر الأندلسي في ميميته البديعية التي استعمل فيها المحسنات البديعية بكثرة في معارضته الشعرية التي مطلعها :

بطيبةٍ انزلٍ ويممٌ سيد الأمم وانشر له المدح وانثر أطيّب الكلم³

ومن الشعراء الذين طرّقوا غرض المديح النبوي الشاعر ابن نباتة المصري فقد ترك لنا خمس قصائد في المديح النبوي كهمزيته التي مطلعها:

شجونٌ نحوها العشاقُ فاءوا وصبّ ما له في الصبرِ راء⁴

ورائيته التي مطلعها:

صحا القلبُ لولا نسمةً تتخطرُ ولمعةٌ برقٍ بالغضا تتسعز⁵

¹ - الشريف الرضي ، الديوان . ص : 168.

² - البوصيري . الديوان . ص:420 .

³ - ابن جابر الأندلسي ، محمد بن أحمد بن علي . ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين أو الغين في مدح سيد الكونين، تحقيق: أحمد فوزي الهيب. ط1. دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، 1426هـ- 2005م . ص : 491 .

⁴ - ابن نباتة المصري، الشيخ جمال الدين الفاروقي . الديوان . دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان. ص:01.

⁵ - المصدر نفسه . ص: 180.

وعينيتها التي مطلعها :

يا دارَ جيرتنا بسفح الأجرع ذكركِ أفواهُ الغيُوثِ الهمع¹

ولاميته التي مطلعها: ما الطرفُ بعدكمُ بالنومِ مكحولُ هذا وكَمَ بيننا من ربعكمُ ميل²

والميمية التي مطلعها:

أوجزُ مديحكُ فالمقامُ عظيمُ من دونه المنثورُ والمنظوم³

4-2- شعر المديح النبوي في الأدب المغربي والأندلسي:

وإذا انتقلنا إلى الأدب المغربي لرصد ظاهرة المديح النبوي، فقد كان الشعراء المغاربة سباقين إلى الاحتفال بمولد النبي صلى الله عليه وسلم ونظم الكثير من القصائد في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وتعداد مناقبه الفاضلة وذكر صفاته الحميدة وذكر سيرته النبوية الشريفة وذكر الأمكنة المقدسة التي وطئها نبينا المحبوب. وكان الشعراء يستفتحون القصيدة النبوية بمقدمة غزلية صوفية يتشوقون فيها إلى رؤية الشفيح وزيارة الأمكنة المقدسة ومزارات الحرم النبوي الشريف، وبعد ذلك يصف الشعراء المطية و حال المواكب الزاهية لزيارة مقام النبي الزكي، وينتقل الشعراء بعد ذلك إلى وصف الأماكن المقدسة ومدح النبي صلى الله عليه وسلم مع عرضهم لذنوبهم الكثيرة وسيئاتهم العديدة طالبين من الحبيب الكريم الشفاعة يوم القيامة لتنتهي القصيدة النبوية بالدعاء و التصلية .

ومن أهم الشعراء المغاربة الذين اشتهروا بالمديح النبوي نستحضر مالك بن المرحل كما في ميميته المشهورة التي يعارض فيها قصيدة البوصيري الميمية:

شوقٌ كما رُفعتْ نارٌ على علمٍ تشبُّ بينَ فروعِ الضالِّ والسلم⁴

ويقول في قصيدته الهمزية مادحا النبي صلى الله عليه وسلم :

إلى المصطفى أهديتُ غرَّ ثنائي فيا طيبَ إهدائي وحسنَ هدائي

أزاهيرُ روضِ تجتني لعطارة وأسلاكُ درِّ تُصنفي لصفاء⁵

¹ - ابن نباتة المصري . الديوان . ص:290 .

² - المصدر نفسه . ص:372 .

³ - المصدر نفسه . ص:428 .

⁴ - لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة ، ج3. ص : 315.

⁵ - المصدر نفسه . ص:362 .

ونذكر إلى جانب عبد المالك بن المرحل الشاعر السعدي عبد العزيز الفشتالي الذي يقول في إحدى قصائده الشعرية:

مُحَمَّدٌ خَيْرُ الْعَالَمِينَ بِأَسْرِهِا وَسَيِّدُ أَهْلِ الْأَرْضِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجَانِ¹

أما القاضي عياض* فقد خلف مؤلفات عديدة وقصائد أغلبها في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم والتشوق إلى الديار المقدسة كما في قصيدته الرائية:

قَفْ بِالرَّكَابِ فَهَذَا الرَّيْعُ وَالِدَارُ لَاحَتْ عَلَيْنَا مِنَ الْأَحْبَابِ أَنْوَارُ²

ومن شعراء الأندلس الذين اهتموا بالمديح النبوي وذكر الأماكن المقدسة لسان الدين بن الخطيب الذي يقول في قصيدته الدالية:

تَأَلَّقَ نَجْدِيًّا فَأَذْكَرَنِي نَجْدًا وَهَاجَ لِي الشَّوْقَ الْمُبْرِّحَ وَالْوَجْدَا
وَمِيضُ رَأْيِ بُرْدِ الْعِمَامَةِ مُغْفَلًا فَمَدَّ يَدًا بِالتَّبْرِ أَعْمَلَتِ الْبُرْدَا³

المديح النبوي فضلاً عن أهميته الإبداعية كنمط جوهري من أنماط الشعر العربي؛ يعد بمثابة خيط نوراني يصل ماضي الأدب العربي بحاضره، فهو لون أدبي خاص، ينفرد بأنه لون عميق الأصالة، قادر على الاستفادة من مستجدات العصر والمذاهب الأدبية الوافدة والمستحدثة من دون أن يتغير طابعه الأساسي، ومن دون أن يفقد جذوره وعراقته وملامحه المميزة. ولا شك في أن المديح النبوي قد تطور؛ ويتطور؛ شأنه شأن سائر الأنماط والألوان الأدبية، وقد ساهم في تطويره وإنضاجه دخول شعراء كبار إلى ميدان الإنشاد الديني والمديح النبوي عبر عصور مختلفة؛ بدءاً بحسان بن ثابت وكعب بن زهير ومروراً بالشريف الرضي والبوصيري وابن نباتة المصري .

¹ - عبد العزيز الفشتالي. شعر عبد العزيز الفشتالي، جمع ودراسة وتحقيق: نجاة المريني. ص: 420-428.

* هو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض السبتي اليحصبي (476هـ - 544هـ/1083م - 1149م)، قاض مالكي. العلامة المحدث والفقير المؤرخ الذي كان أعرف الناس بعلوم عصره من أهم مؤلفاته: إكمال المعلم بفوائد صحيح مسلم - الإعلام بحدود قواعد الإسلام.

² - القصيدة من مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط في مجموع من ورقة: 166-168. رقم: 744.

³ - لسان الدين الخطيب، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن الخطيب. ديوان الصيِّب والجهام والماضي والكهام، تح: محمد الشريف قاهر، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر 1973م، ص: 471 .

4-3- دوافع شعر المديح النبوي: ازداد تعاظم الروح الدينية في القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي في الأندلس والمغرب ومصر والشام والعراق وغيرها لأسباب كثيرة، لعل أهمها:

4-3-1- حرب الفرنجة أو ما سماها الغرب بالحروب الصليبية: التي أتت إلى الشام ومصر تريد احتلال بلادها وسلب خيراتها، وهدم ضريح النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة، كما شهدت مثيلاً لها الأندلس أيضاً، بعد ضعف العرب، زمن ملوك الطوائف الذي أصبحت فيه البلاد إمارات صغيرة متناثرة ضعيفة، الأمر الذي أطمع نصارى الشمال بها، فهاجموها واحتلوا طليطلة وغيرها، وفرضوا عليها الإتاوات التي دفعها ملوكها صاغرين.

4-3-2- انتشار الزهد والتصوف: انتشراً كبيراً في المغرب والمشرق على حد سواء، بتأثير متصوفين كبار، مثل السهروردي وابن الفارض وابن عربي والبوصيري وغيرهم ممن سبقوا هذا القرن، ولكن آثارهم ظلت مستمرة باقية إليه، ولقد قرب رجالات الحكم هؤلاء المتصوفة، وفتحوا لهم مجالسهم، وبنوا لهم التكايا والزوايا.

4-3-3- كثرة الطواعين والأوبئة والمجاعات والزلازل والجوائح: التي تلاحقت على البلاد فلم يجد أهلها سوى العود إلى الله لينجيهم، وكان هذا العود عن طريق التصوف الذي كان يرى . ولما يزل . أن الرسول صلى الله عليه وسلم هو المثل الأعلى، والإنسان الكامل، وأفضل الخلق، وسر الكون، وعلة الوجود، وعماده الرئيس، وقوته المدبرة، والوساطة بينه وبين الحق وسبب الهداية⁽¹⁾، ولقد دفع ذلك شعراءهم لينظموا القصائد في مدحه وتعظيمه وحبه، والتشوق لزيارته ولمرابعه، والاستغاثة به، وغير ذلك، معتمدين على ما ورثوه من قصائد في مدحه صلى الله عليه وسلم في أثناء حياته، مثل قصائد حسان بن ثابت وكعب بن زهير ثم البوصيري وغيرهم.

كما تأثر الشعراء أيضاً بما رأوه من تعظيم النصارى للسيد المسيح وميلاده، وبانتشار عادة استشفاع الناس بالرسول صلى الله عليه وسلم في الدولة الفاطمية، وعناية المماليك بموسم الحج ومحمله وقوافله واحتفالهم بذلك احتفالاً كبيراً، وما فعله وزير الملك الظاهر بيبرس تاج الدين بن بهاء الدين بن حنّاً من جمع الآثار النبوية وإيداعها في مكان واحد يليق بها

¹- ينظر: لسان الدين الخطيب . ديوان الصيّب والجهام والماضي والكهام . صص: 280-281 .

بالقاهرة. كل ذلك أوجع الشوق في قلوب الناس عامة ولاسيما المتصوفة منهم، فاندفع كثير منهم إلى المدينة المنورة مهاجراً ليكون جاراً للرسول، يروي بذلك ظمأ قلبه المحب المشتاق¹.

ونضيف إلى ما تقدم فكرة أن الرسول ﷺ حي في قبره غير ميت، التي شاعت لدى كثير من المسلمين، وبخاصة المتصوفة، وهي آتية من حديث نبوي رواه أبو هريرة، ووصف النووي سنده بأنه صحيح في رياض الصالحين، وهو: «ما من أحد يسلم علي إلا رد الله عليّ روحي، حتى أرى عليه السلام»² وقد شرحه صاحب "فيض القدير" المناوي بقوله: «يعني ردّ علي نطقي، لأنه حي على الدوام، وروحه لا تفارقه أبداً، لما صح أن الأنبياء أحياء في قبورهم، وهذا ظاهر في استمرار حياته لاستحالة أن يخلو الوجود كله من أحد يسلم عليه»³.

ومن حديث شريف آخر «إن الله حرم على الأرض أجساد الأنبياء»، وصف النووي أسانيده بالصحيحة⁴.

4-3-4- عناية المماليك بموسم الحج ومحملة وقوافله: واحتفالهم بذلك احتفالاً كبيراً، وما فعله وزير الملك الظاهر بيبرس تاج الدين بن بهاء الدين بن حنّا من جمع الآثار النبوية وإيداعها في مكان واحد يليق بها بالقاهرة. كل ذلك أوجع الشوق في قلوب الناس عامة ولاسيما المتصوفة منهم، فاندفع كثير منهم إلى المدينة المنورة مهاجراً ليكون جاراً للرسول، يروي بذلك ظمأ قلبه المحب المشتاق⁵.

4-3-5- ضعف دولة الموحدين وسقوط المدن الأندلسية: لقد أبطل الأندلسيون بفتن عديدة، وأزمات كبرى كان وراءها أعداء الإسلام الذين يحيكون الدسائس والمؤامرات للمسلمين، ونتيجة ضعف سياسة دولة الموحدين وتفككها أصبح المسلمون لقمة سائغة في أيدي الصليبيين الذين تمكنوا من احتلال مدن الأندلس. ومن بين هذه المدن مدينة

¹ - ينظر: أحمد فوزي الهيب. الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء. (د،ط)، مؤسسة الرسالة بيروت 1986م . صص: 100-103 .

² - النووي. رياض الصالحين، تح: رباح والدقاق، (د،ط)، دار المأمون، دمشق، 1976م. ص: 530.

³ - المناوي. فيض القدير شرح الجامع الصغير، ج5، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، 1938. ص: 467.

⁴ - ينظر: النووي. الأذكار النووية، تح: الأرنؤوط، دار الملاح، دمشق، 1971م، ص: 97 .

⁵ - ينظر: أحمد فوزي الهيب. الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء. ص: 100 .

بلنسية إحدى قواعد الأندلس المهمة ومدنها الكبرى، فقد مرت هذه المدينة بالكثير من الأحداث وتولى أمرها العديد من الملوك، ففي عهد الدولة الأموية في الأندلس كانت بلنسية عاصمة شرق الأندلس، وازدادت أهميتها في عهد أمراء الطوائف، فحكمها العامريون وحاصرها ملك قشتالة في عهدهم سنة (457هـ). وتوالت الأحداث على هذه المدينة وتبادل الحكام عليها ونتيجة الخلافات سقطت في يد النصارى واستسلمت للسيد الكمبيادور سنة (488هـ)¹.

واستصرخت بلنسية المسلمين ووجدت أصداء لدى أمير المرابطين يوسف بن تاشفين الذي استرد المدينة في شعبان سنة (495هـ)، وفي عهد المرابطين تولى ابن مردنيش شرق الأندلس. وبإيعه أهل بلنسية سنة (542هـ) وظلت في حكم المرابطين حتى عهد الموحيدين، حيث ثار ابن مردنيش على حاكمها الموحيدي الذي أعان المشركين على سقوطها ولم يقو ابن مردنيش على مقاومة شوكة النصارى، فجرت بينه وبينهم معارك عديدة تغلبوا فيها على المسلمين، وسقطت المدينة وابرم اتفاق ينص على الحفاظ على أرواح المسلمين سنة (636هـ)²، لكن النصارى نقضوا عهدهم وغزوا بلنسية التي سقطت نهائياً.

أما المدينة الثانية التي سقطت فهي مدينة مرسية، حيث أنه خلال الفتنة القرطبية في القرن 5هـ استولى عليها العامريون وأصبحت تابعة لهم، ثم استولى حكام اشبيلية سنة (471هـ). وبقوا في حكمها حتى مجيء المرابطين، الذين استولوا عليها سنة (484هـ)³.

وبمجيء الموحيدين، وتأسيس ملكهم كانت مرسية تابعة لمحمد بن سعد بن مردنيش، الذي ظل يتصارع مع الموحيدين زهاء ربع قرن⁴.

ولما كانت وقعة العقاب الأليمة سنة (609هـ)، وتفكك دولة الموحيدين أعلن أهل مرسية

¹-المقري.أحمد بن محمد المقري التلمساني. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج5. ص: 345.

²- ينظر: يوسف اشباخ. الأندلس في عصر المرابطين والموحيدين، ترجمة: محمد عبد الله عنان، ج2. ط2. مكتبة الخانجي، القاهرة، 1966م. صص: 177-178.

³- ينظر: محمد عبد الله عنان. دولة الإسلام في الأندلس (عصر الموحيدين وانهيار الأندلس الكبرى). ط4. مكتبة الخانجي، القاهرة، 1997م. ص: 390 وما بعدها.

⁴- ينظر: محمد عبد الله عنان. دولة الإسلام في الأندلس (عصر المرابطين والموحيدين). صص: 184-185.

بيعتهم لابن هود الجذامي الذي أعلن الثورة بشرق الأندلس في ذلك الوقت¹ ولما توفى سنة 635هـ خلفه على إمارة مرسية أخوه الملقب ب(عضد الدولة)وسرعان ما خلع أهل مرسية طاعته،وأعلنوا بيعتهم لعالمهم أبي بكر عزيز بن خطاب سنة 636هـ.

وظلت مرسية في خضم تلك الأحداث تعاني كغيرها من المدن الأندلسية الفتن والاضطرابات، وتوالي الزعامات الفردية، وعندما خاف أهلها من بطش العدو الصليبي بهم اضطروا إلى تسليمها صلحا في شوال 640هـ².

المدينة الموالية التي لقيت المصير المحتوم هي اشبيلية التي ظلت في عهد الخلافة الأموية قاعدة من قواعد الأندلس المهمة ومركزا من مراكز الإشعاع العلمي، وفي عصر ملوك الطوائف استقل بها بنو عباد،وكانت من أقوى دويلات الطوائف وفي عهد المرابطين لم يكن لهذه المدينة شأن يذكر،وظلت في حكمهم حتى مجيء الموحدين،حيث دخلت كغيرها من المدن الأندلسية في طاعتهم،فجعلوا منها مركزا لولاياتهم بالأندلس³.بعد ضعف دولة الموحدين وتقيض سلطانها، بعد معركة العقاب سنة 609هـ. وظهور الثورات والفتن ظلت اشبيلية تنتظر مصيرها مترددة بين طاعة الموحدين أو الولاء لابن هود حتى زحف النصارى إليها وحاصروها وأحكموا حصارها الذي نتج عنه موت كثير من أهلها بسبب الجوع حتى اضطروا للاستسلام بشروط مهينة سنة 646هـ⁴.

أما غرناطة فقد دخلها المسلمون فاتحين سنة 92هـ عقب انتصارهم على القوط بقيادة طارق بن زياد، وفي عهد الدولة الأموية كانت قاعدة من قواعد الأندلس،وبعد الفتنة القرطبية انتهى حكمها إلى الصنهاجيين بزعامة زاوي بني زيري⁵.«وظلت في حكمهم حتى مجيء المرابطين الذين استولوا عليها عند دخولهم الأندلس سنة 483هـ»⁶.

¹- ينظر: محمد عبد الله عنان. دولة الإسلام في الأندلس (عصر الموحدين وانهايار الأندلس الكبرى) .

ص: 390 وما بعدها .

²- ينظر: المرجع نفسه . ص: 459 .

³- ينظر: يوسف اشباخ. الأندلس في عصر المرابطين والموحدين. ص: 102 وما بعدها .

⁴- ينظر: محمد عبد الله عنان. دولة الإسلام في الأندلس(عصر المرابطين والموحدين).ص: 485 .

⁵- ينظر: لسان الدين الخطيب .الإحاطة في أخبار غرناطة،ج1. ص: 99 .

⁶- محمد عبد الله عنان. دولة الإسلام في الأندلس (نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين) .ص: 27 .

وظل المرابطون يتوالون على حكمها حتى ظهور دولة الموحدين، حيث سلمت لهم صلحا، فتم الاستيلاء عليها مقابل سلامة ولاتها السابقين من المرابطين¹، «وظلت تحت زعامتهم حتى نهاية العقد الأول من القرن 7هـ، حيث ضعفت دولة الموحدين، وظهرت الزعامات الفردية من جديد. فأصبحت غرناطة تحت سيطرة ابن الأحمر الذي كون مملكة غرناطة، وقد انتهى سقوطها في يد النصارى بتسليمها من قبل حاكمها أبي عبد الله الصغير آخر ملوك بني الأحمر، وذلك بموجب معاهدة بين الطرفين سنة 897هـ»². يقول أحد الباحثين «و حين اشتد الضعف بدولة الموحدين-أي في القرن السابع الهجري- وأخذت المدن الأندلسية تسقط تباعا في حجر النصارى الشماليين تكاثر المديح النبوي، إذ اتخذ الشعراء الأندلسيون أداة للاستغاثة والاستجداء بالرسول الكريم لإنقاذهم من محنتهم، وكانوا لا يكتفون بنظم الأشعار النبوية إذ كانوا يرفقونها برسائل إلى القبر النبوي الشريف واصفين ما يعانیه وطنهم من محن خطيرة»³.

فهذه الأحداث خلفت آثارها الواضحة في الناحية الأدبية، تجلى في شعر المديح النبوي كأداة للاستغاثة والاستجداء بالرسول ﷺ، بعد أن تيقن هؤلاء الشعراء أن جنة الأندلس أصبحت مجرد ذكرى تتراءى لهم في الخيال.

وبعد أن توفي الرسول صلى الله عليه وسلم بقيت دوافع المديح النبوي عند الشعراء مبتغين الأجر والثواب من عند الله وطلبوا المغفرة والرحمة بجاه النبي عند ربه وأرادوا أن يقدموا لمعاصريهم بأشعارهم ومدائحهم صورة جلية عن هذا الإنسان العظيم الذي أنقذ الناس من التخبط في دياجير الظلام ودلهم على طريق النجاة في الدنيا والآخرة.

5-موضوعات ومضامين شعر المديح النبوي: لقد تنوعت الموضوعات التي عالجتها قصيدة المدح النبوي، فنظم الشعراء قصائد في وصف مآثر الرسول ومناقبه ومعجزاته،

¹- ينظر: ابن عذارى المراكشي. البيان المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب، (قسم الموحدين)، تح: محمد إبراهيم الكتاني، عبد القادر زمامة، محمد بن تاويت، محمد زنيبر. ط1. دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، 1985م. ص: 55

²-المقري، فح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج4. ص:51.

³- شوقي ضيف. تاريخ الأب العربي، عصر الدول والإمارات (الأندلس). ط1. دار المعارف، مصر، (د،ت). ص: 371.

وقصائد يتشوقون فيها إلى زيارة مقامه الكريم، والتبرك بآثاره الكريمة، لكن هذه القصائد تتصل ببعضها اتصالاً وثيقاً لأنها تدور جميعاً حول موضوع واحد هو مدح النبي ﷺ.

5-1- مدح وتعظيم وحب الرسول ﷺ: يقوم الشاعر بتعداد صفات النبي ﷺ ومآثره ويسعى إلى تتبع تلك الصفات التي تدخل في تشكيل شخصيته على نحو ما نجد في دالية ابن الجنان المرسي* في مدح الرسول ﷺ فهي تحمل أثر الحنين إليه منه قوله:

سَلَامٌ عَلَيَّ مِنْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَالْهُدَى وَمَنْ لَمْ يَزَلْ بِالْمُعْجَزَاتِ مَوْبِدَاً
سَلَامٌ عَلَيْهِ إِنَّ نَفْسِي مَشَوَّقَةٌ إِلَيْهِ فَهَلْ يَدْنِي اسْتِيَاقِي أَبْعَدَاً¹

فابن الجنان المرسي اشتهر بمدح الرسول وقد عرف بشاعر المديح النبوي عند العديد من النقاد والمؤرخين. ورد له الكثير من قصائد المديح أطلق عليها أحد الباحثين "شعر النبويات" فالناظر في تلك القصائد يلمس حنين الشاعر وحبه للرسول الكريم، منها قصيدته الجيمية التي تحدث فيها عن ركب الحجيج الذاهب إلى مكة يقول:

فَمَا لِي لِأَمَالِي سِوَى حُبِّ أَحْمَدِ وَصَلْتُ لَهُ مِنْ قُرْبِ قَلْبِي وَشَايَجَا
عَلَيْهِ سَلَامٌ اللَّهُ مِنْ ذِي صَبَابَةٍ حَلِيفٌ شَجَا يَكْنَى مِنَ الْبُعْدِ نَاشِجَا
وَلَوْ أَنْصَفْتُ أَجْفَانَهُ حَقَّ وَجْدِهِ سَفَكَنْ دِمَاءً لِلدُّمُوعِ مَوَازِجَاً²

والأمر لا يختلف مع ابن جبير** الذي ظل على حنين مستمر إلى الرسول الكريم، فهو لا يهنأ له بال حتى يرى تلك المشاهد التي تبعث على الحنين والشوق يقول:

أَقُولُ وَقَدْ دَعَا لِلْخَيْرِ دَاعٍ حَنَنْتُ لَهُ حَنِينَ الْمُسْتَهَامِ
وَلَا طَابَتْ حَيَاةٌ لِي إِذَا لَمْ أَرُزْ فِي طَيْبَةِ خَيْرِ الْأَنَامِ

* هو أحد شعراء الحنين في القرن السابع الهجري. واسمه: أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الأنصاري، المعروف بابن الجنان. شاعر المديح النبوي في الأندلس، ولد في مرسية، ونشأ في ربوعها وحفظ القرآن الكريم عن والده. وأخذ علومه الأخرى عن مشايخ عصره. ينظر ترجمته في: الإحاطة ج2. ص: 349.

¹ - ابن الجنان الأنصاري. الديوان. دراسة و تحقيق: منجد مصطفى بهجت. ص: 74.

² - المصدر نفسه. ص: 350.

** هو أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير بن محمد بن عبد السلام بن مروان بن عبد السلام بن جبير بن سعيد بن جبير بن محمد بن سعيد بن مروان الكنانى الأندلسي صاحب الرحلة المشهورة. ولد سنة 540م. ما توفر لدينا من نتاجه في الحنين يدل على أنه قد سلك طريق الزهد والتصوف، نتيجة تشبعه بالعلوم الدينية التي أثرت في سلوكه وأخلاقه. لهذا جاء أكثر حنينه إلى الديار المقدسة، وساكنها عليه الصلاة والسلام، توفي سنة 614هـ. ينظر ترجمته في: المغرب في حلي المغرب ج2 لابن سعيد. ص: 384.

وَأَهْدِيهِ السَّلَامَ وَأَقْتَضِيهِ رِضًا يَدْنِي إِلَى دَارِ السَّلَامِ¹

وللشاعر أبيات أخرى أكثر شوقاً وتلهفاً إلى النبي المصطفى، وهو بصدد وصف وصوله مع الراكب الذاهب إلى الديار المقدسة، ودنوه منها. إذ يقول:

بَشَائِرِ صُبْحِ السَّرَى أَذْنَتْ بِأَنَّ الْحَبِيبَ تَدَانِي مَزَارًا
جَرَى ذِكْرُ طَيْبَةٍ مَا بَيْنَنَا حَنِينًا إِلَى أَحْمَدِ الْمُصْطَفَى
فَلَا قَلْبَ فِي الرَّكْبِ إِلَّا وَطَارًا وَشَوْقًا يُهَيِّجُ الضُّلُوعَ اسْتِعَارًا²

أما أبو زيد الفازازي* فيصور حبه للرسول ﷺ، ويظهر ذلك من خلال حبه له فيرى بأن محبته تقود إلى رضا الله، وتأخذ الأبيات التالية منحى الشعور بالذنب. ويرى أن روحه متعلقة بزيارة قبر النبي ﷺ الذي يأمل شفاعته، يقول:

لَكِنْ حُبُّكَ شَافِعٌ وَمُشَفِّعٌ يَغْشَى مُحِبِّكَ يُمْنَةً وَأَمَانَةً
وَعَلَيْكَ يَا خَيْرَ الْأَنَامِ تَحِيَّةٌ كَالرُّوْضِ صَافِحِ رُوحَةَ رِيحَانُهُ
مِمَّنْ يَزُورُكَ خَطُّهُ وَكَلَامُهُ إِذْ لَمْ يَزُرْكَ لِذَنْبِهِ جُثْمَانُهُ³

يلاحظ على أبيات الفازازي حنينه وحبه للرسول الكريم. راجيا منه شفاعته. أما أحمد بن محمد** بن محمد المعروف بابن جزي الكلبي فنجدته في قصيدة يمدح الرسول، يقول:

وَمُدُّ وَتَقَّتْ نَفْسِي بِحُبِّ مُحَمَّدٍ هَصْرْتُ بِغُصْنِ ذِي شَمَارِيخِ مِيَالٍ
أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ تَقُولُ عَزَائِمِي لِخَيْلِي كَرِي كَرَةً بَعْدَ إِجْفَالِ

¹ - ابن جبیر، أبي الحسن محمد بن أحمد الكناني الأندلسي البننسي. الرحلة. دار الكتاب اللبناني. ص: 20.

² - المصدر نفسه . ص : 20.

* أحد شعراء الحنين في القرن السابع الهجري، واسمه أبو زيد عبد الرحمن بن أبي سعيد بن يخلفتن بن أحمد بن تنفليت الملقب بالفازازي. يرجع نسبه إلى قبيلة زناتة إحدى القبائل البربرية التي سكنت الجزائر له ديوان شعر في مديح المصطفى ذكر بعضه المقري التلمساني في كتابه نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وأشاد بنظمه ونثر هجين قال عنه بأنه: "الكاتب الكبير صاحب الأمداح في سيد الوجود محمد... له في مدح النبي، بدائع قد خضع لها البيان وسلم" والمتتبع لشعر الفازازي يجد أن أغلبه جاء في الزهد والمدائح النبوية، والمواعظ والشفاعات. وردت ترجمته في: نفع الطيب ج 5. المقري. ص: 355 وما بعدها.

³ - عبد الحميد عبد الله الهرامة. آثار أبي زيد الفازازي. ط 1. دار قتيبية للطباعة والنشر، 1991م . ص: 37.

** هو ابن بطوطة. قرأ على والده ولازمه كما قرأ على بعض معاصري أبيه. شارك في عدة فنون من أدب وخط ورواية وشعر وفقه. تولى القضاء في عدة مدن أندلسية. توفي عام 785هـ/1383م. من أهم آثاره: تقييد في الفقه على كتاب والده المسمى بالقوانين الفقهية . من بديع نظمه تصديره أعجاز قصيدة امرئ القيس؛ ومطلعها : أقول لعزمي أو لصالح أعمالي ألا عم صباحا أيها الظل البالي

فَأَنْزَلَ دَارًا لِلرَّسُولِ نَزِيلَهَا قَلِيلٌ هُمُومٍ مَا يَبِيْتُ بِأَوْجَالِ
فَطُوبَى لِنَفْسٍ جَاوَرَتْ خَيْرَ مُرْسَلٍ بِيثْرِبِ أَدْنَى دَارَهَا نَظْرٌ عَالِي
وَ مِنْ ذِكْرِهِ عِنْدَ الْقَبُولِ تَعَطَّرَتْ صَبَا وَشَمَالَ فِي مَنَازِلِ قَقَالِ
جَوَارُ رَسُولِ اللَّهِ مَجْدٌ مُؤْتَلٌّ وَقَدْ يُدْرِكُ الْمَجْدَ الْمُؤْتَلُّ أَمْثَالِي
أَبَانَ سَبِيلَ الرُّشْدِ إِذْ سُبُلُ الْهُدَى يَقْلَنَ لِأَهْلِ الْحَلْمِ ضَلَاً بِتَضَلَالِ
لِأَحْمَدِ خَيْرِ الْعَالَمِينَ انْتَقَيْتُهَا وَرِيضَتْ فَذَلَّتْ صَعْبَةً أَيْ إِذْ لَالِ¹

فالناظر في تلك الأبيات يلمس حنين الشاعر وحبه للرسول الكريم.

والأمر لا يختلف مع فرج بن لب الغرناطي* الذي ظل على حنين مستمر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، فهو لا يهنأ له بال حتى يرى تلك المشاهد التي تبعث على الحنين والشوق.

إِذَا الْقَلْبُ ثَارَ أَثَارَ ادْكَارَا لِقَلْبِي فَأَذْكَى عَلَيْهِ أَوَارَا
أَحْنُ اشْتِيَاقًا لِرِيحِ سَرَّتْ وَأَبْدِي هِيَامًا لِبَرْقِ أَنْارَا
حَنِينًا وَشَوْقًا إِلَى مَعْلَمِ حَوَى شَرَفًا خَالِدًا لَا يَجَارَى
بِهِ أَسْكَنَ اللَّهُ أَسْمَى الْوَرَى نَبِيًّا كَرِيمًا وَصُحْبًا خِيَارَا
هُوَ الْمُصْطَفَى الْمُنْتَقَى الْمُجْتَبَى أَرَى مُعْجَزَاتٍ وَأَيًّا كِبَارَا
يَحِقُّ عَلَيْنَا رُكُوبَ الْبِحَارِ وَجُوبَ الْقِفَارِ إِلَيْهِ ابْتِدَارَا²

فهو يحن إلى الرسول الكريم ، ويتمنى زيارة معلمه ولو تطلب ذلك ركوب البحار.

أما محمد بن يحيى الغساني البرجي* فيصور حبه للرسول، من خلال مدحه وتعظيمه، يقول:

مَعَاهِدٌ شَرَفَتْ بِالْمُصْطَفَى فَلَهَا مِنْ فَضْلِهِ شَرَفٌ تَعْلُو مَرَاتِبُهُ

¹-المقري، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 5 . ص: 518 .

* ولد عام 701هـ-1301م .قرأ على أبي علي القيجاطي وتفقه عليه في كثير من العلوم ولازمه حتى وفاته. تولى إفتاء غرناطة والخطابة والتدريس في جامعها الأعظم توفي عام 782هـ-1380م، له تأليف كثيرة: شرح جمل الزجاجي. ينبوع عين الثرة في تفريع مسألة الإمامة بالأجرة. ديوان شعر في أغراض شتى منه عدة قصائد في مدح الرسول . ينظر ترجمته في: كحالة، معجم، ج8. ص: 57.

²- المقري، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 5 . ص: 510.

* أصله من مدينة برجة بشرقي الأندلس. ولد عام 710هـ-1310م.نشأ ودرس بغرناطة؛ ثم انتقل إلى فاس وتولى الكتابة للسلطان أبي عنان أمير المسلمين في شمال إفريقيا، حيث تولى قضاء الجماعة، له عدة مدائح نبوية توفي عام 786هـ-1384م . ينظر ترجمته في: كحالة ، معجم ، ج12. ص : 100.

مُحَمَّدُ الْمُجْتَبَى الْهَادِي الشَّفِيعُ إِلَى
 أَوْفَى الْوَرَى دِمَمًا أَمْسَاهُمْ هِمَمًا
 هُوَ الْمُكَمَّلُ فِي خَلْقٍ وَفِي خُلُقٍ
 جَاءَتْ تُبَشِّرُنَا الرُّسُلَ الْكِرَامَ بِهِ
 تَطَابَقَ الْكَوْنُ فِي الْبُشْرَى بِمَوْلِدِهِ
 لَهُ مَقَامُ الرِّضَى الْمَحْمُودِ سَاهِدَهُ
 وَالرُّسُلَ تَحْتَ لِيَوَاءِ الْحَمْدِ يُقَدِّمُهَا
 لَهُ الشَّفَاعَاتُ مَقْبُولًا وَسَائِلُهَا
 وَالْحَوْضُ يَزُوي الصَّدَى مِنْ عَذْبِ مَوْرِدِهِ
 مُحَامِدُ الْمُصْطَفَى لَا يَنْتَهِي أَبَدًا
 فَضْلٌ تَكْفَلُ بِالْذَّارَيْنِ يَوْسَعُهَا
 حَسْبِي التَّوَسُّلُ مِنْهَا بِالَّذِي سَمَحَتْ
 ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى خَيْرِ الْبَرِيَّةِ مَا
 نَعْمَى وَرَحِمَى فَلَا فَضْلَ يُنَاسِبُهُ
 بِهِ الْقَوَافِي وَجَلَّتْهَا غَرَائِبُهُ
 سَارَتْ إِلَيْهِ بِمُشْتَقِّ رِكَابِهِ¹

حيث يعبر الشاعر بعد وصف تشوقه للديار المقدسة عن حبه وتشوقه للرسول الكريم والصلاة عليه.

أما ابن زمرك* فيورد هذه الأبيات مادحا الرسول من خلال الأوصاف التي أطلقها:

خَيْرُ الْبَرِيَّةِ مُجْتَبَاهَا دُخْرُهَا
 تَاجُ الرِّسَالَةِ خْتَمُهَا وَقَوَامُهَا
 لَوْلَاهُ لِلْأَفْلَاقِ مَا لَاحَتْ بِهَا
 دُؤُ الْمُعْجَزَاتِ الْغُرِّ وَالْآيِ الْآلِي
 قَدْ بَشَّرَ الرُّسُلُ الْكِرَامَ بِبَعْنِهِ
 ظِلُّ الْإِلَهِ الْوَارِفُ الْأَفْيَاءِ
 وَعِمَادُهَا السَّامِي عَلَى النَّظْرَاءِ
 شُهْبٌ تُنِيرُ دِيَاغِي الظُّلْمَاءِ
 أَكْبَرَنَ عَنِّ عَدٌّ وَعَنِّ إِحْصَاءِ
 وَتَقَدَّمَ الْكَهَّانُ بِالْأَنْبَاءِ

¹ - المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 6 . صص: 68-73 .

* - هو محمد بن يوسف الشهير بابن زمرك، ولد عام 733هـ-1333م في ريبض البيازين من غرناطة بالأندلس، وفيها نشأ، قرأ العربية على أبي عبد الله بن الفخار أولا ثم على القاضي محمد بن أحمد الحسني. ولعل أشهر مشايخه، بلا منازع، العالم لسان الدين بن الخطيب الذي ورث مركزه ومرتبته. برع ابن زمرك بالعربية والبيان والأدب والتفسير. كما سلك مسلك التصوف. قتل بداره عام 793هـ-1390م. له نظم ونثر كثيرين بالإضافة إلى موشحات مشهورة فيها الكثير من المدائح النبوية . ينظر ترجمته في: كحالة. معجم ج 7. ص: 154 وكذا : نفح الطيب. المقري، ج 5. 48- 172 وج 7. ص: 145.

أَمْسَى بِهَا الْإِسْلَامُ يَشْرِقُ نُورُهُ
هُوَ آيَةُ اللَّهِ الَّتِي أَنْوَارُهَا
وَالشَّمْسُ لَا تَخْفَى مِزِيَةَ فَضْلِهَا
يَا مُصْطَفَى الْكَوْنِ لَمْ تَعْلُقْ بِهِ
يَا مظهرَ الْحَقِّ الْجَلِيِّ وَمَطْلَعِ الْ
يَا مَلْجَأَ الْخَلْقِ الْمُشْفَعِ فِيهِمْ
يَا أَسِيَّ الْمَرْضَى وَمَنْتَجِعِ الرَضَى
وَالْكَفْرُ أَصْبَحَ فَاحِمُ الْأَرْجَاءِ
تَجَلُّوْ ظِلَامَ الشَّكِّ أَيُّ جَلَاءِ
إِلَّا عَلَى ذِي الْمُقَلَّةِ الْعَمِيَاءِ
مِنْ بَعْدِ أَيْدِي الْخَلْقِ وَالْإِنْشَاءِ
نُورِ السَّنِيِّ السَّاطِعِ الْأَضْوَاءِ
يَا رَحْمَةَ الْأَمْوَاتِ وَالْأَحْيَاءِ
وَمُوَاسِي الْأَيْتَامِ وَالضَّعْفَاءِ¹

فهو يمدح النبي الكريم من خلال ذكر فضله على الأمة الإسلامية وكذا ذكرا لمعجزاته التي لا تعد ولا تحصى.

5-2- معجزات النبي صلى الله عليه وسلم: لقد جعل الشعراء موضوع التحدث عن معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم

قلائد في مدائحهم، فقد راحوا يسردون معجزاته في أساليب تغلب عليها التقريرية والحب الخاص، والاعتزاز بصانع الملحمة الإسلامية التي لا مثيل لها في التاريخ القديم والحديث. فحديث شعراء الأندلس عن معجزات الرسول لا تكاد تخلو منه مدحة أو قصيدة، ولو كانت الإشارة عابرة².

فتعداد معجزات النبي غالبا ما يأتي بعد مدح النبي صلى الله عليه وسلم وتعدد صفاته. والمعجزة هي أحد مظاهر النبوة فما من نبي إلا وأيده الله تعالى بما يثبت نبوته وصحة رسالته، فاختص الله تعالى كل نبي بمعجزة خاصة أو معجزات، وقد ذكرت في القرآن الكريم، الذي يعد معجزة. إذ أن الله تحدى به العرب فعجزوا على أن يأتوا بمثله « فالقرآن الكريم بإعجازه هو إثبات لقدرة الله تعالى وإثبات عجز الخلق عن معارضته»³.

قال الله تعالى: (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ مَعْبُدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا

¹ - المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 5 . صص: 48-172 .

² - ينظر عبد الحميد بن صخرية. شعر الفقهاء في الأندلس من القرن 5 إلى نهاية القرن 8هـ، أطروحة دكتوراه، باتنة، الجزائر، 2005م . ص: 47 .

³ - عبد الحميد محمود . المعجزة والإعجاز في سورة النمل . (د،ط)، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، (د،ت) . ص: 15 .

شُهَدَاءَكُمْ مِنْ حُورِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ¹.

ونجد من الشعراء الذين مدحوا الرسول الكريم من خلال ذكر مناقبه ومعجزاته ابن سعيد المغربي*، حيث ذكر معجزات الله تعالى على نبيه المصطفى وهو يقول:

فمحاك بالغارِ الَّذِي هُوَ مِنْ أَدَلِّ
وَوَقَاكَ مِنْ سَمِّ الذَّرَاعِ بِلُطْفِهِ
المعجَزَاتِ وَ خَابَ مَنْ يَتَرَصَّدُ
كَمَا يُعَاطُ بِكَ العِدَا وَالْحُسَدُ²

إن ما يلاحظ في هذه الأبيات ذكر قصة الغار، ونجاته من ذراع الشاه المسمومة حتى يغيظ بذلك الكفار وبعدها يشرع الشاعر في وصف معجزات الرسول المصطفى، حيث أورد حنين الأسطوانة إليه، وخروج الماء من بين أصابعه، ونطق الذئب، وليلة الإسراء، وغيرها من المعجزات التي أيد بها الله نبيه، يقول:

والجِدْعُ حَنَّ إِلَيْكَ وَالْمَاءُ إِنهَمَى
والذئبَ أَنْطَقَ لِلَّذِي أَضْحَى بِهِ
مَاذَا أَقُولُ إِذَا وَصَفْتُ مُحَمَّدًا
فَعَلَيْكَ يَا خَيْرَ الْخَلَائِقِ كُلِّهَا
مَا بَيْنَ خَمْسِكَ وَالصَّحَابَةِ شُهُدُ
يَهْدِي إِلَى سَبِيلِ النِّجَاحِ وَ يَرشُدُ
نَفَدَ الْكَلَامِ وَوَصَفُهُ لَا يَنْفَدُ
مَنِّي التَّحِيَّةُ وَالسَّلَامُ السَّرْمَدُ³

هنا اثر حنين الشاعر ومدحه للرسول الذي يعجز اللسان عن التعبير عنها.

كما نلمس أثر الحنين إلى الرسول في أشعار ابن الجنان من خلال ذكره لمناقبه، بادئا قصيدته عليه :

صَلُّوا عَلَى أَسْمَى الْبَرِيَّةِ خَيْمًا
وَأَجَلْ مَنْ حَازَ الْفَخَارَ صَمِيمًا

ثم يذهب إلى ذكر معجزات الرسول ﷺ ومناقبه، حيث ذكر معجزة استنطاق الجماد،

قصة حنين جذع الأسطوانة إلى الرسول الكريم وليلة الإسراء وصعوده إلى السماء،

بالإضافة إلى كل هذا فإننا نلمس أثر الحنين والشوق إليه وهو يرجو شفاعته ﷺ:

¹-سورة البقرة. الآية : 23 .

* هو علي بن موسى بن عبد الملك بن سعيد بن خلف بن سعيد بن محمد بن عبد الله بن سعيد بن الحسن بن عثمان بن عبد الله بن سعد بن عمار بن ياسر رضي الله عنهما. ولد ليلة الفطر سنة 610هـ من أسرة أندلسية عريقة تنتمي في أصلها إلى الصحابي الجليل عمار بن ياسر، وكانت هذه الأسرة ذات شأن عظيم في قلعته(بحصب) وفي الأندلس وكانت حياة الشاعر مليئة بالتنقل والترحال بين الأمصار.

ينظر ترجمته في: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج4. لسان الدين بن الخطيب .ص: 153 وما بعدها .

²- المقرئ، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج2 . ص : 434 .

³- المصدر نفسه . ص : 434.

كَمْ آيَةٍ نَطَقَتْ تَصَدَّقُ أَحْمَدُ
وَالجُدُّعُ حَنَّ حَنِينَ صَبٍ مَعْرِمِ
جَلَّتْ مَنَاقِبَ خَاتَمِ الرِّسْلِ الَّذِي
يَا أَيُّهَا الرَّاجُونَ مِنْهُ شَفَاعَةٌ
حَتَّى الْجَمَادُ أَجَابَهُ تَكْلِيمًا
أَضْحَى لِلوَعَاتِ الْفِرَاقِ غَرِيمًا
بِالنُّورِ خَتَمَ وَالْهَدَى تَخْنِيمًا
صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا¹

كما تناول الشعراء في مدحهم للرسول الكريم(مثال نعل النبي)،وعدوه من الآثار التي تذكرهم بالرسول صلی اللہ علیہ وسلم يصفونه ويتبركون به .من هؤلاء الشعراء:ابن الأبار البلنسي* الذي أظهر شوقه إلى رؤية ذلك المثال ولثمه والتبرك به. في قوله:

لِمِثَالِ نَعْلِ الْمُصْطَفَى أَصْفَى الْهَوَى
وَإِذَا أَصَافِحُهُ وَأَمْسَحُ لِائِمًا
وَأَرَى السَّلْوَّ خَطِيئَةً لَنْ تَغْفِرَا
شَاقَ الْمَحَبُّ الطَّيْفُ يَطْرُقُ فِي الْكِرَا²

فهكذا عبر الشاعر الأندلسي عن حنينه إلى الرسول صلی اللہ علیہ وسلم من خلال مدحه والثناء عليه، والإشادة بمناقبه وآثاره ومعجزاته، وقد ازدهر هذا النوع من الشعر الديني نتيجة للظروف والأحداث التي حلت بالأندلس في تلك الفترة.

وهذا ابن حزم الأندلسي* يعرض في قصيدة طويلة يزيد عدد أبياتها عن ثمانين بيتا،تحدث في بدايتها عن نعم الله وكونه، وصحة نبوته صلی اللہ علیہ وسلم. يبدأها بقوله(المتقارب):

لَكَ الْحَمْدُ يَا رَبُّ وَالشُّكْرُ تَمَّ
لَكَ الْحَمْدُ مَا بَاحَ بِالشُّكْرِ قِم

¹ - المقري ، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج9. صص :264-265 .

* هو أبو عبد الله بن أبي بكر بن عبد الله بن بكر القضاعي البلنسي الأندلسي المعروف بابن الأبار، ولد بمدينة بلنسية سنة595م، تولى والده تربيته وتعليمه، وكان والده من علماء بلنسية.وكان يصحبه معه إلى مجال العلماء وهو في سن مبكرة،أخذ الحديث والفقه والمسائل، والنحو والأدب، والتاريخ وغيرها...من مختلف علماء عصره، تغرب عن مدينته ووطنه بعد استيلاء العدو عليها.أول ما يقابلنا من نتاجه الشعري في الحنين قصيدته وهي السينية المشهورة التي استتجد بها الأمير الحفصي أبي زكرياء والتي استهلها بقوله: أدرك بخيلك خيل الله أندلسا *** إن السبيل إلى منجاتها درسا

قتل الشاعر قعصا بالرماح وسط محرم سنة658هـ. ترك نتاجا أدبيا يصل إلى 50 كتابا، لم يصل إلينا منها - مع الأسف- سوى 07 كتب، إلى جانب ديوان شعره .ينظر ترجمته في:نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ،ج3.المقري .ص :193وما بعدها وكذا ترجمته في :المغرب في حلى المغرب ،ج2 . ابن سعيد المغربي. ص :309. تحقيق : شوقي ضيف ، دار المعارف، مصر، ط3، 1955م

²-الأبيات نقلًا عن كتاب: ابن الأبار حياته وكتبه. لعبد العزيز عبد المجيد. ص:365 . ولم يذكر المؤلف مصدرها، كما أنها لم ترد بديوان الشاعر .

لك الحمد في كل ما حالته
فقد خصني منك من فضل وعم¹

ثم أخذ يعد المعجزات الباهرات قائلا:
وأرسل مرسله بالهدى
محمد المصطفى بالكتاب
فشق لنا القمر المستنير
و أبدى الينابيع عن كفه
و أعجز في نظم قرآنه
ودان الملوك لآياته

على ما قضاه وما قد حتم
به أنبياء الهدى وقد حتم
بحضرة راضين أو من زعم
فأروى به الجيش و الجيش حم
أولي حضر وبداء الخيم
خلاف التكايب ممن زعم²

فهو يشير إلى معجزة انشقاق البدر المنير ليلة مولده، وتفجر الماء من بين أنامله وارتواء الجيش ومن كان من الصحابة ظمآن. وختم ذلك بذكر معجزة القرآن العظيم الكبرى الذي أخرج ببيانه البداة والحضر. وذل له الجبارة من ذوي السلطاني الفاني، بأسلوب خال من التعقيد ومن الغرابة والإبهام اللذين لا يوصلان إلى المراد .

3-5-التشوق لزيارة قبره المصطفى: لقد طرق الشاعر الأندلسي هذا الجانب، وجاء حينه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم صادقاً ومعبراً من خلال مدحه والثناء عليه والتشوق إلى زيارة قبره الشريف. فنجد-مثلاً- في أشعار أبي زيد الفازازي الكثير من الأشعار التي تعبر عن حينه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وتظهر شعوره بالحزن من خلال تخلفه عن زيارة قبره الشريف.

يَا سَيِّدَ الرُّسُلِ المَكِينِ مَكَانُهُ
وَمَقَدِّمٌ وَهُوَ الأَخِيرُ زَمَانُهُ
نَادَاكَ عَبْدٌ أَخْرَتْهُ ذُنُوبُهُ
وَالشُّوقُ تَلْفَحُ قَلْبَهُ نِيرَانُهُ³

ويمثل لحد الرسول صلى الله عليه وسلم أحد المعالم الهامة عند الشاعر الأندلسي، يتبرك به ويتمنى زيارته، لأنه يحوي أشرف خلق الله. وهذا يدل على أن قبر النبي دليل على حنينهم وشوقهم إليه، فنجد من الشعراء الذين حنوا واشتاقوا إلى قبر الرسول. ابن الأبار. يقول:

* هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم. ولد بقرطبة في 07 نوفمبر 994م. 30 رمضان 384هـ، نشأ في تنعم ورفاهية ورزق ذكاء مفرداً، وذهناً سيالاً، وكتبها نفيسة كثيرة. وكان قد مهر في الأدب والشعر والمنطق. من أهم مؤلفاته: الفصل في الملل والنحل - طوق الحمامة - مداواة النفوس. ينظر: الموسوعة الحرة.

¹- أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد ابن حزم الظاهري. الديوان، جمع وتحقيق ودراسة: صبحي زياد عبد الكريم. ط1. دار الصحابة للتراث، طنطا، 1990م. ص: 37.

²- المصدر نفسه. ص: 40

³- عبد الحميد عبد الله الهرامة. آثار أبي زيد الفازازي. ص: 37.

يَا زَائِرِينَ الْقَبْرِ قَبْرَ مُحَمَّدٍ بُشْرَى لَمْ بِالسَّبْقِ فِي الزُّوَارِ
فُوْزُوا بِسَبْقِكُمْ وَفُوْهُوا بِالَّذِي حَمَلْتُمْ شَوْقًا إِلَى الْمُخْتَارِ¹

فهو يرسل أشواقه وحنينه مع ركب الحجيج الذهاب إلى بيت الله الحرام، ويهنئهم على تحقيق الزيارة .

ويتحدث حازم القرطاجني* عن زيارة قبر الرسول الكريم.

قَفْ بَيْنَ قَبْرِ مُحَمَّدٍ وَ الْمَنْبَرِ وَقُلِ السَّلَامَ عَلَى السَّرَاجِ الْأَنْوَرِ
النِّمَ تَرَى قَبْرَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ وَ بِذَلِكَ الْعَفْرِ الْأَسْرَةَ عَفَّرِ
وَاسْتَنْشِقْ طَيْبَ نَسِيمِهِ وَانْعَمَ بِهِ وَاجْعَلْهُ خَيْرَ ذَخِيرَةٍ لِلْمَخْشَرِ²

فهو يظهر تشوقه وحنينه لزيارة هذا القبر كأنه يتخيل نفسه بتلك الديار .

ويورد أبو العباس بن العريف** أبياتا يقول فيها:

شَدُّوا الرَّحَالَ وَقَدْ نَالُوا الْمُنَى بِمَنَى وَكَلَهُمْ بِالْأَيْمِ الشَّوْقُ قَدْ بَاخَا
رَاحَتْ رَكَائِبُهُمْ تَنْدَى رَوَائِحِهَا طَيِّبًا بِمَا طَابَ ذَاكَ الْوَفْدُ أَشْبَاخَا
نَسِيمُ قَبْرِ الْمُصْطَفَى لَهُمْ رَاجَ إِذَا سَكُرُوا مِنْ أَجَلِهِ فَاحَ
يَا رَاجِلِينَ إِلَى الْمُخْتَارِ مِنْ مَضَرٍ زُرْتُمْ جُسُومًا وَرُزْنَا نَحْنُ أَرْوَاحَا

¹ - ابن الأبار، أبو عبد الله بن أبي بكر بن عبد الله بن بكر القضاعي البلنسي الأندلسي. الديوان ، تحقيق: عبد السلام الهراس، الدار التونسية للنشر، 1985م . ص : 58 .

* هو أبو الحسن حازم بن محمد بن حسن بن حازم الأنصاري القرطاجني، الملقب بـ (هني الدين) القرطاجني ونسبة القرطاجني هي التي عرف بها، وغلبت على لقبه.ولد في مرسية، حفظ فيها القرآن الكريم وأخذ عن شيوخها،واكتملت عناصر ثقافته فيها، فأصبح فقيها مالكي المذهب كوالده نحويا بصريا كعلماء الأندلس، حافظا للحديث، راوية للأخبار، شاعرا .جاءت أشعاره في الحنين من خلال قصائد المدح وبرز حنينه بشكل واضح في شعره إلى الطبيعة الأندلسية ، وكذا إلى الرسول الكريم .

² - حازم القرطاجني، أبو الحسن حازم بن محمد بن حسن بن حازم الأنصاري القرطاجني.الديوان .

تحقيق، عثمان الكعاك ، دار الثقافة ، بيروت لبنان ، 1989م. ص : 58

** أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى الصنهاجي الأندلسي. ولد بالمريية سنة 481هـ.اكب على قراءة كتب التصوف.يقول ابن بشكوال: كان له مشاركة في أشياء من العلوم وعناية بالروايات وجمع القراءات واهتمام بطرقها وتحملها. توفي سنة 536هـ . ينظر: ترجمته في : نفع الطيب، ج.3. ص : 229 ، وكذا ج. 4 . ص : 331 . للمقري .

إِنَّا قُمْنَا عَلَى شَوْقٍ وَعَنْ قَدَرٍ وَمَنْ أَقَامَ عَلَى غُدْرٍ كَمَنْ رَاحَ¹

هي صورة جميلة تغلغلها نفثة صوفية، لذات حزينة وقفت ترقب عن كذب ركب الحجاج ينطلق مع الفجر الندي إلى البقاع المقدسة، إلى حيث يبوح الكل بما أجنته الضمائر من أليم الشوق إلى قبر المصطفى صلى الله عليه وسلم .

وحال الشعراء الأندلسيين في الشوق والحنين كحال العشاق ترى أعينهم تفيض من الدمع حيننا وشوقا إلى اللقاء، فإذا كان اللقاء رأيت نفوسهم تذهب حشرات ودموعهم تتهل غزارا، خوفا من الفراق، يقول أحمد بن الصقر الخزرجي في وداع القبر الكريم:

حَسْبُ الْمُحِبِّ مِنَ الْمُحِبِّ سَلَامٌ يَقْضِي بِهِ يَوْمَ الْوَدَاعِ نَمَامٌ
رُحْنَا وَرَوْعُ الْبَيْنِ يَخْرُسُ نَطَقْنَا وَمِنَ الدُّمُوعِ إِشَارَةٌ وَ كَلَامٌ
يَا أَرْضَ يَثْرِبَ لَا عِدَاكَ عَمَامٌ أَنْتَ الْمُنَى لَوْ تَسَعَفُ الْأَيَّامُ
لِلْأَرْضِ فِي تِلْكَ الْعِرَاصِ * عَرَامَةٌ * مَضْمُونُهَا كَلَفَ بِهَا وَغَرَامُ
قَبْرٌ تَضَمَّنَ أَعْظَمًا تَعْظِيمًا عَنْهُ يَصْحُ الدِّينُ وَ الْإِسْلَامُ
وَرَدْتُ بِهَا نَفْسِي الْمَشُوقُ مَنَاهِلًا كَلَا الْمَنَاهِلُ بَعْدَهُنَّ حَرَامٌ²

وبصرح ابن الصباغ*** بهذه الأشواق المبهمة وبعلم حبه للرسول وحنينه إلى البيت المقدس، ويتحسر إذا هو لم يحقق أمل الزيارة :

لَقَدْ طَالَ شَوْقِي لِلْحَبِيبِ وَ قَبْرِهِ فَيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يَتَّخِ لِي اللَّقَا
تَمِيلُ بِي الْأَشْوَاقُ حُبًّا لِدِكْرِهِ إِذَا مَا سَرَى بَرْقُ الْعُدَيْبِ وَ أَبْرَقَا
وَيَطْرِبُنِي لِحْنُ السَّمَاعِ فَأَنْتَبِي كَأَنِّي غَصْنٌ بِالصَّبَابَةِ أَوْرَقَا
فَوَا حَسْرَتَا إِنْ لَمْ أَفُزْ بِوَصَالِهِمْ وَ وَأَسْفَا إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي مُلْتَقَى³

¹ - المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 3 . ص : 229 .

* جمع عرصة وهي ساحة الدار ** يقصد بها شدة الشوق

² - عبد الوهاب بن منصور. أعلام المغرب العربي، ج 3. ط 1. المكتبة الملكية، الرباط، 1979م. ص: 322.

*** هو محمد بن أحمد بن الصباغ الجذامي، أبي عبد الله، شاعر صوفي أندلسي، عاش في الحقبة الأخيرة من دولة الموحدين في المغرب على زمن الخليفة المرتضى، ولا تذكر المصادر الكثير عنه، لم يحفظ له سوى نسخة خطية واحدة من ديوانه، تدور حول المدائح النبوية والزهد. ينظر ترجمته في: الموسوعة الحرة .

³ - ابن الصباغ، محمد بن أحمد. الديوان، تحقيق : نور الهدى الكتاني، رسالة دبلوم السلك الثالث، مرقونة

بخزانة كلية الآداب ، الرباط . ص : 05 .

فحنين الشاعر إلى الصبا والشباب في تلك الأماكن، هو حنين إلى رمز النبوة، وهو بالتالي حنينه إلى العيش في ذلك الزمن الماضي، زمن النبوة.

أما ابن جبير فيصور لحظات وصوله إلى قبر الرسول الكريم، وما يخلجه من شوق وحنين، وقد غلبه الدمع من فرط الشوق والحنين. يقول:

وَلَمْ حَلَّلْنَا فِنَاءَ الرَّسُولِ	نَزَلْنَا بِأَكْرَمِ مَجْدِ جَوَارِ
وَحِينَ دَنَوْنَا لِفَرَضِ السَّلَامِ	قَصْرْنَا الطَّرْفَ إِلَّا أَنْكَسَارًا
وَلَا يَظْهَرُ الْوَجْدَ إِلَّا اِكْتِمَامًا	وَلَا نَلْفِظُ الْقَوْلَ إِلَّا سِرَارًا
سِوَى أَنَّنَا لِمَ نَطَقَ أَغْنِيَا	بِأَدْمُعِهَا غَلَبْنَا أَنْفَجَارًا
وَقَفْنَا بِرَوْضَةِ دَارِ السَّلَامِ	نُعِيدُ السَّلَامَ عَلَيْهَا مَرَارًا
وَلَوْلَا مَهَابَتُهُ فِي النُّفُوسِ	لَثَمْنَا الثَّرَى وَالتَّرْمِنَا الْجَدَارَا
قَضَيْنَا بِزُورَتِهِ حَجَّنَا	وَبِالْعَمْرَتَيْنِ خَتَمْنَا اعْتِمَارًا ¹

فهو يصور مشهد السكينة والوقار، مهابة وإجلالا لأشرف الخلق أجمعين، وذلك المشهد الذي يتمناه كل مسلم .

أما ابن الجنان الأنصاري فيقول:

فَوَا حَرَبًا لَاحَ الصَّبَاحُ لِمَبْصَرٍ	وَقَلْبِي لَمْ يَبْصُرْ سِوَى النَّبِيِّ إِذْ سَجَا
لَعَلَّ شَفِيعِي أَنْ يَكُونَ مَعًا جَلَا	لِدَاءِ ذُنُوبٍ بِالشِّفَاءِ مُعَالِجَا
فَيَنْشِقْنِي بَيْتُ الْإِلَهِ نَوَافِحَا	وَيَعْبِقُ لِي قَبْرَ النَّبِيِّ نَوَافِحَا
فَمَا لِي لِأَمَالِي سِوَى حُبِّ أَحْمَدِ	وَصَلْتُ لَهُ مِنْ قُرْبِ قَلْبِي وَشَايَجَا ²

فهو يرى أن في زيارته له تكفيرا لذنوبه، متمنيا زيارة قبره الكريم والوصول إليه.

5-4- الحنين والشوق إلى المرافق النبوية:

ينضوي هذا اللون من الشعر ضمن المدائح النبوية، لأن الشعراء غالبا ما يربطون بين الرسول الكريم وبين الحديث عن الأماكن المقدسة باعتبار أن الحديث عن مكة أو المدينة إنما هو حديث عن الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو من أكثر الألوان علوقا بقلوب الأندلسيين.

¹ - لسان الدين بن الخطيب. الإحاطة في أخبار غرناطة، ج2. ص: 235 .

² - ابن الجنان الأنصاري . الديوان . ص: 77.

يقول ابن عربي* يتلهف على الكعبة ويزداد شوقاً إليها وهو يطوف حولها:

إِنِّي إِلَى الْكَعْبَةِ الْغَرَاءِ مُشْتَاقٌ فِيهَا لِعَاشِقِهَا فِي السِّرِّ أَعْلَاقٌ
إِذَا تَذَكَّرْتُ أَسْرَارِي وَمَشْهَدُهَا فِيهَا تُحَرِّكُنِي لِلْبَيْنِ أَشْوَاقٌ
فَالرُّوحُ تَائِهَةٌ وَالنَّاسُ وَالِهَةٌ وَالْقَلْبُ مُحْتَرِقٌ وَالِدَمْعُ مِهْرَاقٌ¹

ويقترّب ابن عربي من الكعبة عند الطواف ويلصق كعبه بها فلا يكون شيء أدنى إليها منه. مع هذا الدنو والالتصاق يحس في نفسه شوقاً لاهيا، لأنه وهو دان بجسمه وعنصر ترابه لم تزل روحه نائية بعيدة لم تحظ بما كانت تأمله، ويشتد حنينها إلى أن تدرك من معاني الروحانية فوق ما أدركه ذلك القرب البدني وروحه لم تعلق إلى الباقيات، أما جسده فهو يعلق بالفانيات. كأنه الشاعر الغزل الذي يقول:

أَعَانِفُهَا وَالنَّفْسُ بَعْدُ مَشْوَقَةٌ إِلَيْهَا وَهَلْ بَعْدَ الْعِنَاقِ تَدَانِي²

وشوق ابن عربي يتجدد كلما تذكر الأسرار الروحانية التي جاءت ببيانها الآثار من مرور ألوف عديدة من الملائكة المسبحين المهلّين بالبيت المعمور المغشى بالنور والمقابل لهذا البيت كل يوم.

ومن الشعراء الذين أضناهم الشوق إلى بيت الله الحرام وتعذر عليهم الوصول إليه، يحي بن بقي أبو بكر المعروف بـ السلاوي، الذي يقول:

يَا حِدَاةَ الْعَيْسِ مَهْلًا فَعَسَى يَبْلُغُ الصَّبُّ لَدَيْكُمْ أَمَلًا
لَا أَخَافُ الدَّهْرَ إِلَّا حَادِيًا ظَلْتُ أَخْشَاهُ وَ أَخْشَى الْجَمَلًا
أَوْدَعُونِي حَرَقًا إِذْ وَدَّعُوا غَادَرُوا الْقَلْبَ بِهَا مُشْتَعَلًا
أَهٍ مِنْ جِسْمٍ غَدَا مُسْتَوِطِنًا وَ فَوَادٍ قَدْ غَدَا مُرْتَحِلًا
شَعْبَةٌ شَرْقًا وَ أُخْرَى مَغْرِبًا مِنْ لَهْدَيْنِ بَأْنَ يَشْتَمَلًا

* هو الشاعر محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الحاتمي الطائي، الملقب بمحيي الدين ، ويعرف بابن عربي. ولد بمرسية في 17 رمضان سنة 560هـ. انتقل مع والده إلى مدينة اشبيلية، فحظ القرآن الكريم من عدة مشايخ، منهم أبو بكر بن خلف، أبو القاسم السراط القرطبي وغيرهم كثير. كان كثير التنقل و الترحال، وأن تغربه كان تغرباً روحياً، تمثل في اللجوء إلى الله تعالى باحثاً عن الحقائق الإلهية. شعره يعبر فيه عن حنينه وشوقه إلى الذات الإلهية وكذا إلى الأماكن المقدسة .

¹ - محيي الدين بن عربي، محمد بن علي بن محمد الحاتمي الطائي الأندلسي. ترجمان الأشواق. دار صادر، بيروت، لبنان. ط1. ص: 171.

² - المصدر نفسه . ص : 172.

يَا رَجَالًا بَيْنَ أَعْلَامِ مَنِيٍّ التُّمُوا الْأَسْتَارَ وَ اسْعُوا زَمَلًا
وَقِفُوا فِي عَرَافَاتٍ وَقْفَةً تَمَحُّوا عَن ذِي زَلَّةٍ مَا عَمِلَا
وَإِذَا زُرْتُمْ وَلَا حَتَّ يَثْرِبُ فَاكْحُلُوا بِالنُّورِ مِنْهَا الْمَقْلَا¹

فمناسبة قول هذه القصيدة هي توديع موكب الحجيج، الذي خانه الحظ في أن يكون واحدا من أفرادهِ.

ومثله الأديب الرحالة محمد ابن جبير البنسي الذي اشتد به الشوق إلى البقاع المقدسة يوم عرفات فخاطب الحجاج مهنتاً، ولكنه لم يستطع مفارقتهم بقلبه فنتبعم بروحه وخياله وهم يؤدون مناسكهم حيث يقول:

يَا وَفُودَ اللَّهِ فُزْتُمْ بِالْمَنِيٍّ فَهَنِيئًا لَكُمْ أَهْلُ مَنِيٍّ
قَدْ عَرَفْنَا عَرَافَاتَ مَعَكُمْ فَلِهَذَا بَرَحَ الشُّوقُ بِنَا
نَحْنُ بِالْمَغْرِبِ نَجْرِي ذِكْرَكُمْ فَعُرُوبُ الدَّمْعِ تَجْرِي هُنَا
أَنْتُمْ الْأَحْبَابُ نَشْكُو بَعْدَكُمْ هَلْ شَكُوتُمْ بَعْدَنَا مِنْ بَعْدِنَا؟
عَلَّنَا نَلْقَى خِيَالًا مِنْكُمْ بِلَذِيذِ الذِّكْرِ وَهَنَا عَلَّنَا
لَوْ حَنَا الدَّهْرُ عَلَيْنَا لَقَضَى بَاجْتِمَاعِ بِكُمْ بِالْمَنْحَى²

وأشد كذلك ابن جبير أول رحلته:

طَالَ شَوْقِي إِلَى بَقَاعِ ثَلَاثٍ لَا تُشَدُّ الرَّحَالَ إِلَّا إِلَيْهَا
أَنَّ لِلنَّفْسِ فِي سَمَاءِ الْأَمَانِي طَائِرًا لَا يَحُومُ إِلَّا عَلَيْهَا
قَصَّ مِنْهُ الْجَنَاحُ فَهُوَ مَهِيضٌ كُلَّ يَوْمٍ يَرْجُو الْوُقُوعَ لَدَيْهَا³

حيث يعتبر ابن جبير أكثر تعلقاً وحنيناً إلى الديار المقدسة. حيث حن إلى زيارة المساجد الثلاث وهي مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى، مشبها نفسه بالطائر. والأمثلة على ذلك كثيرة منها ما نجده في قصيدة ابن الجنان الجيمية التي بدأها بتذكرة لركب الحجيج الذهاب إلى مكة. معبرا عن حنينه إلى تلك الرحاب في قوله:

تَذَاكَرْنَ ذِكْرِي أَوْ تَهَيَّجُ اللَّوَاعِجَا فَعَالِجِنَ أَشْجَانَا يُكَاثِرْنَ عَالِجَا

¹ - التجيبي المرسي ، أبو بحر صفوان ابن إدريس . زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر، تحقيق ،

عبد القادر محداد ، دار الرائد العربي، بيروت ، 1980م . صص : 158 - 159.

² - ابن جبير. الرحلة . ص : 28 .

³ - المصدر نفسه . ص : 29 .

رَكَابًا سَرَّتْ بَيْنَ الْعُذَيْبِ وَبَارِقِ نَوَائِيحٍ فِي تِلْكَ الشَّعَابِ نَوَاعِجًا¹

ثم يمضي قي وصف ركب الحجيج، وقطعه للمسافات الشاسعة لا يأبه بالمشاق والأهوال. ثم يظهر حنينه إلى البيت الحرام حيث يصف توجه ذلك الركب إلى مكة وقد حطت ركابهم وأخذوا في تأدية مناسكهم وما فرض عليهم، يقول:

فَلِلَّهِ رَكْبٌ يَمَّمُوا نَحْوَ مَكَّةَ لَقَدْ كَرُمُوا قَصْدًا وَحَلُّوا مَنَاسِجًا
فَبَشَّرَى لَهُمْ كَمْ خَوْلُوا مِنْ كَرَامَةٍ فَكَانَتْ لِمَا قَدْ قَدَّمُوهُ نَتَائِجًا²

ويصف وصول الركب إلى وادي (الأراك)، وهو أحد الأودية القريبة من مكة المكرمة حيث نزل وخط رواجه طلبا للراحة، ثم يصور المسير واصفا حنين ذلك الركب إلى تلك البقاع، ولما يعتريهم من رغبة وشوق عارمين الوصول إلى تلك الديار، يقول:

تَيْمَّنْ مِنْ وَادِي الْأَرَاكِ مَنَازِلًا فَيَطْوِينَ آلا فِي الْأَرَاكِ سَجَا سَجَا
لَهُنَّ مِنَ الْأَشْوَاقِ حَادٍ فَإِنْ وَنْتَ حِدَاةً يَرْجِعْنَ الْحَيْنِ أَهَازِجًا*³

ويتذكر الأماكن الحجازية والمقدسة، ويظهر تلهفه وحنينه إليها من خلال تكرار لتلك المواضع. حيث يصف وصول الركب إلى (منى) و(جبل الصفا) و(مكة المكرمة). وقد قضاوا مناسكهم راجين من الله القبول، يقول:

أَلَا يَا بِي تِلْكَ الرِّكَابِ إِذَا سَرَّتْ رُسُومًا عَلَى تِلْكَ الرُّسُومِ عَوَالِجًا
لَهُمْ فِي مَنَى أَسْنَى الْمَنَى وَلَدَى الصَّفَا يَرْجُونَ مِنْ أَهْلِ الصَّفَا الْمَنَاهِجَا
فَلِلَّهِ رَكْبٌ يَمَّمُوا نَحْوَ مَكَّةَ لَقَدْ كَرُمُوا قَصْدًا وَجَلُّوا مَنَاسِجًا⁴

ويعتبر ابن الجنان أكثر شعراء المديح النبوي، فقصائده تعبر عن الحنين إلى الديار المقدسة، يقول:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي لِلضَّرُورَةِ هَلْ أَرَى إِلَى اللَّهِ وَالْبَيْتِ الْمَحَجَّبِ خَارِجَا
لَهُ اللَّهُ مِنْ ذِي كُرْبَةٍ لَيْسَ يُرْتَجَى لِمَرْتَحِلِ يَوْمًا سِوَى اللَّهِ فَارِجَا⁵

¹ - ابن الجنان الأنصاري . الديوان . ص : 74 .

² - المصدر نفسه . ص : 76 .

* الهزج : ضرب من الأغاني .

³ - ابن الجنان الأنصاري . الديوان . ص : 74 .

⁴ - المصدر نفسه . ص : 74 .

⁵ - المصدر نفسه . ص : 74 .

حيث يظهر الشاعر مدى أسفه من تخلفه عن ذلك الركب، فقد علل تعذر ذهابه بكثرة ذنوبه وخطاياها فامتزج حنينه إلى البيت الحرام بذلك الحزن الذي خيم عليه، حيث أظلمت الدنيا في وجهه، وصار لا يبصر سوى الظلام، يقول:

وَقَدْ أَسْهَمَتْ شَتَّى الْمَسَالِكِ دُونَهُ فَلَا نَهَجَ يُلْقَى فِيهِ اللَّهُ نَاهِجًا
يُخَوِّضُ بَحَارَ الذَّنْبِ لَيْسَ يَهَابُهَا وَيَصْنَعُ دُعْرًا أَنْ يَرَى الْبَحْرَ هَائِجًا
فَوَا حَرْبًا قَدْ لَاحَ الصَّبَاحُ لِمَبْصِرٍ وَقَلْبِي لَمْ يَبْصُرْ سِوَى اللَّيْلِ إِذْ سَجَا¹

فتجربة الشاعر الأندلسي لتلك الأماكن يؤكد لنا ما يجيش في خاطره من ألم وحنين بسبب بعد المسافة بين الأندلس والأماكن المقدسة .

وقد يأتي الشوق إلى المدينة من خلال الحنين إلى ساكنها عليه أفضل الصلاة والسلام، على نحو ما نجد في قول حازم القرطاجني من قصيدته الرائية التي عبر فيها عن حنينه إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث قال:

قِفْ بَيْنَ قَبْرِ مُحَمَّدٍ وَ الْمُنْبَرِ وَقُلِ السَّلَامَ عَلَى السَّرَاجِ الْأَنْوَرِ
وَاسْتَنْشِقْ طِيبَ نَسِيمِ طَيْبَةٍ فِي الصَّبَا وَاسْأَلْ نَسِيمَ الرِّيحِ عَنْهَا تَخْبِرُ
وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى سَنَا إِشْرَاقِهَا فَأَهْلُ شُكْرًا لِلَّهِ وَكَبَّرُ²

فابن حازم يتشوق ويحن إلى رؤية المدينة، وليس الحنين إلى المدينة فقط ، بل الحنين كذلك إلى الرسول الكريم وقبره .

وها هو ابن الأبار يظهر شوقه وحنينه إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ويتمنى أن يحظى بزيارة مدينته، يقول:

لَوْ عَن لِي عَوْنٌ مِنَ الْمِقْدَارِ لَهَجَرْتُ لِلدَّارِ الْكَرِيمَةِ دَارِي
وَحَلَلْتُ أَطْيَبَ طَيْبَةٍ مِنْ طَيْبَةٍ جَارًا لِمَنْ أَوْصَى بِحِفْظِ الْجَارِ³

فابن الأبار أحد الشعراء الذين انتابهم الشعور بالغرابة، وتمنى الوصول إلى تلك الديار، حيث عبر عن تجربة شعورية أحس بها أغلب الأندلسيين، والشعراء منهم بخاصة. يقول أحد الباحثين: « وشعر الأبار في المديح والشوق إلى زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم لا

¹ - ابن الجنان الأنصاري . الديوان . ص : 74 .

² - حازم القرطاجني . الديوان . ص : 58 .

³ - ابن الأبار . الديوان . ص : 365 .

يقارن بما كتب في الموضوع من مدائح و تشوقات . ولكنه مع ذلك شعر منبعث عن إخلاص وحب صميم، شعر كتب في وقت شعر ابن الأبار بالحاجة إلى من يعتمد عليه، ومن يلجأ ليحيمه، ويضمن له السلامة»¹ .

وتحتل طيبة مدينة الرسول ﷺ مكانة كبيرة في قلوب الشعراء الأندلسيين، فقد ورد ذكرها والشوق إليها في كثير من قصائدهم. مثلما نرى عند ابن جبير الذي اشتد حنينه إلى الديار المقدسة، ومدينة الرسول ﷺ فهو يرى أن السعادة قد ضمنت لكل من نال الوصول إليها، وحج بيت الله، وقضى مناسكه، وحط عن النفس ذنوبها وأوزارها، يقول:

هَنِيئًا لِمَنْ حَجَّ بَيْتَ الْهُدَى وَحَطَّ عَنِ النَّفْسِ أَوْزَارَهَا
وَأَنَّ السَّعَادَةَ مَضْمُونَةٌ لِمَنْ حَجَّ طَيْبَةَ أَوْزَارَهَا²

ويمضي ابن جبير في وصف حنين، فيتذكر مع أصحابه مدينة الرسول ﷺ، فتختلج قلوبهم، وتزداد شوقا وحنينا إلى مدينة الرسول الكريم، وقد نسوا ما عنوه من تعب ومشقة. يقول :

وَكُنَّا شَكُونًا عَنَاءَ السَّرَى فَعُدْنَا نُبَارِي سِرَاعِ الْمَهَارَا
جَرَى ذِكْرِي طَيْبَةَ مَا بَيْنَنَا فَلَا قَلْبَ فِي الرَّكْبِ إِلَّا وَطَارَا
حَنِينًا إِلَى أَحْمَدِ الْمُصْطَفَى وَشَوْقًا يَهِيْجُ الضُّلُوعَ اسْتِعَارَا³

ويدنو الركب من مشارف المدينة، وقد لاح له جبل أحد مشرقا، وبعد وصولهم إلى مسجد الرسول ﷺ أخذت السكينة تملأ قلوب القوم، في مشهد عجيب، وبدؤوا من الاقتراب من القبر الشريف، وأخذت السكينة والحنين يملآن قلوب الزائرين، يقول:

وَلَا حَ لَنَا أَحَدٌ مَشْرِقًا بِنُورٍ مِنَ الشُّهَدَاءِ اسْتِعَارَا
وَلَمَّا حَلَلْنَا فِنَاءَ الرَّسُولِ نَزَلْنَا بِأَكْرَمِ مَجْدِ جَوَارَا
وَحِينَ دَنَوْنَا لِفَرَضِ السَّلَامِ قَصَرْنَا الْخُطَا وَلَزِمْنَا الْوَقَارَا
وَلَا نُنْظِرُ الْوَجْدَ إِلَّا اِكْتِتَامَا وَلَا نَلْفِظُ الْقَوْلَ إِلَّا سِرَارَا⁴

¹ - عبد العزيز عبد المجيد . ابن الأبار حياته وكتبه . الطبعة الحسنية ، تطوان، المغرب ، 1954م .
صص : 367-368 .

² - لسان الدين ابن الخطيب . الإحاطة في أخبار غرناطة ، ج3 . ص : 235 .

³ - المصدر نفسه . ص : 235 .

⁴ - المقرئ . نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ج3 . ص : 108 .

حيث يتجلى أثر الحنين والشوق إلى الرسول الكريم ومدينته التي ألهمت مشاعره .
كما نجده شديد الحرص على قضاء مناسك الحج، وزيارة مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم . وتبليغه السلام إليه معبرا عن حنينه وشوقه إلى الديار وكذا طيبة . يقول :

حَرَامٌ أَنْ يَلِدَّ لِي اءَعْتِمَاصٌ وَلَمْ أَرْحَلْ إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ
وَلَا طَافَتْ بِي الْأَمَالُ إِنْ لَمْ أَطْفُ مَا بَيْنَ زَمْرَمٍ وَ الْمَقَامِ
وَلَا طَابَتْ حَيَاةٌ لِي إِذَا لَمْ أَرْزُ فِي طَيْبَةِ خَيْرِ الْأَنَامِ
وَأَهْدِيهِ السَّلَامَ وَأَقْتَضِيهِ رِضَا يَدْنِي إِلَى دَارِ السَّلَامِ¹

أما مالك بن المرحل فيخاطب أهل (طيبة) الذين جاؤوا قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلم نيل الفضل الكبير من الله تعالى، حيث نلمس أثر حنين الشاعر إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وتلفهه إلى زيارة تلك الأماكن ، يقول :

يَا أَهْلَ طَيْبَةِ طَابَ الْعَيْشُ عِنْدَكُمْ جَاوَزْتُمْ خَيْرَ مَبْعُوثٍ مِنَ الْأُمَمِ
عَايَنْتُمْ جَنَّةَ الْفِرْدَوْسِ عَنْ كَثْبٍ فِي مَهْبَطِ الْوَحْيِ وَالْآيَاتِ وَالْحَكَمِ²

ونعود إلى حازم القرطاجني في قصيدته الحجازية التي ضمنها أعجاز أبياتها معلقة امرئ القيس ، فيقول :

لِعَيْنَيْكَ قُلْ إِنْ زُرْتِ أَفْضَلَ مُرْسَلٍ قِفَا نَبِّكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزَلٍ
وَ فِي طَيْبَةٍ فَاَنْزَلْ وَلَا تَغْشَ مَنْزِلًا بِسِقْطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلٍ
وَزُرْ رَوْضَةً قَدْ طَالَ مَا طَابَ نَشْرُهَا لَمَّا نَسَجْتَهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمَالٍ³

فشوق وحنين حازم القرطاجني إلى المدينة من خلال الحنين إلى من يسكنها، ونقصد بذلك الرسول الكريم .

وقال ابن عربي يذكر المدينة المنورة والمسجد النبوي بها ويذكر فضل رسول الله وذكره الذي رفعه الله في قوله سبحانه وتعالى: (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)⁴ .

يَا حَبْدًا الْمَسْجِدُ مِنْ مَسْجِدٍ وَحَبْدًا الرَّوْضَةُ مِنْ مَشْهَدٍ

¹- لسان الدين ابن الخطيب . الإحاطة في أخبار غرناطة ، ج 3 . ص : 315 .

²- المصدر نفسه . ص : 315 .

³- حازم القرطاجني . الديوان . ص: 89 .

⁴- سورة الشرح . الآية : 04 .

وَحَبَدًا طَيْبَةً مِنْ بَلَدَةٍ فِيهَا ضَرِيحُ الْمُصْطَفَى أَحْمَدِ
 صَلَّى عَلَيْهِ اللَّهُ مِنْ سَيِّدِ لَوْلَاهُ لَمْ نَعْلَمْ وَ لَمْ نَهْتَدِ
 قَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ ذِكْرَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ فَأَعْتَبِرُ تَرْشِدِ
 عَشْرُ خَفِيَّاتٍ وَ عَشْرُ إِذَا أُعْلِنَ بِالتَّأْدِينِ فِي الْمَسْجِدِ
 فَهَذِهِ عَشْرُونَ مَقْرُونَةً بِأَفْضَلِ الذِّكْرِ إِلَى الْمَوْعِدِ¹

يمدح ابن عربي مسجد الرسول في المدينة لأنه ثاني ثلاثة المساجد التي يرتحل إليها: المسجد الحرام مسجد المدينة ومسجد إيليا أي المسجد الأقصى في بيت المقدس ، والذي كان إليه الإسراء كما في حديث النبي .

وبمدح الروضة التي بين القبر والمنبر وهي التي قال فيها الرسول عليه الصلاة والسلام : "ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة" وقد أراد أيضا ما يشير إليه المنبر من دعوة الخير وما يشير إليه القبر من عظات. فكأن المشهد ممدوح لمكان النبي فيه ولأن الواقف ملب للدعوة متعظ بالعبرة. وليس أعظم دعوة من الإسلام ولا أكبر عظة من موت الرسول .

ويمدح ابن عربي طيبة كلها، وطيبة اسم من أسماء المدينة، ويعلل لمدحه لها بأن فيه ضريح النبي المختار المحمود. ثم هو يصلي عليه صلاة المؤمن بالألفاظ الشرعية التي علمنا الله إياها في قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)².

أما ابن الصباغ فهو كذلك حنينا شديدا إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، يقول:

فِيَا فَوْزَ مَنْ فَازَ فِي طَيْبَةٍ بِلِثْمِ الْمَغَانِي جِدَارًا جِدَارًا
 وَأَلْصَقَ خَدًّا عَلَى تَرْبِهَا وَأَكْمَلَ حَجًّا بِهَا وَاعْتَمَارًا
 وَأَهْدِي السَّلَامَ لِخَيْرِ الْأَنَامِ عَلَى حِينِ وَافَى عَلَيْهِ مَزَارًا
 فَيَا هَادِيَ الْخَلْقِ دَارَ نَعِيمٍ تَنَاهَتْ جَمَالًا وَطَابَتْ قَرَارًا³

وقصد بهذه القصيدة معارضة قصيدة الشهاب محمود التي نظمها بالحجاز في طريق المدينة المشرفة على ساكنها الصلاة والسلام، وهي طويلة، ومطلعها :

¹ - محي الدين بن عربي . ترجمان الأشواق . ص : 33 .

² -سورة الأحزاب . الآية :56.

³ - المقري . نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ج 5 . ص: 510 .

وَصَلْنَا السَّرَى وَهَجَرْنَا الدِّيَارَا
وَجِئْنَاكَ نَطْوِي إِلَيْكَ الْقَفَارَا¹

أما ابن زمرك فيمزج حنينه وشوقه من خلال جمعه بين مدينة طيبة وقبر الرسول، حيث يقول :

يُؤْمُونَ مِنْ قَبْرِ الشَّفِيعِ مَثَابَةً
تَطْلُعُ مِنْهَا جَنَّةٌ ذَاتُ أَفْنَانِ
إِذَا نَزَلُوا مِنْ طَيْبَةِ بَجْوَارِهِ
فَأَكْرِمِ مَوْلَى ضَمِّ أَكْرَمِ ضَيْفَانِ
بِحَيْثُ عَلَا الْإِيمَانُ وَامْتَدَّ ظِلُّهُ
وَرَانَ حَلَى التَّوْحِيدِ تَعْطِيلُ أُوثَانِ
مَطَالِعُ آيَاتٍ، مَثَابَةُ رَحْمَةٍ
مَعَاهِدُ أَمْلَاكِ ، مَظَاهِرُ إِيْمَانِ
هَنَّاكَ تَصَفُّو لِلْقَبُولِ مَوَارِدُ
يَسْقُونَ مِنْهَا فَضْلَ عَفْوٍ وَغَفْرَانِ²

فالشاعر لم يحن إلى مدينة الرسول فقط، بل يطلب الشفاعة أيضا من الرسول الأعظم .
ويسوق لسان الدين بن الخطيب قصيدة لأبي القاسم محمد بن إبراهيم بن محمد بن حميد التجيبي في المدح النبوي، يعرض الشاعر في مقدمتها لاضطرار نار الشوق والهوى في قلبه. وقد أنارتها بروق أبرقت في الحجاز وسرت بها أنفاس الصبا على بطحاء مكة فإذا هو يصيح قائلا :

يَا صَاحِ إِنْ جِئْتُ الْخِيَامَ بِيْتْرِبِ
وَتَوْبْتُ مِنْ ذَاكَ الْحِمَى بِمَكَانِ
وَسَرَيْتُ فِي تَلْكَ الْأَجَارِعِ وَالرُّبَى
وَحَرَرْتُ فِي وَاوِيهِ فَضْلَ عَنَانِ
فَأَنْشُرُ لِيَوَاءَ مَحَبَّتِي بِفِنَائِهِ
وَأَفْضُضُ هُنَاكَ خَوَاتِمَ الْكِنْمَانِ
وَاشْرَحْ قَضِيَّاتِ الْهَوَى وَأَقِمْ عَلَى
صِدْقِ الْمَحَبَّةِ وَاصِحِ الْبُرْهَانِ
وَالثَّمَّ بِطَيْبَةِ قَبْرِ مَنْ حَبَسَتْ لَهُ
شَمْسُ النَّهَارِ وَخُصَّ بِالْفَرْقَانِ³

فهذه القصيدة تصور حنين الشاعر إلى المدينة المنورة، ومدى عشقه لتلك الأجارع والربا .
فالشوق إلى مكة والمدينة مدعاة للحديث عن الرسول الكريم، والحديث عنه صلى الله عليه وسلم مدعاة للحديث عن صفاته وأخلاقه ومعجزاته، والحديث عن كل هذا ينمي ويزيد من عظمته في

¹ - المقري . نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ج.5. ص : 511 .

² - المصدر نفسه . ص : 48 .

* الأجارع : أراض رملية .

³ - لسان الدين ابن الخطيب ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن الخطيب. الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، تحقيق، إحسان عباس، دار الثقافة ، بيروت، لبنان ، 1983م.

ص : 303 .

قلب المادح، الأمر الذي يجعله يهفو إلى نيل شفاعته في الآخرة (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)¹ .

5-5- التوسل إلى النبي بأساليب الرجاء لنيل الشفاعة في الآخرة: فقد قال الشعراء قصائد في مدح النبي ﷺ أو الحنين إلى مرابعه، وهذا قصد نيل العون في الدنيا والشفاعة في الآخرة. فالشاعر الأندلسي يتضرع إلى الله تعالى أن يصل إلى تلك الرحاب الطاهرة. وأن ينال شفاعته رسوله الكريم يوم القيامة، متمنيا زيارة قبره الشريف، أو مكتفيا بإرسال السلام مع الزائرين، يقول ابن الأبار:

يَا زَائِرِينَ الْقَبْرِ قَبْرُ مُحَمَّدٍ بُشْرَى لَكُمْ بِالسَّبْقِ فِي الزُّوَارِ
أَدُوا السَّلَامَ سَلَمْتُمْ وَبَرْدُهُ أَرْجُوا الْإِجَارَةَ مِنْ وُرُودِ النَّارِ²

فهو يتمنى زيارة قبر النبي ﷺ ونيل شفاعته.

أما أبو زيد الفاززي فيمضي في تصوير حنينه إلى الرسول ﷺ، مظهرا ذلك من خلال حبه له فيرى بأن محبته تقود إلى رضا الله. وتأخذ الأبيات التالية من القصيدة منحى الشعور بالذنب أيضا. ويرى أن روحه متعلقة بزيارة قبر النبي ﷺ، الذي يأمل شفاعته:

لَكِنْ حُبِّكَ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ يَغْشَى مَحَبَّكَ يَمْنَهُ وَأَمَانَهُ
وَعَلَيْكَ يَا خَيْرَ الْأَنَامِ تَحِيَّةً كَالرَّوْضِ صَافِحِ رُوحَهُ رِيحَانَهُ
مِمَّنْ يَزُورُكَ خَطُّهُ وَكَلَامُهُ إِذْ لَمْ يَزُرْكَ لِدُنْبِهِ جُثْمَانُهُ³

فما يلاحظ على أبيات الفاززي حنينه إلى الرسول الكريم وقبره، راجيا منه شفاعته .
ويقول ابن الجنان:

فَإِذَا مَا تَذَكَّرْتُ الذَّنْبَ فَاضَتْ مُقْلَتَاهُ وَاعْرُورِقَتْ بِالدَّمُوعِ
لَا تُخَيِّبُ رَجَاهُ إِنَّهُ مِنْ رَبِّهِ خَائِفٌ كَثِيرُ الْخُشُوعِ⁴

ويمضي في حنينه إلى الرسول ﷺ، متوسلا عليه، متشفعا به. وقد وثقت به نفسه التي أصابها الضعف والهوان، على نحو ما يلقانا في إحدى مقطوعاته، حين قال:

إِلَى أَحْمَدِ الْمُخْتَارِ نَهْدِي تَحِيَّةً تَفَاوُحُ رَوْضِ الْحُزْنِ بِاللَّهِ الْمَرْنُ

¹ - سورة الشعراء .الآيتان :88-89 .

² - المقري . نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ج 3 . ص:195.

³ - عبد الحميد عبد الله الهرامة . آثار أبي زيد الفاززي . ص:37 .

⁴ - المقري . نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ج 9 . ص:350.

بِهِ وَثَقْتُ نَفْسِي الضَّعِيفَةَ بَعْدَمَا
أَصَّرَ بِهَا مِنْ ضَعْفِ قُوَّتِهَا الْوَهْنُ
إِلَيْهِ صَلَاتِي قَدْ بَعَثَتْ مَشْفَعًا
سَلَامًا بِهِ الْإِحْسَانُ يَنْسَاقُ وَالْحَسَنُ¹

فابن الجنان قد أصاب نفسه الضعف، نتيجة شوقه إلى الرسول الأعظم، طالبا منه الشفاعة .

أما ابن جبير فيقول في قصيدة تتألف من ثلاثين بيتا، نكتفي بالاستشهاد بالبيتين الآتين:

عَسَى لَحْظَةً مِنْكَ لِي فِي غَدٍ
تُمْهِّدُ لِي فِي الْجَنَانِ الْقَرَارَا
فَمَا ضَلَّ مَنْ بِمِسْرَاكِ اهْتَدَى
وَلَا ذَلَّ مَنْ بِذِرَاكِ اسْتَجَارَا²

فهنا يتجلى أثر الحنين والشوق إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، والثناء عليه، وختمها بالدعاء والرجاء بنيل شفاعة الرسول الكريم.

ونعود مرة أخرى إلى ابن الجنان من خلال قصيدته هذه التي تتألف من تسعة وعشرين

بيتا، تظهر حنين الشاعر وتعلقه بتلك الأماكن الظاهرة، يقول:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي لِلضَّرُورَةِ هَلْ أَرَى
إِلَى اللَّهِ وَالْبَيْتِ الْمَحَبَّبِ خَارِجَا
لَهُ اللَّهُ مِنْ ذِي كُرْبَةٍ لَيْسَ يُرْتَجَى
لِمَرْتَحِلٍ يَوْمًا سِوَى اللَّهِ فَارِجَا
وَقَدْ أَسْهَمْتُ شَتَّى الْمَسَالِكِ دُونَهُ
فَلَا نَهَجَ يَلْقَى فِيهِ اللَّهُ نَاهِجَا³

يتمنى أن يكرمه الله بالوصول إليها وزيارتها، وأن يحظى بزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، ونيل شفاعته يوم القيامة.

5-6- المولديات الخاصة باحتفالات عيد المولد النبوي الشريف: فالموضوع الأساسي

في القصيدة المولدية هو مدح الرسول صلى الله عليه وسلم والإشادة بليلة مولده وتعداد صفاته، ولا ينسى الشعراء الالتفات إلى ولي نعمتهم وذلك بذكر نبله وكرمه وعدله.

فيعد تعظيم ليلة المولد النبوي الشريف من أهم العناصر التي تدخل في بناء القصيدة المولدية وهي المناسبة التي من أجلها أنشئت هذه القصيدة، والإشادة بفضل ليلة المولد النبوي الشريف. يقول محمد بن يحيى الغساني البرجي في قصيدة نظمها بمناسبة المولد النبوي ومطلعها [من البسيط]:

¹ - المقري . نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ج 9 . ص: 252 .

² - لسان الدين ابن الخطيب . الإحاطة في أخبار غرناطة، ج 2 . ص : 236 .

³ - ابن الجنان الأنصاري . الديوان . ص : 77 .

أَصْعَى إِلَى الْوَجْدِ لَمَّا جَدَّ عَاتِبُهُ
صَبَّ لَهُ شُغْلٌ عَمَّنْ يُعَاتِبُهُ

وبعد وصف تشوقه للديار المقدسة يقول:

مَعَاهِدٌ شَرُفَتْ بِالْمُصْطَفَى فَلَهَا
مِنْ فَضْلِهِ شَرَفٌ تَعْلُو مَرَاتِبُهُ

مُحَمَّدُ الْمُجْتَبَى الْهَادِي الشَّفِيعُ إِلَى
رَبِّ الْعِبَادِ أَمِينُ الْوَحْيِ عَاقِبُهُ

أَوْفَى الْوَرَى دِمَمًا أَمْسَاهُمْ هِمَمًا
أَعْلَاهُمْ كَرَمًا جَلَّتْ مَنَاقِبُهُ

هُوَ الْمُكَمَّلُ فِي خَلْقٍ وَ فِي خُلُقٍ
زَكَتْ حِلَاهُ كَمَا طَابَتْ مَنَاسِبُهُ

جَاءَتْ تُبَشِّرُنَا الرُّسُلُ الْكِرَامُ بِهِ
كَالصُّبْحِ تَبْدُو تَبَاشِيرًا كَوَاقِبُهُ

تَطَابِقَ الْكُونِ فِي الْبُشْرَى بِمَوْلِدِهِ
وَطَبِقُ الْأَرْضِ أَغْلَامًا تَجَاوِبُهُ

لَهُ مَقَامُ الرِّضَى الْمَحْمُودِ سَاهِدُهُ
فِي مَوْقِفِ الْحَشْرِ إِذْ نَابَتْ نَوَائِبُهُ

وَالرُّسُلُ تَحْتَ لِيَوَاءِ الْحَمْدِ يَقْدُمُهَا
مُحَمَّدٌ أَحْمَدُ السَّامِيِّ مَرَاتِبُهُ

لَهُ الشَّفَاعَاتُ مَقْبُولًا وَسَائِلُهَا
إِذَا دَهَى الْأَمْرُ وَ اشْتَدَّتْ مَصَاعِبُهُ

وَالْحَوْضُ يَرْوِي الصَّدَى مِنْ عَذْبِ مَوْرِدِهِ
لَا يَشْتَكِي غَلَّةَ الضَّمَانِ شَارِبُهُ

مَحَامِدُ الْمُصْطَفَى لَا يَنْتَهِي أَبَدًا
تَعْدَادُهَا هَلْ يُعَدُّ الْقَطْرُ حَاسِبُهُ¹

وبمناسبة عيد المولد أيضا نظم ابن زمرك قصيدة نبوية أنشدتها أمام سلطان الأندلس ومطلعها [من الطويل]:

لَعَلَّ الصَّبَا إِنْ صَافَحَتْ رَوْضَ نَعْمَانِ
تُؤَدِّي أَمَانَ الْقَلْبِ عَنْ ظَبِيَّةِ الْبَانِ

وفيها :

إِلَيْكَ رَسُولُ اللَّهِ دَعْوَةٌ نَارِحِ
خُفُوقَ الْحَشَا رَهْنُ الْمَطَامِعِ هَيْمَانِ

وَسِيْلَتِي الْعُظْمَى شَفَاعَتُكَ الَّتِي
يَلُودُ بِهَا عَيْسَى وَمُوسَى بِنِ عِمْرَانَ

فَأَنْتَ حَبِيبُ اللَّهِ خَاتَمُ رُسُلِهِ
وَأَكْرَمُ مَخْصُوصِ بَرْلُفَى وَرِضْوَانِ

وَحَسْبُكَ أَنْ سَمَّاكَ أَسْمَاءَهُ الْعُلَا
وَ ذَاكَ كَمَالَ لَا يَشَابُ بِنُقْصَانِ

وَأَنْتَ لِهَذَا الْكُونِ عِلَّةٌ كُونِهِ
وَلَوْلَاكَ مَا امْتَأَزَ الْوُجُودُ بِأَكْوَانِ

خُلَاصَةٌ صَفْوِ الْمَجْدِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ
وَنِكْتَةُ سِرِّ الْفَخْرِ مِنْ آلِ عَدْنَانَ

وَسَيِّدُ هَذَا الْخَلْقِ مِنْ نَسْلِ آدَمِ
وَأَكْرَمُ مَبْعُوثٍ إِلَى الْإِنْسِ وَالْجَانِ

وَكَمْ آيَةٌ أَطْلَعَتْ فِي أَفْقِ الْهُدَى
بَيِّنُ صَبَاحِ الرُّشْدِ مِنْهَا لِيَقْظَانَ

¹ - المقري . نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ج 6 . ص: 315.

وأكرمَ بآياتِ تحدّيتنا بها
وماذا عسى يثني البليغُ وقد أتى
ولاً مثلُ آياتِ لمُحكَمِ فُرقانِ
ثناؤك في وحيِ كَرِيمٍ وَقُرْآنِ¹

وفي الثالثة[من البسيط]:

ثمَّ الصلاةُ صلاةُ اللَّهِ دائمةً
المُجتبَى وزنادُ النورِ ما قدحتْ
والمُصطفى وَ كمامُ الكونِ ما فتقتْ
يا فاتحَ الرّسْلِ أو يا حَتْمَها شرفاً
علَى الَّذي بِاسمِهِ في الذِّكْرِ سَمَاهُ
ولاً ذكاً من نَسِيمِ الرّوضِ مسراهُ
عَنْ زُهرِ زُهرِ يَرُوقُ العَيْنُ مرأهُ
واللَّهُ قَدَسَ في الحالينِ مَعناهُ
لَمْ ادخِرْ عَيرَ حُبِّ فيكَ أرفعهُ
وسيلةً لكَريمِ يَوْمِ ألقاهُ
صَلَّى عَلَيْكَ إلهَ أَنْتَ صَفْوَتُهُ
ما طيبتِ بلذِيذِ الذِّكْرِ أفواهُ²

فهو يعبر عن خالص محبته للرسول صلی اللہ علیہ وسلم من خلال حنينه وتلهفه إليه .

6- أوجه التداخل بين المديح النبوي وشعر التصوف:

من أهم مميزات المديح النبوي أنه شعر ديني ينطلق من رؤية إسلامية، ويهدف إلى تغيير العالم المعاش وتجاوز الوعي السائد نحو وعي ممكن يقوم على المرجعية السلفية بالمفهوم الإيجابي. كما أن هذا الشعر تطبعه الروحانية الصوفية من خلال التركيز على الحقيقة المحمدية التي تتجلى في السيادة والأفضلية والنورانية. ويعني هذا أن المديح النبوي يشيد بالرسول صلی اللہ علیہ وسلم باعتباره سيد الكون والمخلوقات، وأنه أفضل البشر خلقاً وخلقا، وهو كذلك كائن نوراني في عصمته ودمائه أخلاقه. لذلك يستحق الممدوح كل تعظيم وتشريف، وهو أحق بالتمثل واحتذاء منهجه في الحياة، كما أن عشق الرسول صلی اللہ علیہ وسلم في القصيدة النبوية يتخذ أبعاداً روحانية وجدانية وصوفية .

وعلى أي حال، يتميز المديح النبوي بصدق المشاعر ونبيل الأحاسيس ورقة الوجدان وحب الرسول صلی اللہ علیہ وسلم طمعا في شفاعته ووساطته يوم الحساب. وما حب الرسول في القصيدة المدحية إلا مسلك للتعبير عن حب الأماكن المقدسة والشوق العارم إلى زيارة قبر الرسول صلی اللہ علیہ وسلم والوقوف على جبل عرفات والانتشاء بكل الأفضية التي زارها الحبيب أثناء مواسم العمرة والحج .

¹ - المقري . نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ج 7 . ص:145.

² - المصدر نفسه . ص:281 .

ويظهر الشاعر المادح في هذا النوع من الشعر الديني تقصيره في أداء واجباته الدينية والدينيوية، ويذكر عيوبه وزلاته المشينة وكثرة ذنوبه في الدنيا، مناجيا الله بصدق وخوف مستعظفا إياه طالبا منه التوبة والمغفرة. وينتقل بعد ذلك إلى الرسول صلى الله عليه وسلم طامعا في وساطته وشفاعته يوم القيامة. وغالبا ما يتداخل المديح النبوي مع قصائد التصوف وقصائد المولد النبوي التي تسمى بالمولديات

وتعرف المدائح النبوية كما يقول الدكتور زكي مبارك بأنها « فن من فنون الشعر التي أذاعها التصوف، فهي لون من التعبير عن العواطف الدينية، وباب من الأدب الرفيع؛ لأنها لا تصدر إلا عن قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص وهو فن ابتدعه الصوفية »¹.

ومن المعهود أن هذا المدح النبوي الخالص لا يشبه ذلك المدح الذي كان يسمى بالمدح التكسبي أو مدح التملق الموجه إلى السلاطين والأمراء والوزراء، وإنما هذا المدح خاص بأفضل خلق ألا وهو محمد صلى الله عليه وسلم ويتسم بالصدق والمحبة والوفاء والإخلاص والتضحية والانغماس في التجربة العرفانية والعشق الروحاني اللدني.

وعليه، فالمديح النبوي شعر ديني يركز على سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وفضائله النيرة، وقد رافق هذا الشعر مولده وهجرته ودعوته، كما واكب فتوحاته وحب آل البيت فانصهر في شعر التصوف ليصبح فنا مستقلا مع البوصيري وابن دقيق العيد.

فشعر المديح النبوي شعر صادق بعيد عن التزلف والتكسب، يجمع بين الدلالة الحرفية الحسية والدلالة الصوفية الروحانية. كما يندرج هذا الشعر ضمن الرؤية الدينية الإسلامية .

وكان للمتصوفة الذين بز وجودهم في القرن الثالث في حقبة الجنيدي(ت297هـ) والحلاج (ت309هـ) والشبلي(ت334هـ) أثر في التمهيد لفكرة المديح النبوي في قصائد مستقلة وربطه بالحب الإلهي، وأن الحلاج هو أول من أعد لفكرة الحقيقة المحمدية وأنه بحقيقته لا بصورته الجسدية يعد مبدأ العالم، إذ هو نور تفجرت من ينابيعه أنوار النبوات جميعا، بل هو مبدأ الوجود كله عندهم ونبعه الفياض السابق لكل موجود، أو بعبارة

¹ - زكي مبارك . المدائح النبوية في الأدب العربي . ط1 . منشورات المكتبة العصرية، صيدا ، بيروت،

أخرى، هو الحقيقة الإلهية السارية في الوجود¹ في تشابه كبير مع الثقافة المسيحية في اتحاد بين اللاهوت الذي هو روح الإلهية مع الناسوت الذي هو الروح الإنساني اللذان يؤلفان الطبيعة الثنائية للمسيح، ونقلها إلى الرسول ومن ثم إلى أقطاب المتصوفة وكان سببا في اتهامهم بالكفر والإلحاد كقول الحلاج:

أَنَا مَنْ أَهْوَى، وَمَنْ أَهْوَى أَنَا نَحْنُ رُوحَانِ حَلَّلْنَا بَدَنَنَا²

ونقل تلك الأفكار إلى قصيدة المديح النبوي عند الشعراء المتأثرين بهم، وتوصيف الرسول الكريم بما يعجز العقل عن تفسيره، كما كان لهم تأثير في تغيير نمط النسيب في قصائد المديح النبوي إلى مقدمات فيها تشبيب بالأرض الحجازية والهوى العذري والأسماء الرمزية... وغيرها من الألفاظ التي نجدها في قصائدهم، كقول البوصيري:

يَا لَأَنِمِّي فِي الْهَوَى الْعَذْرَى مَعْدِرَةً مَنِّي إِلَيْكَ وَلَوْ أَنْصَفْتُ لَمْ تُلِّمْ³

وهو القول الذي نجده عند نظيره ابن الفارض الصوفي(ت632هـ):

يَا لَأَنِمَّا فِي حُبِّهِمْ سَفَهَا كَفَّ الْمَلَامَ فَلَوْ أَحْبَبْتُ لَمْ تُلِّمْ

في قصيدة مطلعها:

هَلْ نَارٌ لَيْلَى بَدَتْ لَيْلًا بِذِي سَلَمٍ أَمْ بَارِقٌ لَاحَ فِي الزُّورَاءِ فَالْعَلَمُ⁴

ويبدو أن القدسية التي أضفاها الشعراء على شعرهم النبوي قد جعلت من اتصال هذا الشعر بالشعر الصوفي أمرا مستساغا لدى الشعراء، فامتألت بمصطلحات التصوف وأحواله وموضوعاته، وغدا الرسول محورا من محاور التصوف في هذا القرن. لقد بلغ حب الرسول في نفوس شعرائنا مبلغا من سمو، جعلهم يعلنون فناءهم فيه . ولعل هذه النغمة الصوفية التي غزت شعر المديح النبوي كانت واحدا من أسباب الغلو في تناول الذات المحمدية في هذا الشعر، إذ كادوا بغلوهم هذا يخرجون الرسول الكريم عن طور البشرية ويدخلون طور أعلى وأسمى، فهو في رأيهم سبب هذا الوجود.

¹ - شوقي ضيف. تاريخ الأدب العربي(العصر العباسي الثاني).ط4.دار المعارف، مصر،(د،ت).ص:481.

² - المرجع نفسه . ص : 480.

³ - البوصيري . الديوان . ص : 190 .

⁴ - عمر بن الفارض ، حياته وشعره . مكتبة كرم، دمشق،(د،ت). ص: 67.

الفصل الثاني

ترجمة لحياة الشعراء ودراسة ديوانيهما

المبحث الأول: ترجمة لحياة الشعراء:

لسان الدين بن الخطيب، ابن جابر الأندلسي

المبحث الثاني: دراسة الديوانين: الأغراض والموضوعات

المبحث الثالث: موضوعات قصيدة المديح النبوي

عند الشعراء

المبحث الرابع: الموازنة بين لسان الدين وابن جابر

من حيث الموضوعات والقوافي

I- ترجمة حياة الشاعرين: لسان الدين بن الخطيب و ابن جابر الأندلسي

1- لسان الدين بن الخطيب: هو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السلماني، يكنى: أبا عبد الله، واشتهر بـ(لسان الدين)، وهو من الألقاب المشرقية، وقد عاش ابن الخطيب في القرن الثامن الهجري في الأندلس والمغرب، ويعد هذا العصر من أحفل العصور التاريخية والأدبية في المغرب الإسلامي عامة، وفي الأندلس خاصة، وكان لسان الدين مفكرا لامعا، وكاتباً خصبا، متعدد الجوانب، وشاعرا مبدعا، ملأ الأندلس والمغرب بشعره الرصين الفائق في مختلف الأحداث والمناسبات، ويقول عنه **أنخل جنثالث بالنيثيا:** و براعته ظهرت في قرص الشعر، وتجلى علمه الواسع بالأدب العربي، في سنه الباكرة⁽¹⁾ وبأنه، وتلميذه ابن زمرك فريدان في بابهما، وإنه أعظم شعراء العصر الغرناطي⁽²⁾، وقد لقب بذي الوزارتين، وقد كان مزيجا من عبقریات متعددة، قلما تجتمع في شخص واحد، فقد بلغ القمة في كل منهما، مما جعله في مصاف أعلام الأندلس ومشاهيرها، فهو أفضل شخصيات الأندلس بعامه، وغرناطة بخاصة، فهو طبيب وفيلسوف، وهو كاتب من الطراز الأول، وهو مؤرخ بارع، وأخيرا وزير وسياسي ثاقب النظر، قوي الإدراك⁽³⁾.

ولد ابن الخطيب بمدينة "لوشة"⁽⁴⁾ في 25 رجب 713هـ، الموافق 16 نوفمبر 1313م، وقد نشأ في غرناطة التي انتقلت إليها أسرته، وفيها تلقى دراسته، وعاش به حياة حافلة بالعلم والنشاط السياسي والفكري، إلى أن وافته المنية سنة (776هـ)، عن عمر يناهز ثلاثة وسين عاما، بعد أن سجل لنفسه صفحات مشرقة في مجالات الحياة المختلفة، والتي مازلنا نقتبس من معينها حتى يومنا هذا.

(1)- ينظر: تاريخ الفكر الأندلسي. ترجمة، حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1955م.

ص: 252

(2)- ينظر: المرجع نفسه . ص: 137

(3)- ينظر: محمد عبد الله عنان. لسان الدين بن الخطيب (حياته وتراثه الفكري). ط1. مكتبة الخانجي، القاهرة،

1388هـ - 1968م . ص: 15.

(4)- لوشة- بالفتح ثم السكون وشين معجمة-: مدينة بالأندلس غربي البيرة قبل قرطبة منحرفة يسيرا، وهي

تقع على نهر سنجل (نهر في غرناطة)، وبينها وبين قرطبة عشرون فرسخا، وبين غرناطة عشرة

فراسخ، ينظر: ياقوت الحموي. معجم البلدان، ج5 . ط2 . دار صادر ، بيروت، لبنان، 1995م. ص: 26.

والديوان الوحيد الذي يجمع شعر ابن الخطيب، ووصل إلينا هو ديوان: "الصيب والجهم والماضي والكهام"، و قد حققه: د. محمد الشريف قاهر، ونشر في الجزائر عام 1975م ولقد ترك لنا ابن الخطيب تراثا حافلا من طب، وسياسة، وتصوف، وغيرها، وقد بلغت مؤلفاته زهاء ستين مؤلفا ما بين مطبوع ومخطوط، فقد اغترف من كل بحر، وكتب في كثير من الفنون والآداب، واطلع على كثير مما ألف في العلوم والآداب والتاريخ والسياسة، مما جعل الباحثين يعدونه خزانة للعلم والأدب، « فقد كان عالما وفقهيا وشاعرا وكاتباً وطبيباً، وإن لم يتفوق في شيء تفوقه في الأدب، حتى كان من أئمة»⁽¹⁾ وقد استحق ما قال عنه المقري: « هو الوزير الشهير الطائر الصيت، المثل المضروب في الكتابة والشعر والمعرفة بالعلوم على اختلاف أنواعها»⁽²⁾. وقد عقب على ذلك إذ قال:

تصانيفُ الوزيرِ ابنِ الخطيبِ ألدُّ من الصبا الغضِّ الرطيبِ
فأيةُ راحةٍ ونعيمٍ عيشٍ! توازى كُتُبُهُ أم أي طيبٍ؟

- 1- الإحاطة في أخبار غرناطة.
- 2- اللوحة البدرية في تاريخ الدولة النصرية.
- 3- الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة.
- 4- نفاضة الجراب في علالة الاغتراب
- 5- أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، وما يجر ذلك من شجون الكلام .
- 6- السحر والشعر .
- 7- ريحانة الكتاب و نجعة المنتاب .
- 8- جيش التوشيح.
- 9- روضة التعريف بالحب الشريف.
- 10- خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف.

(1)- أحمد ضيف. بلاغة العرب في الأندلس. ط2. دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، تونس،

1988م . ص :242.

(2)- المقري. أحمد بن محمد المقري التلمساني. نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج1. ص:77وما

بعدها، ج9. ص:303.

11-عمل من طب لمن حب.

12-فن العلاج في صنعة الطب .

13- معيار الاختيار في أهوال المعاهد والديار.

1-1-ابن جابر الأندلسي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي بن جابر

الأندلسي المري الضرير، وهو غير سميّه وسابقه زمنا التونسي محمد بن جابر القيسي الوادي آشي المولود في تونس عام 673هـ(1274م)، أي قبل ولادة شاعرنا بخمسة وعشرين عاما، والمتوفي فيها عام 749هـ(1338م)، أي قبل وفاته بواحد وثلاثين عاما⁽¹⁾ .

ولد شاعرنا في مدينة المرية عام 698هـ(1298م)، ودرس فيها وأخذ عن شيوخها، وقرأ القرآن والنحو على ابن يعيش، والفقّه على محمد بن سعيد الرندي، وسمع صحيح البخاري على الزواوي، ثم غادرها مع رفيق عمره أبي جعفر الغرناطي في مطلع شبابهما إلى مصر، وعرفا بالأعمى والبصير، ثم غادراها إلى دمشق عام 741هـ، وسمعا من شيوخها، ثم انتقلا إلى حلب عام 743هـ، وأقاما فيها، وسمعا ودرسا، وحجا منها مرارا، ونسب إليهما مسجد(طغرل) في محلة باب قنسرين، والذي بني زمن ملك حلب الملك العزيز حفيد صلاح الدين الأيوبي عام 617هـ، فقيل عنه مسجد النحاة. ولكنهما افترقا قبل موتهما، لأن ابن جابر تزوج بمدينة البيرة شرق عنتاب، وسكن فيها، وكان له فيها بيت معروف على الفرات. وبعد ذلك توفي أبو جعفر في حلب عام 779هـ، فرثاه ابن جابر رثاء صادقا بقصيدة طويلة، مطلعها:

لَقَدْ عَزَّ مَفْقُودٌ وَجَلَّ مَصَابٌ فَللَّخْدِ مِنْ حُمْرِ الدَّمُوعِ خَضَابٌ

ثم تبعه إلى دار الخلود عام 5780هـ⁽²⁾.

كان ابن جابر إماما عالما بارعا أدبيا أمة في النحو، له النظم والنثر البديعان، اخترع أول بديعية في الأدب العربي، سماها(الحلة السيرا في مدح خير الوري)، والتي

(1)- ينظر: عمر فروخ . تاريخ الأدب العربي، ج6. صص: 442-530.

(2)- سبط ابن العجمي. كنوز الذهب في تاريخ حلب، ج1، تحقيق: شعث والبكور. دار القلم العربي، حلب،

1996م . ص: 469.

عرفت ببديعية العميان⁽¹⁾ وله كتب كثيرة جليلة في اللغة والنحو والبلاغة والعروض، منها شرح ألفية ابن مالك، وشرح ألفية ابن معط، ورسالة في السيرة ومولد النبي صلى الله عليه وسلم، والمنحة في اختصار الملح. ثم له قصائد وأراجيز عدة في العروض والنحو واللغة وغيرها، منها وسيلة الأبق في أسماء الصحابة والتابعين، وغاية المرام في تثليث الكلام، وحلية الفصيح في نظم الفصيح، (أي كتاب الفصيح لثعلب) ومنظومة في المقصور والمدود، وأخرى في الظاء والضاد، وغير ذلك.

وهو، فضلا عن ذلك، شاعر مكثّر، له شعر كثير متفرق في كتب الأدب، كما له أيضا ديوان كامل في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو المحقق في هذا الكتاب وموضوعه. قال عنه وعن رفيقه أبو جعفر: ولا أعلم بعدهما قدم حلب من المغاربة مثلهما⁽²⁾. كما قال شوقي ضيف عن شاعريته: شعر دائما عنده أنه يستمد من نبع فياض لا يتوقف ولا ينقطع، بل يتدفق تدفقا غزيرا⁽³⁾.

من مؤلفاته:

1- نظم فصيح ثعلب، وسماه "حلية الفصيح في نظم ما قد جاء في الفصيح" وأتمه في البيرة قرب حلب في المحرم عام 747هـ

2- شرح ألفية ابن معط في ثمان مجلدات كما يقول ابن القاضي و الزركلي أو ثلاثة كما قال غيرهم.

3- شرح ألفية ابن مالك- ديوان شعر في مدح النبي صلى الله عليه وسلم "نفائس الملح وعرائس المدح"- بديعية مشهورة "بديعية العميان في أسماء القرآن" وهي قصيدة مطولة ذكر فيها أسماء سور القرآن الكريم مع مدح النبي صلى الله عليه وسلم ومطلعها [من البسيط]:

في كلِّ فاتحةٍ للقولٍ معتبره حُقَّ الثناءُ على المبعوثِ بالبقره

ومن غرر قصائده قصيدة مطولة عارض فيها بانث سعاد ومطلعها [من البسيط]:

بانث سعادُ فعقدُ الصبرِ محلولُ والدمعُ في صفحاتِ الخدِّ مبدولُ

(1)- أحمد فوزي الهيب. الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء. (د،ط). مؤسسة الرسالة،

بيروت، 1986م. ص: 122.

(2)- سبط ابن العجمي. كنوز الذهب في تاريخ حلب، ج1. ص: 484.

(3)- شوقي ضيف. عصر الدول والإمارات (الأندلس). جامعة حلب، 1994م. ص: 377.

- 4-نظم "كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ" للقاضي شهاب الدين أبي عبد الله محمد ابن أحمد الخوي، المتوفي 693، وسم نظمه "عمدة المتلفظ في نظم كفاية المتحفظ".
- 5-مجموعة قصائد في العروض، لامية وتائية ودالية، بمكتبة باريس الوطنية.
- 6-منحة الإعراب و سنحة الآداب،أو كما تعرف"المنحة في اختصار الملحة".
- 7- قصيدة في المقصور والمدود.
- 8- قصيدة رائية في المثلث بعنوان"غاية المرام في تثليث الكلام" في اثنين وسبعين ومائتي بيت.
- 9- قصيدة ميمية في الضاد والضاد .
- 10- قصيدة بائية في النحو.
- 11- وسيلة الأبق"أرجوزة جمع فيها أسماء الصحابة والتابعين على ما رواه أبو نعيم".
- 12-بديعية العميان المسماة"بالحلة السيرا في مدح خير الورى" قصيدة رقم "119" بديوان"نفائس المنح وعرائس المدح" السابق، وجعلها محمود مكي، أشهر البديعيات التي اتخذت فن البديع، وجعلته مطية للمديح النبوي⁽¹⁾ .
- وقد شرح ابن جابر بديعته هذه شرحا مختصرا جدا، لم يرض صديقه أبا جعفر الرعيني، لشدة اختصاره، وقصوره عن استيعاب ما في البديعية من فنون، لذا شرحها الرعيني شرحا متوسطا ليس بالطول الممل ولا بالقصير المخل، سماه"طراز الحلة وشفاء الغلة" لحل رموزها، وما استغلق من معانيها.
- 13- المقصد الصالح في مدح الملك الصالح⁽²⁾،وهو ديوان شعري ضخم في مدح السلطان الصالح ابن المنصور محمد قلاوون الصالحي الارتقي، وكان هذا السلطان ممدحا للشعراء، وعاش في كنفه وتحت رعايته عدد منهم غير ابن جابر.
- 14-"ديوان نفائس المنح وعرائس المدح" الذي يضم نصف شعر ابن جابر تقريبا في المديح النبوي، أي حوالي أربعة آلاف بيت.
- 15- "ديوان العقدين في مدح سيد الكونين"وهما عقدان أو ديوانان في سلسلة مدح المصطفى^{صلى الله عليه وسلم}، التي وضعها ابن جابر وضمت أكثر من ثمانية آلاف بيت شعري في مدحه^{صلى الله عليه وسلم}.

(1)-محمود علي مكي . المدائح النبوية. ط1. دار نوبار للطباعة، روض الفرج، شبرا، القاهرة، 1991م.

ص : 138-139.

(2)- من هذا الديوان نسخة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، ورقمها(801) أدب .

II-دراسة الديوانين: الأغراض والموضوعات

1- ديوان لسان الدين بن الخطيب

1-1-طبغات الديوان: طُبِعَ ديوان لسان الدين بن الخطيب طبغات كثيرة، ذكرها الدكتور

"محمد الشريف قاهر" في تحقيقه لديوان لسان الدين، وهي خمس طبغات:

أ- نسخة الأستاذ محمد الفاسي: هذه النسخة من الديوان يبدو أنها أكمل النسخ،

وأصحها، وأقربها، إلى التدقيق، وهي تقع في (157) سبع وخمسين ومائة صفحة تحتوي كل

صفحة منها على (15) خمسة عشر سطرا، مكتوبة بخط مغربي واضح جميل، مشكول

بعض الشكل، وعناوين القصائد، وما يسبقها من بيان الغرض الذي قيلت فيه، مكتوب

بحروف فخمة كبيرة، ولكنها غير مزينة ولا ملونة. وقد كشفت لنا هذه النسخة عن أمور

جديدة كانت مجهولة لدى الباحثين، وحتى المتخصصين منهم في التاريخ لابن الخطيب،

كالمقري في أزهار الرياض، ونفح الطيب فهي التي بينت لنا اسم الديوان، وذلك في

المقدمة التي كتبها ابن الخطيب له، فقد ذكر فيها أن له ديوانا قد ضاع يسمى "الحالي

والعاطل والمسعف والمائل" وديوانا آخر ضاع له مع اسمه،

وأن هذا الديوان الذي يقدم له هو تعويض لديوانه السابق المسمى "بالصيب والجهام

والماضي والكهام"⁽¹⁾ وجموع ما في هذه المخطوطة ن القصائد والمقطوعات هو (1966)

سنة وستين وتسعمائة وألف بيت. وقد رمز لها محقق الديوان "محمد الشريف قاهر"

بحرف «ف» .

ب- نسخة الشيخ العربي الحريشي: تقع هذه النسخة في (198) صفحة تحتوي كل صفحة

على (17) سطرا مكتوبة بخط مغربي متوسط الوضوح، بعضها مشكول، وعناوينها

مكتوبة بخط كبير، ولكنها غير مزركشة، ولا مزينة بالألوان، وهذه النسخة تكاد تنطبق

على النسخة السابقة فهي تنقص عليها ببيتين رقم (11و19) في حرف الجيم في

القصيدة رقم (115) ولكنها تزيد عليها في حرف الدال بخمس وستين قصيدة ومقطوعة

تحتوي على (400) أربعمائة بيت .ويكون مجموع ما بها من قصائد، (263) ثلاث وستين

(1)- الصيب: السحاب ذو المطر، والجهام: السحاب الذي لا ماء فيه، والماضي: السيف القاطع، والكهام:

السيف غير القاطع.

ومائتي قصيدة، تحتوي على(2913)ثلاثة عشر وتسعمائة وألفي بيت.وقد رمز لها محقق الديوان بحرف<ح>.

ج- نسخة الأستاذ محمد المنوني: وتقع هذه النسخة في 216 صفحة في كل صفحة 15سطر مكتوبة بخط أندلسي عتيق بالسواك، وفي هذه النسخة محو كثير، وطمس لمقطوعات كاملة ، بعضها بقي عنوانها، والبعض الآخر لم يبق منها شيء ، كما أن مقطوعات كاملة ساقطة منها. ويبدو أن هذه النسخة كانت كاملة، فعبثت بأوائلها وآخرها أيدي الزمان،فهي ناقصة في أولها بخمس ورقات فقط، كما ضاعت منها مقدمة الديوان،مما جعل الأستاذ المنوني يظن أن اسم الديوان هو"ظل الغمام المقتضب من الصيب و الجهام" .

فيكون مجموع ما بها من قصائد،(257) سبعة وخمسين ومائتي قصيدة، تحتوي على(2643)ثلاثة وأربعين وستمائة وألفي بيت.وقد رمز لها محقق الديوان بحرف<م> .

د- نسخة القرويين: وهذه النسخة يبدو أنها أقدم ديوان لابن الخطيب، ولو سلمت أوائلها من التآكل والضياع لكشفت لنا عن اسم الديوان وعن القصائد الأولى في حرف الألف، فهذا الديوان يتوقف في اليوم التاسع من محرم عام 744هـ فهو يمثل بالكورة شعر ابن الخطيب أيام شبابه الأولى، فقد أكمله ولما يتجاوز الواحدة والثلاثين من عمره ومما يؤسف له أن هذه المخطوطة بها خروم كثيرة، وتآكل لصفحات عديدة، وتصحيفات، وهي مكتوبة بخط مغربي جميل، مشكولة في مجموعها، وعناوين قصائدها مكتوبة بحروف بارزة ، غير ملونة.

فيكون عدد قصائد هذه المخطوطة،هو(97) سبعة وتسعون قصيدة بها (2243)ثلاثة وأربعون ومائة وألفا بيت . وقد رمز لها محقق الديوان بحرف<ق> .

هـ-نسخة الأستاذ محمد الشاذلي النيفر: هذه المخطوطة توجد ضمن مجموع وتحتوي على اثنتين وسبعين صفحة، في كل صفحة تسع عشرة سطرا، مكتوبة بخط مغربي لا يقرأ بسهولة، غير مشكول غالبا، وتبتدئ هكذا: "تقييد رسائل من الصيب و الجهام للسان الدين ابن الخطيب" .

وتمتاز هذه المخطوطة بكونها أوردت أشعارا لابن الخطيب لم ترد في النسخ الأربعة الأخرى فيكون مجموع ما بهذه المخطوطة من قصائد ،هو(21) إحدى وعشرين قصيدة تحتوي على(384)أربعة وثمانين وثلاثمائة بيت.وقد رمز لها محقق الديوان بحرف<ن>.

1-2-أهم أغراضه الشعرية:-

موضوعات شعر ابن الخطيب، هي موضوعات الشعر العربي المعروفة، والمطروقة، من غزل ونسيب، ووصف، وفخر، وهجاء، ورتاء، وزهد، وتصوف، وسياسة وجهاد، وإخوانيات. غير أن أكثر قصائده في المديح، والمناسبات الدينية والسلطانية. وسأبدأ بالمديح لأنه أكثر ما اشتمل عليه الديوان:

أ- المدح: كان مدح ابن الخطيب في البدء خاصا بالملوك والأمراء حين كان عزيز الجانب قوي النفوذ، فلما أرغمت الظروف السياسية على الخروج من الأندلس، والالتجاء إلى المغرب، وجدناه يمدح بعض الوزراء، والولاة، لينال رضاهم، ويضمن لنفسه المكانة اللائقة بينهم، يقول مادحا الغني بالله ويصفه بالشجاعة والإقدام، والبذل، والعطاء، والإصلاح، والعدل، ونصرة الحق، ومهاجمة الأعداء في عقر دارهم بجياد مختالة لفرط مراحها، وجيوش مسلحة بالقنا وبيض الصفاح، مرسله النقع سحبا، تنتشر الرحمة والخصب أينما حلت:

بِمَعَالِ يِ مُحَمَّدٍ بِنِ الْحَجَّاجِ لَيْثِ الْعِدَا أَوْغَيْثِ السَّمَاحِ
نَاصِرِ الْحَقِّ مُرْسِلِ النَّقْعِ سَحْبًا بَيْنَ سُمْرِ الْقَنَا وَبَيْضِ الصَّفَاحِ
وَمُزِيرِ الْجِيَادِ أَرْضِ الْأَعَادِي وَهِيَ مُخْتَالَةٌ لِفِرْطِ الْمِرَاحِ
مَحَضِّ اللَّهِ مِنْكَ يَا قُوْتَةَ الْمُلْكِ وَيَنْبُوعِ الْعَدْلِ وَالْإِصْلَاحِ⁽¹⁾

ب- الغزل: لابن الخطيب نوعان من الغزل:

1- نوع يبدأ به مطولاته من قصائد المديح، والتنهاني بالأعياد، والمواسم والمناسبات، نهج فيه منهج الغزليين من الشعراء، إظهارا لمهارته الفنية. يقول من قصيدة في صباه، استجابة لرغبة أحد ندمائه، مخاطبا، وملتمسا مرة، ومتسائلا وواصفا، ومشبها مرة أخرى، فابن الخطيب يعيش في ضياء ونور، وسرور وغبطة، مادام سراجُه وهلاله معه، فإذا غاب عنه، فهو في ظلال وعذاب، ولا علاج له إلا إذا تداركه بنظرة من جفونه التي فيها نسك بشر الحافي الصوفي المعروف، وسطوة الحجاج بن يوسف الثقفي الوالي المشهور:

يَا سِرَاجَ الْجَمَالِ يَا بُنَّ سِرَاجِ يَا هِلَالًا فِي أَسْعَدِ الْأَبْرَاجِ
أَنْتَ شَمْسِي فَكُلَّمَا غَابَ عَنِّي فَنَهَارِي مِثْلُ الظَّلَامِ الدَّاجِي

(1)- لسان الدين الخطيب . ديوان الصيِّب والجهام والماضي والكهام . صص: 392-393.

يَا مَرِيضَ الْجُفُونِ أَمْرَضْتَ قَلْبِي
فَأَدْرِكْنِي فِي يَدَيْكَ عِلَاجِي
أَجْفُونُ تُحِيلُهَا أَمْ كُؤُوسٌ
أُتْرَعَتْ لِلْهُوَى بِغَيْرِ مِرَاحٍ؟
تَخْدَعُ النَّاسَ بِالْفُتُونِ فِيهَا
نُسْكُ بِشْرٍ وَسَطْوَةٌ الْحَجَّاجِ
لَوْ تَرَانَا وَاللَّيْلُ فِي غُنْفَوَانٍ
قُلْتُ سَرِيْنٍ فِي فُوَادِي الدِّيَاجِ
نَقْطَعُ اللَّيْلَ فِي التَّنَائِمِ وَضَمٌّ
وَسُرُورٍ وَعِظَّةٍ وَابْتِهَاجٍ (1)

2- وآخر أوقف عليه قصائد ومقطوعات كاملة إلا ما يتعلق به ويكمله، من وصف القيان، والآلات الطرب، والعود، والراح، والطبيعة المتحركة. يقول في قصيدة يمزح بين الدعوة إلى الأنس، ووصف الراح، والطبيعة، والمغنية، والعود.

هَلُمَّ جَفْنُ الدَّهْرِ قَدْ لَأَذَ بِالْغَمِضِ
وَأَمَكَنَّ مَيْدَانَ النَّصَابِيِّ مِنَ الرَّكْضِ
وَرَوْضٌ دَنَتْ لِلْهَاصِرِينَ قُطُوفُهَا
فَكَانَ كَلَامَ الْقَوْمِ بَعْضًا إِلَى بَعْضِ
أَهْدِي الَّتِي كُنَّا وَعِدْنَا بَنِيهَا
وَجَنَّةٌ عَدْنٍ فِي السَّمَاءِ أَمْ الْأَرْضِ؟
كَأَنَّ الصَّبَا جَاءَتْ تُخَبِّرُ قُضْبَهَا
سُحَيْرًا، بِأَنَّ الْوَقْتَ ضَاقَ عَنِ الْفَرَضِ
فَأَسْرَعَتْ الْأَغْصَانُ تَبْتَدِرُ الشَّرَى
وَتَعْمُرُ بَاقِي الْوَقْتَ مِنْهُ بِمَا تَقْضِي
وَمُرْضِعَةٌ طِفْلًا مِنَ الْعُودِ تَذِيهَا
وَلَا دَرَّ إِلَّا الدَّرُّ مِنْ أَدَبٍ مَحْضِ
إِذَا لَمَسْتَهُ بِالْبَنَانِ تَخَالَهَا
وَرَا حَ إِذَا نَاجَيْتَ فِي الْكَأْسِ رُوحَهَا
طَبِيبًا مِنَ الْحُدَاقِ جَسَّ عَلَى نَبْضِ
رَأَيْتَ اتَّصَالَ الرُّوحِ بِالْعَالِمِ الْأَرْضِ (2)

ج-الرتاء: نجد في الديوان مقطوعة رثى بها المعتمد بن عباد، أمير إشبيلية، عندما زار قبره بأغمات، أيام مقامه بالمغرب: وفيها يصف ابن عباد، بأندى الملوك يدا، وسراج الليالي المد له مات، والكريم حيا ميتا، وسلطان الأحياء والأموات:

قَدْ زُرْتُ قَبْرَكَ عَن طَوْعِ بَأْغَمَاتِ
رَأَيْتُ ذَلِكَ مِنْ أَوْلَى الْمُهَمَّاتِ
لِمَ لَا أُرْوِكَ يَا أُنْدَى الْمُلُوكِ يَدًا
وَيَا سِرَاجَ اللَّيَالِي الْمُدْلِهَمَّاتِ
كُرُمْتَ حَيًّا وَمَيْتًا وَاشْتَهَرْتَ عَلَاً
فَأَنْتَ سُلْطَانُ أَحْيَاءٍ وَأَمْوَاتِ (3)

كما رثى ابن الخطيب أبا الحجاج يوسف، وكتب على قبره، وفيها يخاطب القبر، ويحييه، ويطلب الرضا والغفران لمن حل فيه مدى الدهر، ويصفه بالروضة العاطرة، و كمام

(1)- لسان الدين الخطيب . ديوان الصيِّب والجهام والماضي والكهام . صص: 345-346.

(2)- المصدر نفسه . صص: 605-606 .

(3)- المصدر نفسه . صص: 338-339.

الزهر، وصدف الدر، وملحد التقوى، ومدفن الهدى، ومسقط العليا، ومغرب البدر، ثم ينتقل إلى ذكر محاسن أبي الحجاج، فينعتة بأصيل المعالي، وبدر الدجى، والمستجار من الذعر، وحامي حمى الهدى، وماحي دجى الكفر:

رِضَا اللَّهِ عَمَّنْ حَلَّ فِيكَ مَدَى الدَّهْرِ	يُحْيِيكَ بِالرَّيْحَانِ وَالرُّوحِ مِنْ قَبْرِ
مُنْعَمَةٌ الرَّيْحَانِ عَاطِرَةُ النَّشْرِ	وَأَسْتَبِقُ بِقَفْرِ إِنَّمَا أَنْتَ رَوْضَةٌ
سَوَى يَا كِمَامَ الزَّهْرِ، أَوْ صَدَفُ الدَّرِ	وَلَوْ أَنَّنِي أَنْصَفْتُكَ الْحَقَّ لَمْ أَقُلْ
وَيَا مَسْقِطَ الْعُلْيَا وَيَا مَغْرِبَ الْبَدْرِ	وَيَا مَلْحَدَ التَّقْوَى وَيَا مَدْفَنَ الْهُدَى
أَصِيلُ الْمَعَالِي غُرَّةٌ فِي بَنِي نَصْرِ	لَقَدْ حَلَّ فِيكَ الرَّحْلَ أَيُّ خَلِيفَةٍ
وَبَدْرُ الدُّجَى وَالْمُسْتَجَارُ مِنَ الدُّعْرِ	لَقَدْ حَلَّ فِيكَ الْعِزُّ وَالْمَجْدُ وَالْعُلَا
وَمَنْ كَأَبِي الْحَجَّاجِ مَاحِي دُجَى الْكُفْرِ (1)	وَمَنْ كَأَبِي الْحَجَّاجِ حَامِي حِمَى الْهُدَى

ويذكر حادثة اغتياله أثناء سجوده لصلاة عيد الفطر، حيث نال الشهادة من يد شقي، حقير الذات، والخلق، والقدر.

أَصِيلُ التَّقَى رَطْبَ اللِّسَانِ مِنَ الدُّكْرِ	تَوَلَّى شَهِيدًا سَاجِدًا فِي صَلَاتِهِ
وَلَيْسَ سِوَى كَأْسِ الشَّهَادَةِ مِنْ فِطْرِ	وَبَاكَرَ عِيدِ الْفِطْرِ وَالْأَمْرُ مُبْرَمٌ
وَقَدْرًا، حَقِيرُ الذَّاتِ وَالْخَلْقِ وَالْقَدْرِ	أُتِيحَ لَهُ وَهُوَ الْعَظِيمُ مَهَابَةً
وَمُنْكَرُ قَوْمٍ جَاءَ بِالْحَادِثِ النُّكْرِ (2)	شَقِيٌّ أَتَتْهُ مِنْ لُدْنِهِ سَعَادَةٌ

د-الهجاء: من الأغراض التي اشتمل عليها الديوان، ومن خلال القصائد ندرك مدى قدرة الرجل على إظهار العيوب، وابتكار أساليب القذع والشتم وتتبع العثرات والمثاليب، ويصف هجاءه المقري بقوله: «وقد أقذع وبالع في هجو أعدائه بما لا تحتمله الجبال، وهو أشد من وقع النبال» (3).

يقول ابن الخطيب يهجو ساقطاً أفرط في الخنزوانة وتناهي، وفخر بالعرض الحائل وباهي، حيث يصف هذا الساقط بأوصاف قذرة، يستحي من ذكرها القلم فضلاً عن اللسان، فهو طلعة الشؤم، ووقفه الناعي بمقتل عزيز غال، وزورة الألم الذي يسبق الموت، وصبغة الشيب المنذر بارتحال الشباب...

(1)- لسان الدين الخطيب . ديوان الصيِّب والجهام والماضي والكهام. ص: 531 .

(2)- المصدر نفسه . ص : 532 .

(3)- المقري. نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج7. ص: 256.

فالدهر يشتكي من عاره، والزمان يتبرم من عيوبه، ويغضبه ندامة، فلا يستطيع أن يرفع رأسه في محفل، ولا يفتح عينيه في مجمع من سوء ما أتى به من أفعال قبيحة، وارتكبه من أعمال منكرة:

يَا طَلْعَةَ الشُّؤْمِ الَّتِي مَهْمَا بَدَتْ	يَبْسَتْ عَفَاهُ النَّجْحِ مِنْ أَسْبَابِهِ
يَا وَقْفَةَ النَّاعِي بِمَقْتَلِ وَاحِدٍ	أَذْكَى عَلَى الْأَحْشَاءِ حَرَّ مُصَابِهِ
يَا زُورَةَ الْأَلَمِ الَّذِي يُرَى	جَاءَتْ رِكَابُ الْمَوْتِ فِي أَعْقَابِهِ
يَا صِبْغَةَ الشَّيْبِ الْمُلَمِّ بَعَارِضٍ	زَجَرَتْ حَمَائِمُهُ غُرَابَ شَبَابِهِ
يَا خَجَلَةَ مِنْ ضَارِطٍ فِي مَحْفَلٍ	تَبَقَى غَضَاضَتُهَا عَلَى أَعْقَابِهِ
يَا مَنْ تَشَكَّى دَهْرُهُ مِنْ عَارِهِ	يَا مَنْ تَبَرَّمَ دَهْرُهُ مِنْ عَابِهِ
يَا مَنْ يَعْصُ بِهِ الزَّمَانُ نَدَامَةً	مِنْ كَفِّهِ، وَتَرَاهُ قَارِعَ نَابِهِ
وَيَعْصُ مِنْ فَرْطِ الْحَيَاءِ جُفُونَهُ	مِنْ سُوءِ مَا قَدْ جَاءَهُ وَأَتَى بِهِ (1)

هـ-الإخوانيات: هذا العنوان يندرج تحته عدد كبير ن قصائد ومقطوعات الديوان، في أغراض شتى، كتبها ابن الخطب إلى بعض أساتذته ومعلميه، وأصدقائه، وأقاربه، وهي في العتاب، أوفي الإجابة عن كتاب، أو مواساة لمصاب، أو شكر على هدية، أو فك لغز، أو استفتاء، أو مداعبة، أو تهنئة، أو إجازة عن بيت، وغيرها كثير، وهي منتشرة في ثنايا الديوان، ولا ترتفع إلى المستوى الجيد، بل تكاد تقترب من النثر العادي، وكثير منها قالها ومن دون روية أو تفكير طويل.

كتب ابن الخطيب إلى مرزوق، معاتباً، على اختصار الرسائل التي ترد من البلاط المريني إلى البلاد الغرناطي:

أَجَلُّكَ أَنْ يُلَمَّ بِكَ الْعِتَابُ	وَوُدُّكَ لَا يُدَاخِلُهُ اِرْتِيَابُ
وَاسْتَعْدِي عَلَاكَ عَلَى اخْتِصَارٍ	إِذَا مَا عَادَ لِي مِنْكَ الْجَوَابُ (2)

وأجاب أستاذه أبا الحسن بن الجياب عن قصيدة متعددة الأغراض، يشكره ويثني عليه، ويعترف بفضله، وينزله منزلة والده، يأوي إليه، ويتقلب في مرضاته، ويرجو أن يتقبل قصدته على ما فيها، لأنها بنية ساعة:

زَارَتْ وَقَدْ صَرَفَ الْعِنَانَ الْغَيْهَبُ	وَالصُّبْحُ يُنْشِرُ مِنْهُ بِنْدُ مَذْهَبُ
--	---

(1)- لسان الدين الخطيب . ديوان الصيِّب والجهام والماضي والكهام. ص:297-298.

(2)- المصدر نفسه . ص:298.

إِيهِ أَبَا حَسَنِ بِأَيِّ عِبَارَةٍ أَثْنِي عَلَىٰ غُلْيَاكَ عَزَّ الْمَطْلُبُ
أَمَحَلَّ وَالِدِي الَّذِي لِحَنَابِهِ آوِي، وَفِي مَرْضَاتِهِ أَتَقَلَّبُ
فَامدُّدٌ لَهَا كُفًّا بِنِيَّةِ سَاعَةٍ لَكِنِ أَبُوهَا دُونَ فَخْرٍ مُنْجِبٌ⁽¹⁾

و-المولديات: في الديوان نفع على قصائد مولدية قالها ابن الخطيب في فترات من حياته. و المولدية عنده تتألف من مقاطع ثلاثة:

أ- مطلع غزلي تقليدي.

ب- مديح للرسول صلى الله عليه وسلم وذكر معجزاته والحوادث على أيامه، وتوسل به، وتشوق إلى زيارته، ورجاء في شفاعته، وإقرار بالعجز عن الإحاطة بمكارمه وأخلاقه.

ج- وأخيرا يتخلص إلى مدح من رفعت إليه: يقول في المولدية التي رفعها إلى أبي سالم عام 763هـ، ويبدأها بذكر نجد وحاجز، ويكني بدعد وسعدى:

تَأَلَّقَ نَجْدِيًّا فَأَذْكَرَنِي نَجْدًا وَهَاجَ لِي الشَّوْقَ الْمُبِرِّحَ وَالْوَجْدَا
سَقَى اللَّهُ نَجْدًا مَا نَضَحْتَ بِذِكْرهَا عَلَى كَيْدِي إِلَّا وَجَدْتُ لَهَا بَرْدَا
وَأَنَسَ قَلْبِي فَهُوَ لِلْعَهْدِ حَافِظٌ وَقَلَّ عَلَى الْأَيَّامِ مَنْ يَحْفَظُ الْعَهْدَا
أَأَجِدُ حَقَّ الْحُبِّ وَالِدَمْعِ شَاهِدٌ وَقَدْ وَقَعَ التَّسْجِيلُ مِنْ بَعْدِ مَا أَدَا
لِي اللَّهُ كَمْ أَهْذِي بِنَجْدٍ وَحَاجِزٍ وَأَكْنِي بِدَعْدَا فِي غَرَامِي أَوْ سَعْدَا

وقبل الانتقال إلى المقصود، يخاطب الراكب الحجازي، ملتصقا منه أن يبلغ شوقه إلى رسول الله، وحنينه إلى زيارته، نيابة عنه، وذلك إذا وصل إلى المدينة المنورة «طيبة» وجاء القبر المقدس.

نَشَدْتُكَ يَا رَكْبَ الْحِجَازِ تَضَاءَلْتُ لَكَ الْأَرْضُ مَهْمَا اسْتَعْرِضَ السُّهْبُ وَامْتَدَا
إِذَا أَنْتَ شَافَهْتَ الدِّيَارَ بِطَيْبَةٍ وَجِئْتَ بِهَا الْقَبْرَ الْمُقَدَّسَ وَاللَّحْدَا
وَأَنْسَتَ نُورًا مِنْ جَنَابِ مُحَمَّدٍ يُدَاوِي الْقُلُوبَ الْغُلْفَ وَالْأَعْيُنَ الرَّمْدَا
فَنَبَّ عَنِ بَعِيدِ الدَّارِ فِي ذَلِكَ الْحِمَى وَأَدْرِي بِهِ دَمْعًا وَعَفْرٌ بِهِ خَدَا
وَقُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَبْدٌ تَقَاصَرْتُ خُطَاهُ، وَأَضْحَى مِنْ أَحِبَّتِهِ فَرْدَا
وَلَمْ يَسْتَطِعْ مِنْ بَعْدِ مَا بَعْدَ الْمَدَى سِوَى لَوْعَةٍ تَعْتَادُ أَوْ مَدْحَةٍ تُهْدَا

ثم يخلص إلى المديح، ويعتذر عن نقصيره، وعجزه، لأن القرآن لم يترك مجالا لمادح:

(1)- لسان الدين الخطيب . ديوان الصيِّب والجهام والماضي والكهام. ص: 253-254.

تَقَدَّمَتْ مُخْتَارًا تَأَخَّرَتْ مَبْعُثًا فَقَدْ شَمِلَتْ عَلَيَاؤُكَ الْقَبْلَ وَالْبَعْدَا
بِمَاذَا عَسَى يُثْنِي عَلَيْكَ مُقَصِّرٌ وَلَمْ يَأَلُ فِيكَ الْوَحْيَ مَدْحًا وَلَا حَمْدَا

ويستعرض الخوارق التي ظهرت في ليلة ميلاده عليه الصلاة والسلام:

بِمَوْلِدِكَ اهْتَرَّ الْوَجُودُ وَأَشْرَقَتْ قُصُورٌ بِبُصْرَى ضَاعَتْ الْهَضْبَ وَالْوَهْدَا
وَمِنْ رُغْبِهِ الْأَوْثَانُ خَرَّتْ مَهَابَةً وَمِنْ هَوْلِهِ إِيْوَانُ فَارِسٍ قَدْ هُدَا
رَعَى اللَّهُ مِنْهَا لَيْلَةً أَطْلَعَ الْهُدَى عَلَى الْأَرْضِ مِنْ آفَاقِهَا الْقَمَرَ السَّعْدَا⁽¹⁾

(1)- لسان الدين الخطيب . ديوان الصيِّب والجهام والماضي والكهام. ص: 478.

2-ديوان ابن جابر الهواري الأندلسي: إنه معلم هام من معالم الشعر في العصر المملوكي، لأنه يصوره خير تصوير، ويعطينا صورة واضحة جلية عنه، وعن تعاطف الروح الدينية فيه بشكل لافت للنظر لأسباب عدة، لعل أهمها حروب الفرنجة في المشرق العربي وفي الأندلس والمغرب العربي والتي سميت بالحروب الصليبية، وفي الأندلس حروب الاسترداد، يريدون بها القضاء على الإسلام والمسلمين وهدم ضريح الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم الغزو المغولي الوحشي الآتي من الشرق حاملا الدمار والخراب، وما أدت إليه هذه الحروب من إيقاف الجهاد في جميع أبناء الأمة سواء أكانوا حكاما أم شعوبا، يريدون دفع العدوان والحفاظ على المقدسات والوطن والوجود، وكذلك ازدهار التصوف والزهد وانتشارهما انتشارا واسعا وتقريب السلاطين والحكام لرجالاتهما والعناية بهم وبأشعارهم، وبخاصة شعر ابن الفارض الذي نستطيع وبسهولة أن نجد تشابها بين ميميته التي مطلعها:

هَلْ نَارٌ لَيْلَى بَدَتْ لَيْلًا بِذِي سَلَمٍ أَمْ بَارِقٌ لَاحَ فِي الظُّلْمَاءِ مِنْ إِضْمٍ

وبردة البوصيري التي مطلعها:

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِبْرَانَ بِذِي سَلَمٍ مَزَجَتْ دَمْعًا جَرَى مِنْ مَقْلَةٍ بِدَمٍ

ويبدو هذا التشابه في الوزن والروي والمطلع وبعض المعاني⁽¹⁾.

ثم كثرة الطواعين والزلازل والجوائح، الأمر الذي دفع الأدب إلى أن يهب مدافعا، فظهر عند كثير من شعراء هذا العصر نزوع إلى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وتمجيده بقصائد طويلة تتحدث عن صفاته وتدحه وتمجد دينه.

وفضلا عما تقدم هناك أسباب أخرى لازدهار المديح النبوي، منها إحساس الناس بالتقصير في حفظ ذلك التراث المجيد الذي بناه الرسول صلى الله عليه وسلم، وما رأوه من تعظيم الفرنجة لعيسى عليه السلام وعنايتهم بميلاده⁽²⁾، ومنها أيضا مدائح الرسول وآل بيته الكرام صلى الله عليه وسلم التي قيلت في حياته صلى الله عليه وسلم، مثل دالية الأعشى ولامية كعب بن زهير ومدائح حسان بن ثابت، والتي قيلت بعدها، مثل ميمية الفرزدق وبعض أشعار الكميت والشريف

(1) - محمود سالم محمد . المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي.(د،ط). دار الفكر، دمشق، 1996م.

صص: 203-201 .

(2) - شوقي ضيف. عصر الدول والإمارات(الجزيرة العربية والعراق وإيران). جامعة حلب، 1994م .

ص: 409.

الرضي ومهيار الديلمي إلى البوصيري وما بعدها⁽¹⁾ . وكذلك منها انتشار عادة الاستشفاع بالرسول صلى الله عليه وسلم في عهد الفاطميين، ثم عنايتهم وعناية الذين أتوا بعدهم من أيوبيين ومماليك بالحج وقوافله وطرقه، وظهور المحامل وما كان يرافقها من احتفالات دينية في الذهاب والإياب.

كل ذلك كان يضيء على الحج طابعا مميذا محببا يثير عواطف الشعراء فنظموا قصائدهم النبوية شعرا فياضا بالأحاسيس الصادقة التي تعبر عن أعماق وجدان الأمة .

ومنها أيضا ما نسج حول بردة البوصيري النبوية من حكايات تناقلها الناس مكبرين معظمين على مر السنين. ثم ما كان لشراء تاج الدين بن بهاء الدين بن حنا وزير الملك الظاهر بيبرس⁽²⁾ لمكان مهيب على شاطئ النيل أودع في الآثار النبوية الشريفة التي اشتراها بمال عظيم من أثر في ازدهار فن المديح النبوي⁽³⁾. كما يجب أن نذكر من هذه الأسباب أيضا ظهور فكرة مجاورة الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة والمسجد الحرام في مكة المكرمة، وهي نوع من الهروب لفترة من هذا العالم وما فيه، ليستعيد الإنسان السكينة والطمأنينة والتوازن ابتغاء أن يعود إلى الحياة ثانية وهو أشد قوة وصبرا وبصيرة، ولعل أهم هؤلاء المجاورين قبل ذلك العصر أبو حامد الغزالي وجار الله الزمخشري وملك النحاة أبو نزار الحسن بن أبي الحسن الذي مدح الرسول صلى الله عليه وسلم بقصائد عدة، الأمر الذي جعله أول شاعر مدح الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا العدد من القصائد، وقد دفعه إلى ذلك أنه لم يجد في رجالات عصره، وهو المتوفى عام 568هـ، من ستحق مدحه رغم جولاته الواسعة .

كل ما تقدم من أسباب أدى إلى كثرة شعر المديح النبوي وكثرة شعرائه المادحين، ويكفينا دليلا على ذلك (المجموعة النبهانية في المدائح النبوية) ذات الأجزاء الأربعة الكبيرة ليوسف النبهاني، ولم يقف الأمر بالشعراء عند إكثارهم من المديح النبوي، بل لقد ألف بعضهم ديوانا خاصا بمدحه صلى الله عليه وسلم، وإذا كان بعضهم ينتمي إلى ما بعد هذا العصر اليعمري، وديوانه (بشرى اللبيب بذكر الحبيب)، والشهاب حمد بن سليمان، وديوانه (أهني

(1)- محمود علي مكي . المدائح النبوية . صص: 14-67.

(2)- خليل بن أبيك الصفدي. الوافي بالوفيات، ج1. تحقيق: س ديورينغ ، طبع : فرانتر شتاينر، فيسبادن، ألمانيا، 1974م . ص : 217 .

(3)- عمر موسى باشا. أدب الدول المتتابعة.(د، ط). دار الفكر الحديث، بيروت، 1967م .

المناخ في أسنى المدائح⁽¹⁾. وابن جابر الأندلسي شاعرنا، وديوانه (نظم العقدين في مدح سيد الكونين).

وأما معاني المديح النبوي، وبإيجاز شديد جدا، كانت كثيرة متنوعة خصبة، إذ لم يترك الشعراء، ومنهم شاعرنا ابن جابر، صغيرة ولا كبيرة مما يتعلق بالرسول ﷺ من قريب أو من بعيد إلا أحصوها، وذكروها في أشعارهم، وتناولوها تناول العاشق الهيمان، وأفادوا في ذلك مما جاء في القرآن الكريم والسيرة النبوية الشريفة وشعر السابقين⁽²⁾. ونجد ذلك واضحا مجسدا في ديوان ابن جابر الأندلسي .

2-1- طبقات الديوان:

اعتمد الدكتور أحمد فوزي الهيب في تحقيق هذا الديوان على أربع مخطوطات هي:
أ- نسخة مصر: أحضرت من دار الكتب المصرية، المكتبة التيمورية، في القاهرة، ورقمها 1061 شعر، تيمور، وساعد على ذلك مدير مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة أ.د. عبد الباسط بدر. وعنوانها "نظم العقدين في مدح سيد الكونين"، وهو مثبت في آخرها. وعدد أوراقها 149 ورقة، تحتوي كل منها صفحتين متقابلتين، كتب في كل منهما عشرون بيتا أو سطرا، فضلا عما كتب في الهوامش، وهو كثير في بعض الأوراق. وساعدتنا هذه النسخة في التأكد من صحة ترتيبنا لأوراق نسخة وزارة الأوقاف العراقية التي سنتحدث عنها لاحقا، لأنها وصلت إلينا متأخرة. وهي تامة ما عدا ورقة العنوان. رتبت فيها القصائد وفق قوافيها على ترتيب المشرق العربي، والذي غدا الآن شائعا عند العرب والناطقين بالعربية جميعا. ومع ذلك فقد وجدنا فيها نقصا فيه بعض القصائد الزائفة والسينية والشينية والصادية، لم نستطع استكمالها، لأنه، أي النقص، مكرر في نسخة وزارة الأوقاف العراقية، الأمر الذي يعني، مع تطابقهما، أنهما قد نقلتا من مصدر واحد. كما لم نستطع بقية النسخ الإفادة في ذلك .

كتبت هذه النسخة بخط نسخي، وقد أثبت ناسخها في آخرها أنه انتهى منها يوم الأحد 12 من ذي الحجة عام 881هـ من غير أن يذكر اسمه ولا مكان النسخ، وهذا يعني أنها قد

(1)- أحمد أحمد البدوي. الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية. ط4. مكتبة نهضة مصر، القاهرة، (د، ت). ص : 517.

(2)- أحمد فوزي الهيب . الحركة الشعرية زمن المالك في حلب الشهباء . (د، ط). مؤسسة الرسالة، بيروت، 1986م. ص: 100 وما بعدها .

كانت بعد وفاة الشاعر بقرن واحد فقط، لأن الشاعر قد توفي عام 780هـ، الأمر الذي جعله يقدمها على أخواتها، وبضعها في المقام الأول، ويعدها النسخة الأم. وقد رمز إليها بالحرف «م» .

ب- نسخة العراق: تم إحضارها من مديرية الآثار العامة، حيازة المخطوطات، مكتبة الأوقاف العامة ببغداد، ورقمها فيها 491، بوساطة جمعية إحياء التراث الإسلامي، مركز المخطوطات والتراث والوثائق في الكويت عام 1989م. وعنوانها "نظم العقدين في مدح سيد الكونين". وعدد أوراقها 185 ورقة، احتوت كل من صفحتها 21 بيتا أو سطرا وقد أعيد تجليدها من غير عناية، فاختلطت أوراقها، الأمر الذي اضطرنا إلى تقسيم كل ورقة إلى صفحتين اثنتين، لنتمكن من إعادة ترتيبها من جديد مستعينين بالترتيب الأبائي للقوائد وأوزانها وقوافيها، ثم تأكدنا من صحة ترتيبنا بعدما نقصا من أولها، قدره 14 ورقة، ضمت ثلاث قصائد همزية وجزءا كبيرا من القصيدة المقصورة، استكملناها من بقية النسخ. وفيها أيضا النقص الموجود في النسخة التيمورية نفسه، لأنهما نسختا من مصدر واحد على الأرجح. وأما خطها فنسخي جيد واضح إلى حد كبير. وقد رمز إليها بالحرف «ع».

ج- نسخة برلين: أحضرت من المكتبة الوطنية في برلين، ورقمها فيها (7867we1738)، وعليها خاتم مكتبة دولة برلين في حكومة (فيلهلم الأول) عام 1868م، وعدد أوراقها 67 ورقة، تضم كل منها صفحتين، في كل منهما 19 بيتا وسطرا. بدأت هذه النسخة بداية سليمة دقيقة جيدة، واستمرت كذلك إلى القصيدة قبل الأخيرة من قصائد حرف الدال، التي بدأ فيها نقص استمر إلى قصائد حرف الكاف، الأمر الذي يدل على أن عدد الأوراق الساقطة الضائعة 68 ورقة تقريبا، فضلا عن ذلك وجد فيها نقصا آخر في نهايتها، يبدأ في قصيدة لامية إلى آخرها، وهذا أضاع علينا اسم الناسخ وتاريخ النسخ وتحديد مكانه. ولعل سبب ذلك تفسخ أوراق المخطوط مما أدى إلى ضياع بعضها، وإعادة تجليده من غير الانتباه إلى ذلك جهلا أو إهمالا ومع ذلك يرى المحقق أنها أفادتنا إفادة جلييلة لوضوح خطها وجماله وضبطه ورمز إليها بالحرف «أ».

د- نسخة فرنسا: ورقمها في المكتبة الوطنية في باريس 1051، وعليها خاتمها، وكتابة لاتينية تذكر ما فيها من كتب ومنظومات في العروض والقوافي والنحو واللغة، بلغ عددها اثني عشر في 259 ورقة. منها قصيدة واحدة لابن جابر، وهي المقصورة الشهيرة التي

التزم في كل عشرة أبيات منها حرفا من حروف المعجم قبل حرف الألف الذي التزمه في جميع أبياته الثلاثمئة، وقد جاءت في تسعة أوراق فقط، في كل منها ثمان وثلاثون بيتا موزعا على صفحاتها، الأمر الذي جعل الإفادة منها قليلة من حيث عدد أوراقها، وتكمن القيمة العلمية الجلييلة لهذه النسخة لما فيها من حواش كثيرة مفيدة شرحت غريبها ولوضوح خطها وجماله وضبطه. كما زاد من قيمتها أيضا قدمها، إذ كتبت في ، كما هو مبين في آخرها، في 16 رجب عام 770هـ أي في حياة الشاعر ابن جابر، بل قبل وفاته بعشر سنين ثم ناسخها، وهو أحمد بن محمد بن يوسف الرعيني الغرناطي ابن أخي أبي جعفر رفيق ابن جابر، وصاحبه في حله و ترحاله، ماعدا سنوات عدة في آخر عمرهما، افترقا فيها لزواج ابن جابر في مدينة البيرة شمال شرق حلب. كما أن الناسخ قد ذكر مكان نسخه لها، وهو المدينة المنورة، وقد أحضرت هذه النسخة بواسطة جمعية إحياء التراث الإسلامي، مركز المخطوطات والتراث والوثائق في الكويت. ورمز إليها بالحرف «ف».

وفضلا عن ذلك أفدنا كثيرا من المصادر التي ورد فيها بعض شعر الديوان، مثل نقح الطيب ن غصن الأندلس الرطيب للمقري التلمساني، والمجموعة النبهاانية في المدائح النبوية .

2-3-العنوان: إن ما يلاحظ على عنوان الديوان هو ذلك الاختلاف البسيط، ففي نسخة العراق وجدناه "تظم العقدين في مدح سيد الكونين" في بدايته ونهايته، وكذلك أيضا في نسخة دار الكتب المصرية. وتابعتها في ذلك شوقي ضيف⁽¹⁾، كما أكد ذلك أيضا يوسف بن اسماعيل النبهاني في تقديمه لإحدى قصائد ابن جابر الأندلسي في كتابه «المجموعة النبهانية»⁽²⁾.

أما في نسخة برلين فالعنوان "الغين في مدح سيد الكونين"، واعتمد ذلك العنوان خير الدين الزركلي⁽³⁾، وعمر فروخ⁽⁴⁾. والغين، لغة، الشجر الكثيف الملتف أو الغيم، ولكنه، أي الغين، في التصوف، هو ذهول عن الشهود واحتجاب عنه مع صحة الاعتقاد⁽⁵⁾. أو الخلوة مع صحة الاعتقاد⁽⁶⁾.

وبناء على ما سبق رجح المحقق الدكتور أحمد فوزي الهيب العنوان الأول "تظم العقدين في مدح سيد الكونين"، لأنه ورد في أقدم النسخ المخطوطة وأكملها. ولم يهمل العنوان الثاني "الغين في مدح سيد الكونين"، وإنما جعله أسفل العنوان الأول بين قوسين إتماما للفائدة ومنعا لأي لبس.

2-4-أهم أغراضه الشعرية:

لقد كانت موضوعات شعر ابن جابر في ديوانه "تظم العقدين في مدح سيد الكونين"، تدور كلها حول مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، كما طرق مواضع الشعر العربي المعروفة كالغزل والحكم والمواعظ .

أ- المدح: لقد خصص ابن جابر حيزا كبيرا من ديوانه في مدح خير الأنام . يقول في هذه الأبيات.

(1)- شوقي ضيف . تاريخ الأب العربي، عصر الدول والإمارات(الأندلس). ص:376.

(2)- يوسف بن إسماعيل النبهاني. المجموعة النبهانية في المديح النبوي، ج3. دار المعرفة، بيروت، 1974م. ص:351 .

(3)- خير الدين الزركلي. الأعلام. دار العلم للملايين، ج5. بيروت، 1984م. ص:328.

(4)- عمر فروخ. تاريخ الأدب العربي. ط3. دار العلم للملايين، بيروت، 1981م. ص:531

(5)- الجرجاني. التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، 1967م. ص:210.

(6)- ابن الفارض. الديوان، شرح: مهدي محمد ناصر الدين. دار الكتب العلمية، بيروت، 1990م. ص:43. حاشية رقم : 09.

رحلوا فكيف يطيب بعد ثواء
 أم هل لداء الشوق منك دواء
 قعدت بك الأيام فانتهضت بهم
 همم بها تتمسك الجوزاء⁽¹⁾
 قوم تضيء مع الدجى عزماتهم
 حتى تميط قناعها الظلماء
 فإذا هم سمعوا بذكر محمد
 طرد المنام تأوه وبكاء
 إن أوقدوا فمن الجوانح نازهم
 أو أوردوا فمن الجفون الماء
 ساروا يؤمون التي ضمت بها
 من خير من وطئ الثرى أعضاء⁽²⁾

ويقول أيضا:

شوق بأثناء الضلوع تأججا
 طرد الكرى عن مقلتي وأزعجا
 ما شاقني إلا الحداة وقولهم
 حنوا المطايا والنسوا قمص الدجى
 ذكر النبي الهاشمي فلم تزل
 تجري الدموع تشوقا وتهيجا
 يا سائق الأظعان شأنك والسرى
 واطو المناهل مسجرا أو مدلجا
 وارفق بنا فالشوق منا قد برى
 مهاجا وقد شكت المطي من الوجا
 دعها فإن الشوق يجذبها إلى
 تلك الديار وإن يكن ليل سجا
 يا أيها الحادي وشوقك شوقنا
 سر عن يمين الواديين مخرجا⁽³⁾

فهو يعبر عن ما يختلج في داخله من أشواق إلى النبي الكريم.

ويقول وهو بصدد طلب الشفاعة من المصطفى:

يا سيد الرسل عبد قد أتى وله
 من سالف الذنب تخويف و تخجيل
 يرجو شفاعتك العظمى إذا اشتعلت
 نار على من عصى منها سراييل
 وقد أتيت بضعفي ما أتاك به
 كعب على أن باعي ما لها طول
 فإن قبلت ونالتي مراحم قد
 نالته لم يبق لي من بعدها سول⁽⁴⁾

فهو الوحيد الذي ترجى شفاعته.

(1)- هو برج في السماء، يضرب المثل بعلوه .

(2)- ابن جابر الأندلسي. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين أو الغين في مدح سيد الكونين.ص: 23.

(3)- المصدر نفسه . ص: 121 .

(4)- المصدر نفسه . ص: 435 .

ب-المواعظ والحكم: ففي باب حرف الراء تناول ابن جابر قصيدة مشتملة على مواعظ وحكم. هي:

عِلْمُ الْحَدِيثِ أَجْلُ السُّؤْلِ وَالْوَطْرِ
وَانْقِلَ رِحَالُكَ عَنْ مَغْنَاكَ مُرْتَحِلًا
وَلَا تَقُلْ عَاقِبِي شُغْلٌ فَلَيْسَ يُرَى
وَأَيُّ شُغْلٍ كَمَثَلِ الْعِلْمِ تَطْلُبُهُ
لَا تَفْخَرَنَّ بِدُنْيَا لَا بَقَاءَ لَهَا
تَفْنَى الرِّجَالَ وَيُبْقِي عِلْمُهُمْ لَهُمْ
وَيَذْهَبُ الْمَوْتُ بِالدُّنْيَا وَصَاحِبِهَا
تَظُنُّ أَنَّكَ فِي الدُّنْيَا أَخُو كَبِيرٍ
وَالنَّاسُ أَخْلَاقُهُمْ شَتَّى وَأَنْفُسُهُمْ
فَأَصْوَبُ النَّاسِ رَأْيًا مَنْ تَصَرَّفُهُ
إِنَّ الْقِنَاعَةَ مَالٌ لَا نَفَادَ لَهُ
فَالْفَقْرُ أَهْوَنُ مِنْ ذُلِّ السُّؤَالِ وَلَوْ
فَالْبِخْلُ لِلْمَرْءِ عِنْدَ النَّاسِ دَاعِيَةٌ
فَاقْطَعْ بِهِ الْعَيْشَ تُدْرِكُ لَذَّةَ الْعُمْرِ
لَكَيْ تَفُوزَ بِنَقْلِ الْعِلْمِ وَالْأَثَرِ
فِي التَّرَكِّ لِلْعِلْمِ مِنْ عُدْرٍ لِمُعْتَذِرٍ
وَنَقْلٍ مَا قَدْ رَوَوْا عَنْ سَيِّدِ الْبَشَرِ
وَبِالْعَفَافِ وَكَسْبِ الْعِلْمِ فَافْتَحِرِ
ذَكَرًا يُجَدِّدُ فِي الْأَصَالِ وَالْبُكَرِ
وَلَيْسَ يَبْقَى لَهُ فِي النَّاسِ مِنْ أَثَرٍ
وَأَنْتَ بِالْجَهْلِ قَدْ أَصْبَحْتَ ذَا صِغَرٍ
مِنْهُمْ بَصِيرٌ وَمِنْهُمْ مُخْطِئُ النَّظَرِ
فِيمَا بِهِ شَرَفُ الْأَلْبَابِ وَالْفِكْرِ
فَاقْنَعْ تَعَشُّ ذَا غِنَى خَالٍ مِنَ الْغَيْرِ
نَلْتَ الْغِنَى كَيْفَ إِنْ تُعْطَ مِنْ وَطْرِ
لِلْعَبْدِ عَنْهُمْ وَذَنْبٌ غَيْرٌ مَغْتَفَرٍ⁽¹⁾

طبعا هذه جل الأغراض الشعرية الموجودة في ديوان ابن جابر، والتي تدور حول

الرسول ﷺ بالإضافة إلى الحكم والواعظ .

(1)- ابن جابر. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين أو الغين في مدح سيد الكونين. ص: 213 وما بعدها.

III-موضوعات قصيدة المديح النبوي: قصيدة المديح النبوي في الأندلس في القرن الثامن الهجري عند لسان الدين بن الخطيب وكذا مواطنه ابن جابر قصيدة مركبة لا يخرج الشعراء في بنائها عن بناء القصيدة العربية المعروفة ويمر الشاعر في بنائها بمحطات رئيسية ثلاث هي:المقدمة، الموضوع أو الغرض، و الخاتمة.

إن الموضوع الأساسي الذي أنشئت من أجله قصيدة المديح النبوي، هو مدح النبي صلى الله عليه وسلم، وقد حفل ديوانا لسان الدين وابن جابر بمدح النبي صلى الله عليه وسلم والإشادة برسالاته العلمية السامية كما وصفا جماله الخلقى وحسن جماله الذي سحر العقول، وحاولا الشعاران ترسيخ حب النبي صلى الله عليه وسلم في قلوب الناس وشد نفوسهم إلى السنة النبوية الشريفة، ويمكنني أن أرصد جملة من الموضوعات تمحورت في المديح النبوي وهي:

1- عند لسان الدين بن الخطيب:

1-1- الشوق والحنين للنبي صلى الله عليه وسلم: أفصح الشاعر عن شوقه لزيارة قبر النبي وحاول استظهار مشاعره الطيبة السامية أمام هذا الموقف الرهيب،مظهرًا حبه وعشقه لشخص النبي صلى الله عليه وسلم،فقد أرهقت نوائب الدهر نفسه، وهو في حاجة للحظة البوح والاعتراف بالذنوب أمام سيد الخلق أجمعين، والتضرع لله تعالى أن يغفر تقصيره وإسرافه على نفسه، فقد خير ابن الخطيب رفيقيه بين أن يتركاه يحث الخطى مرتحلا إلى الحجاز، ليروي ظمأه منه، أو أن يطفى نار الشوق والوجد في فؤاده، ثم تحدث عن دمه الهتان، كلما هبت ريح الصبا حاملة من المشرق شذا الرسول صلى الله عليه وسلم،وعن أشواقه إلى البرق الحجازي وسهده ونفاد صبره إلا من بقية تخفف عنه ما يعانيه من وجد، وعن حنينه إلى نجد وحاجز، وتكنيته بدعد وسعدى، وعن دمه الفضح لما يريد أن يكتمه من وجد، قال:

دَعَا عَزَمَاتِي وَالْمَطِيَّةَ وَ الْوَحْدَا	وَالَا فَكُفَّا الشَّوْقَ عَنِّي وَالْوَجْدَا
وَلَا تُصَلِّيَا دَمْعِي بِتَجْرِيحِ مَقْلَتِي	فَدَمْعِي مَقْبُولٌ عَلَى الْقَلْبِ مَا أَدَا
أَلَمْ تَرِيَانِي كُلَّمَا هَبَّتِ الصَّبَا	أَبْلُ بِهَا مِنْ نَارِ لَوْعَتِي الْخَدَا
وَأَصْبُو إِلَى الْبَرَقِ الْحِجَازِيِّ كُلَّمَا	أَجَالَتْ أَكْفُ الْأُفُقِ فِي آسِيهَا الزُّنْدَا
وَمَا كَانَ قَبْلَ الْيَوْمِ جَفْنِي سَاهِرًا	نَعَمْ، هَجَزُ سُعْدَى عِلْمَ الْمُقَلَّةِ السُّهْدَا
وَلَمَّا تَفَانَى الصَّبْرُ إِلَّا صَبَابَةٌ	تُسَهِّلُ مِنْ وَقَعِ الْحَوَادِثِ مَا اشْتَدَا
حَنَنْتُ إِلَى الْعَهْدِ الْقَدِيمِ الَّذِي قَضَى	حَمِيدًا فَمَا أَغْنَى الْحَنِينُ وَلَا أَجْدَى
لِيَ اللَّهُ كَمْ أَهْذِي بِنَجْدٍ وَحَاجِرٍ	وَأَكْنِي بِدَعْدٍ فِي غَرَامِي أَوْ سُعْدَى

وَمَا هِيَ إِلَّا زَفْرَةٌ هَاجَبَهَا الْهَوَى
وَأَبْدَى بِهَا تَدَكَّارٌ يَثْرِبَ مَا أَبْدَا
وَكَمْ قَدْ كَتَمْتُ الشُّوقَ لَوْلَا مَدَامِعُ
يُرْوِي حَدِيثَهَا الْمَحَاجِرَ وَالْخَدَا
وَتَخْرُجُ مِنْ بَحْرِ الْجُفُونِ جَوَاهِرًا
تُحَاجِي بِهَا مَنْ أَدَكَرَ الْجَوْهَرَ الْفَرْدَا⁽¹⁾

ثم تساءل مستنكراً:أهناك تعليل لنفسه بعد رحيل ركب الحجيج إلى الحجاز، وأنى له أن يصبر إلى العام القادم.

أَبْعَدَ سُرَى الرَّكْبِ الْحِجَازِيِّ مُوهِنًا
وَأَرْجِعْ عُمْرِي مِنْ زَمَانِي لِقَابِلِ
أَمْدٌ لِنَفْسِي فِي تَعْلَلِهَا مَدًّا
كَأَنِّي قَدْ أَحْصَيْتُ أَيَّامَهُ عَدًّا⁽²⁾

ثم رفع صوته منادياً راجياً حداة الركب بما بينه وبينهم من مودة أن يخبروا الرسول صلى الله عليه وسلم بحاله وغبته وشوقه ورغبته بزيارته:

أَلَا يَا حُدَاةَ الرَّكْبِ يَبْعُونَ يَثْرِبًا
بِمَا بَيْنَنَا مِنْ خُلَّةٍ طَابَ ذِكْرُهَا
وَأَبْصَرْتُمْ نُورَ النُّبُوَّةِ سَاطِعًا
وَنَاجَيْتُمَا مِنْ مَطْلَعِ الْوَحْيِ رَوْضَةً
وَلَا قَلْبَ إِلَّا خَافِقٌ فِي شِعَافِهِ
مَعَاهِدُ مَدِّ الْغَيْمِ فَضَلَ رُوقِهِ
وَهَبَّ الْعَلِيلُ اللَّذْنُ مُسْتَشْفِيًا بِهَا
فَقُولُوا رَسُولَ اللَّهِ يَا خَيْرَ خَلْقِهِ
غَرِيبٌ بِأَقْصَى الْغَرْبِ طَالَ اشْتِيَاقُهُ
يَوْمٌ نَيْلَ الْقُرْبِ وَالذَّنْبُ مُبْعَدُ
وَيَلْقَوْنَ فِي اللَّهِ السَّامَةَ وَالْجَهْدَا
إِذَا فَرَعْتَ عَوْجَ الْمَطِيِّ بِكُمْ نَجْدَا
قَدِ اكْتَنَفَ التُّرْبَ الْمُقَدَّسَ وَ اللَّحْدَا
أَعَدَّ لَهَا اللَّهُ السَّعَادَةَ وَ الْخُلْدَا
وَلَا طَرْفَ إِلَّا مِنْ مَهَابَتِهَا ارْتَدَّا
بِهَا، وَكَسَاهَا مِنْ نَسِيجَتِهِ بُرْدَا
فَكَانَ الدَّوَاءَ الْبَانَ وَالشَّيْحَ وَالرَّيْدَا
وَأَكْرَمَ مَخْتَارِ أَبَانَ بِهِ الرَّشْدَا
فَلَوْلَا تَعَلَّاتُ الْمُنَى لَقَضَى وَجْدَا
وَقَدْ سُدَّ مِنْ طُرُقِ التَّخْلُصِ مَا سُدَّا⁽³⁾

واللافت للنظر في الأبيات السابقة تلك العاطفة المشبوبة الصادقة المشبعة بالروح الصوفية الهائمة بحب الرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك التبجيل الكبير الذي رأيناه في المعاني، كما رأيناه في أسلوب الأبيات الرصين المحكم الذي اختاره لسان الدين، ليناسب منزلة الحبيب القريب إلى القلب مع سموه ورفعته، فهو القريب البعيد، البعيد القريب.

(1)- لسان الدين بن الخطيب. مقدمة ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام. صص:479-480.

(2)- المصدر نفسه. ص: 480 .

(3)- المصدر نفسه . صص: 480-481 .

1-2-التغني بفضائل النبي صلى الله عليه وسلم: لقد تغنى الشاعر بفضائل الرسول صلى الله عليه وسلم على الأمة الإسلامية جمعاء، فقد مدحه ابن الخطيب بأنه ملاذ الخلق وأكرمهم وأعظمهم في حياته وبعدها، ولولاه لما استبان الضلال من الهدى، ولما زالت مثالب الجاهلية ولعلوه علا دينه الأديان، وفتحت جنوده البلاد، قال:

وَأَنْتَ الَّذِي أَعْطَى الْجَزِيلَ وَمَا أَكْدَا	وَلَكِنَّهُ يَرْجُو الَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ
وَأَكْرَمَهُمْ ذَاتًا وَأَعْظَمَهُمْ مَجْدًا	وَأَنْتَ مَلَاذُ الْخَلْقِ حَيًّا وَمَيِّتًا
وَلَا اِمْتَازَ فِي الْأَرْضِ الْمُكِبُّ مِنَ الْأَهْدَى	فَلَوْلَاكَ مَا بَانَ الضَّلَالُ مِنَ الْهُدَى
وَأَصْبَحَتِ الْأَهْوَاءُ لَا تَعْرِفُ الْقَصْدَا	وَلَمَّا مَحَتِ آيُ الشَّرَائِعِ فِطْرَةً
طَعَامَ رِجَالٍ يَجْعَلُونَ لَهُ نِدَا	وَتَعْبُدُ مِنْ دُونِ الْإِلَهِ حِجَارَةً
فَأَصْبَحَ حُرُّ الْقَوْمِ عَنْ كَتَبِ عَبْدَا	وَقَدْ شُنَّتِ الْعَارَاتُ مِنْ كُلِّ تَلْعَةٍ
وَسَلَّ وَشِيكًا مِنْ صُدُورِهِمُ الْحِقْدَا	أَرَادَ بِكَ اللَّهُ انكِحَامَ شَتَاتِهِمْ
جَنُودِكَ أَقْصَى الشَّامِ وَالصَّيْنِ وَالهِندَا ⁽¹⁾	وفاض على الأديان دينك واحتوت

1-3-تعداد معجزاته صلى الله عليه وسلم: يعد تعداد معجزات النبي صلى الله عليه وسلم عنصرا أساسيا في بناء قصيدة المديح النبوي، وهو غالبا ما يأتي بعد مدح النبي صلى الله عليه وسلم، وتعداد صفاته ومناقبه، وقد يتحدثون عن أوصاف الرسول الحسية، ويمزجون هذه الأوصاف بأوصافه المعنوية فيشيرون بزهده وعفته وكرم أخلاقه، ويرددون بعض أقواله أو يضمنون بعض أحاديثه. والمعجزة هي أحد مظاهر النبوة فما من نبي إلا وأيده الله تعالى بما يثبت نبوته وصحة رسالته، فقد مدح لسان الدين الرسول صلى الله عليه وسلم بالصبر وبالمعجزات الباهرة، ثم دعا الله تعالى أن يصلي عليه قائلاً:

وَكَمْ قَدْ تَجَهَّمَتِ الْخُطُوبَ كَوَالِحًا	وَصَابَرْتَ لَيْلَ الرَّبْعِ وَهُوَ قَدْ اِرْبَدَا
وَكَمْ قَدْ جَلَوَتِ الْمَعْجَزَاتِ عَلَيْهِمْ	شُمُوسًا أَقَامُوا دُونَهَا اللَّبْسُ وَالْجَحْدَا
وَمَا يُنْمِرُ الْبُرْهَانَ إِلَّا لَجَاجَةً	إِذَا لَقِيَتْ أَنْوَارُهُ أَعْيُنًا رُمْدَا
فَصَلَّى عَلَيْكَ اللَّهُ يَا خَيْرَ رَاحِمٍ	وَأَشْفَقَ مَنْ يُثْنِي عَلَى رَافَةِ كَبْدَا ⁽²⁾

ثم تمنى أن يكون إلى جواره، وأكده بقوله:

وَيَا لَيْتَ أَنِّي فِي جَوَارِكِ ثَاوِيًا	أَوْسَدَ مِنْهُ الْمِسْكُ وَالْعَنْبَرُ الْوَرْدَا
--	--

(1) - لسان الدين بن الخطيب. مقدمة ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام. صص: 481-482 .

(2) - المصدر نفسه . ص: 482 .

وَإِنْ فَسَحَ الرَّحْمَنُ فِي الْعُمْرِ بُرْهَةً فَلَا بَدَّ مِنْ حَثِّ الْمَطِيَّةِ لَا بَدًّا⁽¹⁾

وعاد مرة أخرى إلى رفيقيه اللذين رأيناها في مطلع قصيدته، ليخبرهما أن القول عاجز عن حصر مناقبه وتعدادها، وعن وفائه حقه، ثم ذكر بعض معجزاته مثل الإسراء والمعراج، وتكليم الله، وانشقاق القمر، ونبع الماء من بين أصابعه وغير ذلك في قوله:

وَفِي لَيْلَةِ الْمِيلَادِ أَكْبَرُ آيَةٍ
تَحَرُّ الْجِبَالِ الرَّاسِيَاتُ لَهُ هَذَا
أَشَادَتْ بِهَا الْكُهَّانُ قَبْلَ طُلُوعِهَا
وَمِنْ هَوْلِهَا إِيْوَانُ كِسْرَى قَدْ أَنْهَدَا
فِيَا لَيْلَةً قَدْ عَظَّمَ اللَّهُ قَدْرَهَا
وَأَنْجَزَ لِلنُّورِ الْمُبِينِ بِهَا وَعَدَا
وَصَيَّرَ أَوْثَانَ الضَّلَالَةِ خُضَّعًا
إِلَيْهَا فَلَمْ يَتْرُكْ سَوْعَاءً وَلَا وُدًّا
وَعَاجَلَ بِالْإِحْمَادِ نِيرَانَ فَارِسِ
فَلَمْ تُرَ لِلنَّيْرَانِ مِنْ بَعْدِهَا وَقْدًا
أَعْدَكَ مِيلَادًا لَخَاتَمِ رُسُلِهِ
وَأَطْلَعَ فِي آفَاقِكَ الشَّرْفَ السَّعْدَا
فَصُولِي عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ وَفَآخِرِي
بِهَذَا النَّبِيِّ الْحَالِ وَالْقَبْلِ وَ الْبَعْدَا
حَقِيقُ عَلَيْنَا أَنْ نَحُلَّ لَكَ الْحَبَا
وَنَجْعَلَ فِيهَا مِنْكَ عِيدًا وَمَشْهَدًا
نُشِيعُ مِنْ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ بِهِ شَهْدَا
وَنَخْلَعُ مِنْ أَمْدَاحِ أَحْمَدٍ حَلَّةً
عَلَيْكَ وَمِنْ مَنْظُومِ آيَاتِهِ عِقْدَا⁽²⁾

ولعل من الجدير أن نذكر أن مديحه السابق للرسول صلى الله عليه وسلم قد خلا مما ذكره في قصائده الأخرى⁽³⁾، وهو الغاية الفلسفية في النبوة، وأن النبي صلى الله عليه وسلم علة الكون وسره، وأن لحقيقته مظهرين، أحدهما في عالم الأسرار، حيث تتجلى في ذاته أنوار الحضرة الإلهية، وثانيهما في عالم الحس، حيث هو سبب هداية الناس وشفاء أسقامهم، ولولا أن الله قد اختاره لهذه المهمة، لما كان ذا مظهر بشري قط، لأنه يعلو عليه في الحقيقة. ولا ريب

أن هذا الأخير يشير إلى اعتقاد الصوفية بمهمة الحقيقة المحمدية في الكون، من حيث كونها عماده الرئيس وقوته المدبرة والوساطة بينه وبين الحق، وإذا كان لسان الدين لم يغل في اعتقاده غلو الصوفية، فلا شك أنه كان مولعاً كثيراً بتزديد قوله: إن النبي هو

(1)- لسان الدين بن الخطيب. مقدمة ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . صص: 482-483 .

(2)- المصدر نفسه . ص : 483 .

(3)- ينظر مثلاً القصيدة رقم 237 من ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام .

العلة الحقيقية للوجود⁽¹⁾.

ومن الطبيعي أن يستمد لسان الدين معاني مديحه للرسول ﷺ من كتب السيرة، وأن يتخذ هذا المديح شكل خطاب الحي الذي يمثل الشاعر أمامه مادحاً، لأنه كان يعتقد أن الرسول ﷺ حي في قبره كما أسلفنا من قبل.

ومن شعر لسان الدين بن الخطيب هذه الحائية التي ذكر فيها المعجزات التي أرخت لميلاد صاحب الشريعة الغراء ﷺ، ونختار منها :

وَفِي لَيْلَةِ الْمِيلَادِ لَاحَتْ شَوَاهِدٌ تَوَالَتْ بِهَا لِلَّهِ فِينَا الْمَنَائِحُ
أَضَاءَتْ فُصُورُ الشَّامِ مِنْهُنَّ وَأَنْجَلَتْ مَعَالِمُ مَا ضُمَّتْ عَلَيْهِ الْأَبَاطِحُ
وَهْدَّ لَهَا إِيوَانَ كِسْرَى مَهَابَةً وَأَخْمَدُ مِنْ نِيرَانِ فَارِسَ لَا فِخْ
وَعَاظَ بِهَا وَاوِي السَّمَاءِ فَانْتَتَتْ تُقْلَصُ ذَيْلَ الْخِصْبِ فِيهِ الْمَسَارِحُ
وَأَبْصَرَ سَيْفُ الْمَلِكِ رُؤْيَا فَأَصْبَحَتْ لِتَذْكَارِهَا تَرْتَاغُ مِنْهُ الْجَوَارِحُ
وَأَعْلَمَهُ كَهَائِهِ أَنْ أَرْضَهُ أَتِيحَ لَهَا مِنْ سَيِّدِ الْعَرَبِ فَاتِحُ⁽²⁾

كما يذكر بعض المعجزات النبوية ليذكر النصارى الذين تكالبوا على الدين وأرض العرب، بأن الإسلام ممثلاً بنبيه، قادر على كل شيء، وما المعجزات إلا تأكيد لما يريد الله أن ينشره:

إِنْ سَارَ فِي الرَّمْلِ لَمْ يَظْهَرَ لَهُ أَثَرٌ وَإِنْ عَلَا الصَّخْرَ، عَادَ الصَّخْرُ كَالطِّينِ
وَفِي الصَّحْبِيِّينَ أَنَّ الْجِدْعَ حَنَّ لَهُ وَالْعِدْقُ أَنَّ إِلَيْهِ أَيُّ تَأْنِينِ
وَقَدْ سَمِعْنَا بِأَنَّ الطَّيْرَ خَاطَبَهُ فِي مَنْطِقِ مَفْصَحٍ مِنْ غَيْرِ تَلْكِينِ
وَالطَّبَّيُّ وَالضَّبُّ جَاءَا يَشْهَدَانِ بِأَنَّ لَا شَيْءَ أَعْظَمُ مِنْ طَهٍ وَيَسِينِ⁽³⁾

وقد ردد ابن الخطيب ذكر المعجزات في اغلب قصائده كقوله:

لَهُ الْمُعْجَزَاتُ الزَّاهِرَاتُ كَأَنَّهَا بُرُوقٌ بِأَفَاقِ الْيَقِينِ لَوَائِحُ
كَأَخْبَارِهِ بِالْغَائِبَاتِ فَعِنْدَهُ لِأَبْوَابِ أَسْرَارِ الْغُيُوبِ مَفَاتِحُ

(1)- ينظر: لسان الدين بن الخطيب. الديوان. ص: 226 .

(2)- لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ص: 369.

(3)- أحمد بن محمد المقرئ التلمساني. أزهار الرياض في أخبار عياض، ج1، تحقيق، مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1939م. ص: 317.

وَأَعْطَى عَسِيبَ النَّخْلِ فِي حَوْمَةِ الْوَعَى فَهَزَّ حُسَامٌ مِنْهُ لِلدَّمِ سَافِحٌ⁽¹⁾

ومما يميز هذه القصيدة أن الشاعر يدعم آراءه بالبراهين والأدلة كيلا يترك مجالاً للشك في نفوس المشككين.

وقد أضاف ابن الخطيب إلى مناقب وخصال الرسول ﷺ بعضاً من معجزاته، فردها في معظم مدحه، فيقول مصوراً ذلك:

لَكَ الْمَعْجَزَاتُ الْغُرُّ يَبْهَرُ نُورَهَا إِذَا أَرَبَدَّ مِنْ جُنْحِ الظَّلَامِ بِهِمُهُ
وَحَسْبُكَ مِنْ جَذَعٍ تَكَلَّمَ مَفْصِحًا وَقَدْ دَمِيتَ يَوْمَ الْفِرَاقِ كَلْوْمُهُ
وَبَدْرٌ بَدَا قَسَمَيْنِ فَالْقِسْمُ ثَابِتٌ مَقِيمٌ، وَقَدْ أَهْوَى إِلَيْكَ قَسِيمُهُ
وَمَعْجَزَةُ الْقُرْآنِ أَجْلَى فَإِنَّهُ عَجَائِبُهُ لَا تَنْقُضِي وَعُلُومُهُ⁽²⁾

ويقول كذلك في إحدى مدحه النبوية، وفيها يصور صعود الرسول ﷺ إلى أطباق السماء:

سَمَا فَوْقَ أَطْبَاقِ السَّمَاءِ مُنَاجِيًا وَ كَلَّمَ تَكْلِيمًا بِهَا الْأَحَدُ الْفَرْدَا
وَمَا زَاغَ مِنْهُ الطَّرْفُ كَلَا وَلَا طَعَى فَلِلَّهِ مَا أَجْلَى، وَاللَّهُ مَا أَهْدَى⁽³⁾

لقد عدد ابن الخطيب في مدحته النبوية العديد من معجزات الرسول الكريم ﷺ

فهي من الكثرة بمكان، فلا يمكن لأحد أن يستعرضها بسهولة ويسر، ولذلك وجدناه يقول:

وَمَاذَا يُعَدُّ الْوَصْفُ مِنْ مُعْجَزَاتِهِ وَآيُ رَسُولِ اللَّهِ تَسْتَعْرِقُ الْعِدَا⁽⁴⁾

(1)- لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام. ص : 368.

(2)- المصدر نفسه . صص : 550-551 .

(3)- المصدر نفسه . ص: 356 .

(4)- المصدر نفسه . ص: 483 .

1-4-الإشادة بلبلة مولد الرسول صلى الله عليه وسلم:

وبما أنها أنشئت أساسا لامتداح النبي صلى الله عليه وسلم، وتعظيم ذكرى مولده فقد كان هذا هو الموضوع الأساسي للقصيدة، ثم يليه موضوع ثانوي هو مدح الملك الذي ترفع إليه القصيدة المولدية وتتشد بين يديه ليلة الاحتفال بذكرى المولد النبوي . يقول لسان الدين في شأن ذلك:

فِيَا لَيْلَةً قَدْ عَظَّمَ اللَّهُ قَدْرَهَا فَصُولِي عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ وَفَآخِرِي
وَأَنْجَزَ لِلنُّورِ الْمَبِينِ بِهَا وَعَدَا بِهِذَا النَّبِيِّ الْحَالِ وَالْقَبْلِ وَالْبَعْدَا (1)

ومع أن بعض هذه المعاني قد تكررت عند الشعراء، فإن آخرين حاول التفرد في بعضها، فابن الخطيب يكاد ينفرد من بين شعراء عصره في مسألة حمل أمانة بنت وهب للرسول الكريم، حيث قال:

وَلَمْ تَشْكُ ثَقْلَ الْحَمْلِ آمِنَةَ الرِّضَا وَفِي لَيْلَةِ الْمِيلَادِ مِنْهُ بَدَتْ لَهَا
وَبَشَرَهَا الْأَمْلَاكُ أَنَّ وَلِيدَهَا إِلَى أَنْ تَفْرَى اللَّيْلُ عَنْ نُورِ وَجْهِهِ
وَلَا دَهَيْتُ مِنْهُ بِكَرْبٍ وَلَا غَم شَوَاهِدُ لَمْ تَخْطُرْ لِنَفْسٍ وَلَا وَهْم
إِمَامُ النَّبِيِّينَ الْكَرَامِ أُولِي الْعِزْمِ كَمَا شَفَّ سَحَبٌ عَنْ سَنَا قَمَرٍ تَمَّ (2)

فقد أشار إلى أنها لم تتعرض لآلام الحمل، ومعاناة الولادة كغيرها من النساء، واكتفى بالإشارة إلى ما كان من بشارة الملائكة لها بنبوة وليدها.

وقد تكررت عند الشعراء إرهافات النبوة، وما كان من حوادث رافقت ليلة ميلاده، وما حدث فيها من ظواهر كونية. ولم يكتف الشعراء بما ورد عن الأنبياء والكتب السماوية، بل أشاروا إلى ما بشر به الكهان، فقد روي عن الكهان: شق وسطيح أنهما أخبرا الناس بقرب مجيء النبي صلى الله عليه وسلم، وهما بذلك يؤكدان صدق ما جاء به الرسول الكريم، وما جاء في الكتب السماوية: الإنجيل والتوراة، وهي أمور لم تكن لنبي قبله، في تهيئة الناس لاستقبال رسالته، قال لسان الدين بن الخطيب:

وَأَخْبَرَ شَقَّ أَنْ فِي الْأَرْضِ عِنْدَهَا طُلُوعَ نَبِيِّ طَاهِرِ الْأَبِّ وَالْأُمِّ
رَسُولٌ مِنَ الرَّحْمَنِ يَدْعُو إِلَى الْهُدَى وَيَدْعُو إِلَى السَّلَامَةِ وَالسَّلَامِ (3)

(1)- لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ص : 378 .

(2)- المصدر نفسه . ص: 399 .

(3)- المصدر نفسه . ص: 412 .

أراد الشاعر من ذكر تلك الإشارات في شعره، والتنوع في مدلولاته تأكيد نبوة الرسول.

1-5- الاستنجاد بالرسول والإيمان بأن الله لا يتخلى عن دينه، وأن شخصية الرسول هي

القوة المعنوية المنقذة بعد سيطرة اليأس عليهم .يقول لسان الدين بن الخطيب:

بجَاهِ الْعَظِيمِ أَدْرَكَ نَمَاءَنَا بِرَحْمَى يَحْلِي الْمُؤْمِنِينَ شُدُورُهَا
وَارْسِلْ عَلَيَّ هَذَا الْعَدُوَّ رِزِيَةً يَرُوحُ وَيَعْدُو بِالْبَوَارِ مَبِيرَهَا
يَشْتَتُّ شَمْلَ الْكُفْرِ تَشْتِيَتْ نَقْمَةً وَيَنْظِمُ شَمْلَ الْمُؤْمِنِينَ حَصِيرَهَا⁽¹⁾

1-6- طلب الغوث والشفاعة من الرسول ﷺ: لقد سادت روح التصوف وفنونه المدحة

النبوية عند ابن الخطيب، حتى أصبحت متضمنة التوسل والشفاعة، وطلب الاستغاثة.

فيبدأ مدحته بتوجيه الخطاب مباشرة إلى النبي الكريم ويلتمس منه الشفاعة، وقد يتوجه

بحديثه إلى الله سبحانه وتعالى ويسأله الصلاة والتسليم على رسوله الكريم ويخلص من

ذلك إلى مدح النبي . يقول ابن الخطيب في طلب الغوث والشفاعة من الرسول ﷺ :

تَدَارِكُهُ يَا غَوْثَ الْعِبَادِ بِرَحْمَةٍ يَقْضِيهِ دِينَ الْعَفْوِ فِيهَا غَرِيمُهُ
أَيَجْهَرُ بِالشُّكْوَى وَأَنْتَ سَمِيعُهُ أَيْعَلُنُ بِالنَّجْوَى وَأَنْتَ عَلِيمُهُ
أَتَعَوِّزُهُ السُّقْيَا وَأَنْتَ غِيَاثُهُ أَتَتَلَفُهُ الْبَلْوَى وَأَنْتَ رَحِيمُهُ⁽²⁾

ويبدو أن ابن الخطيب من خلال إنشاده تلك المدائح النبوية وجد تنفيسا لما يعانيه

المسلمون في ذلك الوقت من نير الحروب الاسبانية، وحسبه أن في ذكر الرسول ﷺ

واستحضار صفاته ومناقبه و معجزاته والتذكير بمواقفه الجهادية استنهاضا لهمم المسلمين

من أجل الذود عن بلادهم ودينهم الذي يتعرض إلى أشرس عدوان صليبي .

(1)- جمعة شيخة. الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي . (د.ط). تونس، 1994م. ص : 75.

(2)- لسان الدين بن الخطيب. الديوان. صص: 549-550 .

2- عند ابن جابر الأندلسي:

2-1- الشوق لرؤية النبي صلى الله عليه وسلم: أما ابن جابر فيذرف الدموع غزيرة تنثرى شوقا وهياما

لرؤية النبي صلى الله عليه وسلم :

إِيكَ قَصَدْنَا لَا لِسَلْمَى وَلَا سَعْدَى وَأَنْتَ أَرَدْنَا لَا الْعَقِيقَ وَلَا نَجْدَا
وَلَوْلَا اسْتِيَاقِي أَنْ أَرَاكَ بِمَقَلَّتِي لَمَا كُنْتُ أَشْتَاقُ الْأَرَاكَ وَلَا الرُّنْدَا
وَمِنْ أَجْلِكُمْ أَصْبُو لِبَرْدِ الصَّبَا إِذَا تَجَرُّ صَبَاً فَوْقَ أَرْضِكُمْ بُرْدَا
وَمَا افْتَرَّ ثَغْرُ الْبُرْقِ مِنْ أَرْضِ بَارِقِ لِعَيْنِي إِلَّا فَاضَ دَمْعِي لَهُ وَجْدَا
وَلَوْلَا رَجَاءُ الْقُرْبِ مِنْ ذَلِكَ الْحَمَى لَمَا اخْتَرْتُ عَنْ أَهْلِي وَعَنْ وَطَنِي بُعْدَا
وَلَا اسْتَلِدُّ الْعَيْشَ فِي غَيْرِ أَرْضِكُمْ وَلَا أَشْتَهِي مِنْ غَيْرِ مَائِكُمْ وَرْدَا⁽¹⁾

فقد قطع ابن جابر وغيره الفيافي والقفار يحثون مطاياهم ويستعجلونها كلما أتعبها الترحال، ويصبرون أنفسهم، ويمنونها برؤية العقيق والرند ونجد وغيرها من المواضع التي أحبوا لحبهم للرسول صلى الله عليه وسلم، هذا الحبيب الذي يذكرونه دائما ويصبون إليه.

2-2- التغني بفضائل النبي صلى الله عليه وسلم: على الرغم من احترام المسلمين لجميع الرسل وإيمانهم

بهم، فإنهم فضلوا نبيهم محمداً ولا غرو في ذلك، فإله فضلته على خلقه جميعاً، واعترف الرسل عليهم السلام بفضله عليهم، إذ ائتموا به ليلة الإسراء في بيت المقدس وصلى بهم، كما أنهم يحشرون يوم القيامة تحت لوائه، وقد ذكر ابن جابر ذلك فقال:

إِمَامُ جَمِيعِ الرُّسُلِ لَيْلَةَ إِذْ سَرَى فَصَلَّى بِهِمْ فِي مَحْفَلٍ أَيِّ مَحْفَلٍ
وَيَأْتِي غَدَاً وَالرُّسُلُ تَحْتَ لَوَائِهِ وَقَدْ خُصَّ فِيهِمْ بِالْمَقَامِ الْمُفْضَلِ⁽²⁾

كما فضل ابن جابر الرسول صلى الله عليه وسلم على غيره من الرسل عليهم السلام بالشفاعة يوم القيامة، إذ يستشفع الناس من هول القيامة بالرسل فلا يستطيعون أن يجيبوهم ويشفعوا لهم، ثم يشير عيسى عليه السلام عليهم أن استشفعوا بمحمد صلى الله عليه وسلم لأن قوله الحق، فيأتون محمداً مستشفعين، فيقول لهم أنا كفيل بها، فيدعو ربه ويشفع للمؤمنين، وهنا يصيخ الناس لصوت الحق المهيب قائلاً: لقد أوتيت سؤلك يا محمد، فينتفسون الصعداء، وقد صور ابن جابر ذلك بصورة قصصية زادها الحوار والحركة جمالاً، فقال:

(1)- ابن جابر. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين أو الغين في مدح سيد الكونين. صص: 191-192.

(2)- المصدر نفسه . صص: 447-448 .

لَهُ الشَّفَاعَةُ حَيْثُ الرُّسُلُ جَائِيَةٌ وَكُلُّ شَخْصٍ لِدَاكِ الْيَوْمِ مُخْبُولٌ
 وَجَاءَتِ الْخَلْقُ أَفْوَاجًا لِيَلْتَمِسُوا لَهُمْ شَفِيعًا وَمَا فِي الْأَمْرِ تَمْهِيلٌ
 وَحَيْثُ جَاءُوا رَسُولًا قَالَ لَسْتُ لَهَا فَلَيْسَ لِي عَنْ مَقَامِ الْخَوْفِ تَحْوِيلٌ
 حَتَّى إِذَا مَا أَتَوْا عَيْسَى يَقُولُ لَهُمْ أَمْرُ الشَّفَاعَةِ لِلْمُخْتَارِ مُوَكَّلٌ
 فَقَوْلُهُ الْقَوْلُ لَا رَدَّ وَلَا فَنَدٌ إِذَا تَرَدَّ عَلَى النَّاسِ الْأَقَاوِيلُ
 حَتَّى إِذَا سَأَلُوا الْمُخْتَارَ قَالَ لَهُمْ أَنَا لِدَاكِ وَلِيٌّ بِالْأَمْرِ تَكْفِيلٌ
 هُنَاكَ يُدْعَى بِهِ سَلٌ تُعْطَى وَادْعٌ تُجَبُّ وَاشْفَعُ تُشَفَّعُ فَوَعْدُ اللَّهِ مَفْعُولٌ⁽¹⁾

وللسبب نفسه وصفه ابن جابر بنجم الهدى إذا كانت الرسل سماء، وبالبدن إذا كانوا نجومًا، وبواسطة العقد إذا كانوا جواهر، فقال:

إِنْ تَحَسَّبَ الرُّسُلَ سَمَاءً قَدْ بَدَتْ فَإِنَّهُ فِي أَفْقِهَا نَجْمٌ هَدَى
 وَإِنْ يَكُونُوا أَنْجُمًا فِي فَلَكِ فَإِنَّهُ مِنْ بَيْنِهِمْ بَدْرٌ بَدَا
 وَاسِطَةُ السَّلَكِ إِذَا مَا نَظَّمُوا وَمَلْجَأُ الْقَوْمِ إِذَا الْخَطْبُ عَدَا⁽²⁾

لذلك بشر به الأنبياء من قبله، مثل موسى وعيسى عليهما السلام، كما بشر به أيضاً الأحرار والرهبان وسطيح وشقّ وسيف بن ذي يزن وبحيرا وقُسّ وغيرهم، حتى لم يخل جيل من علامة لبعثته، لقد اتفقوا جميعاً على هذا الأمر على الرغم من اختلاف بلادهم ولغاتهم وأجناسهم وأزمنتهم ومشاربهم، قال ابن جابر:

لِمَبْعَثِهِ مِنْ كُلِّ جَيْلٍ عِلْمَةٌ عَلَيَّ مَا جَلَّتْهُ الْكُتُبُ مِنْ أَمْرِ الْجَلِيّ
 فَجَاءَ بِهِ إِنْجِيلُ عَيْسَى بِأَخْرِ كَمَا قَدْ مَضَتْ تَوْرَاةُ مُوسَى بِأَوَّلِ
 لِأَحْبَارِهِمْ فِي حُسْنِ إِنْخَابِهِمْ نَبَا نَبَا عَنْهُ حَدُّ الْحَاسِدِ الْمَتَأَوَّلِ
 عَلَا جَدُّ (سَيْفٍ) حِينَ بَشَّرَ جَدَّهُ⁽³⁾ بِذَلِكَ تَنْبِيهَاً عَلَى قَدَرِهِ الْعَلِيِّ
 وَإِنَّ بَحِيرًا أُمَّ مَرَاةَ عِلْمِهِ فَأَبْصَرَهُ فِيهَا بَعِينَ التَّخْيِيلِ
 وَقَدْ قَامَ قُسٌّ فِي عُكَاطٍ فَقَصَّ مِنْ نُبُوتِهِ مَا قَالَهُ كُلُّ مُنْزَلِ
 وَأَرَشَدَتِ الرَّهْبَانُ (سَلْمَانَ) نَحْوَهُ وَقَالُوا لِدَاكِ النَّخْلِ يَثْرِبُ فَارْحَلِ⁽⁴⁾

(1)- ابن جابر. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين أو الغين في مدح سيد الكونين. ص: 432-433.

(2)- المصدر نفسه. ص: 190.

(3)- أي جد الرسول ﷺ.

(4)- ابن جابر. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين أو الغين في مدح سيد الكونين. ص: 448.

2-3-تعداد معجزات النبي ﷺ: اختص الله سبحانه وتعالى كل نبي بمعجزة خاصة أو معجزات، وقد ذكرت في القرآن الكريم، الذي يعد معجزة، إذ أن الله تحدى به العرب فعجزوا على أن يأتوا بمثله» فالقرآن الكريم بإعجازه هو إثبات لقدرة الله تعالى وإثبات عجز الخلق عن معارضته»⁽¹⁾. وقال الله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا مِنْكُم مَّحَدِّثًا فَنَزَّلْنَا بِسُورَةٍ مِنْهُ لِيَمُنَّ بِهِمْ وَنَذِيرٍ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾⁽²⁾.

فالقُرآن الكريم معجزة بفصاحته وبلاغته، وبهذا يكون من أكبر المعجزات التي أيد الله بها نبيه الكريم. فقد تحدث ابن جابر أيضاً عن معجزة الرسول ﷺ الخالدة، وهي القرآن الكريم، الذي نرى فيه العظات والتبیین والتفصيل وعلم الأولين والآخرين والحلال والحرام، كل ذلك بأسلوب سام معجز، تحدى الله الإنسان والجن على أن يأتوا بسورة منه فعجزوا، وخذلوا على الرغم من فصاحة العرب وبلاغتهم، وأنه جاء بلغتهم، فقال:

وجاءكم بكتاب فيه موعظة	للسامعين وتبيين وتفصيل
وفيه أودع علم الأولين وعلم	م الآخرين وتحريم وتحليل
على مساق ونظم ليس من بشر	فللمعارض تعجيز وتخذي
والعرب عن سورة من مثله عجزوا	في وفرهم وهم اللسن المقاويل ⁽³⁾

كما عدد ابن جابر أيضاً معجزات الرسول ﷺ الكثيرة، مثل كلام البعير معه، وتسبيح الحصى في يده، وحنين الجذع إليه، وانشقاق البدر، وتظليل الغمام، واخضرار الدوح بعد جفافه، وتكليم الميت وقيامه، وشهادة الضب على نبوته، وطاعة الغزالة له تعداداً جعله يبتعد عن الشعر ليقترب من النظم العلمي، فقال:

ذو المعجزات المعجزات لكل من	في صدره غل ثوى و تلججا
نطق البعير له وسبحت الحصى	والجذع حن له بصوت قد شجا
والشمس بعد غروبها ردت له	والبدر بين يديه شق وأفرجا
وإذا مشى كان الغمام يظله	كرماً إذا لهب الهجير توهجا
والدوح أرق وهو يبس عندما	وافى ومد عليه ظلاً سجسجا

(1)-عبد الحميد محمود. المعجزة والإعجاز في سورة النمل.(د-ط)، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع،

دمشق، (د-ت). ص: 15.

(2)- سورة البقرة . الآية: 23 .

(3)- ابن جابر. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين أو الغين في مدح سيد الكونين. ص: 433.

والميتُ كَلَّمَهُ وَقَامَ بِأَمْرِهِ
يَمْشِي وَ فِي أَكْفَانِهِ قَدْ أُدْرِجَا
وَالضَّبُّ قَالَ شَهِدْتُ أَنَّكَ مَرَسَلٌ
لِلْعَالَمِينَ فَمَنْ أَجَابَ فَقَدْ نَجَا
هَذِي الْغَزَالَةُ إِذْ أَطَاعَتْ أَمْرَهُ
وَجَدْتَ سَبِيلًا لِلنَّجَاةِ وَمَخْرَجًا⁽¹⁾

وقد أشاد الشاعر بمعجزات الرسول التي لا تحصى، ولا يخفى ما لذكر المعجزات في المدح من تنبيه لعقول البشر، وحث على تعلقها بالممدوح ورسالته وقد أعلن الشاعر، كما اعترف الشعراء من قبل أن الرسول الكريم الذي خصه الله بآيات معجزات يعجز أي شاعر عن أن يحيط بوصفه، ولذلك فهو يطلب الشفاعة من الله تعالى، مستغفراً عما جناه في حياته من ذنوب.

2-4-الحديث عن غزوة بدر: وبالإضافة إلى ذلك تحدث ابن جابر عن غزوة بدر الكبرى، ووصفها وصفاً دقيقاً، استمده من القرآن الكريم وكتب السيرة، تكلم فيه عن بطولة الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته، وعن تأييد جبريل والملائكة لهم، وعن رميه صلى الله عليه وسلم بالحصى في أوجه المشركين، ثم عن المعركة، وعدد أسماء كل من الطرفين، وانتصار المسلمين وهزيمة المشركين تاركين قتلاهم الذين رماهم المسلمون في القليب، وتقريع الرسول صلى الله عليه وسلم لهم، فقال:

بَدَا يَوْمَ بَدْرٍ وَهُوَ كَالْبَدْرِ حَوْلُهُ
كَوَاكِبُ فِي أَفْقِ الْمَوَاكِبِ تَنْجَلِي
وَجَبْرِيلُ فِي جَنْدِ الْمَلَائِكِ دُونَهُ
فَلَمْ تُغْنِ أَعْدَادُ الْعَدُوِّ الْمُخَذَّلِ
رَمَى بِالْحَصَى فِي أَوْجِهِ الْقَوْمِ رَمِيَةً
فَشَرَدَهُمْ مِثْلَ النِّعَامِ بِمَجْهَلِ
فَفَرُّوا سَرَاعًا يَهْرَبُونَ كَأَنَّمَا
تَحَوَّلَ مِنْهُمْ بَطْشُ أَيْدٍ لِأَرْجَلِ
وَجَادَ لَهُمُ بِالْمَشْرِفِيِّ فَسَلَّمُوا
فَجَادَ لَهُ بِالنَّفْسِ كُلِّ مُخَذَّلِ
عُبَيْدَةَ سَلَّ عَنْهُمْ وَحِمْرَةَ وَاسْتَمَعَ
حَدِيثَهُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنْ عَلِي
فَهُمْ عَتَبُوا بِالسِّيفِ عُتْبَةَ إِذْ عَدَا
فَذَاقَ الْوَلِيدُ الْمَوْتَ لَيْسَ لَهُ وَلِي
وَشَبِيهَةٌ لِمَا شَابَ خَوْفًا تَبَادَرَتْ
إِلَيْهِ الْعَوَالِي بِالْخِضَابِ الْمَعْجَلِ
وَجَالَ أَبُو جَهْلٍ فَحَقَّقَ جَهْلُهُ
غَدَاةً تَرَدَّى بِالرَّدَى عَن تَذَلُّلِ
فَأَضْحَى قَلْبِيًّا فِي الْقَلِيبِ وَقَوْمُهُ
يَوْمُونَهُ مِنْهَا إِلَى شَرِّ مَنْهَلِ
وَجَاءَهُمْ خَيْرُ الْأَنَامِ مُوبِخًا
فَفَتَحَ مِنْ أَسْمَاعِهِمْ كُلِّ مُقْفَلِ

(1)- ابن جابر. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين أو الغين في مدح سيد الكونين. ص: 122-123.

وأخبر ما أنتم بأسمع منهم ولكنهم لا يهتدون لمقول⁽¹⁾

2-5-مدح كل من له شرف بالقرب منه: ولم يكتف ابن جابر بمدح الرسول فحسب، وإنما مدح كل من شرف بالقرب منه، مثل المهاجرين الذين مدح نسبتهم إلى قريش التي نظرت القبائل العربية إليها نظرة خاصة، واحترمتها لانتمائه صلى الله عليه وسلم إليها، ومدحهم أيضاً بالبشر والجدود والعز بكرامتهم عند الله الذي ينجي من يحبهم، ويدخل النار من يبغضهم، فقال:

هم قريش وما أدراك من مالا من نيلهم قد جرى في مصرهم نيل
قوم وجوههم بشر و أنملهم بذل وربعم بالعز مأهول
وما مرادك من قوم محبهم ناج وشانيهم في النار مملول
تضيء أحسابهم ليلاً وأوجههم كأنما في الدجى منهم قناديل⁽²⁾

كما مدح أيضاً الأنصار الذين شرفوا بنصرتهم للنبي صلى الله عليه وسلم ومساعدتهم للمهاجرين في دحر الشرك وإعلاء كلمة الله تعالى، ونعتهم بجمال الوجه وكرم الفعل ورجاحة العقل وحسن الصبر والشجاعة في الحرب، فقال:

وساعدتهم من الأنصار طائفة بهم غدا الشرك قدماً وهو مخذول
زهو الوجوه كرام الفعل عندهم لكل صعب من الأشياء تذليل
يمشون مشي الأسود الضاريات إذا ما صاحت الحرب في أبطالها جؤلوا⁽³⁾

ثم إن ابن جابر خص آل البيت والعشرة المبشرين بالجنة من الصحابة رضي الله عنهم بقصيدة طويلة مدحهم بها وعدد مآثرهم واحداً واحداً⁽⁴⁾.

كما تفردت المدينة المنورة أيضاً على جميع البلاد بأنها ضمت جثمان الرسول صلى الله عليه وسلم بين ثناياها، الأمر الذي جعلها أشرف البلاد مثلما قال ابن جابر:

لقد فضلت كل البلاد بأسرها كما أن من حازته قد فضل الخلقا
وما ضم أعضاء الرسول فإنه أجل مكان لا خلاف هنا يبقى

(1)- ابن جابر. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين أو الغين في مدح سيد الكونين. ص: 449.

(2)- المصدر نفسه. ص : 435.

(3)- المصدر نفسه. ص : 435.

(4)- المقري. نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج10. ص: 217 وما بعدها .

وليس لهذا من نظير غيرها وقد حازت التفضيل لا شك والسبقاً (1)

وهنا ابن جابر أهل المدينة على مر العصور بسكناهم فيها وجوارهم للرسول صلى الله عليه وسلم، ونصحهم بالبقاء فيها مهما جار الزمن عليهم، فيكفيهم حسن الجوار، قال:

هناؤكم يا أهل طيبة قد حقا فبالقرب من خير الورى حزتم السبقاً

فلا يتحرك منكم ساكن إلى سواها وإن جار الزمان وإن شقاً (2)

بل إنه قد هنا المسلمين على اختلاف أجناسهم وبلادهم لتشرفهم بالانتماء إلى دين محمد صلى الله عليه وسلم، ذلك الانتماء الذي أعلاهم على جميع الأمم، فقال:

يا أمة المصطفى الهادي ليهنكم هذا الرسول به بين الورى صولوا

فأنتم اليوم أعلى أمة ولكم أعلى النبيين هذا العز والطول (3)

2-6- طلب نيل الشفاعة في الآخرة: وكان ابن جابر يبغى من وراء مديحه هذا .

بالإضافة إلى التعبير عن حبه للرسول صلى الله عليه وسلم وتعظيمه وغير ذلك . أن ينال شفاعته صلى الله عليه وسلم ليمحو بها ذنوبه ويقوي بها ضعفه، قال:

يا سيّد الرسل عبد قد أتى وله من سالف الذنب تخويف وتخجيل

يرجو شفاعتك العظمى إذا اشتعلت نار على من عصى منها سرايل

وقد أتيت بضعفي ما أتاك به كعب على أن باعي ما له طول

فإن قبلت ونالتي مراحم قد نالته لم يبق لي من بعدها سؤل (4)

وقد أنهى ابن جابر معظم مدائحه النبوية بالصلاة على النبي وعلى آله وصحابته، والتي غدت تقليداً لدى كثير من شعراء المديح النبوي، وتفنن فيها تفنناً جميلاً، إذ عبر عن ديمومة صلاة الله على النبي بدوام سجع الحمام على الأغصان، فقال:

صلى عليك إله العرش ما سجعت ورق لهن على الأغصان تهديل

أزكى صلاة تعم الآل وأصله صحبا هم للورى زين وتحويل (5)

(1)- ابن جابر. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين أو الغين في مدح سيد الكونين. ص: 380.

(2)- المصدر نفسه . ص : 382.

(3)- المصدر نفسه. ص : 433.

(4)- المصدر نفسه . ص : 435.

(5)- المصدر نفسه . ص : 436.

2-7- محبة الكائنات الحية له عليه وسلم: ونذكر هنا ما ذكره الشعراء حول معجزات حب الكائنات الحية لحبيب الله تعالى، وطاعتها له صلى الله عليه وسلم مثل حنين الجذع، وإسراع الأشجار إليه، وتكليم الذئب، ونطق الحصى.. وغير هذه المعجزات الشريفة التي تناقلتها كتب السيرة الشريفة، ومنها أبيات الشاعر الأندلسي محمد بن جابر يقول فيها:

ألم يعلموا علم اليقين بصدقِهِ و لكنَّهُمْ لا يرجعون لمَعْقَلِ
 أليس الذي في كَفِّهِ سَبَحِ الحصى وأرَوى جميعَ الجيشِ مِنْ نَبَعِ أنْمَلِ
 أليس انشقاقُ البدرِ كانَ لأجلِهِ فشقَّ على نفسِ الشقيِّ المذللِ
 ألم ينظروا للدَّوْحِ تسعى لقصدِهِ ألم يُبصروا فِعْلَ الغمامِ المظللِ
 أليس الذي قد آلمَ الجذعَ فَقَدَهُ فإنَّ أنينَ الشيقِ المتملِّلِ
 أليس الذي أعطى الغزاةَ عهدَهُ فعادتْ ولم تُخلفْ ولم تَمَهَّلِ
 أليس بغيرِ القومِ لأذِ بَعْدِهِ فأنجاهُ مِنْ جُوعٍ وتثْقيلِ مَحْمَلِ
 أما الجمَلُ الصعْبُ القيادةَ أطاعَهُ وأهوى لوجهِ الأرضِ فِعْلَ مُقْبَلِ
 ألم ترَ أنَّ الوحشَ والدوْحَ سلَّمتْ عليه وما يلقاهُ مِنْ كلِّ جَنْدَلِ
 أليس الذي قد كلَّمُ الضبَّ سائلاً فقالَ مجيباً أنتَ آخرُ مُرْسَلِ⁽¹⁾

وأسلوب الاستفهام التقريري الذي ابتدأ به الشاعر أبياته وكرره بهذا الشكل لهو خير دليل على اندفاع العاطفة الإيمانية لدى الشاعر وامتزاجها بحالته الشعورية لحظة إبداع قصيدته .

2-8- معجزة الإسراء والمعراج: لقد كانت قصة الإسراء والمعراج منبعاً يستمد منه ابن جابر مدائحه:

سبحانَ مَنْ أسرى بِهِ مِنْ بَيْتِهِ للمسجدِ الأقصى بليلاً قد دَجَا
 ركبَ البراقَ وجالَ سبعَ طباقِها في ليلةٍ ودناَ وبلغَ ما ارتجى
 ذو المعجزاتِ المعجزاتِ لكلِّ مَنْ في صدرِهِ غلُّ ثوى وتَلَجَجَا⁽²⁾

(1)- ابن جابر. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين أو الغين في مدح سيد الكونين. ص: 449 .

(2)- المصدر نفسه. ص: 122.

IV-الموازنة بين لسان الدين وابن جابر من حيث الموضوعات والقوافي:

طرق ابن الخطيب وابن جابر في ديوانيهما اللذين بين أيدينا مواضع الشعر العربي المعروفة، من الغزل والمدح والرتاء والهجاء و الإخوانيات والحكم والمواظ .
وجاء شعرهما في أغلب بحور الشعر العربي المعروفة، على تفاوت فيما بينها، وتتبع قصائد ديوان ابن الخطيب دون مقطوعاته، فوجدت الطويل أكثرها استعمالاً حسب ما يوضحه الجدولان:

1- ابن الخطيب:

بحر الطويل	بحر الكامل	بحر البسيط	بحر الخفيف	بحر المنسرح	بحر المتقارب	بحر الرمل	بحر السريع	بحر الوافر
62 قصيدة	35 قصيدة	10 قصائد	06 قصائد	05 قصائد	05 قصائد	03 قصائد	02 قصيدة	01 قصيدة

2- ابن جابر.

بحر الطويل	بحر البسيط	بحر الكامل	بحر منسرح	بحر الوافر	بحر الرمل	بحر المتقارب	بحر المديد	بحر الرجز	بحر المقتضب	بحر المجتث	بحر الخفيف	بحر الخبب	بحر السريع
37 قصيدة	21 قصيدة	14 قصيدة	10 قصائد	09 قصائد	08 قصائد	05 قصائد	05 قصائد	02 قصيدة	01 قصيدة	01 قصيدة	01 قصيدة	01 قصيدة	01 قصيدة

وأكثر القوافي استعمالاً في ديوان ابن الخطيب، هي قافية حرف الدال، وتليها قافية حرف الباء، ثم الراء، أما قافية حروف: الخاء، والطاء، والصاد، والواو فلم تأت فيها أية قصيدة.

أما عند ابن جابر فأكثر الحروف استعمالاً، هي قافية حرف الراء، وتليها قافية حرف الصاد، ثم الباء، ثم الحاء.

بالإضافة إلى ذلك نجد في مدائحهما بعض الأغراض الثانوية، مثل النصح والحكمة والوصف والفخر وغيرها مما ينسجم مع الغرض الرئيس، و المديح النبوي.

كما نرى تفوق شعر المديح النبوي عند ابن جابر على مثلها عند لسان الدين، من حيث الكثرة تفوقاً كبيراً جداً، إذ اقتصر لسان الدين على اثنتي عشرة قصيدة بينما ملأ ابن جابر منه ديواناً كبيراً، بلغ عدد أوراقه خمسا وثمانين ومئة ورقة، تحتوي كل منها على صفحتين اثنتين، فضلاً عما نجده له من قصائد ومقطعات في كتب الأدب والمجموعات.

ونراها أيضاً في أن المدائح النبوية عند لسان الدين (مناسبات) إن جاز التعبير، إذا قالها بعامية في مناسبة المولد النبوي الشريف، لذلك سميت بالمولديات، على مدار العام.

الفصل الثاني:- ترجمة لحياة الشاعرين ودراسة ديوانيهما

كما أن لسان الدين قد رفع قصائده هذه بعامة إلى ممدوح غير النبي صلى الله عليه وسلم، ختم بمدحه قصائده، بينما حرص ابن جابر على أن يختم كل مدحة نبوية بالصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم التي جعلها لسان الدين في أثناء أبيات القسم الثاني من مولديته، والذي مدح فيه الرسول صلى الله عليه وسلم. وبذلك ضمت مولدية لسان الدين ممدوحين اثنين، أولهما النبي صلى الله عليه وسلم، وثانيهما هو السلطان خلافا لابن جابر. كما كان لسان الدين أقل شاعرية من ابن جابر الذي كان شاعرا بفطرته التي يفيض منا الشعر كما يفيض الماء من النبع الغزير، ولقد ساعده على ذلك التفوق تفرغه للشعر وإخلاصه له، الأمر الذي لم يتوفر للسان الدين. كما تفوق عليه أيضا بابتكاره لفن البديعيات، وإبداعه له، وافتحه بذلك فنا من فنون الشعر العربي، سار فيه كثيرون من كبار شعراء العربية في زمنه وبعده .

الفصل الثالث

بنية قصيدة المديح النبوي عند الشعاعرين

المبحث الأول: تحديد مصطلح البنية

المبحث الثاني: المطالع

المبحث الثالث: المقدمات

المبحث الرابع: حسن التخلص

المبحث الخامس: حسن الختام أو المقطع

***تحديد مصطلح البنية:**

لم يعد من الممكن في الدراسات الحديثة التخلي عن مصطلح "بنية" "STRUCTURE" والذي يعد تحديده أمرا صعبا وهذا ما يقر به كثير من الباحثين.

لقد غدت "البنية" من أهم مقاربات البنيوية، هذه الأخيرة التي يقول عنها "روبرت شولز ROBERT SCOLER": «البنيوية في معناها الواسع هي طريقة بحث في الواقع وليس في الأشياء الفردية بل في العلاقات بينها»⁽¹⁾.

أما "ليونارد جاكسون L.JAKOBSON" فيرى أن البنيوية في مفهومها الواسع هي: «القيام بدراسة ظواهر مختلفة كالمجتمعات والعقول واللغات والأساطير كل منها نظاما تاما أو كلا مترابطا أي بوصفها بناء»⁽²⁾.

من خلال ما تقدم يتضح جليا أن البنيوية كمنهج نقدي تولي اهتماما كبيرا بالكيفية التي تنتظم بها عناصر مجموعة ما، فهي تعني إذن مجموعة العناصر المتماصة فيما بينها، حيث تتوقف قيمة كل عنصر في المجموعة من خلال علاقته ببقية العناصر الأخرى.

ومما لا شك فيه هو أن البنيوية Structuralisme كمنهج نقدي قد حظي باهتمام كبير من طرف النقاد والباحثين، هذا المنهج الذي تعد "البنية Structure" الركيزة الأساسية فيه، ولتحديد ماهية كلمة "بنية" لا بد من الرجوع إلى المعاجم اللغوية: - تشتق كلمة "بنية Structure" في اللغات الأوروبية من الأصل اللاتيني "Sture" الذي يعني البناء أو الطريقة التي يقام بها مبنى ما، ثم امتد مفهوم الكلمة ليشمل وضع الأجزاء في مبنى ما من وجهة النظر الفنية المعمارية، وبما يؤدي إليه من جمال تشكيلي⁽³⁾. هذا عن أصل كلمة "بنية" في اللغات الأوروبية، وهو لا يبعد كثيرا عن أصلها في الاستخدام العربي.

(1) - روبرت شولز. البنيوية في الأدب، ترجمة: حنا عبود. (د.ط). إتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1984. ص: 14.

(2) - ليونارد جاكسون. بؤس البنيوية، دراسة فكرية، ترجمة: تامر ديب. ط1. منشورات وزارة الثقافة، سوريا، 2001م. ص: 47.

(3) - صلاح فضل. نظرية البنائية في النقد الأدبي. (د.ط). منشورات مؤسسة مختار للنشر، القاهرة، 1992م.

أما عن المفهوم الاصطلاحي لكلمة "بنية" فهي حسب رأي صلاح فضل « ما يكشف عنه التحليل الداخلي لكل ما »⁽¹⁾، ويكشف عن كل العلاقات الجوهرية والثانوية. وترجع البدايات الأولى لظهور هذا المصطلح إلى الدراسات اللسانية وتوغلها في الدراسات الأدبية، منذ دراسات فرديناند دوسوسير⁽²⁾ Ferdinand desaussure. فتميز دوسوسير بين اللغة كنظام واللغة كحدث فعلي يمارسه فرد ما قد استحوز على اهتمام البنيويين وأرسى دعائم البنيوية⁽³⁾.

ويرى أنصار الاتجاه البنيوي، أن النص حينما يأخذ شكله النهائي يصبح منفصلاً عن قائله أو مؤلفه، ولا يحيل إلا على نفسه⁽⁴⁾ وهي دعوة صريحة إلى التركيز على النص، والاتجاه إليه بالدراسة والتحليل، بعيداً عن كل المؤثرات الخارجية، وحول هذا الموضوع يرى "جودت الركابي" «أنه لا يمكن عزل النص عن مقوماته الأخرى»⁽⁵⁾.

الرأي نفسه يذهب إليه عبد العزيز حمودة استناداً على مقولة لـ"رومان جاكسون" حول استقلالية البناء اللغوي⁽⁶⁾، حيث أكد على أنه لا يمكن أن نحلل العمل الأدبي، بمعزل عن القوى الاقتصادية والاجتماعية، التي تشكل وعي الكاتب وثقافته.

على الرغم من هذه الآراء المناهضة للاتجاه البنيوي، إلا أنه يبقى الهدف الذي يسعى إليه هذا الاتجاه هو إعادة تكوين شيء ما، والبنيوية حسب رأي عبد السلام المسدي

(1) - صلاح فضل. نظرية البنائية في النقد الأدبي. ص: 175.

(2) - باحث سويسري، كان لمحاضراته التي نشرت في كتاب "دروس في الألسنية العامة" منذ عام 1916م، أثر في بيان أسس البنيوية في المجال الألسني.

(3) - ميجان الرويلي، سعد البازعي. دليل النقد الأدبي، إضاءة لأكثر من سبعين تياراً ومصطلحاً نقدياً معاصراً. المركز الثقافي العربي. ص: 70.

(4) - إسماعيل زردومي. النص الأدبي بين النسق المغلق والمفتوح في المناهج النقدية. الملتقى الأدبي الوطني السادس، أبو علي الحسن بن رشيق المسيلي. النص الأدبي وإشكالية المنهج. أيام 2007/12/2.3.4. ص: 02.

(5) - جودت الركابي. الحداثة والبنيوية في معرفة النص الأدبي، مجلة آفاق الثقافة والتراث، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، العدد: 10، 1995م. ص: 14.

(6) - ينظر: عبد العزيز حمودة. المرايا المحدبة. (د.ط.). المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أبريل، 1998م. ص: 188.

«هي ظل أو صورة لهذا الشيء»⁽¹⁾.

وقصارى القول أن مصطلح بنية لم يعد من الممكن التخلي عنه في الفكر الحديث، فكلمة بنية أصبحت مرتكزا أساسيا لفهم العمليات النقدية والشعرية. ذلك أنه منذ اتكأت البحوث الحديثة على هذا المصطلح، اكتشف به التنظيم الداخلي للوحدات، وعلاقاتها، ووحداتها، ولأن مفهوم «بنية» ذو طابع تجريدي فهو أكثر علمية وأشد قابلية للالتقاط عبر مستويات عديدة تتدرج من الأبنية الصغرى إلى الكبرى حتى تصل إلى النص كله باعتباره بنية⁽²⁾.

(1)- عبد السلام المسدي. قضية البنيوية . (د . ط). دار الجنوب للنشر، تونس، 1995م . ص: 153.

(2)-ينظر صلاح فضل. بلاغة الخطاب وعلم النص. ط1. دار الكتاب المصري، القاهرة، 2004م. ص: 163.

حظي بناء القصيدة العربية باهتمام كبير من طرف النقاد، والقصيدة الجاهلية كادت تكون المقياس الوحيد والأنموذج الأمثل، الذي اتخذته النقاد واتبعوه، فكلامهم عن القصيدة وبنائها⁽¹⁾. فقد تجسدت البنية الشكلية للقصيدة عند الشاعر الجاهلي، ويمكن تلخيص هذه البنية في النقاط الأساسية التالية:

المقدمة وفيها المطلع، والرحلة، والغرض الأساسي؛ وهو المدح في غالب الأحيان أو الفخر، والخاتمة. «وهذه المحطات الهامة في القصيدة صارت معالم وتقاليد يتمسك بها الشعراء ويلتزمون بها في قصائدهم»⁽²⁾.

1- المطلع: عرفه ابن قتيبة بقوله: «هو في القصيدة أولها وقد اهتم الشعراء كثيرا بمطالع قصائدهم نظرا لأهميتها في التأثير على السامعين»⁽³⁾.

وقد اهتم النقاد بمطالع القصائد، وفي ذلك يقول "ابن رشيق": «وبعد، فإن الشعر قفل أوله مفتاحه وينبغي على الشاعر أن يوجد شعره، فإنه أول ما يقرع السمع، وبه يستدل على ما عنده من أول وهلة...»⁽⁴⁾.

وحسن الابتداء أو براعة الاستهلال كلاهما يتصل بمطالع القصائد وبداية الكلام، فإذا جاء مطلع القصيدة أو بداية الكلام حسنا بديعا، ومليحا رشيقا، صار داعية إلى الاستماع لما يجيء بعده وصف ب(حسن الابتداء)، وإذا جاء بداية الكلام أو مطلع القصيدة دالا على ما بنيت عليه مشعرا بغرض الناثر أو الناظم من غير تصريح، بل بإشارة لطيفة، تعذب حلاوتها في الذوق السليم، ويستدل المستمع من ذلك على ما يتصل به الكلام أو القصيدة من مدح أو تهنئة أو عتاب، أو رثاء أو هجاء، وصف

(1) - يوسف حسين بكار. بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث. ط2. دار الأندلس، بيروت، لبنان، 1982م. ص: 28.

(2) - علي عالية. شعر الفلاسفة في الأندلس في القرن الخامس والسادس الهجريين. أطروحة دكتوراه دولة في الأدب العربي. جامعة باتنة، 2004/2005م. ص: 207.

(3) - ابن قتيبة. الشعر والشعراء، حققه وضبط نصه: مفيد قميحة. ط1. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1981م. ص: 18.

(4) - ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن. العمدة في محاسن الشعر و آدابه ونقده، ج1. ط1. دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت، لبنان، (د.ت). ص: 152.

وسئل بعضهم عن أحق الشعراء، فقال: "من يتفقد الابتداء والمقطع"⁽²⁾.

ويقول أبو هلال العسكري: "الابتداء أول ما يقع في السمع من كلامك، والمقطع آخر ما يبقى في النفس من قولك، فينبغي أن يكون جميعا مونقين"⁽³⁾.

وبالتالي فالمطلع هو أول ما ينظم من القصيدة، وهو أول ما يطرق السمع، لذا وجب على الشاعر أن يهتم به، ويعطيه القدر الكافي من الجودة والإتقان لما لذلك من تأثير في نفسية المتلقي. لأن المطلع الحسن يكون سببا في الاستماع إلى ما بعده، وفي ذلك يقول "حسين بكار": « فإذا كان بارعا وحسنا بديعا ومليحا رشيقا، رصد بما يكون فيه من تنبيه وإيقاظ لنفس السامع، أو أشرب بما يؤثر فيها، انفعالا ويثير لها حالا، من تعجيب أو تهويل، أو تشويق، كان داعيا إلى الإصغاء والاستماع إلى ما بعده »⁽⁴⁾.

ونظرا لأهمية المطلع فقد وضع له النقاد شروطا أهمها: أن ينتبه الشاعر جيدا في مطالع قصائده، ويهتم أكثر بنفسية المتلقي، كذلك مراعاة القاعدة البلاغية "مطابقة الكلام لمقتضى الحال" وبالتالي يجب أن يكون مطلع القصيدة مناسبا لموضوعها، كذلك سلامة التركيب والبعد عن التعقيد وتفادي استعمال الألفاظ الغريبة. وتزداد أهمية المطلع كلما ازدادت أهمية المتلقي، لهذا اهتم الشعراء كثيرا بمطالع قصائدهم خاصة قصائد المدح، فالشاعر فيها يتفادى استعمال الألفاظ الغريبة، ويحاول قدر الإمكان أن يكون المطلع سليم التركيب وبعيدا عن العقيد.

وقد جمع حازم القرطاجني (ت: 684هـ) ملاك الأمر فقال: « وملاك الأمر في جميع ذلك أن المفتتح مناسب لمقصد المتكلم من جميع جهاته، فإذا كان مقصده الفخر

(1) - ينظر: بدوي طبانة. معجم البلاغة العربية. المجلد الأول. ط2. دار العلوم، الرياض، 1402هـ-1982م .
(إبراعة الاستهلال). ص: 85. و(حسن الابتداء). ص: 197.

(2) - العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله . كتاب الصنائع : الكتابة والشعر . ط2. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1404هـ-1984م . ص : 493 .

(3) - المصدر نفسه . ص : 494

(4) - يوسف حسين بكار. بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الجديد. ط2 . دار الأندلس، بيروت، لبنان، 1982م . ص : 204 .

كان الوجه أن يعتمد منها ما يكون في رقة وعذوبة... وكذلك سائر المقاصد»⁽¹⁾

وتحدث حازم القرطاجني كذلك عن المطالع فقال: «وتحسين الاستهلاجات والمطالع من أحسن شيء في هذه الصناعة، إذ هي الطليعة الدالة على ما بعدها المنتزلة في القصيدة منزلة الوجه والغرة، تزيد النفس بحسنها ابتهاجا ونشاطا لتلقي ما بعدها إن كان بنسبة من ذلك، وربما غطت بحسنها على كثير من التخون الواقع بعدها إذا لم يتناصر الحسن فيما وليها»⁽²⁾.

وقد جعل القرطاجني (الإبداع في الاستهلال) من مذاهب البلاغة المستشرقة، وذكر أن تحسين مبادئ القصائد لا يمكن إغفاله لأنه يثير في السامع حالات الانفعال الملائمة لغرض القصيدة فقال: «ومما تحسن به المبادئ أن يصدر الكلام بما يكون فيه تنبيه وإيقاظ لنفس السامع أو أن يشرب ما يؤثر فيها انفعال ويثير لها حالا من تعجب أو تهويل أو تشويق أو غير ذلك... وفي الكلام ماله صورة يصير بها لائقا أن يكون رأس كلام ومفتتح قوله، ومنه ملا يليق بالمبادئ ولا يكون له هيئة تصلح لها، ويجب أن يجتنب القول للمبادئ من المعدن الأول»⁽³⁾.

وأشار حازم القرطاجني إلى أن (حسن المبادئ) يأتي على ثلاث رتب على النحو التالي:

الرتبة الأولى: ما تناصر فيه حسن المصراعين وحسن البيت الثاني «وأكثر ما وقع الإحسان في المبادئ على هذا النحو للمحدثين. فأما العرب المتقدمون فلم يكن لهم بتشفيح البيت الأول بالثاني كبير عناية»⁽⁴⁾.

الرتبة الثانية: أن يتناصر الحسن في المصراعين دون البيت الثاني.

الرتبة الثالثة: أن يكون المصراع الأول كامل الحسن، ولا يكون المصراع الثاني منافرا له، وإن لم يكن مثله في الحسن.

(1) - حازم القرطاجني، أبو الحسن حازم بن محمد بن حسن الأنصاري القرطاجني. منهاج البلغاء و سراج

الأدباء ، تحقيق محمد حبيب بلخوجة. ط2. دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1971م. ص: 310 .

(2) - المصدر نفسه. ص : 309.

(3) - المصدر نفسه. ص : 310 .

(4) - المصدر نفسه. ص : 310 .

ولا يدخل في حسن المبادي عند القرطاجني ما جاء مصراعه الأول رديئا، وإن أجاد المصراع الثاني. « وليس يجب أن يعتبر في حسن المبادي ما وقع الإحسان في مصراعه الثاني إذا كان المصراع الأول قبيحا »⁽¹⁾

وخصص القزويني(ت:739هـ) آخر الفصول في كتابه(الإيضاح) للحديث عن الابتداء والتخلص والانتهاء، وأشار في غضون حديثه عن الابتداء إلى(براعة الاستهلال) وذلك في قوله: « وأحسن الابتداءات ما ناسب المقصود ويسمى براءة الاستهلال كقول أبي تمام المعتصم بالله في فتح عمورية، وكان أهل التجيم زعموا أنها لا تفتح في ذلك الوقت »⁽²⁾:

السيفُ أصدقُ أنباءٍ من الكُتُبِ في حدِّه الحدُّ بين الجدِّ واللعبِ
بيضُ الصفائحِ لا سؤدُ الصحائفِ في مُتُونهنَّ جلاءُ الشكِّ والرَّيبِ

وورد في التبيان للطبيي(ت:743هـ)حديث عن المطع استهله بقوله: « وفي حسنه شرطان: أحدهما: أن يضمن معنى ما سيق الكلام لأجله، ليكون الابتداء دالا على الانتهاء، ويسمى ببراعة الاستهلال... »⁽³⁾. ثم يقول بعد ذكر عدد كبير من الأمثلة لذلك: « والشرط الثاني: أن يجتنب في المديح مما تطير به »⁽⁴⁾.

وجاء في كتاب الطرز للعلوي (ت:745هـ) فصل في المبادي والافتتاحات يذكر فيه أهمية الافتتاح الحسن ويقول فيه: « ينبغي لكل من تصدى لمقصد من المقاصد وأراد شرحه بكلام، أن كون مفتتح كلامه ملائما لذلك المقصد دالا عليه، فما هذا حاله يجب مراعاته في النظم والنثر جمعا، ويستحب التزامه في الخطب والرسائل و التصانيف، وهكذا حال التهاني والتعازي يكون مبدأها وتصديرها بما يناسب ذلك المعنى، ليكون

(1)- حازم القرطاجني. منهاج البلغاء و سراج الأدياء . ص : 311 .

(2)- القزويني، جلال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن.الإيضاح في علوم البلاغة: المعاني والبيان والبديع.(د. ط)، دار الجيل، بيروت، (د.ت). ص : 242 .

(3)-الطبيي، شرف الدين حسين بن محمد. التبيان في علم البديع والبيان، تحقيق: هادي الهلال. ط1. عالم الكتب، بيروت، 1407هـ-1987م . ص : 456.

(4)- المصدر نفسه . ص : 459 .

معلوماً من أول وهلة، فحيث يكون المطلع جارياً على ما ذكرناه فهو من الافتتاح الحسن»⁽¹⁾. وذكر لذلك شواهد من القرآن الكريم والحديث الشريف وكلام العرب وشعرهم. وخلاصة ما سبق من حديث عن المطلع يوحى بتعدد المسميات والمصطلحات وأهم هذه المصطلحات (الابتداء، براعة الاستهلال، المبادي، الافتتاح، وحسن الافتتاح). وكلها تتجه إلى بداية القصائد في الشعر، وصدر الكلام في النثر.

وشاعرا المديح النبوي في الأندلس في القرن الثامن الهجري، ابن الخطيب، وابن جابر أديبا اهتماما واضحا بمطالع قصائدهم، وسأحاول أن أبين إلى أي مدى قد وفق الشعاران في هذه الفترة في الاهتمام بتلك المطالع، ومدى مراعاتهم للشروط التي سبق ذكرها:

فأشهر شاعر في المديح النبوي ابن جابر الضرير الأندلسي، والذي قال عنه المقري: «و أمداحه النبوية في غاية الإجابة»⁽²⁾. له قصيدة رائعة في مخاطبة أهل طيبة بهنائهم بالإقامة جوار الرسول صلى الله عليه وسلم مطلعها :

هناؤكم يا أهل طيبة قد حقاً بالقرب من خير الورى حُرِّمَ السبقاً⁽³⁾

كما له مقصورة تجمع بين قصيدتي كعب بن زهير و البوصيري بنفحة أندلسية متكونة من مائتين وستة وتسعين بيتا مطلعها:

بادر قلبي للهوى وما ارتأى لما رأي من حسنِها ما قد رأى⁽⁴⁾

يبدأها بالنسيب ثم يتخلص إلى مناجاة المكان وبيان الغرض من تنظيم القصيدة، والذي هو التوبة وإصلاح ما فاته من الذنوب في حوار داخلي مع النفس، صعوداً بالافتخار الذاتي وهبوطاً في الحديث عن الشيب والكبر والدعوة إلى التزهد وعرض الخواطر والحكمة بأسلوب وعظ عن الجود والبخل والغنى والفقر والعلم والجهل والزمن

(1)- العلوي، يحيى بن حمزة. الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، جزء 2. (د.ط.).

دار الكتب العلمية، بيروت، 1402هـ-1982م. صص: 266-267 .

(2)- المقري . نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج2 . ص : 664.

(3)- ابن جابر . ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين . ص: 385.

(4)- المقري . نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج10 . ص : 167.

والدهر...والعبرة من التاريخ بتذكير المتلقي بعروش ساسان ومعاوية والمأمون... وتفصيل القول في شمائل الرسول ومعراجه ومعجزاته، كما تحدث عن تفاصيل حجه إلى البيت الحرام واكتحال عينيه بنور قبره، وتغلب الوعظية والمباشرة على القصيدة مع كثرة الخواطر والحكم وقلة الصور البانية والبديعية وغلبة نظام السرد وفيها ضعف في العاطفة لطول القصيدة، وهي أقرب إلى الشعر التعليمي .

أما ابن الخطيب فيقول في قصيدة مديحية بدأها بمطلع غزلي، كعادته في المديحيات:

صفراءُ تصفُرُ عَنْ حَبَابِ كُوُوسِهَا رَقَّتْ فَرَقًا لَنَا الزَّمَانُ بِذَاتِهَا
مِنْ كَفِّ سَاجِيَةِ الْجُفُونِ كَأَنَّهَا هَبَّتْ وَفِي الْأَجْفَانِ بَعْضَ سِنَاتِهَا
وَلِثَغْرِهَا عِنْدَ ابْتِسَامِ أَقَاحِهِ بَدْرٌ تَأَلَّقَ فِي سَنَا وَجَنَاتِهَا
دَعَّ عَنْكَ هِنْدًا وَالْدِّيَارَ وَمَنْ بِهَا وَدَعَّ الْغَرَامَ يَكُونُ بَعْضَ عُفَاتِهَا⁽¹⁾

فقد تأثر في هذه الأبيات، بل في المطلع كله، بقصيدة أبي نواس التي يقول فيها:

صَفْرَاءُ لَا تَنْزِلُ الْأَحْزَانَ سَاحَتِهَا لَوْ مَسَّهَا حَجْرٌ مَسَّتْهُ سِرَاءُ
قَامَتْ بِإِبْرِيْقِهَا وَاللَّيْلُ مَعْتَكِرٌ فَلَاحَ مِنْ وَجْهِهَا فِي الْبَيْتِ لِأَلَاءِ
لَتَأْتِكَ أَبْكِي وَلَا أَبْكِي لِمَنْزِلَةٍ كَانَتْ تَحِلُّ بِهَا هِنْدُ وَأَسْمَاءُ

ولابن الخطيب رسالتان على لسان السلطان الغني بالله، حاكم غرناطة في دولة بني الأحمر (635-897هـ)، مطلعها :

دَعَاكَ بِأَقْصَى الْمَغْرِبِينَ غَرِيبُ وَأَنْتَ عَلَى بَعْدِ الْمَزَارِ قَرِيبُ
مَدَلْ بِأَسْبَابِ الرَّجَاءِ وَطَرْفُهُ غَضِيضٌ عَلَى حُكْمِ الْحَيَاءِ مَرِيبُ⁽²⁾

والقصيدة كلها في الشوق إلى زيارة مقامه الطاهر مختتما بالصلاة الله عليه:

عَلَيْكَ صَلَاةُ اللَّهِ مَا أَطْيَبَ الْغَضَا عَلَيْكَ مَطِيلٌ بِالثَّنَاءِ مَطِيبُ
وَمَا اهْتَرَّ قَدْ لِلْغُصُونِ مَرْنَحٌ وَمَا افْتَرَّ ثَغْرٌ لِلْبُرُوقِ شَنِيبُ⁽³⁾

ثم ختمها برسالة نثرية في مناقب الرسول: خلقه، نسبه، منزلته، شفاعته ومعجزاته

(1)- لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب و الجهام والماضي الكهام . ص:326 .

(2)- المصدر نفسه. ص: 320 .

(3)- المصدر نفسه. ص: 325 .

الفصل الثالث:- بنية قصيدة المديح النبوي عند الشعراء

ومن ثم بيان ما آلت عليها الأوضاع في الأندلس نتيجة تكالب الأعداء عليها وجهود ملك دولة بني الأحمر في الدفاع عن المناطق المتبقية والرجاء منه العون والشفاعة بتسهيل الأسباب في بلوغ النصر وحفظ الإسلام في تلك الجزيرة .

2-المقدمات:

مقدمة القصيدة ظاهرة فنية نشأت مع ولادة القصيدة العربية، واستمرت في العصور المتلاحقة، وقد شغلت قضية مطالع القصائد النقاد منذ القديم، وكثر حوارهم حول مقدمات القصائد وتعددتها .

وقد حافظ الشعراء في العصور الأدبية المتتالية على منهج القصيدة، وقلما دخل شاعر إلى موضوعه من دون مقدمة .

وسار شعراء الأندلس غالبا على نهج أسلافهم، وقدموا لموضوعاتهم بمطالع عبروا من خلالها إلى الغرض الأساسي.

إن قصيدة المدح النبوي وحدة متكاملة، جسدا واحدا، وأي تجزيء للقصيدة، يعد تجزيئا للجسد الواحد إلى أشلاء مبعثرة، ولكني أجد نفسي مضطرا إلى تقسيم القصيدة تقسيما بسيطا إلى مقدمة وموضوع للاستقراء والدراسة، لأن ذلك يمكنني من دراسة المقدمات دراسة متكاملة، ومن ثم انتقل إلى دراسة موضوع المديح وما فيه من عناصر تقليدية وجديدة.

تأثرت قصائد المديح النبوي بتقاليد الشعر العربي المعروفة منذ العصر الجاهلي دون مراعاة الغرض الحقيقي للقصيدة أو مراعاة الجو النفسي الذي يتحتم توفره لإيجاد الوحدة في البناء الشعري أو خلق التلاحم الفني، وكانت تلك القصائد في أغلبها أسيرة قصيدة كعب بن زهير في المقدمات الغزلية أو التشبيب بالأراضي الحجازية كما قال أبو جعفر الألبيري: «هي حجة الشعراء، وملاك أمرهم فيما ملكوه»⁽¹⁾.

وقول المقرئ: «ولم تزل الشعراء من ذلك الوقت إلى الآن ينسجون على منوالها ويقتدون بأقوالها تبركا بمن أنشدت بين يديه، ونسب مدحها إليه»⁽²⁾. ولم يتناولوا مفاتن المرأة ومحاسنها إلا نادرا وكان يدور على ما يعاني المحب من السهر والأرق ...

وسأحاول استقراء بعض المقدمات التي مهد بها لسان الدين بن الخطيب وابن جابر،

(1)- ناظم رشيد . الأدب العربي في العصر الوسيط . (د، ط). دار الكتب العلمية للطباعة والنشر، جامعة

الموصل، 1992م. ص: 86.

(2)- المقرئ . نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ج3 . ص: 443.

وما حملته تلك المقدمات، من بذور التقليد، وما أضافته إلى موروث الشعر العربي من لمحات التحديد.

أ- المقدمة الغزلية:

تعد المقدمة الغزلية من المقدمات الواسعة الانتشار في صدور المدائح النبوية، إلا أن الغزل الذي تصدر قصيدة المدح النبوية قد اكتسب ميزات خاصة، فلم يعد النسيب فيه يقصد لذاته حتى يتحدث الشاعر عن هواه، وإنما هو نسيب وقع موقع التمهيد لقصيدة دينية، ولولا حرص الشاعر على متابعة افتتاح القصائد بالنسيب، لما كان للغزل في مثل هذه القصيدة مكان.

« فقد افتتح الشعراء الجاهليون، قصائد كثيرة بالمقدمة الغزلية، وتتألف هذه المقدمة، من الحديث عن صد المحبوبة وهجرها أو بعدها وانفصالها، وما يخلفه البعد والهجر والفرق، من تعلق شديد وشوق مستبذ، ودموع غزار يسكبها الشاعر حسرة وألماً ولهفة، وسرعان ما تفتد على خاطره أيامه الماضية السعيدة، وذكرياته الحلوة الجميلة، حين كان يلتقي بمحبوبته، ويبوح كل منهما لصاحبه بحبه، وتبادلته إعجاباً بإعجاب وشوقاً بشوق، حتى إذا ما انتهى من ذلك مضى يصف محاسنها ومفاتيح جسدها، وهو وصف التفتوا فيه إلى المحاسن الجسدية أكثر من التفتاهم للمحاسن المعنوية..»⁽¹⁾.

هذا النهج وصفه الشعراء الجاهليون، وسار عليه الشعراء العرب من بعدهم، فلم يكلفوا أنفسهم عناء التغيير - إلا ما ندر - .

وقد شاعت المقدمة الغزلية كما رسمها شعراء الجاهلية في صدور المدائح النبوية ، بكثرة، واقتفى فيها الشعراء العرب في الأندلس آثار أسلافهم غالباً. فنراهم يستهلون مدائحهم النبوية بمقدمة غزلية ينتقلون بعدها إلى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وغالباً ما يختم الشاعر مدحته بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم.

ويقول ابن حجة الحموي: « الغزل الذي يصدر به المديح النبوي، يتعين على الناظم، أن يحتشم فيه ويتضاءل، و يتشعب بذكر سلم و رامة وسفع العقيق والعذيب و الغوير وللع، وأكناف حاجر، ويطرح ذكر المرد والتغزل في ثقل الردف ورقة

(1) -حسين عطوان. مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي.(د.ط)، دار المعارف، مصر، 1974م .

الخصر وبياض الساق وحمرة الخد، وخضرة العذار، وما أشبه ذلك...»⁽¹⁾. و كان معظمها تأتي من باب الخيال أو من باب التذكر، وحديثهم يدور عن الماضي من شعراء عرفوا بالالتزام الديني.

ولم يدخل ذكر أسماء معالم الجزيرة العربية لذاتها وإنما لما تقدست هذه الأماكن بظهور الرسول في أكنافها وارتباطها ببعثته ، كما قال ابن الخطيب في مطلع قصيدة له:

تَأَلَّقَ نَجْدِيًّا فَأَذْكَرَنِي نَجْدًا وَهَاجَ لِي الشَّوْقَ الْمُبْرِحُ وَالْوَجْدَا⁽²⁾

وقد افتتح لسان الدين بن الخطيب بعض مدائحه النبوية بمقدمات غزلية تفيض بعواطف الحب والشوق، إلى رؤية المحبوب، وصور فيها الشاعر ما يعاينيه من وجد وسقام، وهذه المقدمات لوحات فنية مناسبة لقصيدة المدح النبوي لما فيها من عمق نفسي، وبعد عاطفي جعلها أقرب إلى الحب أو الغزل الرمزي لتكون وثيقة الصلة بالعواطف الدينية النابعة عن حب الرسول صلى الله عليه وسلم مما يجعلها تختلف اختلافا واضحا عن عناصر الغزل التقليدي، كقول لسان الدين في فاتحة إحدى مدائحه:

مَا عَلَى الْقَلْبِ بَعْدَكُمْ مِنْ جُنَاحٍ أَنْ يَرَى طَائِرًا بَغِيرَ جَنَاحٍ
وَعَلَى الشَّوْقِ أَنْ يَشَبَّ إِذَا هَبَّ بِأَنْفَسِكُمْ نَسِيمُ الصَّبَاحِ
جِيزَةَ الْحَيِّ وَالْحَدِيثُ شُجُونٌ وَاللَّيَالِي تَلِينُ بَعْدَ الْجَمَاحِ⁽³⁾

وتغلب على هذه اللوحات مشاهد التصوير الذاتي، إذ يعكس الشاعر صورة نفسه المعذبة، وما يعاينيه من ألم الفراق والوجد، ويغلف لوحته بوشاح من عواطف الصوفية يتجلى بوضوح من خلال قوله:

يَا تَرَى وَالتُّفُوسُ أَسْرَى الْأَمَانِي مَالَهَا عَنْ وَثَاقِهَا مِنْ بَرَاكِ
هَلْ يَبَاحُ الْوُرُودُ بَعْدَ ذِيَادٍ أَوْ يُتَاحُ اللَّقَاءُ بَعْدَ انْتِرَاحِ
وَإِذَا أَعَوَزَ الْجُسُومَ التَّلَاقِي نَابَ عَنْهُ تَعَارُفُ الْأَرْوَاحِ⁽⁴⁾

(1)- ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر علي. خزنة الأدب وغاية الأرب . شرح، عصام شعيتو، ط1.

دار مكتبة الهلال ، بيروت ، 1987م . ص: 11 .

(2)- لسان الدين ابن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام. ص: 471.

(3)- المصدر نفسه. ص: 389.

(4)- المصدر نفسه. ص: 390.

ويبرز الشاعر في هذه المقدمة عنصر الرحلة التي هي رحلة شوق صوفي، فالشاعر يعبر عن شوقه على الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال تصويره للرحلة عبر الفيافي ليصل إلى مهد رسول الله، ويكحل عينيه بمرأى مثواه:

وَرَكَابٍ سَرَوْا وَقَدْ شَمِلَ اللَّيْلُ بِمَسْحِ الدُّجَى جَمِيعِ النَّوَاحِي
وَطَوَّوْا طَوَّعَ لَاعِجِ الشُّوقِ وَالْوَجْدِ إِلَى الْأَبْطَحِي غَبْرَ الْبِطَاحِ
مُصْطَفَى الْكَوْنِ مِنْ ظُهُورِ النَّبِيِّينَ هُدَاةَ الْأَنَامِ سُبُلَ الْفَلَاحِ⁽¹⁾

وقد استطاع أن يرسم صورة للمقدمة الغزلية في قصيدة المدح النبوي ووفر لها كثيرا من المقدمات التي تضي على لوحته الكمال، وقد ربط بين مشاهدتها بخيوط متينة من العواطف الجياشة.

وقد تجلت الرمزية بوضوح في كثير من المقدمات الغزلية ففي افتتاحية قصيدة للسان الدين في مدح النبي الكريم يكنى باسم سلمى عن حبه لرسول الله، ثم يصور ألمه وحزنه لبعده عنها وأثر الصد والحرمان على نفسه، ويشير إلى تعلقه الشديد بها، فما من شيء في الدنيا يستطيع أنس يفرق بينه وبينها، ولعل هذا التملق من الرموز التي يهدف إليها الشاعر ليدل على حبه للرسول الكريم:

سَلْ مَا لِسَلْمَى بِنَارِ الْهَجْرِ تَكْوِينِي وَحُبُّهَا فِي الْحَشَى مِنْ قَبْلِ تَكْوِينِي
وَفِي مَنَاهَا تَمْنِيْتُ الْمُنَى فَعَدَا قَلْبِي كُنَيْبًا بَبُلُوَاهِ يَنَاجِينِي
وَفِي قِبَابِ قُبَا قَامَتْ لَنَا بَقِيَا طَرَاظُهَا مَذْهَبٌ فِي حُسْنِ تَزْيِينِ⁽²⁾

وبيزيد الشاعر لوحته جمالا باستكمال أكثر عناصر المقدمة الغزلية إذ يعرج على ديار الأحبة، وهذا التعرّيج الرمزي من شاعر أندلسي، يتجلى في ذكر الأماكن الحجازية، كي تكون خاتمة المطاف إلقاء التحية على الرسول الكريم :

يَا صَاحِ عَجٍّ بِالْحِمَى وَانزَلْ بِهِمْ سَحْرًا وَانظُرْ لِعَجْبِ أَثِيَلَاتِ الْبَسَاتِينِ

(1) - لسان الدين ابن الخطيب . ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ص: 390-391.

(2) - أحمد بن محمد المقرئ التلمساني. أزهار الرياض في أخبار عياض، ج1، تحقيق، مصطفى السقا،

إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1939م.

وَفَوْقَ سَفْحِ عَقِيقِ الدَّمْعِ عُجْ لَتَرَى جَاذِرَ الْحَيِّ بَيْنَ الْخَرْدِ الْعَيْنِ
وَمَلَّ عَلَى أَثْلَاثِ الْبَانَ مُنْعَطِفًا وَحَيَّ سَلْعًا وَ سَلَّ عَنْ حَالِ مَسْكِينِ
ثُمَّ آتٍ جَزَعًا وَجَزَعِي حَيَّ كَاطِمَةً وَاقْرَأَ السَّلَامَ عَلَى خَيْرِ النَّبِيِّينَ
مَحَمَّدُ الْمُصْطَفَى الْمُخْتَارِ مَنْ ظَهَرَتْ آيَاتُهُ فَتَسْلَى كُلُّ مَحْزُونٍ (1)

وبذلك استطاع الشاعر أن يمهد لقصيدته بمطلع يتصل بالقصيدة اتصالاً روحياً وما زيارة الأماكن إلا ليسهل الانتقال إلى المدح.

وغالبا ما ترد أسماء لنساء تردد ذكرها في الشعر العربي مثل زينب وليلى و سعدى و دعد وغيرها، وفي أسماء ليس لها وجود في واقع حياة الشاعر، ووجودها في معرض القصيدة وجود شعري وحسب، بمعنى أن كل واحدة منهن رمز في وجود فني، حيث يشكل معجم الأسماء في القصيدة المديحية فضاء واسعا لتوظيف هذه الأسماء ضمن حقل اللغة الشعرية، من خلال إسقاط الأبعاد الدلالية التي يتميز بها كل اسم في حقل من الحقول الدلالية، قال ابن الخطيب: ُ

لِإِي اللَّهِ كَمْ أَهْذِي بِنَجْدٍ وَحَاجِزٍ وَأَكْنِي بِدَعْدٍ فِي غَرَامِي أَوْ سَعْدَى
وَمَا هِيَ إِلَّا زَفْرَةٌ هَاجَهَا الْهَوَى وَأَبْدَى بِهَا تَذْكَارُ يَثْرِبَ مَا أَبْدَا
وَكَمْ قَدْ كَتَمْتَ الشَّوْقُ لَوْلَا مَدَامِعُ يَرُوي حَدِيثُهَا الْمَحَاجِرُ وَ الْخَدَا (2)

وبذلك فإن الشاعر يستثمر ما بهذه الأسماء من طاقة إيحائية للتعبير عن حبه للنبي الكريم والأماكن المقدسة متأثرا في ذلك بطريقة المتصوفة في الرمز.

أما ابن جابر الأندلسي، فيبدأ إحدى نبوياته بمقدمة غزلية تقليدية بطلب المرور على بعض الأماكن الحجازية، وإلقاء التحية على الديار وبثها ما تنثيره ذكراها في نفسه من شجون، ويذكر اسم فتاته، ويشير إلى حبه لها، وتعلقه بحماها، إشارة رمزية تدل على ذكر أسماء تلك المواطن التي تحمل معاني مقدسة.

إِذَا أَبْصَرْتَ بَانَ الْجِرْعُ بَانًا فَمَا حَقُّ الْمَدَامِعِ أَنْ تُصَانَا
هُنَالِكَ تُسْكَبُ الْعِبْرَاتُ شَوْقًا إِلَى قَمَرٍ بِذَاكَ الْحَيِّ كَانَا

(1) - المقري . أزهار الرياض في أخبار عياض، ج.1. ص: 317 .

(2) - لسان الدين ابن الخطيب . ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام. ص: 480 .

شَغَفْتُ بِهِ وَلَمْ أَرَهُ بِعَيْنِي فَكَيْفَ إِذَا نَظَرْتُ لَهُ عَيْنَا
سَقَى صَوْبَ الْغَمَامِ دِيَارِ حَي بِكَاسَاتِ الْمَحَبَّةِ قَدْ سَقَانَا
دِيَارٌ قَدْ حَمَدَتْ بِهَا حَيَاتِي فَلَا أُنْسَى لِيَالِينَا الْحِسَانَا
مَنَازِلُ أَفْقَرَتْ مِنْهُمْ وَلَكِنْ عَمِرْتُ بِهَا الْجَوَانِحَ وَالْجَنَانَا
تَذَكَّرْتُ الْعَفِيقَ فَعَادَ دَمْعِي عَقِيقًا بَعْدَمَا أَضْحَى جَمَانَا
هَوَانًا أَنْ نَزُورَ دِيَارًا سَلَع لِأَنَّا لَا نَرَى فِيهَا هَوَانَا
وَجَدْتُ الْعَيْشَ فِيهَا خَيْرَ عَيْشٍ وَكَانَ لَنَا الزَّمَانُ بِهَا زَمَانَا
وَلَمْ أَرِ بَعْدَهُنَّ الْأَرْضَ أَرْضًا وَلَا الْبَانَ الَّذِي أَلْقَاهُ بَانَا
بِحَقِّكُمْ وَحَقُّكُمْ عَظِيمٌ خُذُوا لِي مِنْ بَعَادِكُمْ أَنَا
فَقَدْ نَاكَمُ فَقَدْ بَتْنَا كَأَنَّا عَلَى جَمْرِ الْغَضَى نَطْوِي حَشَانَا⁽¹⁾

مما سبق نستطيع أن نقول إنَّ المقدمة الغزلية التي تتصدر بعض القصائد النبوية اكتست ثوباً جديداً، مختلفاً عن ثوب الغزل في مقدمات قصائد المدح التقليدية، فقد تخففت المقدمة الغزلية في المدائح النبوية من الأوصاف الحسية التي غصت بها المقدمات التقليدية، بالإضافة إلى غلبة روح الحنين والشوق إلى أماكن التغزل لما لها من معانٍ دلالية، وكذلك فقد توشحت هذه المقدمات بالمعاني الرمزية الصوفية، التي أخرجتها عن دائرة التقليد الحرفي، وأدخلتها في نطاق الرمز والتجديد.

وكذلك فإنَّ عنصر الرحلة من عناصر المقدمة الغزلية، ولكن الرحلة في مقدمة القصيدة النبوية، تحمل معاني سامية، فهي رحلة تعبر عن السمو الفكري والأخلاقي ولا تقصد إلى الكسب من ممدوح، ملك أو خليفة أو زعيم، وبذلك فإنَّ المقدمة الغزلية في المدائح النبوية قد صيغت صياغةً مناسبة لتكون صدراً ملائماً لجسد متماسك.

(1) - ابن جابر الأندلسي. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين أو الغين في مدح سيد الكونين. ص: 511.

ب/المقدمة الطللية:

يعد التقليد الشعري أحد التقاليد التي حافظ عليها - غالباً - شعراء الأندلس وتتجلى هذه المحافظة في صدور القصائد، على الرغم مما تضيفه البيئة المتحضرة، من لمسات جديدة.

ولعل من أبرز التقاليد التي استمرت في الشعر الأندلسي، تصدر المقدمة الطللية بعض مدائح الشعراء الأندلسيين.

لقد افتتح لسان الدين بن الخطيب بعض مدائحه بمقدمات طللية، عدد فيها أسماء الأماكن، وعبر عن حنينه وشوقه إلى تلك المواطن التي أحالتها يد الزمان إلى معالم دراسة، ونهج في ذلك نهجاً تقليدياً استمد عناصره من معين الأدب الجاهلي:

هَاجَتَكَ إِذْ جُنْتَ اللَّوَى فَرُرُودَا ذِكْرَكَ أَوْطَانًا بِهَا وَعُهُودَا
عَاشَتْ بِهِنَّ يَدُ الزَّمَانِ فَلَمْ تَجِدْ أَعْلَامَهُنَّ عَنِ الْعَفَاءِ مَحِيدَا
إِلَّا مَوَاقِدَ كَالْحَمَامِ جَوَاتِمَا وَتَرَى بِأُظْلَافِ الظُّبَاءِ كَدِيدَا
دِمْنٌ غُذِيَتْ بِهِنَّ أَخْلَافُ الْهَوَى وَلَبِسَتْ رِيْعَانَ الشَّبَابِ جَدِيدَا⁽¹⁾

ولكنه التفت في غمرة التقليد، ليعلن أن لا فائدة من استرجاع ذكريات الماضي، والأجدر بالإنسان أن يلوذ بكنف الرحمن، فبذكراه تطيب النفوس.

مَالِي وَتَذَكَارُ الصَّبَابَةَ وَالصَّبَا وَمَوَاتِقًا عِنْدَ الْهَوَى وَعُهُودَا
وَصَبَاحُ شَيْبِ الْفُودِ لَاحَ بِمَفْرِقِي فَعَدَوْتُ مِنْ فَقْدِ الصَّبَا مَفُودَا
وَتَدَكَّرْتُ عَهْدًا بِمُنْعَرَجِ اللَّوَى لَا يَسْتَحِيلُ، وَمَوَاتِقًا مَشْهُودَا⁽²⁾

وقد ربط الشاعر بين المقدمة وغرض المدح، بذكر الأماكن الحجازية التي تحمل معاني مقدسة، وكذلك بلجوئه إلى كنف الرحمن، ومن ثم انتقاله إلى الرسول ليشفع له لمغفرة ذنوبه وخطاياها.

فالشاعر الأندلسي، الذي عاش مغترباً، وقف على أرض المغرب البعيد، رامياً بنظره إلى أرض الآباء والجدود، إلى أرض المشرق العربي، مستعيداً ذكراه بتلك

(1)- لسان الدين ابن الخطيب. ديوان الصيبي والجهام والماضي والكهام. صص: 484-485 .

(2)- المصدر نفسه . ص: 485 .

البقاع، ومردداً بأسلوبٍ تقليديٍّ مشاهدَ الوقوف الطللي الذي وقفه الشعراء منذ عصر الجاهليين، فإن كان شعراء الجاهلية يستوقفون ويقفون، فإن عبد الله بن لسان الدين يستحلف الركب أن يقفوا على أطلال الديار، التي اضطر إلى الرحيل عنها، ويعبر عن حنينه لتلك المعاهد، ولذلك فهو يلح على صاحبه أن يعرج عليها لعله يشفي بمرآها قلبه العليل، ثم يدعو لهذه الديار بالسقيا، ولا يخفى أن الدعاء بالسقيا تقليدٌ جاهليٌّ:

بحقّ الهوى يا حداة الحمول قفوها قليلاً بتلك الطلول
معاهد مرت عليها السحاب ببرق خفوقٍ ودمع همول
أحن إليها حنين العشار وأبكي عليها بشجوٍ طويل
فيا سعد عرج عليها الركاب ففيها لقبى شفاء الغليل⁽¹⁾

فلم يكتف الشاعر بمشهد الرحيل لبيان شدة لوعته وقلة حيلته في مرافقة ركب الحجيج، بل أضاف إلى ذلك الصورة السمعية المتأنية من حنين الإبل وصوت البكاء وصوت حداة الإبل، وهو سائرون إلى حيث مهبط الوحي ومثوى الرسول الكريم، وما يستدعي ذلك من طلب التعرّيج على الديار، ليعلل الشاعر بها نفسه الظامئة لزيارتها، فإنه يستشعر اللذة في قسوة الرحلة ومعاناتها.

ومن الملاحظ أن أطلال الشاعر الأندلسي منازل حية ملىء بالناس، وتسير فيها الحياة سيراً طبيعياً إلا أن الشاعر اضطر مُرغماً إلى البعاد عنها، وحنينه دائماً إليها، ولذلك فهو يصور حالته النفسية، ويعكس أحرانه لأنه لا يستطيع أن يعيش في تلك الديار، ويأمل أن ينعم بزيارتها:

ومما شجاني وميض خفوق كقلبي غداة النوى والرحيل
ودمع يساجل دمع الغمام وشجو الحمائم عند الهديل
فيا ليت شعري وهل من سبيل على الوجد يوماً بصبر جميل
وهل يسمخ الدهر بعد العناد بجبر الكسير وعزّ الذليل
وهل راجع عهدنا بالحمى على رعم دهر ظلوم جهول⁽²⁾

وتكتسب هذه المقدمة قيمة معنوية كبرى من خلال دلالتها على المعاني الدينية الكبرى التي تجسدها عندما يذكر الشاعر أسماء الأماكن الحجازية المقدسة، فالشاعر

(1) - المقري، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 7 . ص: 290 .

(2) - المصدر نفسه . ص: 291 .

صاغ هذه المقدمة لتكون تمهيداً للمديح النبوي، ولذلك فقد وشاها ببعض المعاني الدينية التي كان يردّها الصوفيون:

وفي ذمّة الله ركّب سُرّوا
يحدون والليل مرخي السدّول
نشأوى بكأسين كأس الهوى
وكأس من الأمن مثل الشمول
يوئمون بالعيش أم القرى
وقبر النبي الشفيح الرّسول⁽¹⁾

وتتجلى الأبعاد النفسية التي يكنها كل شاعر أندلسي مغترب من خلال الأبيات التي صور فيها الشاعر أرض مكة التي فاضت بنور الإسلام، وشرقت بضم جثمان الرسول الكريم، ممهداً بذلك للانتقال إلى مدح الرسول، من خلال تحية يلقياها عليه ويحملها كل ما يستطيع من آلام نفسه المعذبة:

فأبلغ تحية صب مشوق
عدته عوادي الزمان الخدول
وقل يا رسول الهدى والشفيح
إذا ضاق صدر أب عن سليل
عليك الصلاة وطيب السلام
يحييك عند الضحى والأصيل⁽²⁾

بهذا الانتقال الموفق استطاع الشاعر أن يعكس آلام الأندلسيين في ديار الغربة وشوقهم إلى زيارة الأرض المقدسة، ولكن البعد عن المشرق، وعوادي الزمن والمشكلات السياسية تقف حائلاً يمنع من ذلك فتفتت قلوب الشعراء المغتربين، فالطلال الأندلسي لم يكن آثاراً دارسة، وإنما هو ديار مهجورة يحن المغتربون إلى العودة إليها فيها من مقدسات تربطهم بها، وتربط مقدمة الطلل بغرض المدح النبوي.

وأقام الشعراء المقدمة الطللية على النسق الشعري الذي بنيت عليه القصيدة العربية الموروثة من حيث سؤال الطلل وعجمته، وطول الليل المثقل بهواجس النفس، بسبب انشغال الشعراء بهواجسهم، وهي صورة متكررة في القصيدة العربية الموروثة، قال ابن جابر:

فتزور آثار النبوة والهدى
ويباح للصب المشوق لقاء
تلك الديار هي الديار فطالما
جليت بها عن قلب الغمأ
لصب الهضاب لجر أنيال الصبا
بهما لديهما ترفع الضراء
بشرى الذين سروا ولم تشغلهم
عن قاصده الأموال والأبناء
ألفوا ظهور العيس حتى أصبحت
وكأنها من أيتها أحناء

(1) - المقري، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج7. ص: 291.

(2) - المصدر نفسه. ص: 292.

مَنْ كُلِّ حَرْفٍ حِينَ تَسْمَعُ بِاسْمِهِ فَلَفِغَهَا عِنْدَ الرَّحِيلِ مَضَاءً⁽¹⁾
يقول ابن جابر كذلك:

هِيَ اللَّيَالِي لَيْسَ يُرْعَى صَرْفُهَا لَا خَامِلًا فِيهَا وَلَا مَنْ قَدْ سَمَا
فَكَانَ كَالصُّبْحِ جَلَا جُنْحِ الدُّجَى فَأَذْهَبَ الْإِظْلَامَ عَنَّا وَانْتَضَى
إِذَا أَدَارُوهَا وَقَدْ جَنَّ الدُّجَى وَشَى بِهِمْ نَيْرَهَا فِيمَنْ وَشَى
وَاخْضَعَ إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ وَقَمَّ عَلَى قَدَمِ الرَّجَاءِ فَلَمْ تَكُنْ لِتُخَيِّبَا⁽²⁾

ويبدو من هذه الأبيات أن الشاعر أضاف عنصرا جديدا إلى هذا النسق بما يمكن أن نسميه التجديد داخل الإطار الموروث، وهو أن شعور الشاعر بطول الليل راجع إلى انشغاله بمديح الرسول الكريم، وما يجد فيه من لذة وامتعة، يستشعر من خلالها نشوة الكبرياء، ويستمد منها عزة نفس، لا يتمنى معها انقضاء الليل على عادة الشعراء.

ومن ذلك مخاطبة شخصيتين وهميتين للتعبير من خلالهما عن معاناته، وآهات نفسه، وجعلهما جسرا يعبر الشاعر من خلالهما إلى غرضه، يقول ابن جابر:

إِنْ تَبَلُّغَا دَارَ الْحَبِيبِ فَبَلُّغَا وَتَحَمَّلَا عَنِّي السَّلَامَ الْبَالِغَا
وَتَلَفْتَا نَحْوَ الْخِيَامِ لِتُبْصِرَا مِنْ بَيْنِهَا قَمَرَ الْمَحَاسِنِ بَازِغَا
وَقَفَا عَلَى أَعْلَامٍ طَبِيبَةٍ وَأَخْلَفَا أَنْ لَسْتُ عَنْ صِدْقِ الْمَحَبَّةِ فَارِغَا
بُنَا حَدِيثِي لِلَّذِينَ أَحْبَبُهُمْ فَإِذَا تَبَثَّنَ الْحَدِيثُ فَبَالِغَا⁽³⁾

فقد خاطب الشاعر شخصيتين ليس لهما وجود في واقع حياة الشاعر، إذ أن مخاطبة الإثنين تقليد كان شعراء الجاهلية يحرصون على إيراده، لطبيعة حياتهم الانفرادية، التي تحتاج إلى الأصحاب والسمار، وكأنما هذا الخطاب موجه لذات الشاعر، التماسا لرفقة تحمي من الشعور بالوحدة والضياع، وللتعبير عن المعاناة في وقت لا ينفع فيه الندم على ما فرط الشاعر في جنب الرسول الكريم.

وبذلك فقد استطاع الشاعر أن يقدم لقصائده بهذه المقدمات بشكل تتجلى فيه قدرته الإبداعية على رسم المشهد الطلي .

(1)- ابن جابر . ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين أو الغين في مدح سيد الكونين. ص: 27.

(2)- المصدر نفسه. صص: 53-55.

(3)- المصدر نفسه. ص: 349.

لكننا ربما لاحظنا على المقدمات الطللية لدى الشعراء في تلك الفترة أنها غير تلك المقدمات الطللية ذات الأصول المشرقية القديمة فهي «تتوفر على حمولة عاطفية، ودلالات رامزة مرتبطة بحالة نفسية سياسية دينية، وذلك أن ظهور اللحظة الطللية في القصيدة الأندلسية وتكاثرها بشكل لافت للنظر جاء في ظرف كانت الأندلس فعلا بدأت تتحول إلى ظل دارس، فسقوط المدن في أيدي النصارى وتحويل المساجد إلى كنائس... خلق في الذاكرة وعيا بالتاريخ والثقافة الشعرية القديمة حتى صار الأندلسي يتذكر في كل لحظة الرسوم والأطلال، لم لا وقد كان يمر على ديار كان يسكنها ورياض و نزه كان يتمتع بها فيراها فارغة إلا من الكفر، أو ليس هذا طللا!؟ إنه في الواقع أكثر من ظل، لأن الظل في الثقافة الشعرية القديمة يرتبط بجزء من عواطف الإنسان (بالمرأة) بالحب، أما ظل الأندلسيين فإنه يمس جميع العواطف: الدينية والأخلاقية والسياسية والقومية والوطنية»⁽¹⁾.

(1) - قاسم الحسيني. بناء القصيدة في الشعر الأندلسي، رسالة دكتوراه من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، جامعة محمد الخامس «مخطوطة»، إشراف د، عباس الجراري، 1989م . صص: 125-126.

ج- مقدمة الشوق والحنين:

لقد كانت مقدمة الشوق والحنين إلى أراضي الحجاز ومقدساته من المقدمات الملائمة لتصدر قصيدة المدح النبوي، فقد برّح الشوق بفؤاد لسان الدين بن الخطيب، فكان مثلاً بارزاً للشاعر المغترب الذي لا ينفك يلهجُ بذكر الحجازِ على الرّغم من بعد الدّارِ وشطّ المزار فقد استهل عدداً من نبيواته بالتعبير عن لوعته وشوقه، فكل ما في الطبيعة من عناصر يثير هياج أشواقه، ويستنزف دموعه، ويحرك دواعي حنينه:

تَأَلَّقَ نَجْدِيًّا فَأَذْكَرَنِي نَجْدًا وَهَاجَ لِي الشَّوْقَ الْمُبْرِحَ وَالْوَجْدَا
وَمِيضُ رَأْيٍ بُرْدَ الْعَمَامَةِ مُغْفَلًا فَمَدَّ يَدًا بِالتَّبْرِرِ أَعْمَلَتِ الْبُرْدَا
تَبَسَّمَ فِي بَحْرِيَّةٍ فَتَجَهَّتْ فَمَا بَدَّلَتْ وَصَلًا وَلَا ضَرَبَتْ وَعْدَا
وَرَاوَدَ مِنْهَا فَارِكًا قَدْ تَمَنَعْتُ فَأَهْوَى لَهَا نَصْلًا وَهَدَّدَهَا رَعْدَا
وَأَغْرَى بِهَا كَفَّ الْغَلَابِ فَأَصْبَحْتُ ذُلُولًا، وَلَمْ تَسْطِعْ لِأَمْرَتِهِ رَدًّا
فَحَلَّتْهَا الْحَمْرَاءُ مِنْ شَفَقِ الضُّحَى نَضَاهَا، وَحَلَّ الْمُرْنُ مِنْ جِيدِهَا عَقْدَا
لَكَ اللَّهُ مِنْ بَرَقٍ كَأَنَّ وَمِيضَهُ يَدُ السَّاهِرِ الْمَقْرُورِ، قَدْ قَدَحَتْ زَنْدًا⁽¹⁾

والجدير بالذكر أنّ هذه المقدمات كانت تحمّل ملامح البيئة الأندلسية التي تتغلغل في عناصر وصف طبيعة الحجاز، وكل ما فيها من زهر ونسيم، فالشاعر ابن بيئته، والشاعر الأندلسي يصف أرض الحجاز بروح أندلسية ملى بالحنين والشوق، فكان يمزج بين الشيخ والورد والنرجس والنسيم العليل فتبدو مقدماته مزيجاً بين العناصر المغربية والمشرقية:

تَعَلَّمَ مِنْ سُكَّانِهِ شِيْمَ النَّدَى فَعَادَرَ أَجْرَاعَ الْحِمَى رَوْضَةً تَنْدَى
وَتَوَجَّ مِنْ نُورِهَا فُنَّ الرَّبَا وَخَتَمَ مِنْ أَزْهَارِهَا الْقُضْبَ الْمُلْدَا
سُرْعَانَ مَا كَانَتْ مَنَاسِفَ لِلصَّبَا فَقَدْ ضَحِكَتْ زَهْرًا، وَقَدْ حَجَلَتْ وَرْدَا
بِلَادُ عَهْدِنَا فِي قَرَارَاتِهَا الصَّبَا يَقُلُّ لِذَلِكَ الْعَهْدِ أَنْ يَأْلَفَ الْعَهْدَا
إِذَا مَا النَّسِيمُ اعْتَلَّ فِي عَرَصَاتِهَا تَتَاوَلَ فِيهَا الْبَانَ، وَالشَّيْخَ وَالرَّيْدَا

(1) - لسان الدين ابن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام. صص: 471-472.

فَكَمْ فِي مَجَانِي وَرْدِهَا مِنْ عِلَاقَةٍ إِذَا مَا اسْتَثِيرَتْ أَرْضُهَا أَنْبَتَتْ وَجَدًا⁽¹⁾

ومن مقومات مقدمة الشوق والحنين الدُّعاء بلهفة وتحنن إلى أرض الحجاز، والدعاء للركب الميممين وجوههم نحوها بأن يمهدَ الله لهم الصعاب، ويبلغهم أمانهم.

وقد أكثر الشاعر من استخدام الألفاظ الدينية في مطلع قصيدته مما يزيد المقدمة ارتباطاً بالعرض كقوله:

سَقَى اللَّهُ نَجْدًا مَا نَضَخْتُ بِذِكْرِهَا عَلَى كَيْدِي إِلَّا وَجَدْتُ لَهَا بَرْدًا
وَأَنْسَ قَلْبِي فَهُوَ لِلْعَهْدِ حَافِظٌ وَقَلَّ عَلَى الْأَيَّامِ مَنْ يَحْفَظُ الْعَهْدًا
صَبُورٌ وَإِنْ لَمْ تَبَقَ إِلَّا ذُبَالَةٌ إِذَا اسْتَنْشَقْتَ مَسْرَى الصَّبَا اسْتَعَلَّتْ وَقْدًا
لِي اللَّهُ كَمْ أَهْذِي بِنَجْدٍ وَحَاجِرٍ وَأَكْنِي بِدَعْدَا فِي غَرَامِي أَوْ سَعْدِي
وَمَا هُوَ إِلَّا الشُّوقُ نَارَ كَمِينُهُ فَأَذْهَلَ نَفْسًا لَمْ تُبْنِ عِنْدَهُ قَصْدًا
وَمَا بِي إِلَّا أَنْ سَرَى الرَّكْبُ مُوهِنًا وَأَعْمَلَ فِي رَمْلِ الْحِمَى النَّصَّ وَالْوَحْدَا
وَجَاشَتْ جُنُودُ الصَّبْرِ وَالْبَيْنِ وَالْأَسَى لَدَيَّ فَكَانَ الصَّبْرُ أضعفَهَا جُنْدًا⁽²⁾

ولعل أهم مميزات مقدمات الشوق والحنين، تلك النفحات الصوفية التي يعترف بها الشاعر في مطلع مدحته، وهو يشير إلى أنه يرمز ويكني، وقد استطاع بذلك أن يوضح صورة الأندلسي المغترب، الذي يحن إلى أرض الحجاز ويمني نفسه بزيارة المقدسات، ولكن البعد قد حال دون ذلك، وبذلك يسبر الشاعر أغوار النفوس ويصورها تصويراً صوفياً صادقاً.

وتعد مقدمة الحنين من أكثر الموضوعات تعبيراً عن الشوق لزيارة النبي، وأكثر تمكناً من التعبير عن أفكار الصوفية وحبهم لرسول الله، كما يتجلى في قول لسان الدين:

دَعَاكَ بِأَقْصَى الْمَغْرِبِينَ غَرِيبٌ وَأَنْتَ عَلَى بُعْدِ الْمَزَارِ قَرِيبٌ
مُدِلُّ بِأَسْبَابِ الرَّجَاءِ وَطَرْفُهُ عَضِيضٌ عَلَى حُكْمِ الْحَيَاءِ مُرِيبٌ
يُكَلِّفُ قُرْصَ الْبَدْرِ حَمْلَ تَحِيَّةٍ إِذَا مَا هَوَى، وَالشَّمْسَ حِينَ تَغِيبُ
لِتَرْجِعَ مِنْ تِلْكَ الْمَعَالِمِ غُدْوَةً وَقَدْ ذَاعَ مِنْ رَدِّ التَّحِيَّةِ طِيبٌ

(1)- لسان الدين ابن الخطيب . ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام. ص: 472.

(2)- المصدر نفسه. صص: 473-474.

وَيَسْتَوْدِعُ الرِّيحَ الشَّمَالَ شَمَائِلًا مَنِ الحُبِّ، لَمْ يَعْلَمْ بِهِنَّ رَقِيبُ
وَيَطْلُبُ فِي جَيْبِ الجُنُوبِ جَوَابَهَا إِذَا مَا أَطَلَّتْ وَالصَّبَّاحُ جَنِيبُ
وَيَسْتَنْفَهُمُ الكَفَّ الخَضِيبَ وَ دَمْعُهُ عَرَامًا، بِحِنَاءِ النَّجِيعِ خَضِيبُ⁽¹⁾

وتظهر في هذه المقدمة ملامح البيئة الأندلسية بوضوح، فالشاعر الأندلسي الذي فطرت نفسه على وصف البرق والمطر والزهر والشجر، والسحاب والنسيم، أظهر ذلك في مقدمات الحنين إلى المشرق، فمزج من خلال ذلك بين العناصر المشرقية والمغربية وذلك مما يزيد عنصر العصر عمقا، وتأثيراً في النفس.

وقد اكتسبت تلك المقدمات عمقا أيضاً من خلال قدرة الشاعر على توفير أكثر مقومات هذه المقدمة، ومن أبرز المشاهد في تلك اللوحة الفنية، مشهد تصوير النفس البشرية، التي تفيض بمشاعر الحنين الصوفي الصادق، وهي تعاني من لوعة الشوق، وتكابد آلام البعد عن مثنوى الحبيب الهادي. ولكن بوارق الأمل التي يمني الصوفية نفوسهم بها، ما تنفك تبرق، فتضيء النفوس، وينعكس هذا البريق في الشعر مسجلاً لوحات فنية، لها مقوماتها البارزة:

وَمَا هَاجَنِي إِلَّا تَأَلَّقُ بَارِقِ يُلُوحُ بِفُؤْدِ اللَّيْلِ مِنْهُ مَشِيبُ
ذَكَرْتُ بِهِ رَكَبَ الحِجَارِ وَجِيرَةَ أَهَابَ بِهَا نَحْوَ الحَبِيبِ مُهَيْبُ
فَبِتُّ وَجَفَنِي مِنْ لَأَلِيءِ دَمْعِهِ غَنِيٌّ، وَصَبْرِي لِلشُّجُونِ سَلِيبُ
تُرْنَحْنِي الذُّكْرَى وَيَهْفُو بِي الجَوَى كَمَا مَالَ عُصْنٌ فِي الرِّيَاضِ رَطِيبُ
وَأَحْضُرُ تَغْلِيلًا لِشَوْقِي بِالمَنَى وَيَطْرُقُ وَجَدٌ غَالِبٌ فَأَغِيبُ
مُنَايَ لَوْ أُعْطِيتُ الأَمَانِي زَوْرَةَ يُبِثُّ عَرَامَ عِنْدَهَا وَوَجِيبُ
فَقَوْلُ حَبِيبٍ إِذْ يَقُولُ تَشَوْقًا عَسَى وَطَنٌ يَذْنُو إِلَيَّ حَبِيبُ⁽²⁾

كما أفاد ابن جابر وغيره في تعبيرهم عن حُبهم للرسول صلى الله عليه وسلم، ووجدوا فيه خير معبر عن شوقهم وحُبهم، الأمر الذي جعله يتسم بعاطفة جياشة محبة مشتاقة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ولمدينته المنورة، لذلك قطع ابن جابر وغيره الفيافي والقفار يحثون مطاياهم ويستعجلونها كلما أتعبها الترحال، ويصبرون أنفسهم، ويمنونها بروية العقيق

(1)- لسان الدين ابن الخطيب . ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام. صص : 320-321.

(2)- المصدر نفسه . صص : 322-323.

والرند والغوير ونجد وغيرها من المواضع التي أحبوها لحبهم للرسول الكريم، هذا الحبيب الذي يذكرونه دائماً ويصبون عليه، ويذرفون الدموع غزيرة تنثرى شوقاً وهياماً، قال ابن جابر:

ولولاك لم نهو العقيق ولا الرندا	إليك رسول الله جبناً فلا وخدا
لما كنت أشتاق الغوير ولا نجداً	ولولا اشتياقي أن أراك بمقلتي
لما اخترت عن أهلي وعن وطني بعداً	ولولا رجاء القلب من ذلك الحمى
تجر صباحاً فوق أرضكم برداً	ومن أجلكم أصبو إذا هبت الصبا
لعيني إلا فاض دمي له وجداً	وما افتر ثغر البرق من أرض بارق
ولا أشتهي من غير مائكم وزدا ⁽¹⁾	ولا أستلذ العيش في غير أرضكم

وتعد مقدمة مقصورة ابن جابر صورة مثلى للمزاوجة بين مقدمات القصيدة العربية

القديمة

لما رأى من حُسنها ما قد رأى	بادر قلبي للهوى وما ارتأى
وكان قلبي قبل هذا قد ساءى	فقرّب الوجد لقلبي حبها
أقصر فلي سمع عن العذل نأى	يا أيها العاذل في حبي لها
ما فضّ باب عذله ولا فأى ⁽²⁾	لو أبصر العاذل منها لمحمة

وما أشار إليه ابن حجة الحموي في التلاؤم مع قصيدة المديح النبوي⁽³⁾ وكان هذا سبباً إضافياً لاشتهار القصيدة، وفي العصر نفسه، خرج شعراء آخرون عن هذا النهج وظهرت مقدمات مختلفة تبوح بما يحمله الشاعر من فكر وآراء مثل المقدمات الرمزية الغامضة.

فابن جابر كغيره من شعراء العربية، وفي للتراث العربي، محافظ على تقاليده، ولكن ذلك لا يعني أن الشاعر الأندلسي توقع داخل دائرة التقليد مكبلاً بقيوده، وإنما أخذ من التراث ما هو حي متجدد، ونفخ فيه روح البيئة.

(1) - ابن جابر. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين أو الغين في مدح سيد الكونين. صص: 191-192.

(2) - المصدر نفسه. صص: 39-40.

(3) - القصيدة كاملة في النفح. ج. 10. صص: 167-181.

من العناصر المتممة لقصيدة المدح، عنصر التخلص من المقدمة إلى المدح، وابن الخطيب قد استطاع أن يتخلص تخلصاً حسناً في معظم قصائده.

د- حسن التخلص:

1- التعريف بالمصطلح وتطوره:

التخلص في اللغة: التجية من كل منشب، نقول: خلصته من كذا تخليصاً أي: نجيته تجية فتخلص، تخلصه تخلصاً كما يتخلص الغزل إذا التبس⁽¹⁾. وخلصته: أي ميزته. من غيره⁽²⁾ أما في الاصطلاح: «فهو أن يأخذ مؤلف الكلام في معنى من المعاني، فبينما هو فيه إذ أخذ في معنى آخر غيره، وجعل الأول سبباً إليه، فيكون بعضه آخذاً برقاب بعض، من غير أن يقطع كلامه ويستأنف كلاماً آخر، بل يكون جميع كلامه كأنما أفرغ إ فراغاً»⁽³⁾. وعد البلاغيون ذلك دلالة على حذق الشاعر وامتلاكه القدرة على التصرف. ويجمع أهل البلاغة على أن حسن التخلص في النثر أسهل منه في النظم «لأن الناظم يراعي القافية و الوزن، فيكون في ذلك صعوبة بخلاف الناثر، فإنه لا يراعي قافية و لا يحافظ على الوزن، بل هو مطلق العنان يضع قدمه حيث شاء، فمن أجل ذلك كان أشق على الناظم منه على الناثر»⁽⁴⁾.

ويكاد يتفق النقاد والبلاغيون على أن البراعة في "التخلص" مما أبدعه المحدثون من الشعراء دون من تقدمهم⁽⁵⁾، فلم يكن القدماء يعنون به. «وكانت العرب لا تذهب هذا المذهب في الخروج إلى المدح، بل يقولون عند فراغهم من نعت الإبل و ذكر الفقار وما هم بسبيله: (دع ذا ا) و (عد عن ذا) ويأخذون فيما يريدون أو يأتون بـ(أَنَّ) المشددة ابتداءً للكلام الذي يقصدونه، فإذا لم يكن خروج الشاعر إلى المدح متصلاً بما قبله ولا منفصلاً

(1) - ينظر: ابن منظور. لسان العرب، ج1، مادة: خلص . ص: 877 .

(2) - ينظر: الفيومي، أحمد بن محمد بن علي المقري. المصباح المنير، ج1، مادة: خلص، بيروت: دار الفكر، (د. ت). ص: 177.

(3) - ابن الأثير، ضياء الدين. المثل السائر في أدب الكتاب و الشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، ج3. ط 2. دار الرفاعي، الرياض، 1404هـ، 1984 م. ص: 147

(4) - العلوي، يحيى بن حمزة، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ج2. دار الكتب العلمية، بيروت، 1402هـ، 1982 م. ص: 331

(5) - ابن طباطبا العلوي، أبو الحسن محمد بن أحمد، عيار الشعر، تحقيق عبد العزيز المانع، دار العلوم، الرياض، 1405 هـ، 1985 م. ص: 184.

بقوله: (دع ذا) و(عد عن ذا) ونحو ذلك، سمي طفرا وانقطاعا⁽¹⁾.

وإذا كان المتأخرون قد عنوا بحسن التخلص دون العرب الأوائل، فهذا لا يعني أن شعر أولئك القدماء قد خلا تماما من هذا الفن، وإنما المراد عدم توجيه اهتمامهم إليه وذلك شأنهم في سائر فنون البديع التي لم يعهد منهم تمام العناية بها، بل كانوا يؤثرون في ذلك كله عدم التكلف. ولهذا لم يخل شعرهم من (التخلص) تماما، فقد أوردوا لزهير بن أبي سلمى قوله، وهو من هذا الباب:

إِنَّ الْبَحِيلَ مَلُومٌ حَيْثُ كَانَ وَ لَسَ كُنَ الْكَرِيمَ عَلَىٰ عِلَاتِهِ هَرْمٌ

يقول ابن حجة الحموي في تعليقه على هذا البيت «انظر إلى هذا العربي القديم، كيف أحسن التخلص من غير اعتناء في بيت واحد، وهذا هو الغاية القصوى عند المتأخرين الذين اعتنوا به. وعلى كل تقدير، فمن كلام العرب استنبط كل فن، فإنهم. ولاية هذا الشأن»⁽²⁾.

وإذا استطاع الشاعر أن يأتي بالتخلص في بيت واحد كان ذلك عندهم دلالة على تمكنه في هذا الفن، وجعلوا حسن تخلصه ذاك غاية في الرشاقة، ومنتهى الإعجاز و اللطافة، ومن هذا الجانب استحس النقاد والبلاغيون قول أبي تمام:

مازلت عن سنن الوداد ولا غدت نفسي على إلف سواك تحوم
لا والذي هو عالم أن النوى مرّ وأن أبا الحسين كريم

وعدوا(براعة التخلص) في هذا النص مقدمة على غيرها من وجوه عدة، منه: أنه تخلص من النسيب إلى المدح بتخلص سهل رشيق دقيق المعنى، بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع في الثاني، ومنه: حسن الانسجام التام، وشدة الممازجة والالتئام، حتى كأنهما أفرغا في قالب واحد، ومنها أن الشاعر وثب من الشطر الأول إلى الشطر الثاني وثبة اختلاسا، وهذا ما تنافس على الإتيان به شعراؤهم المتأخرون الذين اعتنوا بهذا الفن .

(1)- ابن رشيق القيرواني . العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج1. ص: 239 .

(2)- ابن حجة الحموي ، خزنة الأدب وغاية الأرب، ج 1، صص: 329-330.

وذكروا لأبي تمام أيضا في (حسن الختام) قوله:

فَالْأَرْضُ مَعْرُوفُ السَّمَاءِ قَرَى لَهَا وَبَنُو الرَّجَاءِ لَهُمْ بَنُو الْعَبَّاسِ

وفيه انتقال من الوصف إلى المديح، وقد عدوا مثل تلك المخالصة من المخالصة الفائقة، ووصفوها بالسحر الحلال (1).

ومن باب وضوح الدلالة على الشيء بتعريف ضده، تحسن الإشارة هنا إلى مقارنة هذا الفن البديعي (حسن التخلص) بضده البعيد كل البعد عن البراعة، وهو ما صنّفوه ضمن (التخلص القبيح) وقد سقط في وحله عدد من الشعراء المشار إليهم بالبنان الذين الذين تربعوا على قمة البيان، ومنهم أبو نواس الذي عرفت له المخالصة الفائقة، فمن تخاليفه القبيحة قوله:

سَأَشْكُو إِلَى الْفُضْلِ بْنِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ هَوَاكَ لَعَلَّ الْفُضْلَ يَجْمَعُ بَيْنَنَا

وقد أراد أن يجعل للممدوحه مكانة عزيزة لدى جميع الناس من ذكر و أنثى، وأنه صاحب الكلمة المسموعة، فجعله في هذا البيت ساعيا بينه وبين محبوبته في الوصال، وتلك مهمة تسقط بعلو الممدوح ورفعته إلى الحضيض، وقد أخذ هذا المعنى أبو الطيب المتنبي فجاء بما هو أقبح في قوله:

عَلَّ الْأَمِيرُ يَرَى ذَلِي فَيَشْفَعُ لِي إِلَى الَّتِي تَرَكْتَنِي فِي الْهَوَى مَثَلًا

ومثل هذا يتبرأ منه الممدوح، ويخشى من الناس سماعه لما يحمل في مضمونه من صفة ذميمة تحط من قدره، وتقلل من مكانته، وما أدل على ذلك من قصة قيس بن ذريح مع صاحبه ابن أبي عتيق، حين طلق قيس زوجته (لبنى) وتزوجت غيره، فندم على ذلك، وشبب بها في كل معنى، فرحمه ابن أبي عتيق، وسعى في طلاقها من زوجها، وأعادها على قيس فقال يمدحه:

جَزَى الرَّحْمَنُ أَفْضَلَ مَا يُجَازِي عَلَى الْإِحْسَانِ خَيْرًا مِنْ صَدِيقِ
فَقَدْ جَرَّبْتُ إِخْوَانِي جَمِيعًا فَمَا أَلْفَيْتُ كَابِنَ أَبِي عَتِيقِ
سَعَى فِي جَمْعِ شَمْلِي بَعْدَ صَدْعِ وَرَأَيْ حُدُثَ فِيهِ عَنِ الطَّرِيقِ
وَأَطْفَاءَ لَوْعَةٍ كَانَتْ بِقَلْبِي أَغْصَنِي حَرَارَتُهَا بِرِيقِي

(1) - ينظر: ابن حجة الحموي، خزنة الأدب وغاية الأرب، ج 1، صص: 329-350.

يقول **أبن حجة الحموي**: « فلما سمعها **أبن أبي عتيق** قال لقيس: يا حبيبي أمسك . عن هذا المدح، فما يسمعه أحد إلا ظنني قوادًا»⁽¹⁾ .

ومن هذه الشواهد التي تشير إلى (التخلص) من وجهيه (الحسن، القبيح) تتجلى مكانة براعة التخلص في علم البديع وأنه من الفنون البديعية التي لا تتأتى إلا للحذاق من الشعراء، « ولعمري إنها طريقة بديعة، ونوع من السحر يدل على رسوخ القدم في البلاغة، وتمكن الذهن من البراعة، وإن لم يكن كذلك لم يعد من أنواع البديع»⁽²⁾ .

ويختلط مصطلح (التخلص) بمصطلح آخر يطلق عليه (الاستطراد) وهو مأخوذ من قولهم: **أستطر** الفارس من قرنه في الحرب، وذلك أن يفر من بين يديه يوهمه الانهزام، ثم يعطف عليه على غرة منه، وهو ضرب من المكيدة في الحرب . وهو في البلاغة الانتقال من معنى إلى معنى آخر، ثم يقطع الكلام ويرجع إلى المعنى الأول، فلا يكون المستطرده به آخر ما تكلم به، بينما لا يرجع في (التخلص) إلى الأول، وإنما يستمر فيما خلص إليه⁽³⁾ ولعل من أوضح الأمثلة على الاستطراد قول **السموأل بن غريص بن عادي** في **لأميته المشهورة**:

وَإِنَّا لَقَوْمٌ لَا نَرَى الْقَتْلَ سَبَبَةً إِذَا مَا رَأَتْهُ عَامِرٌ وَ سَلُولُ
يُقَرِّبُ حُبُّ الْمَوْتِ أَجَانَا لَنَا وَتَكَرَّهُهُ أَجَالُهُمْ فَتَطُولُ
وَمَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ حَتْفَ أَنْفِهِ وَلَا طُلَّ مِنَّا حَيْثُ كَانَ قَتِيلٌ⁽⁴⁾

وفي هذه الأبيات، خرج **السموأل** من الفخر منتقلا إلى هجاء **عامر** و**سلول**، ثم عاد إلى الموضوع الأول وهو الفخر.

ويذكر البلاغيون مصطلحا ثالثا يطلق عليه (الاقتراب) ويعني انتقال الشاعر من موضوع إلى آخر غيره من مديح، أو هجاء، أو غير ذلك من أفانين الكلام لا يكون بين الأول والثاني ملائمة ولا مناسبة، بخلاف (التخلص)، حيث يقطع الشاعر كلامه الذي هو

(1) - ابن حجة الحموي ، خزنة الأدب وغاية الأرب، ج1، ص: 332.

(2) - المصدر نفسه . ص: 331 .

(3) - ينظر: بدوي طبانة. معجم البلاغة العربية . ص: 458 .

(4) - **السموأل** . الديوان . دار بيروت، 1406هـ، 986م . في مجلد واحد مع (ديوان عروة بن الورد وديوان

حاتم الطائي) . ص: 91 .

بصدده، ثم يستأنف كلاماً آخر، وذلك كثير في شعر المتقدمين من العرب كما مر القيس، والنابغة، وطرفة وليبد⁽¹⁾. ومن الأمثلة التي توضح (الاقْتَضَاب) ما قاله أبو نواس في مدح محمد الأمين وقد انتقل فيها من وصف الخمرة إلى المديح من غير مناسبة تلائم بينهما، ومنها قوله:

فَاسْقِنِي كَأْسًا عَلَى عَذِيبٍ كَرِهَتْ مَسْمُوعَهُ أَذْنِي
مِنْ كَمِيَتِ اللَّوْنِ صَافِيَةً خَيْرَ مَا سَأَسَلْتُ فِي بَدَنِ
مَا اسْتَقَرَّتْ فِي فُؤَادِ فَتَى قَدْ رَأَى مَا لَوْعَةُ الْحُزْنِ
مُزِجَتْ مِنْ صَوْبِ غَادِيَةِ حَلَبَتْهُ الرِّيحُ مِنْ مُزْنِ
تَضَحَّكَ الدُّنْيَا إِلَى مَلِكِ قَامَ بِالْآثَارِ وَ السُّنَنِ⁽²⁾

وإذا تأملنا البيت الأخير في النص السابق يظهر لنا انقطاع معناه عما سبق، لأن الشاعر انتقل فيه إلى المديح بعد أن كان حديثه في وصف الخمرة، ولم يكن بين الغرضين تناسب وانسجام، وكأن الشاعر قد استهل كلاماً آخر مبنياً على معنى جديد. وهذه الطريقة في الانتقال من غرض إلى آخر من غير علاقة بينهما هي الفاصل بين مصطلحي (التخلص، والاقْتَضَاب)، وقد أشار إلى هذا الفرق ابن القيم الجوزية في قوله: «فالفارق بينه وبين الاقْتَضَاب أن التخلص لا يكون إلا لعلاقة بينه وبين ما تخلص منه، وأما الاقْتَضَاب فليس شرط أن يكون بينه وبين ما قبله علاقة بل يكون كلاماً مستأنفاً منقطعاً عن الأول»⁽³⁾ ومن المصطلحات المرادفة لـ(التخلص) مصطلح (حسن الخروج) وهو سابق لمصطلح (التخلص)، وهو من مسميات (ثعلب) (ت: 291هـ)، وقد ذكر أمثلة له في كتابة (قواعد الشعر) ختمها بقول ذي الرمة:

حَنْتُ إِلَى نَعَمِ الدَّهْنِ فَقُلْتُ لَهَا أُمِّي هَلَالاً عَلَى التَّوْفِيقِ وَ الرُّشْدِ

(1) - ينظر: يحيى بن حمزة العلوي، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ج2، ص: 347.

(2) - ينظر في ذلك: حديث بدوي طبانه عن الاقْتَضَاب و أمثلته في: (معجم البلاغة العربية) ج 2، صص: 707-709.

(3) - ابن القيم، شمس الدين محمد بن أبي بكر. الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان. (د. ط)، مكتبة المنتبى، القاهرة، (د. ت) صص: 158-159.

والبيت فيه انتقال من وصف الناقة إلى المديح، والممدوح- هنا- هلال بن أحوز المازني. ويشترط أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب أن يكون الخروج عن بكاء الطلل، ووصف الإبل، وتحمل الأظعان، وفراق الجيران بغير (دع ذا) و(عد عن ذا) و(اذكر ذا)، بل من صدر إلى عجز، لا يتعداه إلى سواه، ولا يقرنه بغيره (1).

و يتفق أهل النقد و البلاغة على هذا الشرط، و إن جعلوه دلالة على حذق الشاعر وقدرته وبلاغته، فإن كان الانتقال من (الصدر إلى العجز) كان غاية في الحسن، وإلا يكفي أن يكون الانتقال سهلاً ورشيقاً، كأنما أفرغ إفراغاً، حتى و إن لم يكن قد وقع في بيت واحد، وإنما في بيتين متجاورين. وتبعه في هذه التسمية تلميذه (عبد الله بن المعتز) (ت 296 هـ) حين ذكر محاسن الكلام فقال: «منها حسن الخروج من معنى إلى معنى» ثم استشهد له بعدد من الشواهد ختمها بقول إسحاق الموصلي، وقد خرج من وصف السكر إلى الهجاء:

فَمَا ذَرَّ قَرْنَ الشَّمْسِ حَتَّى كَانْنَا مَنِ العِيِّ نَحْيِي أَحْمَدُ بْنُ هِشَامٍ (2)

وسماه أبو الحسن محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي (ت: 322 هـ) (التخلص) وأورد له طرقة شتى سلكها القدماء و المحدثون واستشهد لذلك بعشرات الأمثلة ختمها بتسعة شواهد من شعر أبي تمام آخرها قوله:

وَلَقَدْ بَلَوْنَا خَلَائِقِي فَوَجَدْتَنِي سَمِحَ اليَدَيْنِ بِيذْلِ وَدِّ مُضْمَرٍ
يُغْجِبُنِي مَنِّي أَنْ سَمَحْتُ بِمُهْجَتِي وَكَذَلِكَ أَغْجَبُ مِنْ سَمَاحَةِ جَعْفَرٍ
مَلِكٌ إِذَا الْحَاجَاتُ لُدُنَ بِحَقْوِهِ صَافِحُنْ كَفَّ نَوَالِهِ الْمُتَيْسِّرِ (3)

و كذلك سماه القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني (ت: 392) هذه التسمية في قوله: «و الشاعر الحاذق يجتهد في تحسين الاستهلال و التخلص وبعدهما الخاتمة، فإنها المواقف التي تستعطف أسماع الحضور، وتستميلهم إلى الإصغاء، ولم تكن الأوائل .

(1)- ثعلب، أبو العباس أحمد بن يحيى. قواعد الشعر، شرح و تعليق: محمد عبد المنعم خفاجي. ط1. مكتبة

البابي الحلبي، القاهرة، 1367 هـ 1948 م. ص: 50.

(2)- ابن المعتز، عبد الله. كتاب البديع، عني بمقدمته وفهارسه: إغناطوس كراتشكو فسكي. ط3. دار الميسرة، بيروت، 1402 هـ-1982 م. صص: 60-62 .

(3)- ابن طباطبا العلوي. عيار الشعر. صص: 184-199.

تخصها بفضل مراعاة»⁽¹⁾ .

وسماه أبو هلال العسكري (ت: 390هـ) (الخروج) وعقد له فصلا في كتاب (الصناعتين) وهو الفصل الثالث من الباب العاشر وجعله بعنوان: «في الخروج من النسيب إلى المدح وغيره» . وبدأ الفصل بقول هـ " :كانت العرب في أكثر شعرها تبتدئ بذكر الديار و البكاء عليها والوجد بفراق ساكنيها، ثم إذا أرادت الخروج إلى معنى آخر ...قالت: (فدع ذا وسل لهم عنك بكذا) كما قال:

فَدَعُ ذَا وَسَلِّهِمْ عَنكَ بِجَسْرَةٍ ذَمُولٌ إِذَا صَامَ النَّهَارَ وَهَجْرًا

...فأما الخروج المتصل بما قبله فقليل في أشعارهم»⁽²⁾ .

وسماه ابن رشيق القيرواني (ت: 456 هـ) (الخروج) وتناول الحديث عنه مع حسن افتتاح الكلام و خاتمة في باب خاص سماه (باب المبدأ، والخروج، والنهاية) ومن حديثه عن (الخروج) قوله: «و أما (الخروج) فهو عندهم شبيه بـ (الاستطراد)، وليس به، لأنَّ (الخروج) إنما هو أن تخرج من نسيب إلى مدح أو غيره بلطف تحيل، ثم تتماذى فيما خرجت إليه...والاستطراد: أن يبني الشاعر كلاما كثيرا على لفظه من غير ذلك النوع، . يقطع عليه الكلام، وهي مراده دون جميع ما تقدم، و يعود إلى كلامه الأول...»⁽³⁾

وسمى ابن سنان الخفاجي (ت: 466 هـ) (الخروج) تخلصا فقال: «ومن الصحة صحة النسق والنظم، وهو أن يستمر في المعنى الواحد، وإذا أراد أن يستأنف معنى آخر أحسن التخلص إليه حتى يكون متعلقا بالأول وغير منقطع عنه، ومن هذا الباب خروج الشعراء من النسيب إلى المدح، فإن المحدثين أجادوا التخلص، حتى صار كلامهم في النسيب متعلقا بكلامهم في المدح لا ينقطع، فأما العرب المتقدمون فلم يكونوا يسلكون

(1)-الجرجاني، علي بن عبد العزيز. الوساطة بين المتنبي وخصومه .(د. ط)، المكتبة العصرية،

بيروت، (د. ت). ص: 48 .

(2)- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله . كتاب الصناعتين ، تحقيق: فؤاد قميحة. ط3. دار الكتب،

بيروت، لبنان، 1404هـ-1984م.ص: 513-514 .

والبيت المذكور لامرئ القيس، والجسرة: الناقة العظيمة، والذمول: التي تسير سيرا سريعا لينا، و صام النهار:

اعتدل وقام قائم الظهر، وهجر: من الهجرة شدة الحر .

(3)- ابن رشيق القيرواني . العمدة . صص : 234-236 .

هذه الطريقة، و إنما كان أكثر خروجهم من النسب إما منقطعا وإما مبنيا على وصف الإبل التي ساروا إلى الممدوح عليها...»⁽¹⁾.

وسماه أبو طاهر البغدادي (ت: 517 هـ) (براعة التخلص) فقال: «وأما براعة التخلص: فإن من حكم التشبيب أن يكون ممتزجا بما بعده من مدح أو هجاء وغيرهما، وغير منفصل عنه، فإن القصيدة مثلها كمثل الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض، فمتى انفصل واحد عن الآخر، بطل الجسم، وحذاق الشعراء لا يفصلون بينهما، بل يصلون. الأول بالآخر، حتى تراه كالرسالة والخطبة، لا ينقطع جزءٌ من جزءٍ»⁽²⁾. واستشهد بعد ذلك لبراعة التخلص بعدد من الأمثلة، ومن أجملها و أوضحها، استشهاده بأبيات لمحمد بن وهب يقول فيها:

مَا زَالَ يُلْتَمِنِي مَرَّاشِ فَهْ وَيَعْنِي الْإِبْرِيْقُ وَالْقَدْحُ
حَتَّى اسْتَرَدَّ اللَّيْلُ خَلْعَتَهُ وَبَدَا خِلَالَ سَوَادِهِ وَضَحُ
وَبَدَا الصَّبَاحُ كَأَنَّ عَرَّتَهُ وَجَهُ الْخَلِيفَةِ حِينَ يُمْتَدِّحُ⁽³⁾

وسماه أبو القاسم الكلاعي (من أعلام القرن السادس الهجري) (التخلص) وأفرد له فصلا في كتابه: (إحكام صنعة الكلام) وجعله بعنوان: (في التخلص من الصدور إلى الغرض المذكور) وختم الفصل بقوله: «وربما توصلوا بغير ما ذكرناه إلى غرض الكتاب، وتخلصوا بغير ما أوردناه إلى معنى الخطاب...»⁽⁴⁾. واقتصر كلامه في الكتاب على (التخلص) في النثر، لأن المؤلف وضع كتابه لدراسة النثر وفنونه، و بحث ضروب الكلام وأنواعه، ولعل عنوان الكتاب ينطوي على أنه في موضوع النثر.

وسماه ابن أبي الإصبع المصري (ت: 654 هـ) (براعة التخلص) وأفرد له بابا خاصا في كتابه: (تحرير التحبير) وذكر له أمثلة من القرآن الكريم و الشعر العربي، وقد

(1)- ابن سنان الخفاجي، أبو محمد عبد الله بن محمد. سر الفصاحة. دار الكتب العلمية، بيروت، 1402 هـ/1982 م. ص: 268.

(2)- البغدادي، أبو طاهر محمد بن حيدر. قانون البلاغة في نقد النثر والشعر. تحقيق: محسن عياض عجيل. ط1. مؤسسة الرسالة، بيروت، 1401 هـ-1981 م. ص: 120.

(3)- المصدر نفسه. صص: 120-121.

(4)- الكلاعي، أبو القاسم محمد بن عبد الغفور. إحكام صنعة الكلام، تحقيق: محمد رضوان الداية. (د.ط). دار الثقافة، بيروت، 1966 م. صص: 69-72.

استهل هذا الباب بقوله: « وهو امتزاج آخر ما يقدمه الشاعر على المدح من نسب أو فخر أو وصف أو أدب أو زهد أو مجون أو غير ذلك بأول بيت من مدح، وقد يقع ذلك في بيتين متجاورين، وقد يقع في بيت واحد، وهذه وإن لم تكن طريقة المتقدمين في غالب أشعارهم، فإن المتأخرين قد لهجوا بها، وأكثروا منها، وهي لعمرى من المحاسن... وقد ذهب أصحاب الإعجاز إلى أنه وجه الإعجاز، وهو دقيق في عين الغبي، خفي يخفى على غير الحذاق من ذوي النقد»⁽¹⁾. ومن ضمن شواهد الحسنه في هذا الباب قول أبي الطيب المتنبى يمدح الغيث بن علي بن بشر العجلي:

مَرَّتْ بِنَا بَيْنَ تَرْبِيهَا فَقُلْتُ لَهَا مِنْ أَيْنَ جَانَسَ هَذَا الشَّادِنُ الْعَرَبِيَا
فَاسْتَضْحَكَتْ ثُمَّ قَالَتْ كَالْمَغِيثِ يَرَى لَيْثَ الشَّرَى وَهُوَ مِنْ عَجَلٍ إِذَا انْتَسَبَا⁽²⁾

و جعل حازم القرطاجني (ت: 684هـ) مذهب الإبداع في التخلص والاستطراد أحد مذاهب البلاغة المستشرقة وذكر للتخلص صورتين إحداهما، الانتقال بتلطف وتدرج، والثانية: يكون الانتقال فيه من غير تدرج و سماه الخروج، فقال: « وطريقة التخلص ينحى بها أبدا نحوان: نحو يتدرج فيه إلى ما يراد التخلص إليه، ويتنقل بتلطف إليه مما يناسبه ويكون منه سبب، و نحو لا يكون التخلص فيه بتدرج وانتقال من الشيء إلى ما يناسبه ويشبهه ولكن خاطر حيزا من حيز، وملاحظته طرفا من طرف، قيعطف إلى ما يريد التخلص إليه بما يكون مناقصا له أو مخالفا أو شك انعطاف من غير مقدمة تشعر بذلك أو واسطة تنظم بين الطرفين ولكن بالخروج من أحدهما والتخلي عنه دفعة إلى الآخر...»⁽³⁾.

(1) - ابن أبي الإصبع، أبو محمد زكي الدين عبد العظيم بن عبد الواحد. تحرير التعبير في صناعة الشعر

والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق: حنفي محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية. (د.ط).

لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، (د.ت). ص: 433.

(2) - المصدر نفسه . ص: 437 . والبيان في ديوان المتنبى . شرح: عبد الرحمن البرقوقي، ج1. دار الكتاب

العربي، بيروت، 1400هـ/1980م. ص: 239. والترب: السماوي لغيره في العمر، والشادن: من الضباء الذي

قوي وترعرع واستغني عن أمه، ويريد به- هنا- المحبوبة، والمغيث: اسم الممدوح.

(3) - أبو حازم القرطاجني. منهاج البلغاء وسراج الأدباء. ص: 319.

وأشار القرطاجني إلى أن التخلص يمكن أن يكون في شطر بيت، أو في بيت بجملته، أو في بيتين، ثم قال: « وكلما قرب السبيل في ذلك كان أبلغ. وقد يستحسن التخلص الواقع في البيت بأسره ويقع من النفوس أحسن موقع »⁽¹⁾.

وينبه القرطاجني على ضرورة الحرص والاهتمام بالبيت الذي يلي بيت التخلص، ويوجه الشاعر إلى العناية بهذا البيت ليكون كفيلاً بإحداث هزة تهيئ المتلقي لما يرد بعد التخلص و في هذا الصدد يقول: « ومما يجب اعتماده في التخلص: أن يجتهد في تحسين البيت التالي لبيت التخلص، فإنه أول الأبيات الخالصة للحمد أو الذم، وأول منقطة من مناقل الفكر في ما تخلصت إليه، فيجب أن يعتمد فيه ما يكون محرّكاً للنفس لتستأنف هزة ونشاطاً لتلقي ما يرد، فإن العناية بهذا البيت نحو من العناية بالبيت الثاني من مطلع القصيد، بل ربما كانت الحاجة إلى استثارة الهزة عند الانعطاف أكد منها في استثارة ذلك عند المبدأ »⁽²⁾.

ويطلق القرطاجني مصطلح (الخروج) على كل من (التخلص و الاستطراد) ويفرق بينهما في قوله: « وقد قسم الناس الخروج من جهة ما ينحى به منحى التدرج، أو الانعطاف من غير تدرج، إلى تخلص واستطراد »⁽³⁾.

وسماه شهاب الدين محمود الحلبي (ت: 725 هـ) (براعة التخليص) وقال في تعريفه: « هو أن يكون التشبيب أو النسيب ممتزجا بما بعده من مدح وغيره غير منفصل عنه »⁽⁴⁾. ومن شواهد له قول البحرني:

رباعٌ تَرَدَّتْ بِالرِّيَاضِ بِحُورَةٍ بَكْلٌ جَدِيدِ المَاءِ عَذْبُ المَوَارِدِ
إِذَا رَاوَحَتْهَا مُزْنَةٌ بَكَرَتْ لَهَا شَأْبِيبٌ مَجْتَازٌ عَلَيْهَا وَقَاصِدِ
كَأَنَّ يَدَ الفَتْحِ بنِ خَاقَانَ أَقْبَلَتْ تَلِيهَا بِتِلْكَ البَارِقَاتِ الرِّوَاعِدِ

(1) - أبو حازم القرطاجني . منهاج البلغاء وسراج الأدباء . ص: 319 . ص: 320 .

(2) - المصدر نفسه . ص: 321 .

(3) - المصدر نفسه . ص: 322 .

(4) - الجلي، شهاب الدين محمود. حسن التوصل إلى صناعة الترسيل، تحقيق: أكرم عثمان يوسف . (د.ط). دار الرشيد، بغداد، 1980م. ص: 254. والأبيات في ديوان البحرني بشرح : إيمان البقاعي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، 1422هـ/2001م، ج1، ص: 206 .

وورد في(معجم المصطلحات البلاغية وتطورها) ذكر عدد من التسميات المختلفة لمصطلح(التخلص)وهي: (الخروج) و (حسن الخروج) و (التخليص)و(لمخلص) وبراعة (التخلص) و (حسن التخلص) وختم الحديث عن هذا المصطلح بقوله:« وهو من حسن الكلام، وأحد دعائم الارتباط بين أجزاء القصيدة أو الخطبة أو الرسالة، أو غير ذلك من الفنون»(1) .

2- نماذج لتخلص عند لسان الدين ابن الخطيب وابن جابر:

لقد أحسن الشعراء في التخلص من موضوع المقدمة إلى الغرض الرئيس من القصيدة، فكان الانتقال بصورة شديدة الإحكام، واضحة المعالم، متزنة، لا يعتريها نبو أو ثقل ويكون جميع كلامه "الشاعر" كأنما أفرغ إفراغا، وذلك مما يدل على حذق الشاعر، وقوة تصرفه، شأنه في ذلك شأن الفحول ن الشعراء، بيد أن ما يميز القصيدة المديحية وجود موضعين للتخلص:

أولهما: التخلص من المقدمة إلى المديح النبوي.

ثانيهما: التخلص من المديح النبوي إلى مديح السلطان الذي أحيأ احتفال ليلة الميلاد.

1-التخلص من المقدمة إلى المديح النبوي:

اعتاد شعراء المولد النبوي التخلص من المقدمة إلى المديح النبوي، باستحضار مشهد الرحلة في القصيدة العربية القديمة، التي تمنى الشعراء أن يعيشوها بجميع تفصيلاتها ، وشديد متاعبها ومعاناتها، بيد أن رحلة الشعراء في هذه القصائد هي رحلة إلى الديار المقدسة، لأداء فريضة الحج وزيارة الضريح النبوي الشريف؛ إذ إن الحديث عن الرحلة يعد تعبيراً عن نقطة انطلاق تهيئ في القصيدة حركة باتجاه موضوعها والباعث الرئيس لها؛ فالشاعر يشده منظر الحجيج وهم منطلقون لأداء هذه الفريضة، تاركين الشاعر للوعته وحسرتة، لما يولده في نفسه من مشاعر الضيق والألم؛ لأن رحلة الحجيج وما تحركه من عواطف دينية جياشة، تؤجج هذه الشاعر التي يحسها الشاعر، فتصبح أكثر تدققاً، وتعطي زخماً لعاطفته المتوهجة؛ إذ ليس بمقدور الشعراء الوصول إلى الأماكن التي درج عليها الرسول الكريم، واكتسبت بسببه قيمة سامية .

(1)-أحمد مطلوب. معجم المصطلحات البلاغية وتطورها.(د. ط)،المجمع العلمي، بغداد،1403هـ/1983م

قال ابن الخطيب:

وَرَكَابٍ سَرَوَا وَقَدْ شَمِلَ اللَّيْلُ	بِمَسْحِ الدُّجَى جَمِيعَ النَّوَاحِي
وَكَانَ الظَّلَامَ عَسْكَرُ زَنْجٍ	وَنَجُومَ الدُّجَى نُصُولُ الرَّمَا حِ
حَمَلَتْ مِنْهُمْ ظُهُورَ المَطَايَا	أَي جِدِّ بَحْتٍ، وَعَزْمِ صَرَا حِ
سَتَرُوا الْوُجْدَ وَهُوَ نَارٌ وَكَانَ السِّتْرُ	يُجْدِي لَوْلَا هُبُوبِ الرِّ
خَلْفُونِي مِنْ بَعْدِهِمْ نَاكِسَ الطَّرْفِ	ثَقِيلِ الخُطَا مَهِيضًا جَنَاحِي
وَحَدَوَهَا مِثْلَ القِيسِيِّ ضُمُورًا	قَدْ بَرَتْ مِنْهُمْ سِهَامَ قِدَا حِ
وَطَوَّوْا طَوَّعَ لَاعِجِ الشُّوقِ وَالْوُجْدِ	إِلَى الْأَبْطَحِي غَبْرَ الْبِطَا حِ
مُصْطَفَى الْكَوْنِ مِنْ ظُهُورِ النَّبِيِّينَ	هُدَاةِ الْأَنَامِ سُبُلَ الْفَلَا حِ (1)

فإن رؤية منظر قوافل الحجيج وهي ذاهبة إلى زيارة ضريح النبي أعطت زخماً قويا لعاطفة الشاعر المتوهجة؛ إذ لم يكن باستطاعته مرافقة هذه القوافل، وزوار البيت الحرام للتشرف بزيارة الديار المقدسة؛ فتهيج عاطفته وشاعريته.

ومن الناحية الفنية تعدّ الناقاة أداة تواصل بين مقدمة القصيدة وموضوعها، ومثل ذلك

قال لسان الدين:

يا هل يُبَلِّغُنِي السُّرَى خَيْرَ الْوَرَى	فَأرى معَاهِدَ للهُدَى ورُسُومَا
وَأَسَابِقُ الرِّكْبَانَ فَوْقَ نَجِيبةِ	تَفْرِي مِنَ الْبَيْدِ الْعِرَاضِ أَدِيمَا
وَاحْطُ رَحْلِي فِي كَرِيمِ جَوَارِهِ	أَرْجُو نَعِيمًا فِي الْجَنَانِ مَقِيمًا (2)

ولعلّ السبب في ورود هذا المشهد الشعري هو تهيئة المناخ النفسي الذي ينطلق من خلاله الشاعر إلى الباعث الحقيقي للنص وهو المديح النبوي؛ لما يرمز إليه هذا المشهد من البحث عن الوسيلة التي توصل الشاعر إلى الأمان وطوق النجاة، فالرحلة في القصيدة المولدية هي ارتحالٌ تعويضي عبر فضاء القصيدة في الزمان والمكان من الواقع المأزوم الذي يثير الفزع والخوف، إلى الأنموذج المتشكّل في الوعي الجمعي الذي يتجسّد فيه الأمان والخلاص؛ لما في ذلك من طاقة إيحائية متحرّكة، وشاعرية متدفّقة، يزيد بها توهّجاً تتناغمها مع العناصر الأخرى المشكّلة للنص .

(1) - لسان الدين ابن الخطيب . ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . صص: 390-391 .

(2) - المصدر نفسه . ص: 582 .

2- التلخيص من المديح النبوي إلى المديح السياسي :

يتخلص الشاعر من المديح النبوي إلى المديح السياسي بعد أن يستوفي ذكر معجزات الرسول -صلى الله عليه وسلم- وفضائله وصفاته، ويجعلها سبباً لمديح السلطان، وتبدو براعة الشاعر في أن هذا المديح يبدو جزءاً من المديح النبوي، فيكون الانتقال من المديح النبوي إلى مديح السلطان سلساً ومتربطاً . قال ابن الخطيب :

إمامٌ عدلٌ بتقوى الله مشتمل في الأمر والنهي يرضيه يراقبه
يا خير مَنْ خلصت لله نيته في الملك أو خطبَ العلياء خاطبه
فَلْيَهِنُ دِينُ الْهَدَى إِذْ كُنْتَ نَاصِرَهُ أَمِنْ يَوَالِيهِ أَوْ خَوْفِ يَجَانِبِهِ (1)

وبذلك فقد أحسن الشاعر ربط المقدمة بالعرض، فبدأت المقدمة متلاحمة مع الغرض، وقد عبر الحموي عن ذلك التلاحم في القصائد فقال: « حسن التلخيص هو أن يستطرد الشاعر المتمكن من معنى إلى معنى لآخر يتعلق بممدوحه بتلخيص سهل يختلسه اختلاسا رشيقا دقيق المعنى بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع في الثاني، لشدة الممازجة والالتئام بينهما، حتى كأنهما أفرغا في قالب واحد وقد اعتنى المتأخرون دون العرب، ومن جرى مجراهم من المخضرمين بحسن التلخيص» (2) .
بالإضافة إلى ذلك فقد هذا ابن جابر حذو لسان الدين، حين استعمل « سل » للانتقال إلى غرض آخر في البيت التالي:

سَلِ الْأَيَّامَ عَنْ عَمٍّ وَخَالٍ وَمَالِكَ وَالسُّوَالِ وَقَدْ عَلِمْتَا (3)

وفي بيت آخر:

وَدَعَهَا وَلَا تَجْذِبْ إِلَيْكَ زَمَامَهَا فَقَدْ حَثَّهَا شَوْقٌ كَفَّاهَا عَنِ الْجَذْبِ (4)

حيث اعتمد على « دعها »

(1) - لسان الدين ابن الخطيب . ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . صص:655.

(2) - ابن حجة الحموي ، خزنة الأدب وغاية الأرب، ج1، ص :185.

(3) - ابن جابر . ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين . صص:99.

(4) - المصدر نفسه . ص:72.

وفي موضع آخر يقول:

دَعَهَا فَإِنَّ الشُّوقَ يَجْذِبُهَا إِلَى تِلْكَ الدِّيَارِ وَإِنْ يَكُنْ لَيْلٌ سَجَاً⁽¹⁾
حيث اعتمد على فعل الأمر «دعها»

ويكون ابن جابر قد أحسن التلخيص في البيتين التاليين:

وَسَلْ عَنْهُ إِنْ وَافَيْتَ سَلْعًا فَإِنَّهُ كَرِيمٌ إِذَا مَا الْغَيْثُ يَمْنَعُ يَمْنَحُ
وَسَلْ مَا حَيَّيْتَ الْقَرْبَ مِنْهُ وَلَا يَكُنْ لِسُعْدِي وَلَا سَلْمَى بِقَلْبِكَ مَطْمَحُ
سَلِ الْمَنَازِلَ مِنْ بَغْدَادَ مَا فَعَلْتَ تِلْكَ الْوَجُوهُ وَهَلْ لِلْقَوْمِ مِنْ أَثَرِ⁽²⁾
مكررا فعل الأمر «سل»

(1)- ابن جابر. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين . ص:121.

(2)- المصدر نفسه . ص:139.

هـ- حسن الختام أو المقطع

- التعريف بالمصطلح وتطوره:

الختام في اللغة: انتهاء الشيء وآخره، ففي (لسان العرب المحيط): « ختام كل مشروب: آخره، وفي التتريل العزيز (ختامه مسك): أي آخره، لأن آخر ما يجدونه رائحة . المسك ... وختام الوادي: أقصاه، وختام القوم وختامهم: آخرهم»⁽¹⁾ .

وفي الاصطلاح لا يختلف عن هذه الدلالة، إذا المقصود من (حسن الختام) عناية الناظم أو الناثر بخاتمة كلامهما، فيجتهدا ليحسنا فيه غاية الإحسان ، لكونه آخر ما يتلقاه السمع، وبناء على هذه الدلالة، حرص أكثر البلاغيين المهتمين بالبديع ببحث هذا الفن في آخر الفنون البديعية، و جعلوه خاتمة كتبهم، وآخر حديثهم، ففي (خزانة الأدب وغاية الأرب) لابن حجة الحموي، وهو في الأصل شرح لبديعيته، فكان لا بد من تناول (حسن الختام) في آخر الكتاب، لأنه ورد في آخر بيت (من أبيات البديعية التي تشير إلى الأنواع البديعية وعددها في بديعيته مائة واثنان وأربعون نوعا، آخرها قوله:

حُسْنُ ابْتِدَائِي بِهِ أَرْجُو التَّخْلُصَ مِنْ نَارِ الْجَحِيمِ وَهَذَا حُسْنُ مُخْتَمِي

وقد جعل العنوان لهذا الموضوع (ذكر حسن الختام) وقال عنه: «وهذا النوع الذي يجب على الناظم والناثر أن يجعلاه خاتمة لكلامهما، مع أنهما لا بد أن يحسنا فيه غاية الإحسان، فإنه آخر ما يبقى في الإسماع، وربما حفظ من دون سائر الكلام في غالب الأحوال، فلا يحسن السكوت على غيره»⁽²⁾ .

وذكر ابن أبي الإصبع المصري هذا النوع البديعي في آخر كتابه (تحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن) وخصه بباب مستقل سماه (باب حسن الخاتمة) بدأه بقوله: « يجب على الشاعر والناثر أن يختما كلامهما بأحسن خاتمة، فإنها آخر ما يبقى في الأسماع، ولأنها ربما حفظت من دون سائر الكلام في غالب الأحوال، فيجب أن يجتهد في رشاقتها ونضجها وحلاوتها وجزالتها»⁽³⁾ .

وأورد لذلك عددا من الأمثلة نثرا و شعرا، وقد أمم شواهد الشعرية قوله: «وأما

(1) - ينظر: ابن منظور. لسان العرب، ج 1. مادة (ختم) . صص: 790-791 .

(2) - ابن حجة الحموي، خزانة الأدب، ج 2، ص: 493 .

(3) - ابن أبي الإصبع. تحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن . ص: 616.

حسن الخاتمة في الشعر فقليل في أشعار المتقدمين، وأكثر ما عني بذلك المحدثون»⁽¹⁾.
وصدر شواهد بقول أبي نواس في خاتمة قصيدة له مدح بها الأمين وهو قوله:

فَبَقِيَتْ لِلْعِلْمِ الَّذِي تَهْدِي بِهِ وَتَفَاعَسَتْ عَنْ يَوْمِكَ الْأَيَّامُ⁽²⁾

ولمصطلح (حسن الختام) مسميات كثيرة مرادفة له عند البلاغيين ومن أشهر هذه التسميات: (الانتهاء، والمقطع، والقطع، وبراعة المقطع، وجودة القطع، وحسن الختام) و«كلها فن واحد الهدف منه أن يحرك النفس عند ختام القصيدة أو الكلمة ليبقى أثرها عالقا بالنفوس»⁽³⁾. وأياً كان المسمى لهذا المصطلح فهو موضع اهتمام لدى أهل البيان ومعدود عندهم من محسنات الكلام وهي (براعة الاستهلال والتخلص وحسن الخاتمة).

ومن الإشارات الأولى لهذا المصطلح، ما نقله الجاحظ (ت: 255هـ) عن شبيب بن شيبه بن عبد الله بن الأهم في البيان والتبيين يقول: «حدثني صالح بن خاقان، قال: قال شبيب بن شيبه: الناس موكلون بتفضيل جودة الابتداء، وبمدح صاحبه، وأنا موكل بتفضيل جودة القطع، وبمدح صاحبه»⁽⁴⁾.

وورد مصطلح (الخاتمة) في كتاب (الوساطة بين المتبني وخصومه) للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني (ت: 392هـ) حين قال: «والشاعر الحاذق يجتهد في تحسين الاستهلال والتخلص وبعدهما الخاتمة، فإنها المواقف التي تستعطف أسماع الحضور و تستميلهم إلى الإصغاء»⁽⁵⁾.

وسماه أبو هلال العسكري (المقطع) فقال: «والمقطع: آخر ما يبقى في النفس من قولك»⁽⁶⁾.

وذكر أبو هلال عددا من الأمثلة وقال في تعقيبه على بعضها «وقلما رأينا بليغا إلا وهو

(1)- ابن أبي الإصبع. تحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن . ص: 618 .

(2)- المصدر نفسه . ص : 618 .

(3)- أحمد مطلوب . معجم المصطلحات البلاغية وتطورها . ص : 329 .

(4)- الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر . البيان و التبيين، تحقيق :عبد السلام هارون ، ج1. ط4. دار الفكر، بيروت، (د.ت). ص : 48.

(5)- الجرجاني، القاضي علي بن عبد العزيز. الوساطة بين المتبني وخصومه، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، وعلي محمد البجاوي.(د. ط). المكتبة العصرية، بيروت، (د.ت). ص: 48 .

(6)- أبو هلال العسكري. كتاب الصناعتين . ص: 494 .

يقطع كلامه على معنى بديع، أو لفظ حسن رشيق»⁽¹⁾ وقال في موطن آخر: « فينبغي أن يكون آخر بيت في قصيدتك أجود بيت فيها، وأدخل في المعنى الذي قصدت . له في نظمها»⁽²⁾ .

ومن الأمثلة التي ذكرها لجودة المقطع قول ابن الزعري في ختام قصيدة له، وقد كان قدمها بين يدي النبي صلى الله عليه و آله وسلم ليعتذر منه ويستعطفه، فقال:

فَخَذِ الْفَضِيلَةَ َعَنْ ذُنُوبٍ قَدْ خَلَتْ وَأَقْبَلِ تَضَرُّعَ مُسْتَضِيفٍ تَائِبٍ

يقول أبو هلال: « فجعل نفسه مستضيفا، ومن حق المستضيف أن يضاف، و إذا أضيف فمن حقه أن يسان، وذكر تضرعه وتوبته مما سلف، و جعل العفو عنه مع هذه الأحوال فضيلة، فجمع في هذا البيت جميع ما يحتاج إليه في طلب العفو»⁽³⁾ .

وسماه ابن رشيق القيرواني(ت:456هـ) (الانتهاء) فقال: « وأما الانتهاء فهو قاعدة القصيدة، وآخر ما يبقى منها في الأسماع، وسبيله أن يكون محكما، لا تمكن الزيادة عليه، ولا يأتي بعده أحسن منه، وإذا كان أول الشعر مفتاحا له، ووجب أن يكون الآخر قفلا عليه»⁽⁴⁾. والغريب، أن ابن رشيق جاء بما ينقض هذا القول الذي استهل به الحديث عن مصطلح(الانتهاء)، فلا يشترط أن يكون الانتهاء قاعدة القصيدة ولا قفلا لها، وبعد ذلك محمودا، فيقول: « ومن العرب من يختم القصيدة فيقطعها والنفس بها متعلقة، وفيها رغبة مشتهية، ويبقى الكلام مبتورا كأنه يتعمد جعله خاتمة، كل ذلك رغبة في أخذ العفو وإسقاط الكلفة، ألا ترى معلقة امرئ القيس كيف ختمها بقوله يصف السيل عن شدة المطر:

كَأَنَّ السَّبَّاعَ فِيهِ عَرَقِي غُدِيَّةً بِأَرْجَائِهِ الْقُصْوَى أَنَابِيَشُ عُصْلٍ⁽⁵⁾

فلم يجعل لها قاعدة كما فعل غيره من أصحاب المعلقات، وهي أفضلها»⁽⁶⁾

(1)- أبو هلال العسكري . كتاب الصنائع . ص:502.

(2)- المصدر نفسه . ص : 503 .

(3)- المصدر نفسه . ص : 503 .

(4)- ابن رشيق القيرواني . العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج1 . ص : 239 .

(5)- المصدر نفسه . صص:240-241 . والأنايبش: العروق، سميت بذلك لأنها تنبش أي تخرج من تحت

الأرض، والعنصل: بوزن قنفذ وجندب، يصل بري يعمل منه خل شديد الحموضة.

(6)- المصدر السابق . صص: 240-241.

ويزعم ابن رشيق أن الحذاق من الشعراء يكرهون أن يكون ختام القصيدة بالدعاء، لأنه دلالة على الضعف وبسنتني القوائد الموجهة إلى الملوك، لأنهم يشتهون ذلك⁽¹⁾، ولا أدري على أي مستند اعتمد صاحب العمدة في هذا القول ولم يكون ختام القصيدة الموجهة لغير الملوك بالدعاء مكروها، وللملوك مستحسنا؟ وقد اتفق الجميع على أن الحسن والكمال في خواتيم سور القرآن إنما يكمن في كون انتهائها إما بالدعاء، أو بالفرائض، أو بالوصايا أو بالتحميد و التهليل، يقول ابن أبي الإصبع المصري: «وجميع خواتم السور الفرقانية في غاية الحسن ونهاية الكمال، لأنها بين أدعية ووصايا وفرائض وتحميد وتهليل، إلى غير ذلك من الخواتم التي لا يبقى في النفوس بعد ها تطلع و لا تشوف إلى ما يقال، كالدعاء الذي ختمت به سورة البقرة...»⁽²⁾.

وما أظن أن هناك ختاماً مستحسناً في (الرتاء) أفضل من الدعاء للميت، يستوي في ذلك الملك وغيره وقد ختم جرير- هو الشاعر المفلق- قصيدته في رثاء المرار بن عبد الرحمن بقوله:

لَمَّا عَدُّوا بِأَعْرَ أَرْوَعَ مَا جَدَّ كَالْبُدْرِ تَسْتَقِي بِهِ الْأَمْطَارُ
كَادَتْ تَقَطُّعُ عِنْدَ ذَلِكَ حَسْرَةً نَفْسِي وَقَدْ بَعْدَ الْغَدَاةِ مَزَارُ
صَلَّى إِلَاهُ عَلَيْكَ مِنْ ذِي حَفْرَةٍ خَلَّتِ الدِّيَارُ لَهُ فَهِنَّ قَفَارُ
وَسَقَاكَ مِنْ نُوءِ الثَّرِيَاءِ عَارِضٌ تَنْهَلُ مِنْهُ دِيْمَةٌ مِدْرَارُ⁽³⁾

وهل ختام هذه القصيدة بالدعاء مما لا يستحسن الختام به؟ وختم محمد بن كعب بن سعد الفتوي- شاعر إسلامي- قصيدته في رثاء أخيه أبي المغوار بقوله:

سَقَى كُلَّ ذِي كَرٍّ جَاءَنَا مِنْ مُؤَمِّلٍ عَلَى النَّائِي زَحَافُ السَّحَابِ سَكُوبُ⁽⁴⁾

والشواهد في هذا الباب كثيرة لا تحصى، وللقرطاجني(ت:684هـ) رأي صريح —

(1)- ابن رشيق القيرواني . العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج1 . ص : 241 .

(2)- ابن أبي الإصبع . تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن . ص: 620 .

(3)- الشيخ غدير . ديوان جرير . ط 1 . مؤسسة الأعلمي، بيروت، 1420هـ-1999م. ص: 167

وجرير من مشاهير شعراء العصر الأموي من قبيلة تميم مات سنة 114هـ، اشتهر في هجائه للفرزدق و الأخطل، ولد ومات في منطقة اليمامة .

(4)- القرشي، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب، جمهرة أشعار العرب في الجاهلية و الإسلام تحقيق: علي محمد البجاوي. نهضة مصر، القاهرة، (د.ت). ص: 564 .

في ذلك، يؤكد فيه على ملائمة الدعاء للممدوح بالسعادة ودوام النعمة و النصر على العدو لاختتام القصائد فيقول: « فأما المديح المتخلص إليه من نسيب، فالوجه أن يصدر بتعديد فضائل الممدوح، وأن يتلى ذلك بتعديد مواطن بأسه وكرمه، وذكر أيامه في أعدائهم، وإذا كان للممدوح سلف حسن، تشفع ذكر مآثره بذكر مآثرهم، ثم يختتم بالتيمن للممدوح و الدعاء له بالسعادة و دوام النعمة والظهور على الأعداء وما ناسب ذلك»⁽¹⁾.

وقد نبه القرطاجني إلى ضرورة أن يكون (الختام) حسنا ملائما للغرض الذي قيلت فيه القصيدة فقال: « فأما الاختتام فينبغي أن يكون بمعان سارة فيما قصد به التهاني والمديح، وبمعان مؤسسية فيما قصد به التعازي والرتاء، وكذلك يكون الاختتام في كل غرض بما يناسبه، وينبغي أن يكون اللفظ فيه مستعذبا، والتأليف جزلا متناسبا، فإن النفس عند منقطع الكلام تكون متفرغة لتفقد ما وقع فيه غير مشغلة باستئناف شيء آخر»⁽²⁾.

وسماه الخطيب القزويني (ت: 739هـ) (الانتهاء)، و جعله ثالث المواطن التي ينبغي على المتكلم أن يتأنق فيها وهي الابتداء، والتخلص، والانتهاء، وقال عن ضرورة التأنق في الانتهاء: « لأنه آخر ما يعيه السمع ويرتسم في النفس،... وربما أنسى محاسن ما قبله»⁽³⁾.
ومن الأمثلة التي ذكرها لأحسن الانتهاء قول الشاعر - وينسب للمعري -:

بَقَيْتُ بُقَاءَ الدَّهْرِ يَا كَهْفَ أَهْلِهِ وَ هَذَا دُعَاءٌ لِلْبِرِّيَّةِ شَامِلٌ

وقول المتنبني أيضا في بعض قصائده السيفيات:

فَلَا حَطَّتْ لَكَ الْهَيْجَاءُ سَرَجًا وَلَا ذَاقَتْ لَكَ الدُّنْيَا فِرْقًا⁽⁴⁾

وفي حديث يحيى بن حمزة العلوي (ت: 749هـ) عن أنواع البديع المتعلقة بالفصاحة المعنوية، وقد ذكر لها خمسة وثلاثين صنفا، جعل الصنف الرابع والثلاثين منها في (الاختتام) وقال فيه: « ينبغي لكل بليغ أن يختم كلامه في أي مقصد كان بأحسن الخواتم، فإنها آخر ما يبقى على الأسماع، وربما حفظت من بين سائر الكلام لقرب العهد بها، فلا جرم وقع الاجتهاد في رشاققتها وحلاوتها، وفي قوتها وجزالتها، وينبغي تضمينها معنى

(1) - أبو حازم القرطاجني . منهاج البلغاء وسراج الأدباء . ص: 305 .

(2) - المصدر نفسه . ص: 306 .

(3) - القزويني . الإيضاح في علوم البلاغة : المعاني والبيان والبديع . ص: 244 .

(4) - المصدر نفسه . ص: 244 .

تاما يؤذن السامع بأنه الغاية و المقصد والنهاية» (1).

وأكد العلوي على أهمية (حسن الختام) بإيراد بعض الأحاديث الشريفة ومنها قوله عليه الصلاة والسلام: «ملاك العمل خواتمه» وقوله صلى الله عليه وسلم «إنما الأعمال بخواتيمها» ثم قال: «فالخاتمة في كل شيء هي العمدة في محاسنه، والغاية في كماله، فأما المتقدمون من الشعراء كامرئ القيس، والنابغة، وطرفة، وغيرهم من شعراء الجاهلية فليس لهم فيه كل الإجادة، وإنما الذي أجاد فيه المتأخرون، كأبي نواس، والمنتبي، والبحتري، وأبي تمام» (2). ومن شواهد الشعرية لذلك قول المنتبي:

قَدْ شَرَّفَ اللَّهُ أَرْضَ أَنْتَ سَاكِنُهَا وَ شَرَّفَ النَّاسَ إِذْ سِوَاكَ إِنْسَانًا

وبعد إيراده لهذا الشاهد، علق عليه بقوله: «فهذه الخاتمة إذا قرعت سمع السامع عرف بها أن لا مطمع وراءها، ولا غاية بعدها، وهي الغاية المقصودة، والبغية المطلوبة، و بها يعلم انتهاء الكلام وقطعه» (3). و أشار العلوي إلى أن إيدان الشاعر بإنهاء قصيدته في ختامها دليل على حسن الخاتمة وكمالها، وتلك الإشارة ظاهرة في قوله: «وغاية حسن الخاتمة أن يعرف السامع انقضاء القصيدة وكمالها، فهذه علامة حسنها ورونقها» (4) وذكر سعد الدين التفتازاني (ت791هـ) في كتابه (المطول في شرح تلخيص المفتاح) أنه لا يستحق شاعرا كان أو ناثرا أن يوصف بالبلاغة ما لم يوجه عناية إلى (حسن الختام) فقال: «فيجب على البليغ أن يختم كلامه شعرا كان أو خطبة أو رسالة بأحسن خاتمة لأنه آخر ما يعيه السمع، ويرتسم في النفس، فإن كان مختارًا حسنا تلقاه السمع واستلذه حتى جبر ما وقع فيما سبق من التقصير، كالطعام اللذيذ الذي يتناول بعد الأظعمة التقهة، وإن كان بخلاف ذلك، كان على العكس حتى ربما أنساه المحاسن الموردة فيما سبق» (5).

ثم نبه بعد ذلك إلى عناية المتأخرين بهذا الفن دون المتقدمين، كما أشار إلى بعض

(1) - العلوي . الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ج3. ص: 183.

(2) - المصدر نفسه . ص: 183 .

(3) - المصدر نفسه . صص: 185-186 .

(4) - المصدر نفسه ، ج 3 . ص: 186 .

(5) - التفتازاني، سعد الدين مسعود، كتاب المطول في شرح تلخيص المفتاح . مكتبة آية الله العظمى المرعشي .

النجفي، قم ، إيران، 1407هـ . ص: 481 .

المصطلحات المرادفة لـ (حسن الختام) فقال: « وقد قلت عناية المتقدمين بهذا النوع، والمتأخرون يجتهدون في رعايته، ويسمونه: (حسن المقطع) و براعة (المقطع)» (1) .
وتكتفي الدراسة بهذا السرد التاريخي لمصطلح حسن الختام لتنتقل إلى الجزء التطبيقي الخاص بحسن الختام في شعر لسان الدين وابن جابر .

يقول ابن الخطيب من قصيدة مديحية، عذبة الألفاظ، موسيقية النغم، لا تدع القارئ ينفلت منها، أو يختار بعضها، أو يتوقف دون نهايتها. وهي واضحة المعاني، لا تحتاج إلى شرح

أدراها بينَ مزمَارٍ وَعُودٍ	وَدُونِكَ فَاعْتَمِمْ رَمَنَ السَّعُودِ
وَحُذَّهَا وَالْبَلَابِلُ فِي خَصَامِ	وَجَنُحُ الصَّبْحِ مَلْتَهَبُ الْوُقُودِ
عَرَائِسُ فِي حَلَى الكَاسَاتِ تَجَلَى	موردة الترائبِ والخُدودِ
خَطْبَانَهَا وَكَانَ الأَنَسُ مَهْرًا	وَأَلْحَانُ القِيَانِ مِنَ الشُّهُودِ
شُمُوسًا كَلَّمَا غَرِبَتْ وَوَلَا حَتَّ	عَلَى الأَفْوَاهِ تَطْلُعُ فِي الخُرُودِ
وَفَاتِنَةُ اللِّحَاطِ إِذَا تَثَنَّتْ	رَأَيْتَ الغَصْنَ يَمْرُخُ فِي البُرُودِ
غَزَالَةً رِبْرَتْ وَ مَهَاءُ قَفْرِ	تَعُودُ طَرْفَهَا صَيْدَ الأَسُودِ
فَتَمْرُضُهَا بِأَلْحَانِ مَرَاضِ	وَتَسَهَّرُهَا بِأَجْفَانِ رُقُودِ
أَقُولُ لَصَاحِبِي وَالرَّاحُ تَجْرِي	وَوَرْدُ الأَنَسِ مَبْذُولُ الوُرُودِ
وَقَدَّ مَاسَتْ غِصُونَ البَانِ سَكْرًا	مَنْ الأَوْرَاقِ فِي خَضِرِ البُرُودِ
تَهْزُ يَدَ النِّسِيمِ الطَّلِ فِيهَا	فَتَحْسِبُهَا وَوَلَانْدُ فِي مَهُودِ
وَإِنْ قَامَ الغَمَامُ بِهَا خَطِيبًا	تَرَى الإِبْرِيْقَ يَسْرَعُ فِي السُّجُودِ
جَنَانٌ بَيْنَهُنَّ الحَوْرُ تَمْشِي	أَحَقًا هَذِهِ دَارُ الخُلُودِ؟(2)

ثم يختم القصيدة بمدح أبي الحجاج، في أربعة أبيات فقط، ويصفه، بمحي الدين بعد الخمود، وبصاحب الأيادي البيضاء، ومنتجع الوفود، ومنصور الجنود:

بأوبية يوسفَ رب الأيادي	ومحي الدين من بعد الخمود
وَدَانَ لَهُ الزَّمَانُ فَدَامَ فِيهِ	قَرِيرُ العَيْنِ مَنْصُورُ الجُنُودِ(3)

(1) - التفاتزاني . كتاب المطول في شرح تلخيص المفتاح . ص: 482 .

(2) - لسان الدين ابن الخطيب . ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . صص: 158-159 .

(3) - المصدر نفسه. ص : 159.

حيث نلمس نهاية القصيدة بانتهاء المديح النبوي، دون أن تتأثر بنية القصيدة من حيث اكتمال عناصرها.

وجاء مديح الغني بالله في آخر قصيدتين مولودتين، قالهما ابن الخطيب في عهده، أنشد الأولى في مولده عام 764هـ وتقع في 96 بيتاً، وبعد تعداد مناقب الرسول الكريم ومعجزاته، ينتقل إلى مدح «الغني بالله» ويصفه بالشجاعة والإقدام، والبذل، والعطاء، والإصلاح، والعدل، ونصرة الحق، ومهاجمة الأعداء في عقر دارهم بجياد مختالة لفرط مراحها، وجيوش مسلحة بالقنا وبيض الصفاح، مرسله النقع سحبا، تنشر الرحمة والخصب أينما حلت:

بِمَعَالِي مُحَمَّدٍ بِنِ أَبِي الْحَجَّاجِ لَيْثُ الْعَدَا وَغِيثُ السَّمَاحِ
 نَاصِرُ الْحَقِّ مَرْسَلُ النَّقَعِ سَحْبًا بَيْنَ سَمْرِ الْقَنَا وَبِيضِ الصَّفَاحِ
 وَمَزِيرُ الْجِيَادِ أَرْضُ الْأَعَادِي وَهِيَ مَخْتَالَةٌ لِفَرْطِ الْمَرَاكِ
 حَضَّ اللَّهُ مِنْكَ يَا قُوْتَةَ الْمَلِكِ وَيَنْبُوعَ الْعَدْلِ وَالْإِصْلَاحِ⁽¹⁾

والمديح الثاني جاء في آخر المولدية التي صدر بها ابن الخطيب رسالة كتبها عن الغني بالله إلى المقام النبوي الكريم.

وتقع في 54 بيتاً، وفيها يصف تشوقه وحنينه إلى الرسول، وأمانيه في الزيارة ورؤية الأماكن المقدسة، وأن الذي منعه من الوصول إليه، وتحقيق ما كانت نفسه تحن إليه، إنما هو نصر دينه، والدفاع عن أهله، وبلاده ويتوسل إليه أخيراً ويرجوه أت يقبل عذره، ولا ينسى رجاءه ودعاءه:

دَعَاكَ بِأَقْصَى الْمَغْرِبِينَ غَرِيبٌ وَأَنْتَ عَلَى بَعْدِ الْمَزَارِ قَرِيبٌ
 وَلَكِنَّكَ الْمُؤَلَّى الْجَوَادِ وَجَارُهُ عَلَى أَيِّ حَالٍ كَانَ لَيْسَ بِخَيْبٌ
 مَنَائِي لَوْ أُعْطِيتَ الْأَمَانِي زُورَةً بَيْتٌ غَرَامٌ عِنْدَهَا وَوَجِيبٌ
 بِنَصْرِكَ عَنكَ الشُّغْلُ مِنْ غَيْرِ مَنْةٍ وَهَلْ يَتَسَاوَى مَشْهُدٌ وَمَغِيبٌ
 فَعَدْرًا وَإِعْفَاءً وَلَا تَنْسَ صَارِحًا بَعْدَكَ يَرْجُو أَنْ يَجِيبَ مَجِيبٌ
 وَجَاهُكَ بَعْدَ اللَّهِ نَرْجُو وَإِنَّهُ لِحَظِّ مَلِيٍّ بِالْوَفَاءِ رَغِيبٌ⁽²⁾

(1) - لسان الدين ابن الخطيب . ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . صص: 147-148 .

(2) - المصدر نفسه . ص: 148.

أما ابن جابر فقد أنهى معظم مدائحه النبوية بالصلاة على النبي وعلى آله وصحابته، والتي غدت تقليداً لدى كثير من شعراء المديح النبوي، وتفنن فيها تفنناً جميلاً، إذ عبر عن ديمومة صلاة الله على النبي بدوام سجع الحمائم على الأغصان، فقال:

صَلَّى عَلَيْكَ إِلَهَ الْعَرْشِ مَا سَجَعَتْ
وَرُقٌّ لَهْنٌ عَلَى الْأَغْصَانِ تَهْدِيلُ
أَزَكَى صَلَاةٍ تَعْمُ الْآلَ وَاصِلَةٌ
صَحْبًا هُمْ لِلوَرَى زَيْنٌ وَتَحْجِيلُ⁽¹⁾

وختم بعض مدائحه بالصلاة على النبي الكريم والرضى عن بعض الصحابة:

صَلَّى عَلَيْكَ إِلَهَ الْعَرْشِ مَا نَسَجَتْ
لَكَ الْمَدَائِحُ أَنْوَاعًا مِنْ الْخَلْلِ
وَالْآلِ وَالصَّخْبِ سَحْبِ الْجُودِ إِنْ سئَلُوا
وَبِالرَّضَى عَنْ أَبِي بَكْرٍ وَعَنْ عُمَرَ
خَتَمِي وَعَثْمَانَ ذِي النُّورَيْنِ ثُمَّ عَلِي⁽²⁾

ونورد مثالا آخر في قوله:

وَصَلَّى عَلَى هَذَا الرَّسُولِ وَآلِهِ
وَأَصْحَابِهِ مَا سَارَ رَكْبٌ لَهُ وَهَنَا
صَلَاةٍ أَمْرِي أَتَى عَلَيْهِمْ بِجُهِدِهِ
عَلَى آلِهِ حَقًّا وَأَصْحَابِهِ يُثْنِي⁽³⁾

فهو يصلي على الرسول صلى الله عليه وسلم وآله وأصحابه

كما يمكن الاستشهاد بالأبيات التالية التي تبين حسن الختام عند ابن جابر وهو الصلاة على النبي الكريم وآله وصحبه.

صَلَّى عَلَيْكَ اللَّهُ مَا نَشَرْتِ لَنَا
وَعَلَى صَحَابَتِكَ الَّذِينَ قَدْ اغْتَدُوا
أَيْدِي الصَّبَاحِ رِدَاءَهُ الْمَطْوِي
مِنْ ذُرْوَةِ الْعَلْيَاءِ فِي الْعُلُو⁽⁴⁾

وفي أخرى يقول:

صَلَّى إِلَاهُ عَلَى النَّبِيِّ الْمُجْتَبَى
وَعَلَى صَحَابَتِهِ الْأَلَى بِهِمْ عَلَتْ
مَا رَجَعَتْ فِي بَانَةٍ وَرَقَاءُ
فِي النَّاسِ هَذِي الْمَلَّةُ الْبَيْضَاءُ⁽⁵⁾

فالخاتمة هي ثالث مكونات الهيكل البنائي للمدحة، فقد استساغ الشعاران أن تكون عبارة عن مزيج ما بين الدعاء للممدوح والافتخار بقدرة الشاعر على نظم المدحة .

(1)- ابن جابر. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين . ص:436.

(2)-المصدر نفسه . صص:456-457 .

(3)-المصدر نفسه . ص: 530 .

(4)-المصدر نفسه . ص: 539 .

(5)-المصدر نفسه . ص: 28.

الفصل الرابع

البنية الفنية للقصيدة المديحية عند الشعاعين

المبحث الأول: المعجم الشعري

المبحث الثاني: مستوى التركيب

المبحث الثالث: بناء الصورة

لاشك أن الارتباط بين الشعر واللغة وثيق الصلة، فاللغة في مادة الشعر الأولية و«لعل الاستخدام الشعري للغة هو أقرب الاستخدامات من طبيعتها»⁽¹⁾ والشاعر المبدع هو من يستطيع أن يستغل إمكانات تلك المادة الأولية ويسخرها لبناء القصيدة لديه من حيث استدعاء الكلمات المختلفة والتراكيب المتنوعة، بوصفها تمثل تشكيلا لغويا للعمل الشعري، من هنا تأتي أهمية دراسة التشكيل اللغوي في المدحة عند ابن الخطيب وابن جابر من خلال مستويين:

الأول: مستوى المعجم .

الثاني: مستوى التركيب.

I- المعجم الشعري :

لعل الناظر إلى نتاج ابن الخطيب وابن جابر يجد أن الشعراء تمتعا بثروة لغوية هائلة، اتسمت بالتنوع والكثرة. فقد ألقى هذا الثراء اللغوي لدى الشعراء بظلاله على المعجم الشعري للمدحة لديهما، وهو معجم يبدو للوهلة الأولى معجما منوعا، دفعت بالشعراء إلى الاعتماد على الألفاظ القوية والفخمة، والركون إلى التعبيرات الجزلة، دون أن يجرفه ذلك إلى الاستعمال المفرط للغريب من الألفاظ، أو تبني التراكيب المعقدة، والذي ربما أودى بالمدحة إلى ضرب من الغموض وقد نجدهما أحيانا يميلان إلى التعبيرات المباشرة لكي يفهما كل من سمعها وهذا الأسلوب الذي انتهجه الشعراء في مدحتهما لم يكن نتيجة ضعف في ثقافتهما اللغوية، ولكنه ثمر حرص الشعراء توثيق علمهما الصلة بمجتمعهما والتناغم أو التجاوب مع زمنهما، «فباللغة بوصفها ترجمانا لكل فعل، أو المقابل اللفظي لكل موقف إنما تتكيف بحكم ما في طبيعتها من طواعية ومرونة وفقا لكل فعل ولكل موقف»⁽²⁾. فاللغة لا تعيش في عزلة عن الأمة، بل تتأثر بحضارتها «ونظمها، وتقاليدها، وعقائدها، واتجاهاتها العقلية، ودرجة ثقافتها، ونظرا إلى الحياة، وشؤونها الاجتماعية العامة وما إلى ذلك»⁽³⁾

(1)-مصطفى مندور. اللغة والحضارة. (د،ط). منشأة المعارف، الإسكندرية، 1974م، ص: 89 .

(2)- عز الدين اسماعيل. الشعر العربي المعاصر: قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية. ط3. دار الفكر العربي،

بيروت، 1981م. ص: 175 .

(3)- علي عبد الله وافي . اللغة والمجتمع . ط1. شركة ومكتبات عكاظ ، جدة ، 1983م . ص: 13.

ولمزيد من تسليط الضوء على معجم الشعاعين في المدحة سنقف عند خاصية اتسم بها المعجم لديهما، وهي تكرار بعض الألفاظ في شعرهما المدحي، وخاصة تلك الألفاظ التي تتواءم وطبيعة خطاب المدح الذي تسير في ركابه، فمن المعروف لدينا « أن لكل خطاب معجمه الخاص به، إذ للشعر الصوفي معجمه، وللمدحي معجمه... فالمعجم لهذا وسيلة للتمييز بين أنواع الخطاب وبين لغات الشعراء والعصور»⁽¹⁾.

1- الألفاظ والأساليب:

الألفاظ والعبارات هي أداة لنقل التجارب الشعرية، وهي أيضا أحد عناصر الأسلوب الرئيسية بعد الخيال والفكرة والعاطفة، فالشاعر يحرص على اختيار ألفاظه وتعابيره، ويحملها من الدلالات ما يريد. كما أن اختيار وتنسيق الشاعر لألفاظه وتراكيبه يعد أسلوبا من أساليبه.

وقد أولى النقاد القدامى والمحدثون عناية كبيرة بألفاظ الشاعر وتعابيره، وحرصوا على أن تكون اللفظة سهلة المخارج، فصيحة، وخالية من الغرابة، وتحمل من الدلالات ما يجعلها تؤثر في المتلقي.

فقدامة بن جعفر يشترط أن يكون اللفظ « سمحا، سهل المخارج من مواضعها، عليه رونق الفصاحة، مع الخلو من البشاعة...»⁽²⁾. ويرى الدكتور محمد مجيد السعيد أن الكلمة « يمكن أن تؤدي دورها في ترجمة جيشان العواطف الوجدانية، والتعبير عنها بصورة دقيقة تامة، ويساعدها بذلك ما تتمتع به من أبعاد نفسية وظلال موحية وهالة شفافه تشع عما تكنه من شحنات عاطفية وما تحتمله من دلالات انفعالية تجتذب إليها الشاعر، فتصدق التعبير عن نفسه وتؤثر في سامعيه»⁽³⁾.

ونظرة فاحصة لشعر المديح النبوي في القرن الثامن الهجري للشاعرين لسان الدين بن الخطيب وابن جابر تبين لنا أن ألفاظ الشعاعين جاءت سهلة، متممة بالوضوح، بعيدة عن الإغراب، والتعقيد، و الحوشية، منها ما امتاز بالجزالة، ومنها ما

(1) - محمد مفتاح. تحليل الخطاب الشعري: إستراتيجية التناص. ط3. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء وبيروت، 1992م، ص: 58.

(2) - قدامة بن جعفر. نقد الشعر، تحقيق: كمال مصطفى. ط3. كتبة الخانجي، القاهرة، 1978م. ص: 28.

(3) - محمد مجيد السعيد. الشعر في عصر المرابطين والموحدين. ط2. الدار البيضاء للموسوعات - بيروت، لبنان، 1985م. ص: 330.

امتاز بالرفعة، وقد وظفت هذه الألفاظ على تنوعها ضمن تجربة الحنين.

1-1- ألفاظ الشوق و الحنين المباشرة:

وظف الشاعران الكثير من الألفاظ التي صرحت بذكر الحنين، أو دلت عليه دلالة مباشرة من ألفاظ أخرى. وقد وردت لفظة (الحنين) و(الشوق) في أغلب نتاج الشعراء في هذه الفترة (القرن 8هـ)، وجاءت معبرة على عدة دلالات، من النبي وقبره ومدينته ومكة المكرمة، وغير ذلك .

أ- ابن جابر: نجد- مثلا- أن لفظتي (الحنين والشوق) قد وردتا في شعر في قصيدة يقول فيها :

لَا حَتَّ دِيَارُ الْحَبِيبِ لَيْلًا	فَأَنْسَتَ عَيْنُنَا ⁽¹⁾ اللَّقَاءَ
فَحَثَّهَا شَوْقُهَا فَبَاتَتْ	كَالْبَرْقِ فِي سَيْرِهَا مِضَاءَ
إِذَا رَعَتْ ⁽²⁾ تَحْتَنَا حَيْنَنَا	نُطِيلُ مِنْ فَوْقِهَا الْبُكَاءَ
لَا تَحْدُهَا ⁽³⁾ فِي الْفَلَا فَلَيْسَتْ	تَحْتَاجُ شَوْقًا وَلَا حُدَاءَ ⁽⁴⁾

ويقول أيضا:

رَحَلُوا فَكَيْفَ يَطِيبَ بَعْدُ ثَوَاءَ	أَمْ هَلْ لِدَاءِ الشَّوْقِ مِنْكَ دَوَاءُ
قَعَدَتْ بِكَ الْأَيَّامُ فَأَنْتَهَضَتْ بِهِمْ	هَمٌّ بِهَا تَتَمَسَّكُ الْجَوَازُءُ ⁽⁵⁾
قَوْمٌ تَضِيءُ مَعَ الدُّجَى عَرَمَاتُهُمْ	حَتَّى تُمِيطَ قَنَاعَهَا الظُّلْمَاءُ ⁽⁶⁾

وفي أخرى:

شَوْقٌ بِأَنْثَاءِ الضُّلُوعِ تَأَجَّجَا	طَرَدَ الْكَرَى عَن مَقْلَتِي وَأَزْعَجَا
مَا شَاقَنِي إِلَّا الْحَدَاةُ وَقَوْلُهُمْ	حُثُوا الْمَطَايَا وَالْبِسُوا فُصَّ الدُّجَى
ذُكِرَ النَّبِيُّ الْهَاشِمِيُّ فَلَمْ تَزَلْ	تَجْرِي الدَّمُوعُ تَشُوقًا وَتَهَيُّجَا
يَا سَائِقَ الْأَطْعَانِ شَأْنُكَ وَالسُّرَى	وَاطُوا الْمَنَاهِلَ مُسْحَرًا أَوْ مُدْلِجَا
وَارْفُقْ بِنَا فَالشُّوقُ مَنَا قَدْ بَرَى	مُهَجًا وَقَدْ شَكَتِ الْمَطِيُّ مِنَ الْوَجَا

(1) - إيلنا . (2) - صوتت. (3) - لا تغن لها.

(4) - ابن جابر . ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين أو الغين في مدح سيد الكونين . ص: 29.

(5) - هو برج في السماء، يضرب المثل بعلوه .

(6) - ابن جابر الأندلسي . ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين أو الغين في مدح سيد الكونين . ص: 23.

دَعَهَا فَإِنَّ الشَّوْقَ يَجْدِبُهَا إِلَى تِلْكَ الدِّيَارِ وَإِنْ يَكُنْ لَيْلٌ سَجَا
يَا أَيُّهَا الحَادِي وَشَوْقُكَ شَوْقُنَا سِرٌّ عَنِ يَمِينِ الوَادِيَيْنِ مُعْرَجًا⁽¹⁾

ونراه أيضا يصرح في أبيات أخرى بذكر الشوق إلى النبي الكريم.

إِلَيْكَ قَصَدْنَا لَا لِسَلْمَى وَلَا سَعْدَى وَأَنْتَ أَرَدْنَا لَا الْعَقِيْقَ وَلَا نَجْدَا
وَلَوْلَا اشْتِيَاقِي أَنْ أَرَكَ بِمَقْلَتِي لَمَا كُنْتُ أَشْتَأُقُ الأَرَكَ وَلَا الرُّنْدَا⁽²⁾

وبذكر ابن جابر معجزة من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم ألا وهي حنين الجذع إليه صلى الله عليه وسلم:

وَحَنَّ لَهُ الجِذْعُ الَّذِي لَيْسَ عَاقِلًا فَكَيْفَ يطِيقُ الصَّبْرَ مَنْ كَانَ عَاقِلًا⁽³⁾

وقد تتردد لفظتا (الشوق والحنين) معا في أبيات الشاعر، الأمر الذي يدل على حرصه على إظهار ما يكفه من لواجع الشوق والحنين، على نحو ما نرى في قوله:

أَعْنِي فَإِنَّ الشَّوْقَ أَعْظَمُ دَائِي أَمَا إِنَّ ذِكْرَ الهَاشِمِيِّ دَوَائِي
أَعِدْ لِي حَدِيثَ الجِزْعِ فَهُوَ شِفَائِي أَحِنُّ إِلَى مَنْ حَازَ كُلَّ وَفَاءِ
إِذَا أَسْرَعَ الحَادِي أَطْلُتُ بِكَائِي أَقُولُ لَهُ رَفْعًا عَلَى الضُّعْفَاءِ
أُحِبُّ مَقَامِي بِالحِمَى وَثَوَائِي أَوْدٌ وَلَكِنْ ذَاكَ عَنِّي نَائِي
إِذَا أُمَّ خَيْرِ العَالَمِينَ رَجَائِي فَمَا أَنَا أَحْشَى أَنْ تُخَيِّبَ أَمَالِي⁽⁴⁾

(1) - ابن جابر الأندلسي. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين أو الغين في مدح سيد الكونين. ص: 121.

(2) - المصدر نفسه . ص: 191.

(3) - المصدر نفسه . ص: 426.

(4) - المصدر نفسه . ص : 469 .

ب-لسان الدين بن الخطيب: تتردد لفظنا (الحنين والشوق) في أشعار لسان الدين بن الخطيب الذي يقول في قصيدته الدالية:

تَأَلَّقَ نَجْدِيًّا فَأَذْكَرَنِي نَجْدًا وَهَاجَ لِي الشُّوقَ الْمُبْرَحَ وَالْوَجْدَ دَعَا
عَزَمَاتِي وَالْمَطِيَّةَ وَ الْوَحْدَا وَالْأَفْكَفَا الشُّوقَ عَنِّي وَالْوَجْدَا
حَنَنْتُ إِلَى الْعَهْدِ الْقَدِيمِ الَّذِي قَضَى حَمِيدًا فَمَا أَغْنَى الْحَنِينَ وَلَا أَجْدَا
وَكَمْ قَدْ كَتَمْتُ الشُّوقَ لَوْلَا مَدَامِعُ يُرْوِي حَدِيثَهَا الْمَحَاجِرَ وَالْحَدَا
غَرِيبٌ بِأَفْصَى الْعَرَبِ طَالَ اشْتِيَافُهُ فَلَوْلَا تَعَلَّاتُ الْمُنَى لَقَضَى وَجْدًا⁽¹⁾

ويعيد لفظة(الشوق) في أبيات أخرى في قوله:

مَا عَلَى الْقَلْبِ بَعْدَكُمْ مِنْ جُنَاحِ أَنْ يُرَى طَائِرًا بَعِيرٍ جَنَاحِ
وَعَلَى الشُّوقِ أَنْ يَشَبَّ إِذَا هَبَّ بِأَنْفَسِكُمْ نَسِيمُ الصَّبَاحِ
وَطَوْوَا طَوْعَ لَاعِجِ الشُّوقِ وَالْوَجْدِ إِلَى الْأَبْطَحِيِّ غَبَرَ الْبَطَاحِ⁽²⁾

ويقول في بيت آخر:

فَتَهْدِي بِأَشْوَاقِي السَّرَاةُ إِذَا سَرَتْ وَتَحْدِي بِأَشْوَاقِي الرِّكَابِ إِذَا تُحْدِي⁽³⁾

وفي قوله أيضا في ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم :

دَعَا عَزَمَاتِي وَالْمَطِيَّةَ وَ الْوَحْدَا وَالْأَفْكَفَا الشُّوقَ عَنِّي وَالْوَجْدَا
وَكَمْ قَدْ كَتَمْتُ الشُّوقَ لَوْلَا مَدَامِعُ يُرْوِي حَدِيثَهَا الْمَحَاجِرَ وَالْحَدَا⁽⁴⁾

وفي قصيدة ميلادية أنشدها في عام سبعة وثلاثين وسبعمئة:

كَتَمْتُ اشْتِيَاقِي وَالنُّحُولُ يَنْمُ بِي كَأَنِّي أَحَلَّتْ الْكُتْمَ مِنِّي عَلَى جِسْمِ
إِذَا النَّفْسُ أُبْدَتْ فِيهِ صَنَا بِجِسْمِهِ تَقُولُ لَهَا الْأَشْوَاقُ: أَلْقِهِ فِي أَلِيمٍ⁽⁵⁾

وصرح كذلك في أبيات:

وَأَحْضُرُ تَغْلِيلاً لِشَوْقِي بِالْمُنَى وَيَطْرُقُ وَجْدٌ غَالِبٌ فَأَغِيبُ

(1)- لسان الدين بن الخطيب، مقدمة ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام .ص:480.

(2)- المصدر نفسه . صص :389-390.

(3)- المصدر نفسه . ص : 477.

(4)- المصدر نفسه . صص : 479-480.

(5)- المصدر نفسه . ص : 575.

فَقَوْلُ حَبِيبٍ إِذْ يَقُولُ تَشَوُّقًا عَسَى وَطَنٌ يَدُنُو إِلَيَّ حَبِيبُ
فَلَيْتَهُ لَيْلُ السَّلِيمِ وَيَوْمُهَا إِذَا شَدَّ لِلشُّوقِ العِصَابُ عَصِيبُ⁽¹⁾

وفي قصيدة ميلادية قال :

أَقَامَ يُعَانِي الشُّوقَ عَن قَدْرٍ وَمَنْ أَقَامَ عَلَى عُدْرِ كَمَنْ هُوَ رَائِحُ⁽²⁾

ونختم ببيت :

حَفُوقٌ إِذَا الشُّوقُ اسْتَجَاشَ كَتِيبَةً تَجُوسُ دِيَارَ الصَّبْرِ كَانَ لَهَا بِنْدًا⁽³⁾

وهكذا نجد أن لفظتي (الشوق والحنين) تتردد كثيرا عند الشعراء في تلك الفترة، عاكسة لنا حالة الإحباط التي كان يعيشها المجتمع الأندلسي .

(1) - لسان الدين بن الخطيب . مقدمة ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . صص : 323-324.

(2) - المصدر نفسه . ص : 367 .

(3) - المصدر نفسه . ص : 473 .

1-2- الألفاظ الدالة على الحنين:

وتأتي في المرتبة الثانية بعد الألفاظ المباشرة، حيث نجد ذلك الكم الهائل من الألفاظ الدالة على الحنين والشوق التي تتردد على ألسنة الشعراء في تلك الفترة في مدائحهم . من هذه الألفاظ [الشجن، والجوى، والوجد، والدموع، والأشجان، والفراق، والصبابة، والشكوى، والتلهف...]. وغيرها من الألفاظ التي تعكس وجدان الشعراء وأحاسيسهم. **أ- ابن جابر:** لقد ترددت هذه الألفاظ في أغلب قصائد ومقطوعات الشاعر، فقد تكررت في مدائحه، منها قوله:

فَالْقَلْبُ بَيْنَ مَشْرِقٍ وَمَغْرِبٍ
إِذَا ذَكَرْتُ الْغَرْبَ حَنَّتْ مُهْجَتِي
مُقَسَّمُ اللُّوعَةِ مَجْذُوبُ الْعُرَى
وَيْلَ دَمْعِي مِنْ جَوَى الشَّوْقِ الثَّرَى⁽¹⁾
فقد استعان بلفظتي (اللوعة و دمعي).
ويقول أيضا:

فَالْبُعْدُ عَنْ حُبِّكُمْ مَوْتُ وَقَرْبُكُمْ
كَمْ سَحَّ مِنْ دَمْعٍ مَشْتَاقٍ بِأَرْضِكُمْ
عَيْشٌ وَنَقْلُ الْخَطَى فِي قَصْدِكُمْ قُرْبُ
فَلَا تَبَالِي وَلَوْ شَحَّتْ لَهَا السَّحْبُ⁽²⁾
ويردد كذلك:

إِنِّي بِخَيْرِ الْعَالَمِينَ الْوَدُ
وَأَلَى دِيَارٍ حَلَّهِنَّ تَشْوُقِي
وَبِجَاهِهِ مِمَّا أَخَافُ أَعُوذُ
فَالْقَلْبُ بَعْدَ فِرَاقِهَا مَهْدُوذُ⁽³⁾
كما تبرز ألفاظ الشوق والبعد في أبياته هذه:

رَحَلَ الرَّكْبُ فَاسْتَتَارَ اشْتِيَاقِي
عَجَبٌ لِلْقُلُوبِ وَالْبَيْنِ صَعْبُ
مَا بَقِيَ بَعْدَ ذَا مِنَ الصَّبْرِ بَاقِي
كَيْفَ لَمْ تَنْصَدِعْ عُدَاةَ الْفِرَاقِ
قَدْ بَكَيْنَا إِذْ وَدَّعَ الرَّكْبُ حَتَّى
ضَاقَ عَن دَمْعِنَا مَجَالُ الْمَافِي
قَصَدُوا الْمُصْطَفَى وَ سَارُوا بِأَمْنٍ
أَسْفًا لِلْمُخْلَفِينَ الْبَوَاقِي⁽⁴⁾

فألفاظ (اشتياقي، البين، الفراق، دمعا) تؤكد صدق تجربة الحنين إلى الرسول الأعظم، وهي من الموضوعات التي تمحورت حولها قصائد المديح النبوي عند ابن جابر الأندلسي.

(1)- ابن جابر الأندلسي. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين . ص : 64.

(2)- المصدر نفسه . ص : 83 .

(3)- المصدر نفسه . ص : 205 .

(4)- المصدر نفسه . ص : 377 .

ب- ابن الخطيب :

ولا يختلف ابن الخطيب عن معاصره ابن جابر، فقد استعمل ألفاظا دالة على الحنين، للتعبير عن مقاومة الصراع الداخلي الذي يختلج في نفسه، وهو يمدح خير عباد الله. فقد قال في إحدى قصائده إلى الضريح النبوي :

وَمَا هَاجَنِي إِلَّا تَأَلَّقَ بَارِقِ
يَلُوحُ بِفُؤَدِ اللَّيْلِ مِنْهُ مَشِيبُ
ذَكَرْتُ بِهِ رُكْبَ الْحِجَازِ وَجِيزَةً
أَهَابَ بِهَا نَحْوَ الْحَبِيبِ مُهَيْبُ
فَبِتُّ وَجَفَنِي مِنْ لَأَلِي دَمْعِهِ
عَنِّي، وَصَبْرِي لِلشُّجُونِ سَلِيبُ
تُرْنَحْنِي الذُّكْرَى وَيَهْفُو بِي الْجَوَى
كَمَا مَالَ غُصْنٌ فِي الرِّيَاضِ رَطِيبُ
وَأَحْضُرُ تَغْلِيلًا لِشَوْقِي بِالْمُنَى
وَيَطْرُقُ وَجْدٌ غَالِبٌ فَأَغِيبُ
أَيَا خَاتِمِ الرُّسُلِ الْمَكِينِ مَكَانَهُ
حَدِيثُ الْغَرِيبِ الدَّارِ فِيكَ غَرِيبُ
فُؤَادٌ عَلَى جَمْرِ الْبِعَادِ مُقَلَّبُ
يُمَاحُ عَلَيْهِ لِلدَّمُوعِ قَلِيبُ
فَوَاللَّهِ مَا يَزِدَادُ إِلَّا تَلْهَبًا
أَبْصَرْتُ نَارًا تَارَ عَنْهُ لَهَيْبُ⁽¹⁾

فهو يمدح النبي صلى الله عليه وسلم من خلال الحنين إليه، بتوظيفه للألفاظ (الدموع، الشجون، الجوى، الوجد، جمر البعاد).

كما تبرز ألفاظ الشوق والحنين في أبياته هذه:

إِذَا أَنْتَ شَافَهْتَ الدِّيَارَ بِطَيْبَةٍ
وَجِئْتَ بِهَا الْقَبْرَ الْمُقَدَّسَ وَاللَّحْدَا
وَأَسْتَنْتَ نُورًا مِنْ جَنَابِ مُحَمَّدٍ
يُدَاوِي الْقُلُوبَ الْغُلْفَ وَالْأَعْيُنَ الرَّمْدَا
فَنُبُّ عَنْ بَعِيدِ الدَّارِ فِي ذَلِكَ الْحِمَى
وَأَذْرِبُ بِهِ دَمْعًا وَعَقْرُ بِهِ خَدًّا
بِمَوْلِدِكَ أَهْتَزُّ الْوُجُودُ وَأَشْرَقَتْ
فُصُورٌ بِبُصْرَى ضَاعَتْ الْهَضْبَ وَالْوَهْدَا
وَلَوْ تَرَكْتُ مِنَ اللَّيَالِي صَبَابَةً
لَأَجْهَدْتُهَا رِكْضًا وَأَرْهَقْتُهَا شَدًّا⁽²⁾

وفي قوله أيضا في قصيدة ميلادية :

دَعَا عَزَمَاتِي وَالْمَطِيَّةَ وَ الْوَحْدَا
وَالْأَفْكَفَا الشَّقَّ عَنِّي وَالْوَجْدَا
أَلَمْ تَرِيَانِي كُلَّمَا هَبَّتِ الصَّبَا
أَبُلُّ بِهَا مِنْ نَارِ لُوعَتِي ال...⁽³⁾
وَلَمَّا تَفَانَى الصَّبْرُ إِلَّا صَبَابَةً
تُسَهِّلُ مِنْ وَقَعِ الْحَوَادِثِ مَا اشْتَدَّا

(1) - لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . صص: 322-323 .

(2) - المصدر نفسه . صص : 475 وما بعدها.

(3) - فراغ بسبب خرم في الأصل ولعل المراد : الخدا

الفصل الرابع: البنية الفنية للقصيدة المديحية عند الشعراء

مَالِي وَتَذْكَارُ الصَّبَابَةِ وَالصَّبَا وَمَوَاتِقًا عِنْدَ الْهَوَى وَعُهُودًا⁽¹⁾

فالشاعر وظف مجموعة أفاظ (الوجد، اللوعة، الصباية) وهو بصدد مدحه للرسول الكريم والثناء عليه.

(1) - لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ص: 479 وما بعدها.

صوارم	كَانَتْ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ جُنُودَهُ فَالنَّصْرُ يَلْمَعُ مِنْ صَوَارِمِ قُضْبِهِ المصدر السابق . ص : 69 . فَأَشَابَ شَيْبَةَ أَمْرٍ عُتْبَةَ عِنْدَمَا السيف	الوغي	وَأَعْطَى عَسِيبُ النَّخْلِ فِي حَوْمَةٍ الوغي فَهَزَّ حُسَامٌ مِنْهُ لِلدَّمِ سَافِحُ المصدر السابق . ص : 368 . فَمَلِكُكَ فِيهَا مَا أَجَلَ جَلَالَهُ السيف وَسَيْفُكَ مَا أَسْطَى وَكَفُّكَ مَا أَنْدَا المصدر نفسه . ص : 484 . تَخَذُوا السُّيُوفَ تَمَائِمًا لَوْلِيَدِهِمْ السيف وَالْحَرْبَ ظِنْرًا وَالسَّرُوجَ مُهُودًا المصدر نفسه . ص : 486 .
الحرب	عَلَى خَدِّهِ لَمَّا أُصِيبَ لَدَى السيف الْحَرْبِ الوغي وَأَضْحَى بِلَا سَيْفٍ عَكَاشَةٌ فِي الْوَعَى الوغي فَأَعْطَاهُ عُودًا فَأَغْتَدَى أَيَّمَا عَضْبِ المصدر نفسه . ص : 74 . وَجُوهُهُمْ فِي الْوَعَى بَدُورٌ الوغي فِي فَلَكَ الْخَيْلِ طَالِعَاتُ المصدر نفسه . ص : 96 .	السيف	

وبالنظر إلى الجدول السابق نجد أن الشعراء استخدموا ألفاظا دالة على السلاح ك(السيف، والرمح، والصوارم، والحسام، و العضب). فأحيانا بصيغة المفرد وأخرى بصيغة الجمع.

أما ألفاظ الحرب فيمكن ذكر (الحرب، الوغي، الهجاء، الجواري المنشآت...). وربما اتضح من الجدول السابق قدرة ابن الخطيب، وابن جابر في رسم تشكيل لغوي رائع لساحة الحرب التي كانت تعيشها الأندلس آنذاك في مواجهة نصارى الاسبان،

1-4- أَلْفَاظُ التَّوَسُّلِ وَالشَّفَاعَةِ وَطَلَبِ الْإِسْتِغَاثَةِ:

لسان الدين بن الخطيب	ابن جابر الهواري الأندلسي
تَدَارَكَهُ يَا غَوْثَ الْعِبَادِ بِرَحْمَةٍ يَقْضِيهِ دِينَ الْعَفْوِ فِيهَا غَرِيمُهُ أَيَجْهَرُ بِالشُّكْوَى وَأَنْتَ سَمِيعُهُ أَيَعْلَنُ بِالنَّجْوَى وَأَنْتَ عَلِيمُهُ أَتَعْوِزُهُ السُّقْيَا وَأَنْتَ غِيَاثُهُ أَتَتَلَفَّهُ الْبَلْوَى وَأَنْتَ رَحِيمُهُ	وَأَتَاكَ يَسْأَلُ مِنْكَ حُسْنَ شَفَاعَةٍ وَفُؤَادُهُ خَوْفَ الذُّنُوبِ هَوَاءُ ابن جابر. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين أوالغين في مدح سيد الكونين. ص: 24 . فَلَاكَ الشَّفَاعَةُ وَالْمَقَامُ الْمُرْتَضَى وَحَتَامُ رَسْلِ اللَّهِ وَالْإِسْرَاءُ المصدر نفسه . ص : 25 .
مُحَمَّدٌ خَيْرٌ مَنْ تُرْجَى شَفَاعَتُهُ عَدَا وَكُلُّ أَمْرٍ يُجْزَى بِمَا كَسَبَا	شَفَاعَتُكَ الْعُظْمَى دَوَاءُ خَطِيئَتِي وَلَوْ جِئْتُ مِنْ جُرْمِي بِأَعْظَمِ دَاءٍ المصدر نفسه . ص : 38 . فَلَا تَخَيَّبِنِي مِمَّا لَكَ مِنْ شَفَاعَةٍ تُرْجَى وَفَضْلٍ قَدْ نَمَا المصدر نفسه . ص : 53 . فَعَسَى شَفَاعَتُكَ الْمَعْدَةُ فِي عَدِي تَضَعُ الذُّنُوبَ الْمُثْقَلَاتِ لِصُلْبِهِ المصدر نفسه . ص : 71 .
وَمُؤَمِّلِينَ مَقَامَكَ الْمُحْمُودَا المصدر نفسه . ص : 486 .	إِلَى السَّيِّدِ الْمَبْعُوثِ لِلنَّاسِ رَحْمَةً شَفِيعِ الْوَرَى حَسْبِي مَلَاذًا بِهِ حَسْبِي المصدر نفسه . ص : 72 . رَسُولَ الْهُدَى أَنْتَ الشَّفِيعُ لِمَنْ عَصَى وَشَقَّ الْعَصَا مِنْ مُذْنِبٍ سَيِّئِ الْكَسْبِ المصدر نفسه . ص : 75 . لَا أَرَى سِوَاهُ إِلَيَّ أَنْ أَفُوزَ مِنْ سَبَبِي صَاحِبُ الشَّفَاعَةِ فِي يَوْمِ مَوْقِفِ تَعَبٍ المصدر نفسه . صص : 76-77 . وَعَفَّرَ فِي ثَرَاهُ الْخَدَّ وَاسْأَلُ شَفَاعَةَ مَنْ بِمِلَّتِهِ اهْتَدَيْنَا المصدر نفسه . ص : 90 .

وَأَسْأَلُكَ الشَّفَاعَةَ فِي ذُنُوبِي

لَأَنَّكَ لَا تَرُدُّ إِذَا شَفَعْنَا

المصدر السابق . ص: 104 .

خُذْ سَيِّدِي بِيَدِي أَغْنِيَنِى

أَصَبَحْتُ مِنْ بَحْرِ الذُّنُوبِ مُلْجَبًا

مَنْ مُنْقِذِي إِلَّا شَفَاعَتُكَ الَّتِي

تُنْجِي إِذَا لَهَبُ الْجَحِيمِ تَأَجَّجَا

المصدر نفسه . ص: 124 .

يَا رَسُولَ اللَّهِ كُنْ لِي شَفِيعًا

يَوْمَ يُخْشَى لِلْمُسِيِّءِ افْتِضَاحُ

المصدر نفسه . ص: 137 .

جِسْمِي بَعِيدٌ عَن كَرِيمِ دِيَارِكُمْ

فَالْقَلْبُ فِي عَرَصَاتِهَا مَنبُودٌ

فِيكُمْ شَفِيعٌ فِي الْأَنَامِ مُشَفَّعٌ

مُتَمَسِّكٌ بِالْجَاهِ مِنْهُ مَلُودٌ

المصدر نفسه . ص: 205 .

II- مستوى التركيب⁽¹⁾ :

يقول عبد القاهر الجرجاني بأن «الألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضربا خاصا من التأليف ويعمد بها إلى وجه التركيب»⁽²⁾ ، ولهذا ليس لأحد منا أن ينكر هذه الحقيقة، فالجميع يتفقون على «أن اللغة ليست مجموعة من الألفاظ بل هي مجموعة من العلاقات»⁽³⁾ . فالشعر خاصة من بين فنون الأدب الأخرى لا بد وأن تتسم تراكيبه بسمة الإبداع⁽⁴⁾، فهو «لا يقف على دلالات اللغة الوضعية، بل إنه يقوم بعملية بعث جديدة للأشياء معتمدا على تركيباته اللغوية؛ حيث يبتعد عن فكرة البعد الواحد، فنستطيع أن نرى أبعادا متعددة تلوح من خلال القصيدة»⁽⁵⁾ . ومن هذا المنطلق حاولت أن أتلمس أبرز مظاهر التركيب عند الشعراء "ابن الخطيب" و"ابن جابر" من خلال المدائح النبوية.

1- تعاقب وتكرار الألفاظ والأساليب:

تطرق النقاد القدامى لهذه الظاهرة التي ترد عند الكثير من الشعراء، ابن رشيق يرى بأن (التكرار) في الشعر قد يحسن في مواضع، ويقبح في مواضع أخرى⁽⁶⁾. ويرى أيضا أن وقوعه يأتي في الألفاظ أكثر من المعاني، وأن تكرار الشاعر للفظ والمعنى مما يعتبر معيبا⁽⁷⁾. وقد تكررت ألفاظ كثيرة في شعر المدائح النبوية لدى الشعراء ابن جابر و ابن الخطيب، سواء أكانت الألفاظ أسماء، أم أفعالا، أم حروفا وسأعرض نماذج نها فيما يلي:

(1) - هو عبارة عن مجموعة منسقة من الوحدات اللغوية لتؤدي معنى في الكلام، ينظر: مجدي وهبة وكامل

المهندس. معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب. مكتبة لبنان، بيروت، 1984م. ص: 96.

(2) - الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر الجرجاني. أسرار البلاغة، قراءة وتعليق: محمود شاکر. ط1. دار المدني، جدة، 1991م . ص: 4 .

(3) - محمود مندور. في الميزان الجديد. ط3. مكتبة نهضة مصر، القاهرة، (د،ت). ص: 185.

(4) - ينظر: علوي الهاشمي. السكون المتحرك: دراسة في البنية والأسلوب، ج2 . ط1. اتحاد كتاب الإمارات، الإمارات، 1993م . ص: 20.

(5) - رجاء عيد . دراسة في لغة الشعر. (د، ط). منشأة المعارف، الإسكندرية ، 1985م . ص : 114.

(6) - ابن رشيق القيرواني . العمدة ، ج2 . ص : 23.

(7) - المصدر نفسه. صص : 74-75.

ب- ابن جابر الأندلسي:

وظف الشاعر لفظتي (الليل والنهار) تعبيرا عن حاله وشكواه، وقد جاءت عباراته مليئة بالحزن والأسى وظلام الليل أحيانا، وفي أحيان أخرى مليئة بالأمل والشوق إلى زمن النبوة، أو زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم. يقول ابن جابر:

يُبَصِّرُ سَمَّ الْخِيَاظِ لَيْلًا	فِي نُورِهِ كُلَّمَا تَرَاعَى
لَا أَسْأَلُ النَّذَلَ وَلَوْ أَنِّي بِهِ	أَمْلِكُ مَا حَازَ النَّهَارُ وَالذُّجَى
يَلْقَاكَ مِنْهُمْ كُلُّ وَجْهِ مُشْرِقٍ	كَأَنَّهُ الْبَدْرُ إِذَا اللَّيْلُ سَجَا
هِيَ اللَّيَالِي لَيْسَ يُرْعَى صَرْفُهَا	لَا خَامِلًا فِيهَا وَلَا مَنْ قَدْ سَمَا
فَكَانَ كَالصُّبْحِ جَلَا جُنْحِ الذُّجَى	فَأَذْهَبَ الْإِظْلَامَ عَنَّا وَانْتَضَى
إِذَا أَدَارُوهَا وَقَدْ جَنَّ الذُّجَى	وَشَى بِهِمْ نَيْرَهَا فِيمَنْ وَشَى
وَاخْضَعُ إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ وَقُمْ عَلَيَّ	قَدِمِ الرَّجَاءِ فَلَمْ تَكُنْ لِتُخَيِّبَا
إِذَا يَهْبُ النَّسِيمُ لَيْلًا	مِنْ نَحْوِهِمْ فَاحَتِ الْفَلَاةُ
وَمَكْرُ مَا تُظْهَرُ اللَّيَالِي	تَسْتُرُهُ مِنْهُ مَكْرَمَاتُ
وَمَهْمَا بَدَا فِي ظِلْمَةِ اللَّيْلِ وَجْهُهُ	أَضَاءَ كَمِثْلِ الصُّبْحِ إِذْ يَتَبَلَّجُ
إِلَى أَنْ بَدَا كَالْبَدْرِ لَا غَيْمَ فَوْقَهُ	بِهِ يَهْتَدِي فِي ظِلْمَةِ اللَّيْلِ مُدْلَجُ
سَتَرِي إِذَا سَتَرَ الذُّجَى مِنْ وَجْهِهِ	صُبْحًا أَضَاءَ بِجُنْحِ لَيْلٍ إِذْ دَجَا
وَقَدْ أَظْلَمَ اللَّيْلُ لَكِنَّهُ	جَرَى فِيهِ ذِكْرُكَ حَتَّى أَنَارَا ⁽¹⁾

لقد استمر ابن جابر في كامل مدائح النبوية يعتمد على ثنائية الليل والنهار أو ثنائية السواد والبياض بكافة صورته وأشكاله، دون أن يعلم أن ذلك الأمر ما هو إلا انعكاس طبيعي لما يعانیه من داء الأرق، فالممدوح الذي هو النبي الكريم تارة يكون نهارا أو فجرا أو صباحا، وفي كل الأحوال هو جلاء ونور لظلمة الليل وقهره.

(1) - ابن جابر الأندلسي. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين . الصفحات: 32-43-52-55-60-

ابن جابر الهواري الأندلسي	لسان الدين بن الخطيب
وَأَقُولُ يَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ مُذنبٌ	يَا مُصْطَفَى الرَّحْمَانِ وَالنُّورِ الَّذِي
لَعِبْتُ بِهِ الْأَمَالُ وَالْأَهْوَاءُ	أَخْفَى الضَّلَالِ وَأَظْهَرَ التَّوْحِيدَا
ابن جابر. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين	لسان الدين بن الخطيب. الديوان. ص: 486.
أوالغين في مدح سيد الكونين. ص: 24 .	رَسُولُ الْبِرَايَا جَاءَ بِالصِّدْقِ فَاَمَّحَتْ
يَا خَيْرَ خَلْقِ اللَّهِ فَارَتْ أُمَّةٌ	بِنُورِ هُدَاهُ التُّرَاهَاتِ الصَّحَايْحُ
قَدْ تَابَعُوكَ وَلَوْ عَصَوْا وَأَسَاؤُوا	يَا صَفْوَةَ اللَّهِ الْمَكِينِ مَكَانَهُ
المصدر نفسه . ص: 25 .	يَا خَيْرَ مُؤْتَمَنٍ وَخَيْرِ نَصِيحِ
أَنْتَ الشَّهِيدُ عَلَيْهِمْ وَهُمْ عَلَيَّ	المصدر نفسه . صص: 368-383 .
كُلُّ الْبَرِيَّةِ فِي عَدِّ شُهَدَاءِ	فَقُولُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ يَا خَيْرَ خَلْقِهِ
أَنْتَ الْأَمِينُ عَلَيَّ رِسَالَةَ رَبِّهِمْ	وَأَكْرَمَ مُخْتَارِ آبَانٍ بِهِ الرَّشْدَا
لَهُمْ وَهُمْ فِي أَرْضِهِ أَمْنَاءُ	لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهام
أَنْتَ الْمُقْفَى الْحَاشِرُ الْمَاحِي الَّذِي	وَالْمَاضِي وَالْكَهَامِ . ص: 781 .
يَمْحُو ظِلَامَ الشَّرِكِ مِنْهُ ضِيَاءُ	ذُو الْمُعْجَزَاتِ الَّتِي لَاحَتْ شَوَاهِدُهَا
المصدر نفسه . ص: 26 .	فَشَاهَدَ الْقَوْمُ مِنْ آيَاتِهِ عَجَبَا
أَنْوَرُ خَيْرِ الْوَرَى أَضَاءُ	المصدر نفسه . ص: 266 .
أَمِ الصَّبَاحِ الْمُنِيرِ جَاءَ الْمَصْدَرُ نَفْسَهُ	وَيَا قَادِحَ الزُّنْدِ الشَّحَاحِ تَرْفُقَا
. ص: 29 .	عَلَيْكَ فَشَوْقِي الْخَارِجِي شَبِيبُ
مَلَأْتُ الْوَرَى كَافِي الْأَرَامِلِ كَهْفَهَا	أَيَا خَاتِمِ الرُّسُلِ الْمَكِينِ مَكَانَهُ
كَفِيلُ الْيَتَامَى مَلْجَأُ الْفُقَرَاءِ	حَدِيثُ الْعَرِيبِ الدَّارِ فِيكَ غَرِيبُ
المصدر نفسه . ص: 34 .	المصدر نفسه . ص: 323 .
فَنَادَيْتُ يَا خَيْرَ الْوَرَى إِنَّ مَقْصِدِي	مُصْطَفَى الْكُونِ مِنْ ظُهُورِ النَّبِيِّينَ
إِلَيْكَ وَحَالِي غَيْرُ ذَاتِ خَفَاءِ	هُدَاةَ الْأَنَامِ سُبُلِ الْفَلَاحِ
المصدر نفسه . ص: 36 .	حَاشِرُ الْخَلْقِ عَاقِبُ الرُّسُلِ
لِجَاهِكَ يَا خَيْرَ الْأَنَامِ تَوَجَّهِي	وَالْمُتَّبِعُ بِاللَّهِ بَعْدَهُمْ وَالْمَاحِ
إِذَا الْأُمُّ فِي شُغْلِ عَنِ الرُّضْعَاءِ	صَاحِبُ الْمُعْجَزَاتِ لَا يَتَمَارَى
عَلَى الْمُصْطَفَى أَرْكَى صَلَاةً وَصَحْبِهِ	الْعَقْلُ فِي آيَةِا الْحَسَانِ الصَّحَّاحِ
بدور الهدى والجللة النصحاء	المصدر نفسه . ص: 391 .
المصدر نفسه . ص: 38 .	يَا طَبِيبَ الذُّنُوبِ تَدْبِيرُكَ النَّا
	جُعُ فِي عَلْتِي ضَمِينُ النَّجَاحِ

<p>إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ مِصْبَاحُ هُدًى</p>	<p>يَا مُجَلِّي الْعَمَى وَكَافِي الدَّوَاهِي</p>
<p>يُهْدِي بِهِ مَنْ فِي دُجَى الْجَهْلِ رَتَا</p>	<p>وَمُدَاوِي الْمَرَضَى وَأَسِي الْجِرَاحِ</p>
<p>المصدر السابق . ص: 41 .</p>	<p>نَاصِرِ الْحَقِّ، مُرْسِلِ النَّفْعِ سُحْبَا</p>
<p>خَيْرُ الْوَرَى طُرًّا مِنَ اللَّهِ بِهِ</p>	<p>بَيْنَ سُمْرِ الْقَنَا وَبِيضِ الصَّفَاحِ</p>
<p>أَذْهَبَ عَنَّا كُلَّ غِيٍّ فَاْمْتَحَى</p>	<p>المصدر السابق . ص: 392 .</p>
<p>المصدر نفسه . ص: 45 .</p>	<p>يَا سِرَاجَ النَّادِي وَحَتْفَ الْأَعَادِي</p>
<p>هُوَ الشَّفِيعُ الْمُجْتَرَى بِجَاهِهِ</p>	<p>وَعِمَادَ الْمَلِكِ الْكَرِيمِ الْمِنَاحِ</p>
<p>بِمِثْلِ ذَلِكَ الْجَاهِ حَقًّا يُجْتَرَى</p>	<p>وَحَفَضْتَ الْجَنَاحَ فِي الْأَرْضِ حَتَّى</p>
<p>المصدر نفسه . ص: 47 .</p>	<p>لَمْ تَدَعِ فَوْقَ ظَهْرِهَا مِنْ جُنَاحِ</p>
<p>خَيْرُ عِبَادِ اللَّهِ ذُو الْعِزِّ الَّذِي</p>	<p>أَنْتَ مِصْبَاحُهَا وَنُورُ دُجَاهَا</p>
<p>لِظَلِّهِ يَاوِي الشَّرِيفِ وَالشَّطَى</p>	<p>دَافَعَ اللَّهُ عَنْكَ مِنْ مِصْبَاحِ</p>
<p>المصدر نفسه . ص: 49 .</p>	<p>المصدر نفسه . ص: 393 .</p>
<p>وَدَعَتْهُ يَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ إِنَّ لِي</p>	<p>عَلَيْكَ صَلَاةَ اللَّهِ يَا خَيْرَ مُرْسِلِ</p>
<p>خَشْفًا يَمُوتُ مِنَ الظَّمَا فِي شِعْبِهِ</p>	<p>وَأَكْرَمَ هَادٍ أَوْضَحَ الْحَقِّ وَالرُّشْدَا</p>
<p>المصدر نفسه . ص: 69 .</p>	<p>عَلَيْكَ صَلَاةَ اللَّهِ يَا خَيْرَ رَاحِمِ</p>
<p>وَأَقُولُ يَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ مَذْنَبٌ</p>	<p>وَأَشْفَقَ مِنْ يُثْنِي عَلى رَافَةِ كَبْدَا</p>
<p>يَرْجُو وَيَخْشَى مَا جَنَى مِنْ كَسْبِهِ</p>	<p>عَلَيْكَ صَلَاةَ اللَّهِ يَا كَاشِفَ الْعَمَى</p>
<p>المصدر نفسه . ص: 70 .</p>	<p>وَمُذْهَبَ لَيْلِ الشُّكِّ وَهُوَ قَدِ ارْتَبَدَا</p>
<p>إِلَى السَّيِّدِ الْمَبْعُوثِ لِلنَّاسِ رَحْمَةً</p>	<p>المصدر نفسه . صص: 476-477 .</p>
<p>شَفِيعِ الْوَرَى حَسْبِي مَلَاذًا بِهِ حَسْبِي</p>	<p>وَأَنْتَ مَلَاذُ الْخَلْقِ حَيًّا وَمَيِّتًا</p>
<p>المصدر نفسه . ص: 72 .</p>	<p>وَأَكْرَمَهُمْ دَاتَا وَأَعْظَمَهُمْ مَجْدَا</p>
<p>وَكَافِي الْيَتَامَى وَالْأَرَامِلِ دَهْرُهُمْ</p>	<p>المصدر نفسه . ص: 481 .</p>
<p>فَهُمْ عِنْدَ ضَيْقِ الْجُدْبِ فِي أَوْسَعِ الْخِصْبِ</p>	<p>أَعْدَاكَ مِيلَادًا لِخَاتَمِ رُسُلِهِ</p>
<p>المصدر نفسه . ص: 73 .</p>	<p>وَأَطَّلَعَ فِي آفَاقِكَ الشَّرَفَ السَّعْدَا</p>
<p>إِنَّا تَوَسَّلْنَا بِأَحْمَدَ خَيْرِ مَنْ</p>	<p>المصدر نفسه . ص: 483 .</p>
<p>وَطَى الثَّرَى نَسْبًا وَأَعْلَى مَنْصَبَا</p>	<p>يَا مُصْطَفَى الرَّحْمَانِ وَالنُّورِ الَّذِي</p>
<p>بِأَعَزِّ مَبْعُوثٍ وَأَشْرَفِ مُرْسِلِ</p>	<p>أَخْفَى الضَّلَالِ وَأَظْهَرَ التَّوْحِيدَا</p>
<p>وَأَجَلَ مَأْمُولٍ وَأَكْرَمِ مُجْتَبِي</p>	<p>لِمُحَمَّدٍ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا</p>
<p>المصدر نفسه . ص: 82 .</p>	<p>دَاتَا وَأَوْسَعِهِمْ سَنَاتِ جُودَا</p>
	<p>المصدر نفسه . صص: 486-487 .</p>

رَسُولٌ مِنَ الرَّحْمَنِ يَدْعُو إِلَى الْهُدَى

وَيَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامَةِ وَالسَّلَامِ

المصدر نفسه . ص : 578 .

وَهُوَ الشَّفِيعُ الرَّفِيعُ لَوْلَا

رَحْمَاهُ لَمْ تُخْلَصِ الْعَصَاةُ

المصدر السابق . ص : 94 .

وَزُرَّ شَفِيعَ الْأَنَامِ وَأَنهَضُ

مِنْ قَبْلِ أَنْ يَفْجَأَ الْمَمَاتُ

المصدر نفسه . ص : 97 .

سَأَقْطَعُ عُمْرِي فِي الرَّحِيلِ إِلَى الْحَجِّ

وَأَسْتُ أَبَالِي مَا جَرَى لَيْلَةَ التَّلَجِّ

وَمَالِي لَا أَسْرِي إِلَى خَيْرِ مُرْسَلٍ

شَفَاعَتُهُ لِلْعَالَمِينَ غَدًا تَنْجِي

المصدر نفسه . ص : 124 .

يَا سَيِّدَ الْكَوْنَيْنِ أَنْتَ الْمُكْتَفَى

فِي كُلِّ مَأْمُولٍ وَأَنْتَ الْمُرْتَجَى

المصدر نفسه . ص : 132 .

صَلُّوا عَلَى مَنْجِي الْبَرِيَّةِ بَعْدَ مَا

نُصِبَتْ مَصَائِدُ لِلْهَوَى وَفُخُوحُ

المصدر نفسه . ص : 151 .

عَظْمِ الشَّقَوقِ إِلَى خَيْرِ الْوَرَى

فَأَلْتَمَسْ يَا سَعْدُ فِي السَّيْرِ النِّجَارَا

المصدر نفسه . ص : 277 .

كَرِيمًا رَحِيمًا لِلْبَرِيَّةِ نَاصِحًا

وَلَمْ يَبْغِ مِنْهُمْ أَنْ يُكَافَى وَأَنْ يُجْزَى

عَطُوفًا رَوْفًا صَادِقَ الْقَوْلِ هَادِيًا

بَشِيرًا نَذِيرًا دَائِمَ الْجَدِّ لَا يَهْزَا

المصدر نفسه . ص : 281 .

كَفَيْلُ الْيَتَامَى وَالْأَرَامِلِ قَدْ غَدَا

حَمِي لَأَدَانٍ مِنْهُمْ وَأَقَاصِي

كَفَيْلُ الْيَتَامَى وَالْأَرَامِلِ كُلَّمَا

تَصَعَّبَ دَهْرٌ جَدًّا عَنْ حَالِهِمْ فَخَصَا

المصدر نفسه . صص : 287-289 .

1-3- تكرار ذكر الأماكن المقدسة:

ابن جابر الهواري الأندلسي	لسان الدين بن الخطيب
<p>فَتَرَوْرَ أَثَارَ النُّبُوَّةِ وَالْهَدَى وَيُبَاحُ لِلصَّبِّ الْمَشُوقِ لِقَاءُ تِلْكَ الدِّيَارِ هِيَ الدِّيَارُ فَطَالَمَا جَلَيْتَ بِهَا عَنْ قَلْبِي الْعَمَاءُ يَا فَوْزَهُمْ إِذَا قِيلَ طَيْبَةٌ هَذِهِ فَرُدُّوا فِيَّ وَرِدَ الْحَيَاةِ صَفَاءُ</p> <p>ابن جابر. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين أوالغين في مدح سيد الكونين. ص: 27 .</p> <p>سَهَّلْ بِهَذَا الْعَامِ زُورَةَ قَبْرِهِ قَدْ طَالَتِ الشُّكُوى وَأَغْيَا الدَّاءُ المصدر نفسه . ص: 28 .</p> <p>وَأِنْ أَرَدْتَ الثَّوَابَ حَقًّا فَاجْعَلْ لَدَى طَيْبَةِ الثَّوَاءِ وَالثَّمْ تَرَى تَرْبَهَا لِثُعْطِي فِي دَهْرِكَ الْأَمْنِ وَالثَّرَاءِ المصدر نفسه . ص: 30 .</p> <p>طَابَتْ بِهَ طَيْبَةٌ وَعَزَّتْ لَمَا أُبَيْلَتْ لَهُ اعْتِرَاءُ المصدر نفسه . ص: 32 .</p> <p>وَفِي مَنِي تَبْلُغُ الْأَمَانِي وَبِالصَّفَا نُرْزَقُ الصَّفَاءُ المصدر نفسه . ص: 33 .</p> <p>وَدَعْنِي أَرْضِي النَّفْسَ مِنْ لَثْمِ أَرْضِهِ فَلْتُمْ ثَرَاهَا بَابُ كُلِّ ثَرَاءِ وَأَطِيبُ مِسْكَ طَيْبُ تَرْبِ ضَرِيحِهِ وَوَضَعُ شِفَاهِي فِيهِ خَيْرُ شِفَاءِ المصدر نفسه . ص: 38 .</p>	<p>طَابَتْ بِمَوْلِدِ خَيْرٍ مِنْ لَضْرِيحِهِ تَرْجَى قِلاصٌ أَوْ تَرْمُ عَشَارٌ لسان الدين بن الخطيب . الديوان . ص : 493 .</p> <p>إِذَا أَنْتَ شَافَهْتَ الدِّيَارَ بِطَيْبَةٍ وَجِئْتَ بِهَا الْقَبْرَ الْمُقَدَّسَ وَاللَّحْدَا لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ص: 475 .</p> <p>أَلَا يَا حُدَاةَ الرَّكْبِ يَبْغُونَ يَثْرِبًا وَيَلْقُونَ فِي اللَّهِ السَّامَةَ وَالجَهْدَا وَأَبْصَرْتُمْ نُورَ النُّبُوَّةِ سَاطِعًا قَدْ اكْتَفَى التُّرْبَ الْمُقَدَّسَ وَاللَّحْدَا المصدر نفسه . ص: 480 .</p> <p>تَحْمَلْنَ مِنْ زَوَارِ قَبْرِكَ فَتِيَّةً تُؤَاصِلُ فِي دَاتِ الْهُدَى وَتُنَازِحُ وَهَا أَنْتَ يَا إِنْسَانَ عَيْنٍ يَقِينِهِ بِرُوضَةٍ مَنْ حَازَ الْمَحَاسِنَ سَارِحُ هَنِيئًا لَكُمْ يَا زَائِرِي تَرْبَةِ الْهُدَى بُلُوغَ الْمُنَى، وَالسَّعْيِ فِي اللَّهِ نَاجِعُ المصدر نفسه . ص: 367 .</p> <p>لِي فِي دَاكِ الضَّرِيحِ لُبَانَةٌ إِنْ أَصْبَحْتَ لُبْنَى أَنَا ابْنُ دَرِيحِ المصدر نفسه . ص: 383 .</p> <p>سَقَى اللَّهُ نَجْدًا مَا نَضَحْتُ بِذِكْرِهَا عَلَى كَيْدِي إِلَّا وَجَدْتُ لَهَا بَرْدًا المصدر نفسه . ص: 473 .</p> <p>تَخَلَّفَ مَنِي رَكْبُ طَيْبَةٍ عَانِيًا أَمَا أَنْ لِلْعَانِي الْمَعْنَى بِأَنْ يُفْدَى المصدر نفسه . ص: 475 .</p>

كَأَنَّهُمْ إِذَا رَأَوْا غُرَّتَهُ

وَفُدَّ حَجِيحٍ عَائِنُوا أُمَّ الْفَرَى

المصدر السابق . ص : 47 .

لَهُ أَشْكُو الْبُعْدَ عَنْ خَيْرِ حِمَى

فَدَّ صَدَنِي عَنْ أُنْسِهِ شَحَطَ النَّوَى

يَا مَنْزِلًا مَا بَيْنَ نَجْدٍ وَالْحِمَى

وَيَا دَارًا بَيْنَ كُتُبَانِ اللَّوَى

المصدر نفسه . ص : 62 .

سِرُّ بِي لَطِيبَةً حَيْثُ تَظْفَرُ أَمَلًا

وَالْمَرْءُ فِيهَا أَمِنْ فِي سِرِّهِ

مَنْ يَشْكُ دَاءَ دُنُوبِهِ فَلْيَلْتَمِمْ

ذَاكَ النَّثْرَى فَهُوَ الشِّفَاءُ لِدُنْبِهِ

المصدر نفسه . ص : 70 .

وَفِي قُرْبِ ذَلِكَ الْقَبْرِ أَوْفَى مَسْرَةٍ

فَلَيْسَ لِرُكْبٍ حَلَّ مَثْوَاهُ مِنْ كَرْبٍ

المصدر نفسه . ص : 72 .

حَلُّوا بِطَيْبَةٍ فَارْتَاخَتْ نَفُوسُهُمْ

كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ أَيْنَ وَلَا تَعَبٌ

المصدر نفسه . ص : 85 .

وَإِنْ ذُكِرَ الْحِجَازُ أَدُوبٌ شَوْقًا

لَأَنَّكَ فِي مَعَاهِدِهِ سَكَنَتَا

المصدر نفسه . ص : 104 .

هِيَ الْكَعْبَةُ الْغَرَاءُ لَا شَيْءَ مِثْلَهَا

وَلَا الْكَاعِبُ الْعَذْرَاءُ تُلْخَطُ عَنْ غُنْجٍ

فِيَا طَيْبِ أَوْقَاتِي إِذَا أَنَا جِئْتُهَا

وَلِلرُّكْبِ أَصْوَاتٌ لَدَى الشَّجِّ وَالْعَجِّ

المصدر نفسه . ص : 126 .

فَتَدْنُو إِلَى قَبْرِ الشَّرِيفِ مُسَلِّمًا

وَأَنْتَ هَيُوبٌ لِلْمَحَلِّ وَقُورٌ

المصدر نفسه . ص : 231 .

وَأَصْبُو إِلَى الْبَرْقِ الْحِجَازِيِّ كُلَّمَا

أَجَالَتْ أَكْفُ الْأُفُقِ فِي آسِيهَا الزُّنْدَا

المصدر السابق . ص : 480 .

بِمَا بَيْنَنَا مِنْ خُلَّةٍ طَابَ ذِكْرُهَا

إِذَا فَرَعَتْ عَوْجُ الْمَطِيِّ بِكُمْ نَجْدَا

المصدر نفسه . ص : 481 .

وَنَاجِيئُهَا مِنْ مَطْلَعِ الْوَحْيِ رَوْضَةً

أَعَدَّ لَهَا اللَّهُ السَّعَادَةَ وَالْخُلْدَا

المصدر نفسه . ص : 481 .

وَلَمْ لَا وَقَدْ حَلَّ الرُّكَابُ بِيَثْرِبِ

وَبُوتُ بِشَحَطِ الدَّارِ مِنْهَا عَلَى رَعْمٍ

المصدر نفسه . ص : 575 .

1-4-4- تعاقب وتكرار أسماء الحبيبة:

ابن جابر الهواري الأندلسي	لسان الدين بن الخطيب
<p>هَذِي مَنَازِلُ لَيْلَى قَدْ بَدَتْ وَهَنَا يَحِقُّ أَنْ دُمُوعَ الْعَيْنِ تَنْسَكِبُ مَنْ لَيْسَ يَبْكِي إِذَا لَاحَتْ لِمَقْلَتِهِ دِيَارُ لَيْلَى فَدَعَوَى حُبَّهُ كَذِبُ</p> <p>ابن جابر. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين أوالغين في مدح سيد الكونين. ص: 84 .</p> <p>إِذَا سَمِعْنَا بِذِكْرِ لَيْلَى فَأَدْمَعُ الرَّكْبِ مُسْبَلَاتُ وَقَصَدْنَا مَنْ عَلِمَتْ لَكُنْ تُكْنِي بِلَيْلَى لَنَا الْخُدَاةُ</p> <p>المصدر نفسه . ص : 96 .</p> <p>إِلَيْكَ قَصَدْنَا لَا لِسَلْمَى وَلَا سَعْدَى وَأَنْتَ أَرَدْنَا لَا الْعَفِيقَ وَلَا نَجْدَا</p> <p>المصدر نفسه . ص : 191 .</p> <p>فِيَا سَعْدُ فِدَّ الْعَيْسَ بِالنَّفْسِ إِنَّهَا بَلَّغْنَ بِنَا الدَّارَ الَّتِي تُوجِبُ السَّعْدَا وَإِنْ جِئْتَ لَيْلًا رُبِعَ لَيْلَى فَفَقْ بِهِ فَمَنْ يَغْدُ فِي أَرْجَائِهِ حَمْدَا الْمَغْدَى وَسَلَّمَ عَلَى سَلْمَى وَجَارَتِهَا الَّتِي لَقَدْ جَادَ صَبَّبَ فِي زِيَارَتِهَا جَدًّا تُحَدِّثُ عَنْ سَلْمَى وَسَعْدَى إِشَارَةً وَمَا الْقَصْدُ فِي سَلْمَى لَدَيْنَا وَلَا سَعْدَى وَنَذْكُرُ لُبْنَى وَاللُّبَانَةَ غَيْرُهَا نَعْمَ وَالْهَوَى لَا نَعْمَ نَهْوَى وَلَا هِنْدَا</p> <p>المصدر نفسه . ص : 193 .</p> <p>وَسَلِّ مَا حَبِيبَتِ الْقُرْبِ مِنْهُ وَلَا يَكُنْ لِسَعْدَى وَلَا سَلْمَى بِقَلْبِكَ مَطْمَحُ</p> <p>المصدر نفسه . ص : 139 .</p>	<p>لِي اللَّهُ كَمْ أَهْدِي بِنَجْدٍ وَحَاجِرٍ وَأَكْنِي بِدَعْدٍ فِي غَرَامِي أَوْ سَعْدَا</p> <p>لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ص: 480 .</p> <p>دَعَّ عَنْكَ هِنْدَا وَالِدِيَّارَ وَمَنْ بِهَا وَدَعَّ الْغَرَامَ يَكُونُ بَعْضَ عَفَاتِهَا</p> <p>المصدر نفسه . ص : 327 .</p> <p>وَمَا كَانَ قَبْلَ الْيَوْمِ جَفْنِي سَاهِرًا نَعْمَ، هَجْرُ سَعْدَى عِلْمُ الْمُقَلَّةِ السُّهْدَا</p> <p>المصدر نفسه . ص : 480 .</p>

هُمُ عَدَلُوا نَحْوَ الْمَدِينَةِ فَاَعْدِلِ

وَلَا تَكُ عَنْ ذَاكَ الضَّرِيحِ بِمَعَزَلِ

وَدَعُ عَنْكَ سَعْدَى وَالنُّزُولَ بِرَبْعِهَا

وَإِنْ شِئْتَ إِسْعَادًا بِطَيْبَةٍ فَاَنْزِلِ

المصدر السابق . ص: 447 .

دَعُ عَنْكَ سَلْمَى وَسَلِّ مَا بِالْعَقِيقِ جَرَى

وَأُمَّ سَلْعًا وَسَلِّ عَنْ أَهْلِ الْقُدَمِ

المصدر نفسه . ص: 493 .

2-تكرار الأفعال وتعاقبها:

وردت أساليب عديدة في شعر المديح النبوي كرر الشاعران فيها(الأفعال)بأنواعها، وجاء أغلبها تكرار الفعل الماضي أو الأمر لما في نفس الشعارين من شوق وحنين إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أو لطلب الأجر والثواب. فمن الأمثلة على تكرار الفعل الماضي أو الأمر ما يوضحه الجدول التالي:

لسان الدين بن الخطيب	ابن جابر الهواري الأندلسي
صَلَّى عَلَيْكَ اللَّهُ مَا هَبَّتْ صَبَاً فَهَفَّتْ بِغُصْنٍ لِلرِّيَاضِ مَرُوحٍ لسان الدين بن الخطيب . الديوان . ص : 384 .	صَلَّى إِلَاهَهُ عَلَى النَّبِيِّ الْمُجْتَبَى مَا رَجَعَتْ فِي بَانَةٍ وَرَقَاءُ ابن جابر.ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين أوالغين في مدح سيد الكونين.ص:28 .
صَلَّى عَلَيْكَ الَّذِي أَهْدَاهُ نُورَ هُدًى مَا هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ بَعْدِ الْجَنُوبِ صَبَاً لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهم والماضي والكهام . ص:266 .	صَلُّوا عَلَى الْمُصْطَفَى وَآلِ كَانُوا عَلَى الْحَقِّ أَوْلِيَاءَ المصدر نفسه . ص : 33 .
عَلَيْكَ صَلَاةُ اللَّهِ مَا عَيَّبَ الْفَضَا عَلَيْكَ مُطِيبٌ بِالنِّثَاءِ مُصِيبٌ المصدر نفسه . ص : 325 .	عَلَى الْمُصْطَفَى أَرْكَمَى صَلَاةً وَصَحْبِهِ بِدَوْرِ الْهُدَى وَالْجِلَّةِ النَّصْحَاءِ المصدر نفسه . ص : 38 .
صَلَّوَاتُ اللَّهِ يَا نُكْتَةَ الْكَوْنِ عَلَى مَجْدِكَ اللَّبَابِ الصَّرَاحِ المصدر نفسه . ص : 391 .	صَلَّى عَلَيْكَ اللَّهُ يَا مَنْ جَاهُهُ يَوْمَ الْحِسَابِ مَلْجَأٌ لِمَنْ عَصَى المصدر نفسه . ص : 54 .
عَلَيْكَ صَلَاةُ اللَّهِ يَا خَيْرَ مُرْسَلٍ وَأَكْرَمَ هَادٍ أَوْضَحَ الْحَقِّ وَالرُّشْدَا عَلَيْكَ صَلَاةُ اللَّهِ يَا خَيْرَ رَاحِمٍ وَأَشْفَقَ مِنْ يُثْنِي عَلَى رَأْفَةٍ كَبِدَا المصدر نفسه . صص : 476-477 .	عَلَيْكَ مَا اِزْتَاخَ الظَّلِيمُ وَ ارْتَعَى صَلَّى عَلَيْهِ اللَّهُ مَا جَنَّ الدُّجَى وَعَلَى قَرَابَتِهِ الْكِرَامِ وَصَحْبِهِ المصدر نفسه . ص : 71 .
صَلَّى عَلَيْكَ اللَّهُ مَا هَبَّتِ الصَّبَا وَهَنَّا، فَهَرَّتْ مَائِسًا أَمْلُودَا المصدر نفسه . ص : 488 .	عَلَى الْأَهْلِ وَالْأَوْلَادِ وَالْآلِ وَالصَّحْبِ أَطْيَبُ الصَّلَاةِ عَلَى عُصْنِ مَجْدِكَ الْعَرَبِيِّ

المصدر نفسه . ص : 79 .

صَلَّى عَلَيْهِ إِلَهْنَا وَعَلَيْهِمْ

مَا أَطْلَعَتْ أَيْدِي الدِيَا جِي كَوَكْبَا

المصدر السابق . ص : 82 .

أَزَكَى الصَّلَاةِ وَأَنْمَاهَا تَخْصُّكُمْ

مَا أَعْمَلْتَ نَحْوَ ذَلِكَ الْمَنْزِلِ النَّجْبُ

المصدر نفسه . ص : 86 .

عَلَيْكَ صَلَاةُ رَبِّ الْعَرْشِ تَنْدَى

كَأَنَّ بِهَا ذَكَاةَ الْمَسْكِ فَتَنَا

المصدر نفسه . ص : 104 .

عَلَيْهِ أَزَكَى الصَّلَاةِ شَامِلَةً

صَحْبًا هُمْ خَيْرُ نَاطِقِ نَفْسَا

المصدر نفسه . ص : 117 .

فَأَزَكَى صَلَاةٍ لَا انْقِطَاعَ لَوْصَلَهَا

عَلَى ذَلِكَ الْقَبْرِ الشَّرِيفِ نَعْرَجُ

المصدر نفسه . ص : 129 .

أُصَلِّي عَلَى الْهَادِي وَصَحْبِ بِحُبِّهِمْ

تُدَاوَى مِنَ الذَّنْبِ الْعَظِيمِ جُرُوحُ

المصدر نفسه . ص : 145 .

صَلُّوا عَلَى مَنْجِي الْبَرِيَّةِ بَعْدَ مَا

نُصِبَتْ مَصَائِدُ الْهَوَى وَفُخُوحُ

المصدر نفسه . ص : 151 .

وَصَلُّوا عَلَى الْهَادِي وَخَيْرِ صَحَابَةِ

عَلَى الْأَرْضِ إِنْ يُعْطُوا الْعَهْدَ وَيَسْتَنْخُوا

المصدر نفسه . ص : 156 .

3- تكرر وتعاقب الأساليب الإنشائية:

إن الأساليب الطلبية التي تكررت وتعاقبت عند الشعراء ابن الخطيب وابن جابر تطالعا مدائحهما، وقد وظفت لتخدم تجربة المدحة النبوية عندهما بصورة جيدة تدل على صدق تجربتهما الشعرية، ومن هذه الأساليب:

3-1- أسلوب النداء:

تكررت أساليب النداء في شعر المديح النبوي كثيرا في قصائد الشعراء في القرن الثامن الهجري، ومن خلال الديوانين اللذين تم الاستعانة بهما نلاحظ أن الشعراء استعمالا أسلوب النداء في بعض قصائدهما، ومنهم من يكرر ذلك الأسلوب في القصيدة الواحدة .

أ- ابن الخطيب: يحتل أسلوب النداء مكانة ملحوظة في تراكيب ابن الخطيب في طوابع مدحه فضلا عما جاء في بنيته الداخلية، حيث جاءت دلالة النداء فيها بشكل مطلق دون أن يكون لطلب الإقبال، ولذا فقد خرج النداء في المدح النبوية عما وضع له مثلما خرج الاستفهام عن استعماله الأصلي.

وبالتأكيد فإن شاعرنا لجأ إلى استعمال الأدوات المختصة بالنداء كمرتكز أساسي لبنائه التركيبي، حيث اكتفى بأداتين هما الهزة والياء لعملية النداء، وربما كان استعمالهما بشكل متساو، يقول ابن الخطيب:

أَمْحَمَدٌ وَالْحَمْدُ مِنْكَ سَجِيَّةٌ بِحَلِيهَا بَيْنَ الْوَرَى يَتَجَمَّلُ⁽¹⁾

وقوله :

أَمْحَمَدٌ أَبْلَيْتَ دِينَ مُحَمَّدٍ حَسَنَى، بَقَاءَ الذِّكْرِ مِنْ حَسَنَاتِهَا⁽²⁾

وقوله كذلك :

يَا نَيْرًا لَوْلَا تَوَقُّدُ نُورِهِ هَفَّتِ الْخُلُومُ وَفَالَطَتِ الْأَرْأُ⁽³⁾

وقد يكرر ابن الخطيب أسلوب النداء للتعبير عن حنينه و شوقه إلى الرسول الكريم وقبره، ومن أمثلة ذلك قوله:

فِيَا سَرَحَ ذَلِكَ الْحَيِّ لَوْ أَخْلَفَ الْحَيَا لِأَعْنَاكَ مِنْ صَوْبِ الدُّمُوعِ صَبِيبُ

(1)- لسان الدين بن الخطيب. الديوان . ص: 568 .

(2)- لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ص: 328 .

(3)- المصدر نفسه . ص: 232 .

وَيَا هَاجِرَ الْجَوِّ الْجَدِيبِ تَلْبُثًا
فَعَهْدِي رَطْبُ الْجَانِبِينَ خَصِيبُ
وَيَا قَادِحَ الزُّنْدِ الشَّحَاحِ تَرْفُقًا
عَلَيْكَ فَشَوْقِي الْخَارِجِيَّ شَبِيبُ
أَيَا خَاتِمَ الرُّسُلِ الْمَكِينِ مَكَانُهُ
حَدِيثُ الْغَرِيبِ الدَّارِ فِيكَ غَرِيبُ⁽¹⁾

كما نجده يكرر أسلوب النداء بعد الصلاة على الرسول ﷺ وهذا في أبيات متتالية:

عَلَيْكَ صَلَاةُ اللَّهِ يَا خَيْرَ مُرْسَلٍ
وَأَكْرَمَ هَادٍ أَوْضَحَ الْحَقِّ وَالرُّشْدَا
عَلَيْكَ صَلَاةُ اللَّهِ يَا خَيْرَ رَاحِمٍ
وَأَشْفَقَ مَنْ يُثْنِي عَلَى رَأْفَةٍ كَبْدَا
عَلَيْكَ صَلَاةُ اللَّهِ يَا كَاشِفَ الْعَمَى
وَمُذْهَبَ لَيْلِ الشَّكِّ وَهُوَ قَدْ ازِيدَا⁽²⁾

ويعود شاعرنا إلى أسلوب النداء وهذه المرة يعقبه بذكر صفة من صفاته :

يَا صَفْوَةَ اللَّهِ الْمَكِينِ مَكَانُهُ
وَقُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَبْدٌ تَقَاصَرْتُ
يَا خَيْرَ مُؤْتَمَنٍ وَ خَيْرَ نَصِيحٍ
فَقُولُوا رَسُولَ اللَّهِ يَا خَيْرَ خَلْقِهِ
خُطَاهُ وَأَضْحَى مِنْ أَحَبِّهِ فَرْدَا
وَأَكْرَمَ مُخْتَارِ أَبَانَ بِهِ الرُّشْدَا
يَا مُصْطَفَى الرَّحْمَنِ وَالنُّورِ الَّذِي
أَخْفَى الضَّلَالَ وَأَظْهَرَ التَّوْحِيدَا⁽³⁾

وهكذا نجد أسلوب النداء قد وظف لخدمة المدحة النبوية، وكذا تجربة الحنين إلى الرسول المصطفى، واكتسب دلالة أعمق في سياق هذه التجربة، فقد جاء مفعما بالحساس الشاعر ووجدانه ومشاعره.

3-2- أسلوب الاستفهام:

كان ذا حضور ملموس في تراكيب ابن الخطيب، يقول في إحدى مدائحه وهو يعدد معجزاته عليه الصلاة والسلام :

وَمَاذَا يَعُدُّ الْوَصْفُ مِنْ مُعْجَزَاتِهِ
وَأَيُّ رَسُولِ اللَّهِ تَسْتَعْرِقُ الْعُدَا⁽⁴⁾
وقوله في قصيدة ميلادية:

وَهَلْ أَتَتْصِي دَهْرِي فَيَسْمَحُ طَائِعًا
وَأَدْعُو لِحَظِّي مَسْمَعًا فَيَجِيبُ
وَكَيْفَ يَضِيقُ الدَّرْعُ يَوْمًا بِقَاصِدٍ
وَذَاكَ الْجَنَابُ الْمُسْتَجَارُ رَحِيبُ

(1)- لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ص: 328 . ص: 323 .

(2)- المصدر نفسه . الصفحات: 476-477 .

(3)- المصدر نفسه . الصفحات: 383-475-481-486 .

(4)- المصدر نفسه . ص : 483 .

فَوَ اللّٰهَ مَا يَزِدَادُ إِلَّا تَلْهُبًا أَبْصَرْتَ نَارًا ثَارَ عَنْهُ لَهَيْبٌ (1)

وبالطبع فإن ابن الخطيب يعتمد في تراكيبه الاستفهامية على أدوات الاستفهام التي تنوعت في المدائح النبوية، حيث شملت (الهمزة، ماذا، هل، كيف، أين، متى، أي، من، كم)، لكن الهمزة تبقى أكثر استخداما عند ابن الخطيب، لاتساع دائرة الاستعمال فيها، «فهي التي يسأل بها عن كل شيء في الجملة» (2). يقول شاعرنا:

أَجْدُ حَقَّ الْحُبِّ وَالِدَمْعِ شَاهِدٌ وَقَدْ وَقَعَ التَّسْجِيلُ مِنْ بَعْدِ مَا أَدَّى

أَلَمْ تَرَيَانِي كَلَّمَا هَبَّتِ الصَّبَا أَبْلُ بِهَا مِنْ نَارٍ لَوْعَتِي ال... (3)

أَبْعَدُ سُرَى الرِّكْبِ الْحِجَازِيِّ مُوهِنًا أَمُدُّ لِنَفْسِي فِي تَعَلُّهَا مَدًّا (4)

وحيثما تظهر التراكيب الاستفهامية في المدحة النبوية، فإن ابن الخطيب يعي تماما وظيفتها التي تتجاوز التواصل إلى التفاعل؛ لذلك فقد حرص شاعرنا على إمداد مدحه النبوية بتلك التراكيب الاستفهامية بين الفينة والأخرى، فتكون بشكل منفرد وهو الأغلب، أو بشكل مجموعات متوالية لتقوم بعملية تنشيط النص وتحقيق التفاعل مع المتلقي (5). ولننظر إلى الأبيات التالية في إحدى مدحه النبوية:

وَهَلْ هُوَ إِلَّا مَظْهَرٌ أَنْتَ سِرُّهُ لِيَمْتَنَزَ فِي الْخَلْقِ الْمُكِبُّ مِنَ الْأَهْدَى

بِمَادَا عَسَى يُثْنِي عَلَيْكَ مُقَصِّرٌ وَلَمْ يَأَلُ فَيْكَ الْوَحْيَ مَدْحًا وَلَا حَمْدًا

بِمَادَا عَسَى يُجْزِيكَ هَاوٍ عَلَى شَفَى مِنَ النَّارِ قَدْ أَسْكَتَتْهُ بَعْدَهَا الْخُلْدَا (6)

ولعلنا نلاحظ اعتماده على أداة واحدة في بيت واحد (كم)، (ماذا):

فَكَمْ مُعْتَدٍ أَرْدَى، وَكَمْ تَأْتِيهِ هَدَى وَكَمْ حِكْمَةٍ أَضْفَى، وَكَمْ نِعْمَةٍ أَبْدَى

خَلِيلِي مَادَا يَحْصِرُ الْقَوْلُ إِنْ غَلَا وَمَادَا عَسَى يُحْصِي الْكَلَامَ وَإِنْ نَدَا (7)

(1) - لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . صص: 322-323 .

(2) - محمد أبو موسى. دلالات التركيب: دراسة بلاغية. ط2. مكتبة وهبة، القاهرة، 1987م . ص: 205 .

(3) - فراغ بسبب خرم في الأصل ولعل المراد: الخدا

(4) - لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . صص: 473-480 .

(5) - ينظر: محمد الهادي الطرابلسي. خصائص الأسلوب في الشوقيات. (د، ط). منشورات الجامعة التونسية

، (د، ت) . ص: 350 .

(6) - لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ص: 476 .

(7) - المصدر نفسه . صص: 479-483 .

أما دلالات الاستفهام في تراكيب ابن الخطيب فلا تكاد تأتي في معناها الأصلي وهو « طلب العلم لشيء لم يكن معلوماً »⁽¹⁾ . بل طرقت دلالات متنوعة ومعاني متعددة

حسب السياق الذي وردت فيه، فمنها على سبيل المثال التمجيد للمدوح (النبي صلى الله عليه وسلم) :

بِأَيِّ شُكْرِ نُؤْفَى كُنْهَ نِعْمَتِهِ لَوْ أَنَّ سَحْبَانَ أَوْ قُسًّا لَهَا انْتُدِبَا⁽²⁾

3-3-أسلوب التمني:

إن أسلوب التمني الذي تم توظيفه من طرف "ابن الخطيب" يدل على صدق تجربة الشاعر، وخلال تتبعي للمدائح النبوية ، أجدّه يخدم تلك التجربة التي تبرز حنينه إلى الأراضي المقدسة، والتشوق إلى الأرض التي ضمت قبر النبي صلى الله عليه وسلم . يقول ابن الخطيب:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي وَالْأَمَانِي ضَالَّةً وَقَدْ تُخْطِئُ الْأَمَالَ ثُمَّ تُصِيبُ

وَيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ لِحَوْمِي مَوْرِدٌ لَدَيْكَ، وَهَلْ لِي فِي رِضَاكَ نَصِيبُ

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَرَانِي نَاهِدًا أَفُودُ الْقِلَاصَ الْبُذْنَ وَالضَّامِرَ النُّهْدَا⁽³⁾

كما تمنى الشاعر الذهاب وشد الرحال إلى البيت العتيق، وزيارة قبر النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، والتبرك بآثاره، وذلك ما لمسناه من خلال أساليب التمني التي وظفها ابن الخطيب للتعبير عن تجربته الشعرية، والشواهد على ذلك كثيرة منها ما نجده في قوله:

وَيَا لَيْتَ أَنِّي فِي جَوَارِكِ ثَاوِيًا أَوْسَدُ مِنْهُ الْمِسْكُ وَالْعَنْبَرُ الْوَرْدَا⁽⁴⁾

3-4-أسلوب الأمر والنهي:

هناك أساليب إنشائية طلبية أخرى لم يكن حضورها قويا في مدائح ابن الخطيب في القرن الثامن الهجري، كأسلوب الأمر ومثال ذلك قوله في أبيات متفرقة :

دَعْ عَنْكَ هِنْدًا وَالِدِّيَارَ وَمَنْ بِهَا وَدَعِ الْغَرَامَ يَكُونُ بَعْضُ عَفَاتِهَا

فَنُبْ عَنْ بَعِيدِ الدَّارِ فِي ذَلِكَ الْحَمَى وَأَذِرْ بِهِ دَمْعًا وَعَقْرٌ بِهِ خَدَا

وَقُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَبْدٌ تَقَاصَرْتُ خُطَاهُ وَأَضْحَى مِنْ أَحْبَبْتِهِ فَرْدَا

فَقُولُوا رَسُولُ اللَّهِ يَا خَيْرَ خَلْقِهِ وَأَكْرَمَ مُخْتَارِ أَبَانٍ بِهِ الرُّشْدَا⁽⁵⁾

(1)-عبد السلام هارون.الأساليب الإنشائية في النحو العربي.ط2. مكتبة الخانجي،القاهرة،1979م. ص:18

(2)- لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ص: 267.

(3)- المصدر نفسه . الصفحات: 321-322-477 .

(4)- المصدر نفسه . ص: 482 .

(5)- المصدر نفسه . الصفحات: 327-475-481 .

أما أسلوب النهي فيكاد ينعدم تماما، إلا في قوله هذا :

وَلَا تُصَلِّيًا دَمْعِي بِتَجْرِيحِ مُقْلَتِي فَدَمْعِي مَقْبُولٌ عَلَى الْقَلْبِ مَا أَدَّا⁽¹⁾

كما وردت أساليب أخرى إنشائية غير طلبية، وتكررت مرات عدة في نتاج الشعراء في تلك الفترة. من هذه الأساليب أسلوب التعجب، حيث وظف الشاعران هذا الأسلوب للدلالة على حنينهما إلى الرسول الكريم وقبره . يقول ابن الخطيب:

لِلَّهِ دَرٌّ رَكَائِبٍ قَطَعَتْ إِلَى مَغْنَى تَرَاكَ تَهَائِمًا وَنُجُودًا
فَلِلَّهِ دَرٌّ الْقَوْمِ فِيهَا وَقَدْ عَدُوا ضِيُوفًا بِمَثْوَى سَيِّدِ الْعَرَبِ وَالْعُجْمِ⁽²⁾

وهما صيغتان سماعيتان غير قياسيتين .
وقوله أيضا:

أَعَزُّ بِمَوْلِدِهِ الْكَرِيمِ وَخُصَّةُ مِنْ ذِكْرِكَ التَّقْدِيسِ وَالتَّمَجِيدِ⁽³⁾
وهي صيغة سماعية قياسية.

(1) - لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ص: 479 .

(2) - المصدر نفسه . صص: 486-576 .

(3) - المصدر نفسه . ص: 487 .

ب- ابن جابر:

3-1- أسلوب النداء: كان حضوره قويا جدا عند ابن جابر، أكثر من معاصره ابن الخطيب، وكان الغالب استخدامه أداة النداء (يا) . ومن ذلك قوله:

وَأَقُولُ يَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ مَذْنِبٌ	لَعِبْتُ بِهِ الْأَمَالَ وَالْأَهْوَاءُ
أَدْنُ أَطْلُبُ اسئَلُ يَا مُحَمَّدُ إِنَّنَا	نُعْطِي الْجَزِيلَ وَلَا يَضِيقُ عَطَاءُ
يَا خَيْرَ خَلْقِ اللَّهِ فَازَتْ أُمَّةٌ	قَدْ تَابَعُوكَ وَلَوْ عَصَوْا وَأَسَاؤُوا
فَنَادَيْتُ يَا خَيْرَ الْوَرَى إِنَّ مَفْصِدِي	إِلَيْكَ وَحَالِي غَيْرُ ذَاتِ خَفَاءِ
لِجَاهِكَ يَا خَيْرَ الْأَنَامِ تَوَجَّهِي	إِذَا الْأُمُّ فِي شُغْلٍ عَنِ الرُّضْعَاءِ
يَا أَيُّهَا الْعَاذِلُ فِي حُبِّي لَهَا	أَقْصِرْ فَلِي سَمْعٌ عَنِ الْعَذْلِ نَأَى
يَا مَنْ عَدَا لِلْخَلْقِ كَهْفًا وَحَمَى	فَأَكْرَمَ الْمَثْوَى وَأَوَى وَحَمَى
يَا مَنْ جَرَى مِنْ كَفِّهِ الْمَاءُ وَمَنْ	حَنَّ لَهُ الْجُدْعُ وَسَبَّحَ الْحَصَى (1)

فهذه الشواهد عن النداء قمت باستخراجها من مدائح نبوية مختلفة، للبرهنة عن مدى حرص الشاعر على توظيف النداء، والملاحظ عليها أن ابن جابر يستعمل أداة النداء ويتبعها بصفة من صفات الرسول (خير البرية، خير خلق الله، خير الورى، خير الأنام..). وقد تتابع أدوات النداء في قصيدة واحدة، وهذا للتعبير عن حنينه تجاه المحبوب (صلى الله عليه وسلم) مظهرا شوقه وحنينه ، وفي ذلك يقول:

يَا أَحْلَمَ النَّاسِ عَلَى مَنْ قَدْ جَنَى	وَأَعْدَلَ الْخَلْقِ إِذَا مَا قَدْ قَضَى
يَا مُصْغِرَ الْأَلْفِ إِذَا مَا جَادَ أَوْ	جَرَّدَ فِي الْهَيْجَاءِ سَيْفًا أَوْ نَضًا
يَا نَاصِحًا أَحْكَمَ تَشْيِيدِ الْهُدَى	عَزْمًا فَلَمَّا يَنْتَقِضُ وَ لَا انْقَضَى
يَا مُضْفِيًا لِلنَّاسِ ظِلَّ رَحْمَةٍ	بَاتَ الْعِدَا مِنْهَا عَلَى جَمْرِ الْعُضَا
يَا مُوسِعَ الْأَلْفِ بِصَاعِ شِبَعًا	وَمَنْ مَشَى الدَّوْحَ إِلَيْهِ وَسَعَى (2)

ويستمر ابن جابر في هذه الشاكلة، في استهلال أبياته بأداة النداء (يا) في أبيات متعاقبة وهذا في قصيدة لامية :

(1)- ابن جابر. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين أو الغين في مدح سيد الكونين. الصفحات: 24-25

36-38-39-52-54

(2)- المصدر نفسه . صص: 55-56 .

يَا خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْبُرَاقُ وَجَاوَزَ الـ سَبْعَ الطَّبَاقِ وَنَالَ خَيْرَ مَنَالِ

يَا مَنْ وَقَى مُهَجًا وَفَتَحَ أَعْيُنًا وَهَدَى قُلُوبَ النَّاسِ بَعْدَ ضَلَالٍ
يَا مَنْ عَلَى كُلِّ الْأَرَامِلِ قَدْ عَدَا سِنْرًا وَلِلْأَيْتَامِ خَيْرَ ثِمَالٍ⁽¹⁾

إن نقول إن ابن جابر قد أكثر من أسلوب النداء فلم أستطع عدّها واكتفيت فقط بإيراد أمثلة توضيحية ، كما أنه اعتمد كثيرا على الأداة (يا) في حينه إلى الرسول الأعظم وهو يمدحه، ويعدد صفاته وخصاله ومعجزاته.

3-2- أسلوب الاستفهام:

إن الدور الذي يلعبه الاستفهام دور مهم مؤثر يحقق للنص قيمة فنية وجمالية عالية في مستوى الشكل والمضمون، فقد أكثر ابن جابر من هذا الأسلوب، خاصة أن الذي يبيغه هو التعبير عن مدى حبه للرسول صلى الله عليه وسلم لينال رضاه وشفاعته، وقد استخدم في مدائحه النبوية الكثير من أدوات الاستفهام . يقول:

مَنْ أَمَّ بِابِكَ لَا يُخَيِّبُ رَجَاءَهُ وَمَتَى يَخَيِّبُ لَدَى الْكَرِيمِ رَجَاءُ
وَمَنْ ذَا الَّذِي تَمْتَدُّ نَحْوِي كَفَّهُ بِسُوءِ وَجَاهِ الْهَاشِمِيِّ إِزَائِي
هَلْ مَارَسْتَ إِلَّا أَخَا عَزْمٍ إِذَا مَا قَعَدَ النَّاسُ عَنِ الْخَطْبِ جَثَا
هَلْ هِيَ إِلَّا سُنَّةُ الْحَقِّ الَّتِي أُرِيدُ مَنْ لَادَ بِهَا أَوْ احْتَدَى
هَلْ أَنْتُمْ تَدْرُونَ أَيْنَ مُرَادُهُ دَارٌ بِهَا لِلْمَكْرُمَاتِ رُسُوحُ
وَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي أَبْتَدِرُ السَّرَى إِلَيْكَ وَحِيدًا أَمْ أَسِيرُ مَعَ الرَّكْبِ⁽²⁾

فلاحظ أن الشاعر نوع في استعمال أدوات الاستفهام (من، هل، الهمزة) وهو يمدح النبي الكريم، مستذكرا نسبه ، متشوقا إليه، متسائلا هل سيزوره وحده، أم سيسير مع الركب الذاهب إلى مكة . كما استعمل الأداة (متى) في قوله:

مَتَى أَحُلُّ حِمَى قَوْمٍ يُحِبُّهُمْ قَلْبِي وَكَمْ هَائِمٍ قَبْلِي بِحُبِّهِمْ
مَتَى أَرَى جَارَ قَوْمٍ عَزَّ جَارُهُمْ عَهْدٌ عَلَيَّ السَّرَى حِفْظًا لِعَهْدِهِمْ⁽³⁾

كما وظف الشاعر أسلوب استفهام بـ(أليس، ألم) في مجموعة أبيات متتالية في إحدى مدائحه، وهي قصيدته اللامية:

(1) - ابن جابر . ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين أو الغين في مدح سيد الكونين . صص: 462 .

(2) - المصدر نفسه . الصفحات: 24-36-42-46-71-149 .

(3) - المصدر نفسه . ص: 493 .

أَلَمْ يَعْلَمُوا عِلْمَ الْيَقِينِ بِصِدْقِهِ
 أَلَيْسَ الَّذِي فِي كَفِّهِ سَبَّحَ الْحَصَى
 أَلَيْسَ مِنَ الْقُرْآنِ جَاءَ بِمُعْجَزٍ
 أَلَيْسَ انشِقَاقُ الْبَدْرِ كَانَ لِأَجَلِهِ
 أَلَمْ يَنْظُرُوا لِلدُّوْحِ تَسْعَى لِقَصْدِهِ
 أَلَيْسَ الَّذِي قَدْ أَلَمَ الْجُدْعَ فَقْدُهُ
 أَلَيْسَ الَّذِي أَعْطَى الْغَزَالََةَ عَهْدَهُ
 أَلَمْ يَبْتَدِرْهُ الْعَنْكَبُوتُ بِنَسْجِهِ
 أَلَيْسَ بِبَابِ الْغَارِ حَامَتِ حَمَامَةٌ
 أَلَيْسَ بَعِيرُ الْقَوْمِ لَأَذٍ بَعْدَلِهِ
 أَلَمْ يَسْمَعُوا صَوْتَ الطَّعَامِ مُسَبَّحًا
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْوَحْشَ وَالِدُوْحَ سَلَّمَتْ
 أَلَيْسَ الَّذِي قَدْ كَلَّمَ الضَّبَّ سَائِلًا
 أَلَيْسَ لَهُ الْحَوْضُ الَّذِي نَأْمَنُ الظَّمَا
 أَلَمْ تَقْدِفِ الْجِنَّ النُّجُومَ لِأَجَلِهِ
 وَ لَكِنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ لِمَعْقَلِ
 وَأَرْوَى جَمِيعَ الْجَيْشِ مِنْ نَبْعِ أَنْمَلِ
 لِكُلِّ مُجِيدٍ فِي الْبَلَاغَةِ مُجَزَلِ
 فَشَقَّ عَلَى نَفْسِ الشَّقِيِّ الْمُدَلَّلِ
 أَلَمْ يُبْصِرُوا فِعْلَ الْعَمَامِ الْمُظَلَّلِ
 فَإِنَّ أَنْبِيَّ الشَّقِيِّ الْمُتَمَلَّلِ
 فَعَادَتْ وَلَمْ تُخْلِفْ وَلَمْ تَتَمَهَّلِ
 عَلَى الْغَارِ إِذْ جَاؤُوا فَجَالُوا بِأَسْفَلِ
 لِتَصْرِفَهُمْ عَنِ قَصْدِهِ بِالتَّخْيَلِ
 فَأَنْجَاهُ مِنْ جُوعٍ وَتَثْقِيلِ مَحْمَلِ
 لَدَيْهِ مَتَى مَا مَدَّ كَفًّا لِمَأْكَلِ
 عَلَيْهِ وَمَا يَلْقَاهُ مِنْ كُلِّ جَنْدَلِ
 فَقَالَ مُجِيبًا أَنْتَ آخِرُ مُرْسَلِ
 إِذَا مَا شَرِبْنَا مِنْهُ جَرَعَةً سَلْسَلِ
 وَهُمْ عَنِ لِحَاقِ السَّمْعِ بَعْدَ بِمَعْرَلِ (1)

حيث نلاحظ تكثيف استعمال الشاعر لأداة الاستفهام (الهمزة) قبل أداتي النفي (ليس، لم) وهو يمدح النبي الكريم معددا معجزاته العظيمة، الشيء الذي ترك في نفسه أثرا عميقا.

3-3-أسلوب التمني: إن توظيف ابن جابر لهذا الأسلوب للتعبير عن تجربة روحية

لصيقة بوجدانه تؤكد عمق إيمانه، وصدق تجربته الشعرية، ألا وهي حبه للنبي صلى الله عليه وسلم وطلب نيل الشفاعة منه . يقول:

يَا لَيْتَ شِعْرِي أَيَّ يَوْمٍ تَشْتَفِي
 يَا لَيْتَ شِعْرِي مَتَى أَرَى بِلَدَا
 كَبِدٌ لِشِدَّةِ شَوْقِهَا حَرَاءُ
 حَلَّ بِهِ خَيْرٌ مُرْسَلٍ بُعَا (2)

فقد استعمل أسلوب التمني مقرونا بأسلوب النداء، وهو في حالة قلق، متمنيا شد الرحال إلى البيت العتيق وزيارة قبر النبي الكريم .

(1)- ابن جابر. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين أو الغين في مدح سيد الكونين. صص: 449-450

(2)- المصدر نفسه . ص: 27- 115 .

إن ذلك التمني جاء ممتزجا باليأس والإحباط اللذين يسيطران على مشاعر ابن جابر وأحاسيسه، ومثل ذلك قوله:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَرَانِي لَيْلَةً أَسُوقُ الْمَطَايَا بَيْنَ مَكَّةَ وَالْعُرْجِ
لَيْتِي يَا قَوْمَ بَيْنَ الْمَطَايَا رَائِحًا فِي قَصْدِهِمْ حَيْثُ رَاحُوا⁽¹⁾

لقد استعمل شاعرنا ابن جابر أسلوب التمني بشكل كبير جدا، إذا ما قورن بمعاصره ابن الخطيب، وهذا لخدمة غرض المديح النبوي. لا يتسع المجال لذكرها كلها لذا سأكتفي بذكر البيت الأخير للاستشهاد:

لَيْتَ الرَّكَّابُ تُدْنِي مِنْ مَعَاهِدِهِ فَالْبُعْدُ عَنْهُنَّ شَيْءٌ غَيْرٌ مُحْتَمَلٍ⁽²⁾

فطبيعي جدا أن يوظف الشاعر أسلوب التمني، لأنه ضاقت به كل السبل لزيارة بيت الله الحرام وبالتالي زيارة لحد الرسول صلی اللہ علیہ وسلم. فأصبحت أمنيته شعرا يقال لعله يشفي غليله، ويطفي نار الحرقه والشوق.

3-4- أسلوب الأمر والنهي: استخدم ابن جابر أسلوب الأمر بمعناه الحقيقي، أما النهي

فلم يرد ذلك إلا قليلا ومن أمثلة ذلك قوله:

وَسَلْ عَنْهُ إِنْ وَافَيْتَ سَلْعًا فَإِنَّهُ كَرِيمٌ إِذَا مَا أَلْعَيْتَ يَمْنَعُ يَمْنَحُ
وَسَلْ مَا حَيَّيْتَ الْقُرْبَ مِنْهُ وَلَا يَكُنْ لِسُعْدَى وَلَا سَلْمَى بِقَلْبِكَ مَطْمَحُ
سَامِحٌ صَدِيقَكَ وَاسْتُرْ قُبْحَ زَلَّتِهِ وَاعْضِبْ لَهُ عِنْدَ مَنْ آذَاهُ وَأَنْتَصِرِ
رُؤْيِدُكُمْ نَبِيَّ الذُّنُوبِ الَّتِي خَلَّتْ بِسِفْطِ اللُّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ وَحَوْمَلٍ⁽³⁾

فقد استعمل في الأبيات الثلاث الأولى فعل الأمر، وفي الرابع اسم فعل أمر بمعنى (تمهل).

أما أسلوب النهي فيمكن الاستشهاد بقوله:

لَا تَكُونُوا كَالْفَرَّازِينِ⁽⁴⁾ إِذَا مَا رَحَلْتُمْ وَأَنْهَضُوا نَهْضَ الرَّخَاخِ
لَا تَجْنِبِي بِحَدِيثِ غَيْرِهِ فَهُوَ لَا يَدْخُلُ وَاللَّهِ صِمَاخِي⁽⁵⁾

(1)- ابن جابر. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين أو الغين في مدح سيد الكونين. صص: 125-135

(2)- المصدر نفسه. ص: 456.

(3)- المصدر نفسه. ص: 139-218-440.

(4)- الفرّازين: هي فرذان أي الملك في الشطرنج. الرخاخ: ج رخ: قطعة من أحجار الشطرنج.

(5)- ابن جابر. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين. ص: 152.

هذه بعض نماذج من الأساليب الإنشائية الطليبية التي برزت على مستوى شعر المديح النبوي، ولم يبرز أسلوب النهي لبروز أسلوب الإثبات الذي يؤكد حنين الشاعران وصدق تجربتهما الشعرية. وكان أسلوب النداء الأبرز في شعر المدائح النبوية لدى الشعراء، يليه أسلوب الاستفهام ثم التمني .

III-بناء الصورة الشعرية:

مما لا شك فيه أن وسيلة الشاعر لاكتشاف الأشياء، كانت تتمثل في الصورة، وكان الشاعر القديم يرسم صورة بواسطة و التشبيه وما شابههما، ولم يستطع الشاعر الحديث أن يستغني عن هاتين الوسيلتين، وإن كانت الصورة الشعرية الحديثة تعد أوسع نطاقا وأخصب من مجرد التشبيه أو الإستعارة، وقد يصل التشبيه أو تصل الاستعارة في بعض الأحيان إلى درجة الخصب والامتلاء والعمل إلى جانب الأصالة والابتداع. بحيث تؤدي الصورة دورها. وربما كان الشاعر الحديث يستعين بوسائل أخرى إلى جانب هاتين الوسيلتين ليمنح صورة الخصب العمق، ولعل من أهم هذه الوسائل الإيحاء، وقد يتم هذا باختيار الكلمة المعبرة ووضعها في سياقها المناسب من الجملة الشعرية .

ولم تكن الصورة الشعرية عند الشاعر القديم منحصرة في التشبيه أو الإستعارة وما إليهما، بل كان يستغني عنهما بالكلمة المعبرة أو الوصف في بعض الأحيان، وبذلك لا نجد فرقا كبيرا بين الشاعر القديم والحديث في هذا المجال « غير أن الشعر الحديث يختلف عن الشعر القديم في طريقة استخدامه للصور»⁽¹⁾.

ولا شك أن طبيعة الصورة لدى الشاعر القديم تتمثل في نقل صورة شيء وإضافتها على شيء آخر، يظهر أن الشاعر كان يحاول بواسطة الصورة أن يؤلف بين الكائنات الحية من جهة، وبين الطبيعة من جهة أخرى، فيحدث بذلك نوعا من الانسجام بين الأشياء، وهو بهذا يرى الوجود كله حيا إذا اهتز منه جزء اهتزت له سائر الأجزاء، والصورة تنشأ حين يحدث هذا الانسجام، وحين يتسع خيال الشاعر فيشمل كافة الموجودات⁽²⁾.

وقد نتساءل أحيانا عن نشأة الصورة لدى الشاعر بصفة عامة ، ومما لا شك فيه أن الشاعر يتميز بإحساس مرهف أكثر من غيره من الناس ، فالشعر إحساس قبل كل شيء، وهذا الإحساس يضيق به الواقع أحيانا ، فيحاول الشاعر أن يتجاوزه ، ويستعين في هذا التجاوز بالخيال ، وربما كان هذا الأخير الوسيلة الأولى التي يخلق بها الشاعر في أجواء بعيدة، فيحلم بأشياء لا يجدها في الواقع المحسوس « من وسائل التصوير

(1)-إحسان عباس . فن الشعر. ط3 . نشر وتوزيع دار الثقافة ، بيروت ، لبنان، د ، ت. ص : 230 .

(2)- ينظر: مصطفى ناصف . الصورة الأدبية . ط1 . دار مصر للطباعة ، 1974م . ص : 40 .

الشعري الأساسية، إذن هذا الإحساس الذي يشكل المنطلق الأول لملكات الشاعر المختلفة، بيد أن هذا الإحساس مهما بلغ من الحيوية لا يكفي في عملية التصوير، لأن الشاعر في أشد الحاجة إلى عمل داخلي يساعد على هضم الرموز التي يتلقاها من الطبيعة، وعلى تحويلها إلى أفكار وخواطر صالحة للتصوير، وهذه العملية الداخلية تحتاج- بالإضافة إلى الإحساس السالف- إلى هذا الشعور الذي يكون واسعاً حيناً، ودقيقاً حيناً آخر، فهو شعور باطني، من مهامه تحويل الأحاسيس التي تثور في نفس الشاعر إلى مشاعر نرّمز إلى هذه الأحاسيس ويعبر عنها تعبيراً غير مباشر»⁽¹⁾.

« والصورة هي أداة الخيال ووسيلته الهامة التي يمارس بها ومن خلالها فعاليتها ونشاطه»⁽²⁾.

« وعلى الرغم من أنه يصعب على كل باحث في مجال النقد الأدبي أن يقدم مدلولاً قاطعاً مانعاً لمصطلح الصورة، لذلك فإن مصطلح الصورة يستعمل في أكثر من مجالات المعرفة الإنسانية، ويتخذ في كل منها مفهوماً خاصاً »⁽³⁾.

وإذا توغلنا في تراثنا العربي، ألفينا الحصول على مفهوم شامل للصورة أمراً متعذراً، فقد اختلط البحث البلاغي في الصورة بمباحث عقدية وكلامية وفلسفية، إلا أنه كان هناك شبه إجماع لدى البلاغيين على أن الصورة ليست سوى تجسيد للمعنوي في صورة حسية، يقول **عبد القاهر الجرجاني** « وإذا نقلتها (أي الحواس في الشيء بمثله عن المدرك بالعقل المحض إلى المدرك بالحواس) فأنت كمن يتوسل إلى الغريب بالحميم وللجديد الصحبة بالحبیب القديم »⁽⁴⁾.

فالمعنى عند البلاغيين دقيق، لطيف، يحتاج في إدراكه إلى تقريب وتيسير، فتأتي الصورة لتجسد هذا المعنوي المدرك بالعقل في صورة إدراك حسي، « فأجلي ذلك وأظهره أن أنس النفوس موقوف على أن تكون تخرجها من خفي إلى جلي ،

(1)- محمد مصايف. جماعة الديوان في النقد . ط1. مطبعة البعث ، قسنطينة ، الجزائر، 1974م . ص : 40

(2)- عبد الخالق محمود . شعر ابن الفارض في ضوء النقد الأدبي الحديث. ط3 . دار المعارف ، القاهرة

، 1984م . ص : 105

(3)- المصدر نفسه . ص : 106

(4)- عبد القاهر الجرجاني . دلائل الإعجاز . ص : 204

وتأتيها بصريح بعد مكنى وأنت ترددها بالشئء تعلمها إياه إلى آخر بشأنه أعلم وثقتها به في المعرفة أحكم نحو أن تنقلها من العقل إلى الإحساس وعما يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع، لأن العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركز فيها من جهة الطبع يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام»⁽¹⁾ .

فما يدرك بالعقل، وهو المعنى يمتاز رغم طاقته ودقته بالثبات والدوام. وما يدرك بالحس وهو اللفظ بأنه متغير متحول. « كان المعنى يرتبط عند البلاغيين بفكرة الثبات، وكان يرتبط في بعض الدراسات الفلسفية بكلمة العقل، وكانت العقل ترتبط هي الأخرى بكلمة الإلهي، واللفظ في نظر بعض الفلاسفة لا ثابت، وهو مرتبط بالطبيعة، والطبيعة آثار يتلو بعضها بعضا»⁽²⁾ .

والمعاني للطفها ودقتها محدودة، معروفة لدى الجميع، وكل الذي يقوم به الشاعر هو تقديم تلك المعاني المعروفة بشكل مزين، وتلك هي القيمة الأساسية للتصوير. قال **الجاحظ** «المعاني مطروحة في الطريق، يعرفها العربي والعجمي والبدوي والقروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع، فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير»⁽³⁾ .

فالصورة الفنية ، وفقا لهذا المفهوم لن تغير من طبيعة المعنى في ذاته، بل إنها يمكن أن تحذف دون أن تغير الهيكل الذهني المجرد للمعنى .

وخلص القول في مفهوم الصورة الشعرية عند القدماء ، إنها وسيلة يتخذها الشاعر لإيضاح أو تجسيد معنى موجود سلفا ، ولم يدرك البلاغيون القدماء « أن الشاعر تفاعل حس ولغة ، وكونه كذلك يعني أن الشاعر يحاول دائما أن يكتشف طبيعة الانفعالات الغامضة والمراوغة التي تؤرقه من خلال اللغة ، واللغة بهذا المعنى ليست وعاء للفكر، إنها الوسيلة التي تكتشف بها الفكرة الشعرية ذاتها وتعديل بها من طبيعتها ، إنها وسيلة الشاعر وأداءه في الاكتشاف والتحديد والتعرف ، ولا يرجع نجاح

(1)- عبد القاهر الجرجاني ، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد . أسرار البلاغة ، تحقيق: محمود

شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة ، د ، ت ، صص : 234- 235 .

(2)-مصطفى ناصف . اللغة بين البلاغة والأسلوبية . النادي الأدبي بجدة ، السعودية ، 1987 . ص : 295.

(3)- الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر. الحيوان . ج3 ، تحقيق ، عبد السلام محمد هارون . ط1 . القاهرة

، 1938 م . صص : 131- 132 .

الشاعر في سيطرته على تجربته وتمكنه منها إلا تكوين علاقات لغوية جديدة تتكشف من خلالها التجربة ويتحدد بها الفكر ذاته» (1) .

وقد خصص البلاغيون لدراسة وسائل الصورة وسبلها، علما قائما بذاته من علوم البلاغة، هو علم البيان، وقد تمحورت أبحاث البيانين حول أربعة مباحث رئيسية هي: التشبيه، والاستعارة، والكناية، والمجاز المرسل. لكن هؤلاء البيانين لم يفرقوا بشكل واضح بين ما هو شعري وما هو نثري من هذه الأساليب، أو بين ما هو واقعي وخيالي منه، أو - بعبارة أخرى - بين ما يسهم إسهاما فعلياً في خلق الصورة الشعرية

وقد وردت لفظة " صورة " في القرآن الكريم في قوله - عز وجل -:

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ (2) .

وقوله أيضاً: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ (3) .

لقد كانت هذه أهم تصورات النقاد للصورة ، فما هي إذن أساليب تجسيدها لدى الشعراء الأندلسيين ابن الخطيب وابن جابر؟.

لقد كانا مصورين بارعين، يملكان القدرة على تصوير المطبوع، ينقلان الأشكال الموجودة كما تقع في الحس والشعور والخيال، شأنهما في ذلك شأن الشعراء المشرقين الذين عرفهم الأدب العربي من أصحاب الملكة المطبوعة في التصوير، وهي شهادة لهؤلاء الشعراء لما يمتلكونه من قدرة خارقة لوصف ورسم صور شعرية، وأساليب التجسيد لها عندهم هي مزيج من عناصر البيان الخادمة للخيال، ونورد بعض ما جاء منها. والبداية تكون في أكثر الأوجه البلاغية حضوراً في نصوص شعر المدائح النبوية

(1) - جابر عصفور . الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي . ص : 229 .

(2) - سورة آل عمران ، الآية : 06

(3) - سورة الانفطار ، الآية : 08 .

1-الصورة التشبيهية:لقد نال التشبيه اهتماما كبيرا من قبل اللغويين والبلاغيين، وحاولوا وضع تعريفات دقيقة له، كما حاولوا استقصاء دروبه وأشكاله . فالتشبيه هو « الدلالة على مشاركة أمر لأمر المعنى »⁽¹⁾، أو هو « تشبيه شيء بشيء لحصول اشتراك صفة المشبه به في المشبه ، ويشترط أن تكون من أهم وأظهر صفاته وألصقها به »⁽²⁾

ويطول بي الأمر لو حاولت مجارة القدماء في حديثهم عن التشبيه أو تقسيمهم لأضره، ولكنهم كانوا ينظرون إلى التشبيه بوصفه نوعا من المقاربة أو الربط بين المتماثلات، لكن ذلك الربط لا يكون معه تفاعل أو تداخل بين أطراف التشبيه. قال الجاحظ: « إن التشبيه يفيد الغيرية لا العينية، وإن التشبيه لا يخرج المتشابهات من أحكامها وحدودها»⁽³⁾. ومن بين تعريفات التشبيه الهامة التي وضعها القدماء، وجود الأداة أو عدم وجودها، وتقسيم التشبيه بالنظر إلى طرفيه إلى الحس والعقل...إلخ .

وأول ما يلفت الانتباه في المدائح النبوية هو استخدام الشعاعين الأندلسيين لثلاث أدوات التشبيه وهي : الكاف ، كأن ، مثل . بالرغم من أن أدوات التشبيه متعددة ، منها ما هو حرف كالكاف ، ومنها ما هو فعل ك (يشبه ، يماثل ، يعادل ، يضارع...)، وكل هذه الأدوات تلعب دورا في تشكيل الدلالة طبقا للسياق الواردة فيه .

ويعتبر التشبيه من الأدوات التي استعملها الشعاعان للتعبير عن خلجات نفسيهما وحنينهما، وينقلانها للسامع نقلا وجدانيا مؤثرا. ويعد علاقة من العلاقات الأساسية التي تبنى عليها الصورة، وتحول بين أيديهما إلى صور فاعلة مؤثرة تعبر عن أحاسيسهما وتفصح عن شوقهما، هذا الهدف الأسمى من الصورة التي عرفها دي لوييس بقوله:«إن الصورة الشعرية هي رسم قوامه الكلمات المشحونة بالإحساس والعاطفة»⁽⁴⁾.

ولعل هذا ما عناه كولردج بقوله : « ليست الصور وحدها مهما بلغ جمالها، ومهما كانت مطابقتها للواقع، ومهما عبر عنها الشاعر بدقة هي الشيء الذي يميز الشاعر الصادق وإنما تصبح الصور معيارا للعبقرية الأصيلة حين تشكلها عاطفة سائدة،

(1)- الخطيب القزويني ، جلال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عمر . تلخيص المفتاح . مكتبة

مصطفى البابو الحلبي ، القاهرة ، الطبعة الأخيرة . ص : 244 .

(2)- عبد القادر الجرجاني . الإشارات والتبهيهاات. ص : 111

(3)- مصطفى ناصف . الصورة الأدبية . ص : 40 .

(4)- محمد حسن عبد الله . الصورة والبناء الشعري . ص : 173

وحين تتحول فيها الكثرة إلى الوحدة، وبالتالي إلى لحظة واحدة، وحين يضيء عليها الشاعر من روحه حياة إنسانية وفكرية»⁽¹⁾

وتحتل الصور التشبيهية جانبا كبيرا في المدائح النبوية ، وهذا ليس مستغربا، فالتشبيه أسلوب شائع في الشعر بعامة، والشعر العربي بخاصة، واستخدم الشعراء الأندلسيان هذا العنصر من التصوير البياني والأمثلة والشواهد على ذلك كثيرة. وغالبا ما تتردد في أشعار ابن جابر وابن الخطيب عناصر التشبيه التي وظفت للتعبير عن المديح النبوي، على نحو ما نجد في قول ابن الخطيب:

وَلَا كَمِثْلِ كِتَابِ اللَّهِ مُعْجَزَةً تَبْقَى عَلَى الدَّهْرِ إِنْ وَلَّى وَإِنْ ذَهَبَا⁽²⁾

وقول ابن جابر:

وَكُنْ بِصَحْبِ رَسُولِ اللَّهِ مُقْتَدِيَا فَإِنَّهُمْ لِلْهُدَى كَالْأَنْجُمِ الرَّهْرِ⁽³⁾

فطرفا التشبيه (الرسول)(كتاب الله) هما من الأشياء المحسوسة.

أما عن العنصرين الآخرين وهما: الأداة، ووجه الشبه، فقد كثر استعمال ابن الخطيب وابن جابر للتشبيهات المرسلة، حيث استخدمتا أدوات متعددة مثل (كأن، كما، مثل، الكاف،)

يقول ابن الخطيب في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم:

فِدَاكَ فُوَادٌ ضَمَّ حَبَّكَ حَبَةً كَمَا يُودَعُ الْمَبْدُورُ فِي الْأَرْضِ أَوْ يُطْرَحُ⁽⁴⁾

يقول ابن جابر

فَحَثَّهَا شَوْفُهَا فَبَاتَتْ كَالْبَرْقِ فِي سَيْرِهَا مَضَاءً⁽⁵⁾

وفيما يخص وجه الشبه فقد كثر أن يعتمد الشعراء على التشبيهات المجملة بحيث لا يذكر فيها وجه الشبه، وقل أن يأتي وجه الشبه وذلك كقول ابن الخطيب .

وَلَا كَيْسُفَ مَوْلَانَا الَّذِي كَرُمَتْ آثَارُهُ وَبَيْنِهِ السَّادَةُ النَّجْبَا⁽⁶⁾

(1) - سيسل دي لويس . الصورة الشعرية ، تر، أحمد نصيف الجنابي ، دار الرشيد ، العراق . ص : 23 .

(2) - لسان الدين بن الخطيب . ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ص : 266 .

(3) - ابن جابر . ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين . ص : 215 .

(4) - لسان الدين بن الخطيب . ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ص : 380 .

(5) - ابن جابر . ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين . ص : 29 .

(6) - لسان الدين بن الخطيب . ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ص : 266 .

وقول ابن جابر:

وَقَدْ كَانَ يَمْشِي الدُّوْحُ لِلنَّاسِ آيَةً كَمَا كَانَ مُوسَى بِالْعَصَا قَبْلُ يَصْنَعُ⁽¹⁾

إن « أقوى مراتب التشبيه حذف أداته ووجه شبهه معاً »⁽²⁾. حينئذ يمكن أن يتحقق العمق في التشبيه والتمازج في التصوير، فتصهر الحواجز القائمة بين طرفي التشبيه، يقول ابن الخطيب:

وَإِنْ زَمَنْ يَوْمًا عَرْتَهُ زَمَانَهُ فَرَأَيْتَهُ بُرْءُ الزَّمَانِ مِنَ السُّقْمِ⁽³⁾

يقول ابن جابر:

مِنْ وَجْهِ أَحْمَدَ لِي بَدْرٌ وَمِنْ يَدِهِ بَحْرٌ وَ مِنْ فَمِهِ دُرٌّ لِمُنْتَضِمِ⁽⁴⁾

فهذا التصوير يجعل وجه الممدوح (الرسول ﷺ) كالبحر في ليل مظلم، ويده كالبحر، وفمه كالدر.

فقد وصل التشبيه هنا إلى حد « دعوى الاتحاد بين الطرفين؛ وعلى دعوى عموم الاشتراك بينهما »⁽⁵⁾.

ونتيجة لذلك فقد حاول بعض البلاغيين إخراج هذا النمط من التشبيه-أي التشبيه البليغ- من دائرة التشبيه إلى دائرة الاستعارة لقوة الاتحاد بين طرفي التشبيه⁽⁶⁾ والذي يبدو أن هذا النمط من التشبيه « أقرب إلى إمكانية تحقيق وظائف الصورة من أنماط التشبيه الأخرى »⁽⁷⁾.

(1) - ابن جابر. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين. ص : 337.

(2) - الجرجاني، محمد علي لجرجاني. الإشارات والتشبيهات في علم البلاغة، تحقيق: عبد القادر حسين. دار نهضة مصر، القاهرة، 1981م. ص: 200 .

(3) - لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ص: 578 .

(4) - ابن جابر. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين. ص : 499.

(5) - عبد العظيم المطعني. التشبيه البليغ. دار الأنصار القاهرة، 1980م. صص: 7-8.

(6) - ينظر: عبد العظيم المطعني. التشبيه البليغ . صص: 9-10.

(7) - صلاح فضل. علم الأسلوب: مبادئه وإجراءاته. ط3. نادي جدة الأدبي ، جدة ، 1988م. ص: 361 .

2- الصورة الاستعارية: قال أرسطو: « إن الاستعارة هي أعظم في لغة الشعر لأنها تتضمن القدرة على ملاحظة التشبيه ... ثم مضى فقال : هذه الهبة لا يمكن أن تتعلم أو تنتقل من إنسان لآخر »⁽¹⁾ .

كانت هذه العبارة ذات آثار كبيرة في النقاد والشعراء، ومن بين تلك الآثار الهامة توجيه اهتمام النقاد بشكل قوي صوب الاستعارة، حتى أصبحت أروع الأعمال الأدبية- في نظر النقاد- ليست سوى استعارات كبرى، كما أسهمت عبارة أرسطو السابقة في النظر إلى الاستعارة على أنها مجرد إدراك للتشابه ، ولذلك أصبح يتردد كثيرا في النقد عبارات مثل : الفكرة الأصلية ، و الفكرة المستعارة ، والمستعار منه والمستعار له ، و الربط بينهما هو وجود بعض التشابه بين كل طرفين من أطرافها .

وقد أصاب البحث البلاغي العربي كثيرا من آثار تلك العبارة، وغدا البحث في الاستعارة لا يعدو أن يكون امتدادا للبحث في التشبيه، ولم يدر بخلد البلاغيين « أن سمات الاستعارة انتهاك حرمة العلاقات السياقية، وفصم عرى الأواصر الاقترانية، والإجهاز على التوقعات المألوفة، والإطاحة بالكلمات التي يجر بعضها بعضا بسبب العادات الإستعمالية، والاستئمامة إلى دعة الترابطات المكرورة »⁽²⁾ .

وقد عني البلاغيون عناية كبيرة بالنقل والإدعاء، و المذکور و المحذوف من أطراف الاستعارة، و المعني المجازي و المعني الوضعي، ولكنهم- في اعتقادي - لم يقفوا طويلا عند الجوانب التي يساهم كل طرف من طرفي الاستعارة في تكوين عالم جديد قائم على التلاحم بينهما .

فالاستعارة عند **السكاكي** هي: «أن تذكر أحد طرفي التشبيه، وتريد به الآخر، مدعيا دخول المشبه في جنس المشبه به ، دالا على ذلك بإثبات للمشبه ما يخص المشبه به»⁽³⁾ .

(1)- مصطفى ناصف . اللغة بين البلاغة والأسلوبية . ص :487.

(2)- صبري حافظ. جماليات الحساسية والتغيير الثقافي . مجلة فصول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 6م ، ع4، 1986 م . ص : 79 .

(3)- السكاكي ، أبو يعقوب يوسف . مفتاح العلوم . ط2 . مكتبة الحلبي، القاهرة ، 1990 م . ص : 58 .

وواضح في هذا التعريف اعتماد السكاكي التشبيه واعتباره أصلاً تبنى عليه الاستعارة .
فالاستعارة - بإيجاز - ليست سوى تشبيه حذف أحد طرفيه .

والاستعارة عند **العلوي** « تصييرك الشيء بالشيء، وليس به، وجعلك الشيء للشيء
ما ليس له بحيث لا يلحظ فيه معنى التشبيه صورة ولا إحكام »⁽¹⁾ .

وعلى الرغم من محاولة العلوي التوحيد بين طرفي الاستعارة ، فإن التشبيه هنا أيضاً
حاضر في الذهن ينازع الاستعارة عند **أبي هلال العسكري** : « نقل العبارة من موضع
استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض »⁽²⁾ .

ويبدو من هذا التعريف أنه يتجاهل التشبيه تماماً، وينظر إلى الاستعارة بوصفها
انحرافاً عن النمط اللغوي المعروف، وهذا جانب مهم إلى حد كبير، لأن الاستعارة أوسع
من أن تكون انحرافاً أو تجاوزاً لنمط مألوف. ودقق البلاغيون النظر في أبنية الاستعارة
وصنفوها إلى أقسام كثيرة كالاستعارة التصريحية ، التجريدية و الترشيفية ، والاستعارة
الأصلية والتبعية...إلخ . والمقصود منها عند **الرماني** « هي تعليق العبارة على غير ما
وضعت له في أصل اللغة، على سبيل النقل »⁽³⁾ .

وقد حاول بعض البلاغيين **كعبد القاهر الجرجاني** تحويل نمط البحث في الاستعارة
من تأملها من الخارج (أي النظر إليها من حيث طرفاها) إلى التوغل في أعماق
الأشياء لكن « رغم أن أفكار عبد القاهر عن الاستعارة تعد إنجازات هامة على المستوى
التاريخي، وهي بمثابة إضافات هامة على مستوى التأصيل النقدي . فعلى أن نلاحظ أن
ما أحدثه **عبد القاهر** بهذه الانجازات وهذه الإضافات لم يكن بمثابة الانقلاب الجذري
الذي يقلب المفاهيم الأساسية رأساً على عقب ، فبعد القاهر يتحرك من البداية إلى النهاية
في بحث الاستعارة على أساس من الأصول القديمة التي يسلم بها الجميع منذ القرن
الثالث والتي تبلورت خلال القرن الرابع بوجهة خاصة ، وأعني بهذه

(1)- العلوي ، يحي بن حمزة بن علي بن ابراهيم العلوي اليمني . الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم

حقائق الإعجاز، ج1 . دار المقتطف، مصر، 1914م . ص : 198

(2)- أبو هلال العسكري ، الحسن بن عبد الله بن سهل . الصناعتين ، تح، جابر قميحة، دار الكتب العلمية،

بيروت ، د ، ت . ص:295

(3)- ابن حجة الحموي . خزانة الأدب وغاية الأرب . ص : 109

الأصول المسلمات التي تجعل الاستعارة من قبيل العرض الحسن ، بمعنى نثري يمكن أن يقوم دونها ، هذه من جهة ومن جهة أخرى تجعل العلاقات بين طرفي الاستعارة محصورة في علاقة مقارنة ضيقة تقوم على المشافهة دون أن تنظر إلى الطرفين من خلال مبدأ يسلم بتفاعل بين الدلالات ، وهي أخيراً تجعل حركة الشاعر في الانتقال بين المعاني أشبه بالحركة المنطقية الجامدة»⁽¹⁾ .

لقد استخدم النقد القديم كما كبيراً من المصطلحات التي تتحد فيما بينها للحد من إظهار التفاعل بين طرفي الاستعارة، والتقليل مما يمكن أن تسهم به من أفكار جديدة، ورؤى خصبة. « فكلما مثل المستعارة له توحى إننا أمام فكرة أصلية، كل شيء آخر في خدمته، كذلك توحى كلمة المستعارة إن وظيفة العملية المعقدة التي ندرسها تنحصر في نوع معين من العلاقة»⁽²⁾ .

فكل مستعار ومستعار له تتضمنه خصال مشتركة، كما تميزه خصال أخرى مختلفة متباينة فالتباعد والتقارب بين طرفي الاستعارة هو مجال في حد ذاته. « فإذا أخذنا مثلاً استعارة تحقيقية كما يقول الجرجاني مثل " رنت لنا ظبية " وتعني بذلك امرأة جميلة، فإن المرأة فيها هي بداية الانطلاق، والظبية هي الغاية، والمجال هي المنطقة التي تقع فيها كل الخصائص والصفات المادية من حسية وبصرية، والمعنوية من مفاهيم وتصورات بين طرفي الاستعارة ككونهما حيوانين من الحيوانات يتسمان بالرقة والرشاقة واتساع العينين وليونة القد»⁽³⁾ .

والعملية الاستعارية تقيم تخلخلاً على مستوى بنية الجملة ، فتري الفعل يسند إلى ما ليس له في الحقيقة، وتوصف الأسماء بما لا يأتي لها أن توصف به في الواقع ، وقد يضاف الاسم إلى ما لا صلة له في الطبيعة، فالشاعر هو الذي يخلق استعارته على المستوى اللغوي .

(1) - جابر عصفور. الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي . ص: 176 .

(2) - مصطفى ناصف . اللغة بين البلاغة والأسلوبية . ص : 476

(3) - صبري حافظ . جماليات الحساسية والتغيير الثقافي . مجلة فصول . ص : 79 .

يقول ابن الخطيب في مدح سيد الخلق :

أَقْرَضْتُ فِيكَ اللَّهُ صِدْقَ مَحَبَّتِي أَيَكُونُ تَجْرِي فِيكَ غَيْرَ رَبِيحٍ⁽¹⁾

ففي هذا البيت تصوير اعتمد على الاستعارة، حيث استعار (التجر) لما قام به من أعمال توجب محبة الرسول ﷺ، وكذلك استعار (الريح) لثواب وأجر الآخرة .

وقال في قصيدة ميلادية يمدح الرسول ﷺ:

وَقُلْتُ لِحَفْنِي إِنْ دُعِيتَ لِعِبْرَةٍ فَسَاعِدْ بِهَا مَطْلُ الْغَنِيِّ مِنَ الظُّلْمِ
إِذَا النَّفْسُ أَبَدَتْ فِيهِ صَنَا بِجِسْمِهِ تَقُولُ لَهَا الْأَشْوَاقُ: أَلْقِهِ فِي الْيَمِّ⁽²⁾

أما ابن جابر فقد وظف مجموعة استعارات. يقول:

لَا تُنْفِقِ الْعُمْرَ سِوَى فِي حُبِّ مَنْ هُوَ الَّذِي فِي سَنَنِ الْحَقِّ جَرَى⁽³⁾

حيث شبه العمر بالمال ، حذف المشبه به ، وترك أحد من لوازمه (الإنفاق) على سبيل الاستعارة المكنية .

وكذلك في قوله:

فَأَسْأَلُ وَفَاتِكَ فِي مَحَلِّ ضَرِيحِهِ فَعَسَاكَ تُحْشَرُ فِي حِمَايَةِ حَزْبِهِ⁽⁴⁾

شبه الوفاة (الموت) بإنسان يسأل، حذف الإسنان وترك أحد لوازمه (أسأل) .

من خلال ما سبق نستنتج أن الأندلسيين تعاملوا مع هذا النوع من الصور (الاستعارة) بشيء من الرحابة والسعة، لأن أساسها التعبير عن أحاسيس عميقة في نفوس هؤلاء الشعراء المتشوقين، فكانت الاستعارة التي يقول عنها مصطفى ناصف: «تعتمد على ما في الكلمة من جمل أو من خصب كامن»⁽⁵⁾. وهي «إلهام غريزي يكشف عن عناصر الشبه بين الأشياء التي لا صلة بينها، وتؤدي بذلك إلى إدراك شعوري أو بصري نافذ»⁽⁶⁾ .

(1) - لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ص: 383.

(2) - المصدر نفسه . ص: 575.

(3) - ابن جابر. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين. ص : 47.

(4) - المصدر نفسه . ص: 67.

(5) - مصطفى ناصف. الصورة الأدبية . ط1 . دار الأندلس للطبع والنشر ، بيروت ، د ، ت . ص : 125

(6) - إليزابيث درو . الشعر كيف نفهمه ونتذوقه . ص : 61 .

3- الصورة الكنائية :

إذا كانت الصورة التشبيهية تضع بين قارئها أو سامعها معطياتها مباشرة، بلا تعمية ولا غموض وترتكز في إغناء أبعادها على الألوان والمحسوسات، وكذا الصورة الاستعارية التي تعتمد على الفواصل اللغوية، وبالتالي نجد إقبال الشعراء والأدباء على هذين الوجهين البلاغيين عظيمًا ومنتسج الأرجاء قديماً وحديثاً. « فإن الصورة الكنائية تقوم على نوع آخر من الحيوية التصويرية، فهناك أولاً : المعنى أو الدلالة المباشرة الحقيقية ثم يصل القارئ أو السامع إلى (معنى المعنى) وهي العلاقة الأعمق فيما يصل إلى التجربة الشعرية والموقف»⁽¹⁾ كما يقول "فايز الداية" .

وقد كان عبد القاهر الجرجاني السباق في فهم الصورة الكنائية وباقي العناصر البيانية . وعنه أخذ البلاغيون ثم أكدوا مفهومه، ونقلوا شواهده أحياناً ولم يتجاوزوها. يقول عبد القاهر «أولاً ترى أنك إذا قلت: وهو كثير رماد القدر أو قلت طويل النجاد، أو قلت في المرأة نؤوم، فإنك في جميع ذلك لا تفيد غرضك الذي تعني من مجرد اللفظ. ولكن يدل على معناه الذي يوجبه ظاهرة، ثم يعقل السامع من ذلك المعنى، - على سبيل الاستدلال - معنى ثانياً هو غرضك، كـمعرفةك من كثير رماد القدر (أنه مضياف)، ومن طويل النجاد (أنه طويل القامة)، ومن نؤم الضحى في المرأة (أنها مترفة مخدمومة) لها من يكفيها أمرها»⁽²⁾

فقد وظف ابن جابر وكذا ابن الخطيب الكثير من الكنايات في مدائحها النبوية، والتي نذكر منها على وجه الاستدلال. يقول ابن جابر:

لِجَاهِكَ يَا خَيْرَ الْأَنَامِ تَوَجَّهِي إِذَا الْأُمُّ فِي شُغْلِ عَنِ الرُّضْعَاءِ⁽³⁾

كناية عن يوم القيامة .

ثُمَّ نَوَى مُلَبِّبًا ثُمَّ مَضَى حَتَّى رَأَى ذَاتَ السَّنَاءِ وَالسَّنَا⁽⁴⁾

كناية عن الكعبة الشريفة .

(1) - فايز الداية . جماليات الأسلوب. ط2 . دار الفكر المعاصر، دمشق، 1996م. صص: 141-143.

(2) - عبد القاهر الجرجاني . دلائل الإعجاز، تحقيق: رضوان الداية وفايز الداية. ط2 . مكتبة سعد الدين، دمشق، 1985م. ص: 258.

(3) - ابن جابر. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين. ص : 38.

(4) - المصدر نفسه . ص : 53.

وَقَابَ قَوْسَيْنِ كَانَ قُرْبًا
عِزًّا مِنَ اللَّهِ وَاحْتِفَاءً⁽¹⁾

كناية عن القرب .

أُولَئِكَ قَدْ حُفَّتْ شَفَاعَتُهُ لَهُمْ
عِدَاةٌ يُنَادِي لَاتَ حِينَ مَنَاصٍ⁽²⁾

كناية عن يوم القيامة .

بِهَا مُشْبِعُ الْجَيْشِ بَعْدَ الطَّوَى
بِمَا وَاحِدٌ مِنْهُ لَا يَشْبَعُ⁽³⁾

كناية عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

وَيَا حَبِيبًا بَدَاتِ النَّخْلِ مَنْزِلُهُ
لَقَدْ نَجَا كُلُّ مَنْ أَوَاكَ وَاتَّبَعَكَ⁽⁴⁾

كناية عن المدينة المنورة .

أما معاصره ابن الخطيب، فوظف حتى هو مجموعة من الكنايات نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر. قوله :

فُوَادٌ عَلَى جَمْرِ الْبِعَادِ مُقَلَّبٌ
يُمَاحُ عَلَيْهِ لِلدُّمُوعِ قَلِيبٌ⁽⁵⁾

كناية عن الشوق إلى زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم :

ويقول أيضا:

بِمَوْلِدِكَ اهْتَرَّ الْوُجُودُ وَأَشْرَقَتْ
قُصُورٌ بِبُصْرَى ضَاعَتْ الْهَضْبُ وَالْوَهْدَا⁽⁶⁾

وهي كناية عن عظمة مولد خير البشر محمد صلى الله عليه وسلم

ويقول كذلك:

وَفِي لَيْلَةِ الْمِيلَادِ أَكْبَرُ آيَةٍ
تَخِرُّ الْجِبَالُ الرَّاسِيَاتُ لَهُ هَذَا⁽⁷⁾

كناية عن عظمة ليلة مولد النبي الأعظم.

(1) - ابن جابر. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين . ص: 30.

(2) - المصدر نفسه . ص : 287.

(3) - المصدر نفسه . ص : 331.

(4) - المصدر نفسه . ص : 401.

(5) - لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ص: 323.

(6) - المصدر نفسه . ص: 478 .

(7) - المصدر نفسه . ص: 483 .

4- الصورة البديعية:

عصر البديع وهو ركن أساسي « وواحد من أساليب تحسين الكلام وتزيينه وطرق تجميله بما يزيده رونقا وبهاء ، والمحسنات منها ما هو معنوي ، ومنها ما هو لفظي، وجميع المحسنات إنما إذا جاءت مطبوعة من غير تكلف أو تصنع»⁽¹⁾.

وقد كان كتاب البديع في بعض النماذج نوعا من التلاعب اللفظي الحالي من أي مضمون حضاري. وقد كان كتاب "البديع" للناقد "ابن المعتز" أول محاولة لتدوين أسس المذهب الجديد، وعلى الرغم من أننا لا نجد تعريفا واضحا للبديع، لأنه يريد من تأليف كتابه « أن يثبت أن الأسلوب الجديد في تشبيهاته واستعاراته وكنائياته ومجازاته، لم يأت به شعراء الاتجاه الجديد كما يعتقدون دائما، فعناصر هذا الأسلوب تصادفنا في القرآن الكريم وفي لغات البدو»⁽²⁾.

ويتضح ذلك من خلال قول المؤلف نفسه: « إنما غرضنا بهذا الكتاب تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شيء من أبواب البديع »⁽³⁾.

وقد تلت هذه الجهود التي بذلها ابن المعتز، جهود أخرى عملت على تدقيق النظر في أساليب البديع باعتباره علما متمما للثالوث البلاغي العربي.

وأول ما نلاحظه على تلك الجهود، هو نظرتها لعلم البديع، واعتباره علما إضافيا يتلو في الأهمية علمي البيان والمعاني . فعلم البديع هو « علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه»⁽⁴⁾.

« إن التزيين ليس أمرا إضافيا هامشيا بالضرورة، صحيح إن الزينة أمر لاحق يعرض ويعنى ، إنه مضاف من الخارج إلى الطبيعة التي نقصدها. غير أنها طالما تتحقق

(1) - عبد الرزاق عبد المطلب . الجديد في النحو والبلاغة . ط2 . دار شريفة للطباعة والنشر والتوزيع ، 1995م . ص : 59

(2) - إغناطيوس كراتشوفسكي . البديع العربي في القرن التاسع . تر، مكارم الغمري ، مجلة فصول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مج 6 ، ع 1 ، 1985 م . ص : 101

(3) - ابن المعتز، عبد الله بن محمد المعتز بالله العباسي . البديع ، تح ، عبد المنعم خفاجي ، مكتبة الحلبي، 1945 م . ص : 36

(4) - عبد القادر حسين . فن البديع . ط1 . دار الشروق ، القاهرة ، 1983م . ص : 23

تلتحم بالموضوع، ذلك أن من الزينة ما يبدو وكأنه بعض من الطبيعة ذاتها»⁽¹⁾.

وبناء على تلك التفرقة ، قسم البلاغيون ظواهر البديع إلى محسنات لفظية كالجناس، السجع، والتصريع ، ومحسنات معنوية كالتطابق والمقابلة والتورية وغيرها ، والتي يرى علماء البلاغة أنها هي التي «تزيد المعنى حسنا، إما بزيادة تنبيه على شيء، أو بزيادة التناسب بين أجزاء الكلام»⁽²⁾. مع أنه لا توجد - في الحقيقة - ظاهرة لغوية إلا وهي لفظية ومعنوية في آن واحد .

وتعد العناية بالشكل ، والقصد إلى تكثيف أشكال البديع ، ملمحا شعريا بارزا في شعر المديح النبوي عند ابن الخطيب وابن جابر .

4-1-التصريع:

اعتمد الشاعران على التصريع، وخاصة ابن الخطيب حيث أننا قل أن نجد مدحة يبدأها دون أن يعتمد على التصريع، وهذا « دليل على البلاغة والاعتدال على الصنعة »⁽³⁾. وقد لاحظ الشاعران الوظيفة الدلالية التي يتمتع بها التصريع، والتي شرحها ابن رشيق القيرواني بقوله: « وسبب التصريع مبادرة القافية ليعلم في أول وهلة أنه أخذ في كلام موزون غير منثور ولذلك وقع في أول الشعر»⁽⁴⁾ .

يقول ابن الخطيب في صدر رسالة كتبها عن السلطان الغني بالله إلى الضريح النبوي:

دَعَاكَ بِأَقْصَى الْمَغْرِبِينَ غَرِيبُ وَأَنْتَ عَلَى بُعْدِ الْمَزَارِ قَرِيبُ⁽⁵⁾

وأنشد في ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم:

دَعَا عَزَمَاتِي وَالْمَطِيَّةَ وَالْوَحْدَا وَالْأَفْكَفَا الشَّقَّوَقَ عَنِّي وَالْوَجْدَا⁽⁶⁾

وهذا لا يعني أن ابن الخطيب أتى بالتصريع في مقدمة المدائح النبوية فقط، بل لقد

(1) - عاطف جودة ناصر . البديع في تراثنا الشعري . مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة ، مصر، مج4،

ع2 ، 1984م . ص : 76

(2) - عبد القادر حسين . فن البديع . ص : 44 .

(3) - التتوخي، أبو يعلى عبد الباقي التتوخي . كتاب القوافي، تحقيق: عمر الأسعد ومحي الدين رمضان. ط1.

دار الإرشاد، بيروت، 1970م. ص : 65.

(4) - ابن رشيق . العمدة ، ج1. ص: 173 .

(5) - لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ص: 320.

(6) - المصدر نفسه . ص : 479 .

استخدمه عندما أراد التخلص من مقدمة خمرية غزلية لمدحة نظمها في السلطان أبي عبد الله؛ ليلفت نظر الممدوح فقال:

دَعْ عَنْكَ هَذَا وَالْدِّيَارَ وَمَنْ بِهَا وَدَعِ الْعَرَامَ يَكُونُ بَعْضَ عَفَاتِهَا
وَأَنْهَضْ بِمَدْحَتِكَ الَّتِي حَلَيْتَهَا بِثَنَاءِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ وَهَاتِهَا⁽¹⁾

أما ابن جابر فقد جاءت مدائحه مملوءة بالتصريحات ونذكر منها قوله :

رَحَلُوا فَكَيْفَ يَطِيبُ بَعْدَ ثَوَاءٍ أَمْ هَلْ لِدَاءِ الشَّوْقِ مِنْكَ دَوَاءٌ
أَنْوُرُ خَيْرِ الْوَرَى أَضَاءً أَمْ الصَّبَاخُ الْمُنِيرُ جَاءَ
بَادَرَ قَلْبِي لِلْهُوَى وَمَا ارْتَأَى لَمَّا رَأَى مِنْ حُسْنِهَا مَا قَدْ رَأَى
دَاءُ الْأَسَى فِي الْقُلُوبِ قَدْ نَفَثَا وَالْقَرْبُ نِعَمَ الدَّوَاءِ لَوْ حَدَثَا
شَوْقٌ بِأَثْنَاءِ الضُّلُوعِ تَأَجَّجَا طَرَدَ الْكَرَى عَن مَقْلَتِي وَأَزْعَجَا⁽²⁾

فبعد تفحصي لديوانه" نظم العقدين في مدح سيد الكونين" عثرت على معظم قصائده اعتمد عليها على التصريح، وهي تبدو كثيرة جدا إلى ما قورنت بنظيرتها لابن الخطيب .

4-2-الجناس:

مصدر(جنس) و« الجنس هو الضرب من الشيء، وهو أعم من النوع»⁽³⁾ وفي الاصطلاح البلاغي هو تشابه اللفظتين في النطق تشابها تاما أو جزئيا واختلافهما في المعنى . وهاتان اللفظتان تسميان ركني الجنس⁽⁴⁾ .

ويعتبر الجنس- كما ذكرنا- أكثر المحسنات اللفظية حضورا في شعر الحنين، وتتفاوت نسبة وروده من شاعر لآخر. وقد جاء الجنس في بعض قصائدهم متكلفا، وفي بعضها الآخر غير ذلك، فنجد بعض الشعراء قد تناولوه في أشعارهم باعتدال، فلم يكن تكلفا أو تصنعا، إنما جاء عفو الخاطر⁽⁵⁾ .

(1)- لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ص:327 .

(2)- ابن جابر. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين. الصفحات :23-29-39-115-121.

(3)- أبو بكر الرازي ، أبو بكر محمد بن يحيى بن زكريا . إيضاح مختار الصحاح ، مادة جنس ، حرف الجيم . ط1. تحقيق، وهبة الزحيلي ، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق ، 1997م . ص:73.

(4)- ينظر : عبد العزيز عتيق . علم البديع . ص :187 .

(5)- ينظر : محمد أحمد دقالي . الحنين في الشعر الأندلسي (القرن السابع الهجري) . ص:505

فالشاعران عمدا إليه بغية أن يكون نظمهما بطريقة موسيقية أكثر تجانسا وجلبا للأسماع، ولما يحدثه هذا العمل الفني من تجانس وإيقاع، نذكر من ذلك قول ابن الخطيب:

أَيَا خَاتِمِ الرُّسُلِ الْمَكِينِ مَكَانُهُ حَدِيثُ الْغَرِيبِ الدَّارِ فِيكَ غَرِيبُ
فُوَادٌ عَلَى جَمْرِ الْبَعَادِ مُقَلَّبٌ يُمَاحُ عَلَيْهِ لِلدُّمُوعِ قَلِيبُ
فَوَاللَّهِ مَا يَزْدَادُ إِلَّا تَلْهَبًا أَبْصَرْتَ نَارًا تَارَ عَنْهُ لَهَيْبُ
هَذِهِ الْجَزِيرَةُ لَا تَزَالُ عَزِيزَةً مَحْفُوظَةً بِكَ يَا إِمَامَ وُلَاتِهَا⁽¹⁾

فالملاحظ في هذه الأبيات أنها احتوت كلها على محسن الجناس، حيث جانس بين لفظتي (الغريب) و(غريب)، (مقلب) و(قليب)، (تلهبا) و(لهيب)، (الجزيرة) و(عزيزة). مما يدل على شدة ولعه بهذا اللون من البديع اللفظي .

وقد تمحور البناء التجنيسي عند ابن جابر في أبياته هذه :

فَيَا طِيبَ أَوْقَاتِي إِذَا أَنَا جِئْتُهَا وَلِلرَّكْبِ أَصْوَاتٌ لَدَى الثَّجِّ وَ الْعَجِّ
أَعْرُ كَرِيمٍ مِنْ ذُوَابَةِ هَاشِمٍ جَلِيلٌ جَمِيلُ الْوَجْهِ أَبْيَضُ أَبْلَجُ
اللَّهُ فَضْلُهُ وَفَضَّلَ فَضْلُهُ لِلْمُرْسَلِينَ بِكُتُبِهِ فَتَبَّجَا
جَحْدُوا فَكَمْ جَهْدُوا لِمَحْوِ الْحَقِّ إِذْ حَسَدُوا وَكَمْ حَشَدُوا فَقَرُّوا حِينَ جَا⁽²⁾

فالمتتبع للأبيات السابقة يجد أن الشاعر قد استخدم الجناس في كل بيت منها، فقد جانس بين (الثج) و(العج)، (جليل) و(جميل)، (فضله) و(فضله)، (جحدوا) و(جهدوا)، (حسدوا) و(حشدوا). فابن جابر من الشعراء الذين وظفوا هذا اللون من البديع في شعرهم وأكثروا منه، ولذا فقد اكتفيت بإعطاء شواهد للدلالة على ذلك .

3-4- الطباق والمقابلة:

الطباق عند النقاد القدامى: الجمع بين الضدين في النثر أو الشعر⁽³⁾ وتسمى مطابقة، وتضاد، وتكافؤ. والمقابلة: « أن يأتي المتكلم بلفظين متوافقين فأكثر، ثم بأضدادهما، أو غيرهما على الترتيب »⁽⁴⁾ .

(1) - لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . صص: 323-328.

(2) - ابن جابر. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين. الصفحات: 126-127-130-131.

(3) - ابن رشيق . العمدة ، ج2. ص: 05 .

(4) - عبد القادر حسين . فن البديع. ط1. دار الشروق ، بيروت، 1983م. ص: 44 .

فالطباق والمقابلة محسنان شبيهان، لأنه ذكر الشيء، وما يطابقه أو يضاده لا يختلف بين ذكر الشيء وما يقابله، والفرق بينهما أن الطباق يكون بين لفظين متضادين والمقابلة تكون بأكثر من ذلك. ومن خلال تتبعنا لنصوص شعر المديح النبوي عند ابن الخطيب وابن جابر في هذه الفترة وجدت أن هذين المحسنين قد برزا بشكل واضح ومتميز. فمن ذلك ما يرد قول ابن الخطيب:

وَأَنْتَ مَلَأْتَ الْخَلْقَ حَيًّا وَمَيِّتًا وَأَكْرَمَهُمْ ذَاتًا وَأَعْظَمَهُمْ مَجْدًا⁽¹⁾

حيث جمع بين (الحي) و(الميت) وهما ضدان تعبيرا عن تعظيمه للرسول خير الأنام. وقوله كذلك:

فَلَوْلَاكَ مَا بَانَ الضَّلَالُ مِنَ الْهُدَى وَلَا اِمْتَأَزَ فِي الْأَرْضِ الْمُكِبُّ مِنَ الْأَهْدَا
وَإِذَا النَّهَارُ جَلَى الظَّلَامَ وَأَتَلَعَتْ مِنْ مِيسَمِهَا الْعَزَالَةَ جِيدًا⁽²⁾

فقد جمع في البيتين بين لفظتين متضادتين هما (الضلال) و(الهدى)، (النهار) و(الظلام) وهذا ما يعرف بالمطابقة في الشعر. أما المقابلة فنجدها في قوله:

يَا مُصْطَفَى الرَّحْمَنِ وَالنُّورِ الَّذِي أَخْفَى الضَّلَالَ وَأَظْهَرَ التَّوْحِيدَ⁽³⁾

فقابل في البيت بين الضلال المخفي والتوحيد الظاهر، تعبيرا عن حنينه وشوقه إلى الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم.

وتتردد في المدائح النبوية لابن جابر الكثير من ألوان البديع، فمن الطباق ما نجده في قوله:

شَفَاعَتُكَ الْعُظْمَى دَوَاءُ خَطِيئَتِي وَلَوْ جِئْتُ مِنْ جُرْمِي بِأَعْظَمِ دَاءِ
وَرَأَى الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ إِذْ لَهُ زُوي الْوُجُودُ بِشَرْقِهِ وَعَرْبِهِ
دَاءُ الْأَسَى فِي الْقُلُوبِ قَدْ نَفَثَا وَالْقَرْبُ نِعَمَ الدَّوَاءِ لَوْ حَدَثَا
فَحَقَّ بِهِ حَقٌّ وَأَبْطَلَ بَاطِلٌ وَأَدْهَشَ ذُو عَقْلٍ وَأُخْرِسَ مُفْصِحُ
وَعَلَى صَحَابَتِهِ الْأَلَى لِلْكَفْرِ فِي شَرْقٍ وَفِي عَرْبٍ بِهِمْ تَدْوِيحُ⁽⁴⁾

توالت المطابقات في هذه الأبيات، فقد جمع في البيت الأول بين لفظين متضادين

(1) - لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ص: 481.

(2) - المصدر نفسه . صص: 482-487 .

(3) - المصدر نفسه . صص: 486 .

(4) - ابن جابر. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين. الصفحات: 38-68-115-141-151.

وهما: الداء والدواء، وفي البيت الموالي جمع بين: المشارق والمغارب، وكذا بين شرقه وغربه. وفي البيت الثالث بين: الداء والدواء، وفي البيت الرابع جمع بين لفظتي: الحق والباطل، وفي البيت الأخير جمع بين: شرق وغرب.

أما المقابلة عند ابن جابر فيمكن الاستشهاد بالأبيات التالية:

عَجِبْتُ لِلْأَيَّامِ مَنْ عَزَّ بِهَا ذَلَّ وَمَنْ يَضْحَكُ لَهَا يَوْمًا بَكَى
سَمَّاخُكَ كَمْ أَغْنَى مِنَ الْفَقْرِ آمَلًا وَ أَمَّنْ مِنْ خَوْفٍ وَسَهْلٍ مِنْ صَعْبِ
إِلَيْكَ رَسُولَ اللَّهِ تَسْرِي وَفُودُنَا فَتُدْنِي وَمَا تُنِّي وَتُؤْوِي وَمَا تُرْجِي⁽¹⁾

ومن الملاحظ أن الطباق والمقابلة قد تأتيان من خلال ذكر الحكم التي يستقيها الشاعر من خلال تجاربه في الحياة والمامة بالثقافات والعلوم المختلفة، على نحو ما نجد في قوله:

الْجُودُ يُغْلِي الْمَرْءَ وَالْبُخْلُ لَقَدْ يَحْطُ عَنْ رُتْبَتِهِ مَنْ ارْتَقَى
إِنَّ الْغِنَى طَبٌّ لِعِلَاتِ الْفَتَى وَالْفَقْرُ دَاءٌ لَا تَدَاوِيهِ الرُّقَى⁽²⁾

فقابل بين (الجود، البخل) وبين (يحط، ارتقى)، وبين (الغنى، الفقر) وبين (طب، داء).

ومن خلال النصوص التي جمعها نجد أن الشعاعين الذين تناولناهم بالدراسة قد طرقتوا هذين اللونين من المحسنات البديعية المعنوية في أشعارهم .

(1) - ابن جابر. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين. الصفحات: 50-75-126 .

(2) - المصدر نفسه . صص: 58-59 .

5-بناء الموسيقى: الوزن أو الموسيقى عنصر جوهري لا ينفصل عن العناصر الأخرى المكونة للقصيدَة وهو ليس مجرد قالب خارجي تصب فيه التجربة، وإنما هو جزء لا يتجزأ من الإنتاج الشعري⁽¹⁾. وقد أعطى كولردج أهمية كبرى للوزن، فكان يؤمن بأن الوزن والتجربة توأمان يولدان معا في لحظة واحدة، كما اعتبر الوزن وليد الخيال وهبة من هباته فقال: «أما الإحساس بالمتعة الموسيقية بالإضافة إلى القدرة على توليد هذا الإحساس لدى الغير فإنما هي هبة الخيال وحده»⁽²⁾. ورأى كولردج أن مصدر الوزن هو العاطفة أو الانفعال: «بمعنى أن الذي يختار الوزن الشعري انفعال الشاعر نفسه، فعندما تثور في نفس الشاعر عاطفة جياشة تلجأ إلى الوزن أو الموسيقى لأنها أقرب الوسائل للتعبير عن العواطف المشبوبة، ولأنها هي الأخرى بدورها أكثر الوسائل قدرة على تبليغ العاطفة وإثارها عند القارئ أو السامع»⁽³⁾.

والوزن عنصر فعال يمتزج بالعناصر الأخرى ويتفاعل معها، فهو يؤكد المعنى، ويتولد عن العاطفة أو الانفعال، والعاطفة بدورها تؤثر في الوزن ويتفاعل الوزن أيضا مع اللغة ويرتبط بها ارتباطا وثيقا، «فإن جزءا هاما من موسيقى الشعر نابع من علاقات اللغة وأصواتها ونبراتها وما تحمله تلك النبرات والأصوات من مشاعر. ومن هنا نشأت العلاقات العضوية الحية بين الوزن وبين غيره من مقومات العمل الفني»⁽⁴⁾.

وللوزن تأثير كبير في نفس القارئ أو السامع، فهو يزيد من انتباهه ومن قدرته على الاستجابة والتأثير، ويخلق فيه إحساسا بالحوية والمتعة، غير أن الوزن لا يستطيع بمفرده أن يؤثر تأثيرا قويا في نفس القارئ ما لم يتحد مع سائر العناصر المكونة للقصيدَة، ولهذا يشبه كولردج الوزن بالخميرة التي لا فائدة منها بمفردها ومع ذلك فهي تؤدي إلى نتائج طيبة إذا مزجت بغيرها من العناصر. يقول: «إن الوزن إذا ما قصد استعماله لأغراض شعرية أشبه ما يكون بالخميرة، فالخميرة في ذاتها عديمة القيمة ومع ذلك فهي تضيف على الشراب الذي تمتزج به-بنسب معقولة-روحا وحيوية»⁽⁵⁾.

(1)- محمد مصطفى بدوي .كولردج ، القاهرة، 1958م . ص : 98.

(2)- المرجع نفسه . ص : 99 .

(3)- محمد زكي العشماوي . قضايا النقد الأدبي والبلاغة . الإسكندرية ، 1967 . ص : 247.

(4)- المرجع نفسه . ص : 347 .

(5)- محمد مصطفى بدوي . كولردج . ص : 102.

5-1-الموسيقى الخارجية:

5-1-1-موسيقى الوزن:

الوزن كما يراه ابن رشيق « من أعظم أركان حد الشعر، وأولها به خصوصية»⁽¹⁾. وهو أحد العناصر البارزة في تكوين موسيقى الشعر، وقد أشاد ابن طباطبا العلوي بأهمية الوزن في الشعر، وما يحدثه من إيقاع من خلال حسن التركيب واعتدال الأجزاء فيقول: « وللشعر الموزون إيقاع يطرب الفهم لصوابه وما يرد عليه من حسن تركيبه واعتدال أجزائه...»⁽²⁾. وهو أيضا- أي الوزن- أحد الطرق التي تعارف عليها الشعراء في نظم أشعارهم بنظم وقواعد ثابتة، والأوزان الشعرية أو البحور الشعرية هي « الهيكل الأساسي للبناء الموسيقي»⁽³⁾، ما للوزن من تأثير كبير على استمالة القارئ أو السامع، « فهو يزيد من انتباهه ومن قدرته على الاستجابة والتأثر، ويخلق فيه إحساسا بالحيوية والمتعة»⁽⁴⁾. إذا اتحد مع سائر العناصر الأخرى المكونة للقصيدة. وهو أيضا « أخص ميزات الشعر وأبينها في أسلوبه، ويقوم على ترديد التفاعيل المؤلفة من الأسباب والأوتاد والفواصل، وعن ترديد التفاعيل تنشأ الوحدة الموسيقية للقصيدة كلها...»⁽⁵⁾.

إن الوزن العروضي في النص الشعري « ليس إلا عنصرا واحدا من عناصر الإيقاع»⁽⁶⁾. لكنه -في الوقت نفسه- يبقى أهم عناصره على الإطلاق، فلا يمكن للنص الشعري أن يقوم من دونه⁽⁷⁾.

(1)- ابن رشيق. العمدة ، ج.1. ص: 99 .

(2)- ابن طباطبا العلوي، أبو الحسن محمد بن أحمد بن محمد . عيار الشعر، تحقيق: عبد العزيز بن ناصر المنع، توزيع مطبعة الخانجي بالقاهرة . ص: 21 .

(3)- رجاء عيد . التجديد الموسيقي في الشعر العربي.(د، ط). منشأة المعارف، الإسكندرية،(د،ت). ص: 09

(4)- فوزي سعد عيسى . الشعر الأندلسي في عصر الموحدين.(د، ط). دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1991م. ص: 251 .

(5)- أحمد الشايب. الأسلوب. ط8. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1991م. ص: 53 .

(6)- إليزابيث درو. الشعر كيف نفهمه ونتذوقه. ترجمة: محمد الشوش. مكتبة منيمنة، بيروت، 1961. ص: 50.

(7)- يعد مخائيل نعيمة صاحب كتاب "الغربال" أحد الدارسين الذين يعتقدون بأن الوزن والقافية ليسا من ضرورة الشعر، إذ بإمكان الشعر أن يقوم من دونهما. ينظر: مخائيل نعيمة . الطبعة الحادية عشرة . مؤسسة نوفل، بيروت، 1978م . صص: 107-125.

وإذا ما جننا إلى شعر المديح النبوي عند ابن الخطيب وابن جابر من خلال قصائدهما ومقطوعاتهما. نجد أنهم تمكنوا من إحداث انسجام بين معاناتهما الداخلية وبين الإيقاع المناسب لتلك المواقف، وقد تنوعت أشعارهما بين صراعهما ضد شوقهما إلى الرسول، وحرقتهما وبعدهما عن قبره ومدينته، وتعدادهما لمآثره ومعجزاته. معبران عن ذلك بأساليب فنية مختلفة، فقد نلاحظ أن « حالة الشاعر النفسية في الفرح غيرها في الحزن واليأس ونبضات قلبه حيث يمتلكه السرور، سريعة يكثر عددها في الدقيقة، ولكنها بطيئة حين يستولي عليها الهم والجزع، ولا بد أن تتغير نغمة الإنشاد تبعاً للحالة النفسية... هذا ما جعل الباحثون يعقدون الصلة بين عاطفة الشاعر وما تخيره من أوزان لشعره»⁽¹⁾.

وقد تنوعت أشعار الشعاعين في شعر المديح النبوي بين البحور: الطويل، الكامل، البسيط، الخفيف والمتقارب، لكن البحر الغالب على شعرهما هذا هو بحر الطويل، وهو أكثر البحور استعمالاً، و ملائمة للأغراض الرفيعة، وحبهم وتعلقهم بالرسول الأعظم، وشوقهم وحنينهم، « وليس بين بحور الشعر ما يضارع بحر الطويل في نسبة شيوعه، فقد جاء ما يقرب ثلث الشعر القديم من هذا الوزن »⁽²⁾.

فقد اشتهر بحر الطويل منذ القدم، وهو أنسب البحور التي نسج على منوالها الشعاعان، وجاءت أشعارهما على وزنه « ويشتمل بحر الطويل على مقياس من المقاييس الثمانية هما: مفاعلين فعولن مفاعلين، وهذان المقياسان يتكرران في بحر الطويل على صورة خاصة وترتيب خاص »⁽³⁾، ولذلك فلا غرابة أن يحظى هذا البحر باهتمام ابن الخطيب وابن جابر. فقد غلب على استعمال هذا البحر عند ابن الخطيب:

إِلَيْكَ رَسُولَ اللَّهِ شَدَّتْ نُسُوعُهَا وَغَادَرَهَا الإِدْلَاجُ وَ هِيَ طَلَّاحُ⁽⁴⁾

وقوله كذلك:

وَقُلْتُ لِحَفْنِي إِنْ دُعِيَتْ لِعِبْرَةٍ فَسَاعِدْ بِهَا مَطْلُ الغَنِيِّ مِنَ الظُّلْمِ⁽⁵⁾

(1) - إبراهيم أنيس . موسيقى الشعر العربي . ط3 . مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1981م . ص : 175.

(2) - المرجع نفسه . ص : 175 .

(3) - المرجع نفسه . ص : 59 .

(4) - لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ص: 367.

(5) - المصدر نفسه . ص : 575 .

أما ابن جابر فقد استعمل الضرب الأول من البحر الطويل، وهو التام ووزنه:

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

إِلَى السَّيِّدِ الْمَبْعُوثِ لِلنَّاسِ رَحْمَةً شَفِيعِ الْوَرَى حَسْبِي مَلَأًا بِهِ حَسْبِي (1)

0/0/ 0/ 0/0// 0/0/ 0//0 /0// 0//0/ /0/0/ /0/0//0 //0/ 0//

ويقول في بيت آخر وهو من الضرب الثالث من الطويل، وهو المحذوف ووزنه:

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن فعولن مفاعيلن فعولن فعولن

مَلَأَ الْوَرَى كَافِي الْأَرَامِلِ كَهْفُهَا كَفِيلُ الْيَتَامَى مُلْجَأُ الْفُقَرَاءِ (2)

فقد حذف من تفعيلته الأخيرة (مفاعيلن) سبب خفيف، فتصير (مفاعي)، وتتحول إلى (فعولن)

ويأتي في الدرجة الثانية بحر الكامل، وسمي كاملاً «لكماله في الحركات لأنه أكثر الشعر حركات لاشتمال البيت التام منه على ثلاثين حركة وليس في البحور ما هو كذلك» (3). فهو يصلح للأغراض الذاتية والتأملية، كما يتناسب والموضوعات الجادة التي تحتاج إلى نفس طويل، ولا يعد مقياساً معيناً لعاطفة معينة، أو غرض معين، لأنه مفضل عند الشعراء لسهولة مقاطعه التي يجيء منها الشكل العمودي، فهذا البحر إذن قد اتسع ليشمل كل الأغراض الشعرية العربية القديمة، مما حدا ببعض النقاد إلى القول أنه «معبود الشعراء» (4). وأنه «مطية الشعراء المحدثين» (5).

ويعد الكامل كذلك من البحور الصافية، حيث تتكرر تفعيلاته على نسق واحد، بإيقاع نمطي يساعد الشعراء على هذا النفس وإطالة القصائد ومحافظة على تقاليد القصيدة العربية، ولعل هذا له علاقة بالجهاز الصوتي للشاعر، ودقات قلبه في فترة الحزن والعذاب والاسترخاء، فالشاعر حينما يحس بالراحة والطمأنينة يطيل مقاطع أوزانه، وذلك وفقاً لدقات قلبه المتباطئة. من ذلك ما نجده في قول ابن الخطيب في الحنين إلى الرسول الكريم وقبره:

(1) - ابن جابر. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين. ص: 72.

(2) - المصدر نفسه. ص: 34.

(3) - عدنان حقي. المفضل في العروض والقافية وفنون الشعر. ص: 126.

(4) - إبراهيم أنيس. موسيقى الشعر العربي. ص: 208.

(5) - محمد ناصر. الشعر الجزائري الحديث. ص: 251.

يَا صَفْوَةَ اللَّهِ الْمَكِينِ مَ كَانَهُ يَا خَيْرَ مُؤْتَمَنٍ وَخَيْرَ نَصِيحٍ⁽¹⁾

كما استطاع ابن الخطيب أن ينوع في الإيقاع في بحر الكامل عن طريق عدد من التحولات في الوحدات الإيقاعية لهذا البحر:

أَمَحَمَّدُ الْمَحْمُودِ دَمٍ فِي عَصْمَةٍ لِلَّهِ يَمِضِي حَكْمَهَا الْمَقْدَارُ
بَدْرًا وَمَا غَيْرَ الْخِلَافَةَ هَالَةً شَمْسًا وَمَا غَيْرَ الْعَلَاءِ مَدَارُ
غَيْثًا وَمَا غَيْرَ النَّوَالِ سَحَابَةً لَيْثًا وَمَا غَيْرَ الظَّبَا أَظْفَارُ
مَرَّتْ مِنَ السَّاعَاتِ عَشْرٌ فَصَلَّتْ حَزَبَ الدُّجَى فَكَأَنَّهُ أَعْشَارُ
طَابَتْ بِمَوْلِدِ خَيْرٍ مِنْ لَضْرِيحِهِ تُرْجَى قِلاصٌ أَوْ تَرْمُ عِشَارُ⁽²⁾

فالأبيات السابقة تنتهي بالوزن (متفاعل) وقد التزم به ابن الخطيب في كامل مدحته، فهذه التفعيلة دخلها زحاف الإظمار (وهو تسكين الحرف الثاني) أي أن التاء في (متفاعل) تكون ساكنة وذلك في قوله (مقدار، أظفار، أعشار)، كما أن الإظمار يدخل أيضا في حشو البيت فيحيل (متفاعلن) إلى (مستعلنن)، فدون شك أن مثل هذا الصنيع في المدحة قادر على زيادة التنوع الإيقاعي فيها.

ويقول ابن جابر من الضرب الثاني من الكامل وهو المقطوع، ووزنه:

متفاعلن متفاعلن متفاعلن متفاعلن متفاعلن متفاعلن
رَحَلُوا فَكَيْفَ يَطِيبُ بَعْدُ ثَوَاءً أَمْ هَلْ لِدَاءِ الشَّوْقِ مِنْكَ دَوَاءً⁽³⁾
0/0// /0/ /0// /0// 0/// 0/0// /0/ /0// /0// 0///

فقد حذف من ضربه تفعيلته الأخيرة ساكن الوجد المجموع، وسكن المتحرك الذي قبله.

وفي قصيدة له من الضرب الأول من الكامل يقول ابن جابر أيضا:

بَاعَزٌ مَبْعُوثٌ وَأَشْرَفٌ مُرْسَلٌ وَأَجَلٌ مَأْمُولٌ وَأَكْرَمٌ مُجْتَبَى⁽⁴⁾
0//0/ //0// 0/0/0/ /0/// 0//0/ 0/0/0 /0/0/ /0///

كما يأتي في الدرجة الثالثة، بحر البسيط ووزنه (مستعلن فاعلن) أربع مرات، وسمي بذلك « لأن الأسباب انبسطت في أجزائه السباعية، فحصل في أول كل جزء

(1) - لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ص : 493.

(2) - المصدر نفسه . ص : 243.

(3) - ابن جابر. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين. ص : 23.

(4) - المصدر نفسه . ص : 82 .

من أجزائه السباعية سببان...وقيل سمي بسيطا لانبساط الحركات في عروضه وضربه»⁽¹⁾ ويعتبر هذا البحر من البحور الطوال التي نسج عليها الكثير من الشعراء القدامى.

ومن أشهر تلك القصائد قصيدة ابن جابر، وهي من الضرب الثاني من البسيط المقطوع في حنيه إلى الرسول الكريم وضريحه، فهي أيضا قد اختار لها الشاعر بحر البسيط لما يحمله من موسيقى ساعدت في استمالة المتلقي ، يقول :

هَذَا الضَّرِيحُ وَهَذَا مَنْ زِيَارَتُهُ فَوْزٌ وَلْتُمْ تَرَاهُ رَفَعُ أَقْدَارِ⁽²⁾

ويقول من الضرب الأول من البسيط:

يَا سَيِّدَ الرُّسُلِ فِي فَضْلِ وَفِي شَرَفِ وَأَنْتَ فِي الْبَعْثِ مِنْهُمْ مَوْضِعُ الْخَبْرِ⁽³⁾

أما ابن الخطيب فقال في قصيدة :

مُحَمَّدٌ خَيْرٌ مَنْ تُرْجَى شَفَاعَتُهُ غَدَا وَكُلُّ أَمْرٍ يُجْزَى بِمَا كَسَبَا⁽⁴⁾

وهي من البحر البسيط وهو بحر كثر استخدامه في الشعر الأندلسي لما يتميز به من الرقة والجمال والانسيابية، وجاء في عروض كثير من القصائد وضربها "الخبين" وهو أجمل أنماط البحر البسيط، إذ يحذف الثاني الساكن من فاعلن فيصبح "فعلن" فنتوالى ثلاث حركات التي تساعد على انسياب اللسان بالسرعة، كما يلاحظ إصابة زحاف الخبن من تفعيلات اخرى من الحشو في مستعلن إلى متعلن وهذا البحر جاء نتيجة ما جاء به قصائد المديح النبوي في الشرق مثل بردتي كعب والبوصيري وما تشكله من التوازنات المختلفة .

كما جاءت هناك بحور ولكن أقل استعمالا، وإن كانت هي أيضا قد ساهمت في إبراز موسيقى شعر المديح النبوي، منها استخدام بحري الخفيف والمنسرح بنسب متفاوتة، يليهما الوافر و المتقارب، ثم الرمل و المتقارب ، والمديد، والمجتث ، غير أن ورودها جاء بنسب قليلة جدا من تتبعنا للنصوص .

(1)- الخطيب التبريزي ، أبي زكريا يحي بن علي بن محمد . الوافي في العروض والقوافي تحقيق، فخر

الدين قباوة ، عمر يحي . ط2 . دار الفكر ، 1975م . ص : 57 .

(2)- ابن جابر . ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين . ص : 246 .

(3)- المصدر نفسه . ص : 265 .

(4)- لسان الدين بن الخطيب . ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ص : 265 .

5-1-2- القافية:

وبتأملنا لبنية شعر المديح الإيقاعية ، توقفنا عند قوافي قصائد ومقطعات الشعراء ذلك أن حروف القافية بعامة وحرف الروي بخاصة ، تعد بمثابة الخاتمة الصوتية والدلالية للبيت الشعري . وقد توقف العلماء طويلا عند القافية وتعريفها وتحديد حروفها ، فمنهم من جعلها تشمل آخر كلمة من البيت ، على حين جعلها آخرون مساوية للروي ، أي آخر حرف صحيح غير معتل في البيت ، لكن الذي عليه أكثر العلماء هو أن القافية تشمل آخر الساكنين وما بينهما والمتحرك الذي يسبق الساكن الأول « أي إنها آخر مقطعين طويلين وما يمكن أن يكون بينهما من مقاطع »⁽¹⁾ .

كما نشير إلى التعريف الذي جاء في كتاب " عروض الشعر العربي" ، لعبد المنعم **خفاجي**، حيث عرف القافية بأنها « علم يعرف به أواخر الأبيات الشعرية، من حيث ما يعرف لها من حركة وسكون، ولزوم وجواز وفصح، فهذا العلم يبحث في حروف القافية، وحركاتها وما يجب لها من لزوم، وما يعرض لها من عيوب »⁽²⁾ .

ولعل أصح تعريف لها وتحديدها من الناحية الموسيقية أنها : اسم يطلق على مجموعة من الأحرف تلتزم آخر القصيدة أو المقطوعة تعطي أصواتا تتكرر من خلال « لحظات زمنية منتظمة »⁽³⁾ .

وما يعيننا في أمر القافية، هو أنها تجسد - بثبات حروفها- أساسا كيفيا مهما من أسس الشعر العربي، ذلك أن القافية لا تقوم على أساس مثالي يملأه الشاعر بالكلمات أو الأصوات ، بل يتخير الشاعر القافية التي يريد لها وبينها عليها قصيدته بحرية مطلقة شريطة أن يلتزم بحروف بعينها في المكان عينه،ومن ثم كان بعض القدماء ينسبون القصائد إلى رويها لا إلى بحورها .

وتعتبر القافية جزءا لا يتجزأ من نظام موسيقى القصيدة « وما يجب أن يشترك في قوافي القصيدة ذلك الصوت الذي تبني عليه الأبيات الذي يسميه أهل العروض

(1)- علي يونس . نظرة جديدة في موسيقى الشعر العربي . ص : 81.

(2)- إبراهيم أنيس . موسيقى الشعر العربي . ص : 246.

(3)- المرجع نفسه . ص : 237 .

بالروي، فلا يكون الشعر مقفى إلا بأن يشمل على ذلك الصوت المتكرر في أواخر الأبيات «(1)»، وهو «الحرف الذي تبني عليه القصيدة، وتنسب إليه، فيقال: قصيدة رائية أو دالية، ويلزم في آخر كل بيت منها. ولا بد لكل شعر من روي» (2).

تنقسم القافية إلى مطلقه ومقيدة، فالمطلقه ما كان حرف الروي فيها متحركا إما بالضمة أو الكسرة أو الفتحة، ومن هذه الحركات تتولد حروف المد الألف والواو والياء، فتكون القافية مطلقه بهذه الأحرف (3)، والمقيدة: ما كان فيها حرف الروي ساكنا (4).

والمتتبع لشعر المديح النبوي عند ابن الخطيب ومواطنه ابن جابر، يجد أن أكثر نتاجهما في ذلك جاء على المطلقة، وذلك أمر طبيعي، لأن إطلاق الصوت في القافية- في رأينا- يعين على إثراء الموسيقى، ويساعد إظهار ما يختلج في نفس الشعاعين من شوق وحنين.

أما القافية المقيدة كقول ابن الخطيب:

ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى النُّورِ المُبِينِ وَمَنْ أَيْاتِهِ لَمْ تَدَعِ إِفْكَاً وَلَا كَذِباً
مُحَمَّدٌ خَيْرٌ مَنْ تُرْجَى شَفَاعَتُهُ عَدَاً وَكُلُّ أَمْرٍ يُجْزَى بِمَا كَسَبَا (5)

ولابن جابر قصيدة مصرعة البيت الأول، متواترة القافية، مردفة مقيدة الروي. يقول:

وَأَيْنِ الْجِدْعِ وَالْبَدْرِ إِذْ شُقَّ أَمْرَانِ لَهُ مُعْجَزَانِ
أَخِرُ الرُّسُلِ زَمَانًا وَإِنْ سَابَقُوا فِي الْمَجْدِ حَازَ الرَّهَانَ (6)

أما القوافي المطلقة فقد أتت بكثرة في مدائح الشعاعين، ومن خلال تتبع تلك القوافي وجدنا أن أكثر روي ابن الخطيب فيها جاء على حرف (الـ)، من ذلك قصيدته التي استهلها:

دَعَا عَرْمَاتِي وَالْمَطِيَّةَ وَالْوَحْدَا وَإِلَّا فَكُفَّا الشُّوقَ عَنِّي وَالْوَجْدَا (7)

(1) - إبراهيم أنيس . موسيقى الشعر العربي . ص : 247 .

(2) - الخطيب التبريزي . الوافي في العروض والقوافي . ص : 221 .

(3) - ينظر: عدنان حقي . المفضل في العروض والقافية وفنون الشعر . ص: 149 .

(4) - ينظر: المرجع نفسه . ص : 150 .

(5) - لسان الدين بن الخطيب . ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ص : 265 .

(6) - ابن جابر . ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين . ص : 525 .

(7) - لسان الدين بن الخطيب . ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ص : 479 .

ومثله اختار مواطنه ابن جابر لقصيدته القافية المطلقة ذات الروي "الدال" في قصيدة ذكر فيها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم العشرة وأهل بيته الطاهرين (ض) ومطلعها:
بِهْدِي النَّبِيَّ الْهَاشِمِيَّ مُحَمَّدٍ وَيَالْعَشْرَةَ الْأَخْيَارِ مِنْ بَعْدِهِ أَقْتَدِ (1)
فقد استعلا حرف الروي (الدال) وقد أطلقت القافية لأن حرف الروي متحرك بالفتح للأول وبالكسر للثاني .

ومن القافية المطلقة ذات الروي " الميم " ، قال ابن الخطيب:

فَرَوَى لَهَا مَجِيَّشٍ مِنْهُ بِأَنْمَلٍ جَرَى الْمَاءُ فِي أَثْنَائِهَا سَائِعَ الطَّعْمِ (2)
وقال ابن جابر:

بَطِيْبَةٌ أَنْزَلُ وَ يَمَّمُ سَيِّدَ الْأُمَمِ وَأَنْشُرُ لَهُ الْمَدْحَ وَأَنْشُرُ أَطِيْبَ الْكَلِمِ (3)

وحرف الميم يعده العروضيون من القوافي الذلل ، والقوافي الذلل هي « الراء ، والميم ، واللام ، والذال ، والنون ، والباء ، والياء المتبوعة بألف الإطلاق ، والعين، والفاء، والقاف، والسين» (4). وهي القوافي التي سهل استعمالها عند أكثر الشعراء، وهذا ما وجدته عند الشعاعين الذين أكثروا في مدائحها النبوية من استخدام هذه القوافي لإعطاء قصائدهم نوعا من الموسيقى الشعرية المؤثرة في المتلقي باستعمالهم لتلك القوافي، إلى جانب تأثرهم بالشعراء السابقين ، وبالأخص الشعراء القدامى .

ومن هنا يتبين لنا أن موسيقى شعر المديح النبوي قد جاءت في معظمها على القوافي المطلقة ، وأن أكثر هذه القوافي جاء من خلال الحروف السهلة المخارج ، إلى جانب خفتها التي تساعد على إثراء النغم الموسيقي بالقافية مع غيرها من عناصر الموسيقى الأخرى.

ومما تقدم يتبين لنا، أن شعر المدائح النبوية امتاز على مستوى الإيقاع والقوافي بتلك الخصائص التي أكسبته قدرا من الجمال بين أنساق الشعر العربي .

(1)- ابن جابر. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين. ص : 159.

(2)- لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ص: 577.

(3)- ابن جابر. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين. ص : 491.

(4)-ينظر: عبد الله الطيب المجذوف. المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ، ج.1. ط.1. (د،ت). ص:44

5-2- الموسيقى الداخلية:

إن أول ما يلفت الانتباه في موسيقى الشعر أن وراء الموسيقى الخارجية « موسيقى خفيفة تنبع من اختيار الشاعر لكلمته وما بينهما من تلاؤم في الحروف والكلمات وكأن للشاعر أذنا داخلية وراء أذنه الظاهرة تسمع كل شكله وكل حرف وكل حركة بوضوح تام »⁽¹⁾.

فالموسيقى الداخلية في أي عمل فني تتبع من الحالة الشعورية التي تنتاب الشاعر لحظة الكتابة، وهي حالة يكون فيها الشاعر على قدر كبير من الانفعال والتوتر الذي يجعله يميل إلى استعمال الألفاظ التي توحى بالمعنى وتشعر بالحركة، سالكا في ذلك طريقة التصوير القوي المؤثر الذي يثير في النفس الإعجاب... مستعينا بالموسيقى الداخلية، التي نشأت من انسجام الحروف أولا واتساق الألفاظ ثانيا .

وفي اعتقادي أن هذا النوع من الموسيقى ينقسم إلى قسمين: الأول: الموسيقى التي تحدث من خلال المحسنات البديعية، وما تحدثه بعض الحروف والألفاظ والعبارات من إيقاعات صوتية تحدث نوعا من الموسيقى من خلال تكرارها، إلى جانب موسيقى الوزن والقافية.

والثاني: الموسيقى التي يحدثها تآلف وانسجام هذه الحروف والألفاظ والعبارات حسب براعة الشاعر في اختياره لها ووضعها في النص الشعري. ونعني بالموسيقى الإيقاعية الداخلية ما تحدثه الألفاظ والعبارات التي يختارها الشاعر داخل النص الشعري من إيقاع موسيقي يؤثر في المتلقي إلى جانب ما يحدثه الوزن والقافية. يقول حازم القرطاجني: « بقوة التهدي إلى العبارات الحسنة يجتمع في العبارات أن تكون مستعذبة جزلة ذات طلاوة، فالاستعذاب فيها بحسن المواد والصيغ والانتلاف... »⁽²⁾. ذلك يدل على اهتمام النقاد والعروضيين القدامى بهذا النوع من الموسيقى .

فالمنتبع للنوع الأول يجد أن شعر المدائح النبوية عند ابن الخطيب وابن جابر في

(1) - شوقي ضيف. في النقد الأدبي. ط6. دار المعارف، مصر، (د، ت). ص: 67.

(2) - أبو الحسن حازم القرطاجني. منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد حبيب بلخوجة. ط3. دار

الغرب الإسلامي، 1986م . ص: 255.

القرن الثامن الهجري غنية بالموسيقى التي تحدثها المحسنات البديعية كالجناس، والطباق، والمقابلة، والتصريع... وغيرها. يقول إبراهيم أنيس متحدثاً عن موسيقى الجناس: «إن الجناس اللفظي وثيق الصلة بموسيقى الألفاظ، فهو ليس في الحقيقة إلا تفنناً في طرق ترديد الأصوات في الكلام حتى يكون له نغم و موسيقى، وحتى يسترعي الأذان بألفاظه كما يسترعي القلوب والعقول بمعانيه، فهو مهارة في نسج الكلمات وبراعة في ترتيبها وتنسيقها...»⁽¹⁾.

تعد موسيقى الجناس خاصية واضحة في موسيقى شعر المديح النبوي في القرن الثامن الهجري، حيث استخدم في الكثير من القصائد والمقطوعات، فإلى جانب التفنن في عرض الألفاظ وتزيينها استخدمه الشاعران ابن الخطيب ومواطنه ابن جابر في إثراء القصيدة بالنغم الموسيقي الذي يحدثه تكرار الألفاظ في البيت الواحد، فمن شواهد أمثلة الجناس قول ابن الخطيب:

أَيَا خَاتِمِ الرُّسُلِ الْمَكِينِ مَكَانُهُ حَدِيثُ الْغَرِيبِ الدَّارِ فِيكَ غَرِيبُ
فَوَادٌّ عَلَى جَمْرِ الْبِعَادِ مُقَلَّبُ يُمَاحُ عَلَيْهِ لِلدُّمُوعِ قَلِيبُ
فَوَاللَّهِ مَا يَزْدَادُ إِلَّا تَلْهَبًا أَبْصَرْتَ نَارًا ثَارَ عَنْهُ لَهَيْبُ⁽²⁾

فلاحظ في الأبيات ما أحدثه الجناس اللفظي من نغم ساعد في إثراء الموسيقى في الأبيات، إلى جانب الوزن والقافية، وأعطى لونا من حسن التعبير عن مدح الرسول صلى الله عليه وسلم. ومن أمثلة ذلك ما نجده في قول ابن جابر:

بِمَدْحِ رَسُولِ اللَّهِ أَهْنَا وَأَبْهَجُ وَأَوْقِنُ أَنَّ الضَّيْقَ عَنِّي يُفْرَجُ
بِهِ أَرْتَجِي دَارَ النِّعَمِ وَأَتَّقِي لَهَيْبَ جَحِيمِ حَرَّةٍ يَتَوَهَّجُ
وَكَيْفَ تَمَسُّ النَّارُ جِسْمِي وَحُبُّهُ بِلَحْمِي وَعَظْمِي وَالْمَفَاصِلِ يُمَزَّجُ⁽³⁾

حيث لا يخفى وقع رنين الجناس اللفظي في الأبيات محدثاً نوعاً من الموسيقى الإيقاعية التي تطرب الأذان وتزيد من التأثير النفسي للمتلقى.

(1) - إبراهيم أنيس . موسيقى الشعر العربي . ص : 39 .

(2) - لسان الدين بن الخطيب . ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ص : 323 .

(3) - ابن جابر . ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين . ص : 126 .

أما الطباق والمقابلة فهما أيضا أحد المحسنات البديعية التي ساهمت في إحداث نوع من الموسيقى الإيقاعية في شعر المدائح النبوية في القرن الثامن الهجري، وهذا النوع من الثنائية الضدية يساهم إلى حد كبير في إثراء موسيقى الشعر من خلال ما يحدثه من إيقاعات صوتية . والأمثلة على ذلك كثيرة عند الشعاعين في هذه الفترة ، ومن ذلك ما نجده في قول ابن الخطيب:

وَأَنْتَ مَلَأْدُ الْخُلُقِ حَيًّا وَمَيِّبًا وَأَكْرَمُهُمْ ذَاتًا وَأَعْظَمُهُمْ مَجْدًا
فَلَوْلَاكَ مَا بَانَ الضَّلَالُ مِنَ الْهُدَى وَلَا اِمْتَارَ فِي الْأَرْضِ الْمَكْبُ مِنَ الْأَهْدَا
وَإِذَا النَّهَارُ جَلَّى الظَّلَامَ وَأَتَلَعْتُ مِنْ مِيسَمِهَا الْغَزَالَةَ جِيدًا
يَا مُصْطَفَى الرَّحْمَنِ وَالنُّورِ الَّذِي أَخْفَى الضَّلَالَ وَأَظْهَرَ التَّوْحِيدَا⁽¹⁾

فلا يخفى عنصرا المقابلة والطباق في الأبيات، حيث احداثا نوعا من الإيقاع ساهم في إثراء الموسيقى مع عناصرها الأخرى المكونة لها. مثل ذلك ما نجده في قول ابن جابر

شَفَاعَتِكَ الْعُظْمَى دَوَاءُ خَطِيئَتِي وَلَوْ جُنْتُ مِنْ جُرْمِي بِأَعْظَمِ دَاءِ
وَرَأَى الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ إِذْ لَهُ زُويِ الْوُجُودُ بِشَرْقِهِ وَغَرْبِهِ
عَجِبْتُ لِلْأَيَّامِ مَنْ عَزَّ بِهَا ذَلَّ وَمَنْ يَضْحَكُ لَهَا يَوْمًا بَكَى
سَمَّاخُكَ كَمْ أَغْنَى مِنَ الْفَقْرِ أَمَلًا وَأَمَّنْ مِنْ خَوْفٍ وَسَهْلٍ مِنْ صَغْبِ
إِلَيْكَ رَسُولَ اللَّهِ تَسْرِي وَفُودُنَا فَتُدْنِي وَمَا تُنْنِي وَتُؤْوِي وَمَا تُرْجِي⁽²⁾

نلاحظ توالي عنصري الطباق والمقابلة في الأبيات السابقة وما يحدثاه من إيقاعات أخذت نوعا من المد والجزر ساهما في زيادة النغم الموسيقي للقصيدة ، وقد تعدد هذا النوع من المحسنات في الكثير من قصائد شعر المديح النبوي في القرن الثامن الهجري عند الشعاعين.

ومن موسيقى البديع في شعر المديح النبوي أيضا موسيقى التصريع. والتصريع « ما كانت عروض البيت فيه تابعة لضربه. تنقص ناقصه وتزيد بزيادته »⁽³⁾. وهو ميزة مستحسنة عند العروضيين. وقد استحسنته حازم القرطاجني. حيث أشار إلى أهمية

(1)-لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام. الصفحات: 481-482-486-487.

(2)- ابن جابر. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين. الصفحات: 38-68-75-126.

(3)- ابن رشيق القيرواني . العمدة ، ج.1. ص: 173.

التصريع في مطلع القصيدة وما يحدثه ذلك من إيقاع يساهم في إثراء الموسيقى الشعرية بقوله:«أن تكون الكلمة مختارة متمكنة حسنة الدلالة على المعنى تابعة له. ويحسن أن يكون مقطعها مماثلاً لمقطع الكلمة التي في القافية... فإن للتصريع في أوائل القصائد طلاوة موقعا من النفس لاستدلالها به على قافية القصيدة قبل الانتهاء إليها..»⁽¹⁾ .

استخدم شعراء المديح النبوي " ابن الخطيب"⁽²⁾ابن جابر" في القرن الثامن الهجري موسيقا التصريع في الكثير من مدائحهما النبوية، من ذلك ما نجده في مطلع قصيدة ابن الخطيب في صدر رسالة كتبها عن السلطان الغني بالله إلى الضريح النبوي:

دَعَاكَ بِأَقْصَى الْمَغْرِبِينَ غَرِيبُ وَأَنْتَ عَلَى بُعْدِ الْمَرَارِ قَرِيبُ⁽²⁾

وأنشد في ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم:

دَعَا عَزَمَاتِي وَالْمَطِيَّةَ وَالْوَحْدَا وَالْأَفْكَأَ الشَّقِيقَ عَنِّي وَالْوَجْدَا⁽³⁾

حيث بنى الشاعر قصيدته على موسيقى بحر الطويل، وعلى قافية بائية في القصيدة الأولى، ودالية في القصيدة الثانية، وقد زاد من إثراء هذه الموسيقى باستخدام التصريع في مطلعها كما رأينا، حيث تساوت العروض والضرب في الوزن والإعراب والقافية . مما أكسب مطلع القصيدة نوعا من النغم الإيقاعي.

ومثل ذلك ما نجده في مطلع قصائد ابن جابر التالية:

حَادِي الْمَطَايَا قَدْ دَعَاكَ فَلْبِهِ إِنْ كُنْتَ صَبَاً صَادِقًا فِي حُبِّهِ
وَحَرْمَةِ الْحُبِّ مَالِي غَيْرُكُمْ أَرَبُ وَحِينَ أَسْمَعُ ذِكْرَكُمْ فَلِي طَرَبُ
دَعَا حَادِي الْمَطِيَّ وَقَدْ سَمِعْنَا وَإِنْ لَمْ تُصْنِعِ لِلدَّاعِي نَدِمْنَا⁽⁴⁾

حيث بنى قصائده على التوالي على موسيقى بحر الكامل، البسيط، الوافر، وقوافي على التوالي هائية مطلقة ، بائية مطلقة، وتائية مطلقة .مستخدما موسيقى التصريع من خلال تساوي عروض البيت وضربه.

(1)- حازم القرطاجني . منهاج البلغاء وسراج الأدباء . صص: 282-283 .

(2)- لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ص: 320.

(3)- المصدر نفسه . ص : 479 .

(4)- ابن جابر. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين. الصفحات: 67-82-98.

ومن الموسيقى الإيقاعية الداخلية أيضا موسيقى التكرار، مثل تكرار الحروف والألفاظ والعبارات، وأساليب الطلب وغيرها .

ويعد التكرار خاصة بارزة في شعر المدائح النبوية ، فهو يدل على تأكيد تجربة المديح النبوي، ويعبر عما يعاناه الشعاعان ابن الخطيب وابن جابر من ضيق من خلال حنينهما إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وقبره .

من تكرار الحروف نجد تكرار الشعاعان لبعض الحروف التي لها علاقة بموضوع القصيدة مما أكسبها نوعا من الموسيقى الناتجة من خلال ذلك التكرار على نحو ما نجد في قصيدة ابن الخطيب الذي بنى قافيتها على حرف السين:

أَثَارَ سَنَاهَا وَالذِّيَارُ نَوَازِحُ سَنَا بَارِقٍ مِنْ مَطَّلَعِ الْوَحْيِ لَائِحُ
رَكَائِبُ تَسْتَفُّ الْفَلَاحَ فَكَأَنَّهَا سَفَائِنُ فِي بَحْرِ السَّرَابِ سَوَابِحُ
إِلَيْكَ رَسُولَ اللَّهِ شُدَّتْ نُسُوعُهَا وَغَادَرَهَا الْإِدْلَاجُ وَهِيَ طَلَائِحُ⁽¹⁾

فالملاحظ على هذه الأبيات جميعها تكرار حرف الباء، مما أعطى نوعا من الجرس اللفظي الإيقاعي ساعد على إثراء موسيقى الوزن والقافية، إلى جانب ما يحدثه حرف السين من أثر صوتي إضافي، فحرف السين من الحروف الصفيرية . ويقول في أبيات أخرى:

فُوَادٌ عَلَى جَمْرِ الْبِعَادِ مَقْلَبُ يُمَاحُ عَلَيْهِ لِلدُّمُوعِ قَلِيبُ
فَوَاللَّهِ مَا يَزْدَادُ إِلَّا تَلْهُبًا أَبْصَرْتَ نَارًا تَارَ عَنْهُ لَهَيْبُ
فَلَيْلَتُهُ لَيْلُ السَّلِيمِ وَيَوْمُهَا إِذَا شُدَّ لِلشَّوْقِ الْعِصَابُ عَصِيبُ
هَوَايَ هُدَى فِيكَ اهْتَدَيْتُ بِنُورِهِ وَمُنْتَسَبِي لِلصَّحْبِ مِنْكَ نَسِيبُ
وَحَسْبِي غُلًّا أَنِّي لِصَحْبِكَ مُنْتَمٍ وَلِلْخَزْرَجِيِّينَ الْكِرَامِ نَسِيبُ⁽²⁾

فالملاحظ ما أعطاه تكرار حرف الباء في الأبيات من لون موسيقي ساعد على تقوية المعنى.

(1)- لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ص: 367.

(2)- المصدر نفسه . صص: 323-324.

ومن موسيقى تكرار الحروف أيضا تكرار حرف الجيم في قصيدة لابن جابر:

لِجَاهِكَ يَا خَيْرَ الْأَنَامِ تَوَجَّهِي إِذَا الْأُمُّ فِي شُغْلِ عَنِ الرِّضْعَاءِ
شَفَاعَتِكَ الْعُظْمَى دَوَاءً خَطِيئَتِي وَلَوْ جِئْتُ مِنْ جُرْمِي بِأَعْظَمِ دَاءٍ⁽¹⁾

فقد ساعد تكرار حرف الجيم في البيتين على تقوية النغم .

ومن موسيقى تكرار الألفاظ والعبارات ما نجده في قصيدة لابن الخطيب في مدح

الرسول الكريم والتشوق إليه:

عَلَيْكَ صَلَاةُ اللَّهِ يَا خَيْرَ مُرْسَلٍ وَأَكْرَمَ هَادٍ أَوْضَحَ الْحَقِّ وَالرُّشْدَا
عَلَيْكَ صَلَاةُ اللَّهِ يَا خَيْرَ رَاحِمٍ وَأَشْفَقَ مَنْ يُثْنِي عَلَى رَأْفَةٍ كَبِدَا
عَلَيْكَ صَلَاةُ اللَّهِ يَا كَاشِفَ الْعَمَى وَمُذْهَبَ لَيْلِ الشُّكِّ وَهُوَ قَدْ اِرْبَدَا⁽²⁾

فنلاحظ التكرار الموسيقي الحاصل من خلال تكرار عبارة(عليك صلاة الله) الذي التزم به في بعض أبيات القصيدة .

أما ابن جابر فيمدح النبي الأعظم في قوله:

يَا مَنْ سَمَا لِلسَّمَاءِ لَيْلًا وَعَادَ وَاللَّيْلُ مَا تَقَصَّى
يَا مَنْ رَأَى رَبَّهُ وَحَتَّى لِقَابِ قَوْسَيْنِ مِنْهُ أَفْضَى
يَا مَنْ لَهُ الدُّوْحُ جَاءَ يَسْعَى قَدْ شَقَّ وَجْهَ الثَّرَى وَفَضَا
يَا مَنْ عَدَا لِلْغَمَامِ ظِلًّا عَلَيْهِ وَالْأَرْضُ ذَاتُ رَمْضَا
يَا مَنْ بِالْحَصَى فَكَانَتْ مِنْ مُرْهَفَاتِ الرِّمَاحِ أَمْضَى⁽³⁾

نلاحظ التكرار الموسيقي المتمثل في تكرار عبارة(يا من) .

ومن موسيقى تكرار الألفاظ والعبارات في شعر المديح النبوي عند الشعاعين أيضا تكرار موسيقى بعض أساليب الطلب، مثل تكرار صيغة الاستفهام، على نحو ما نجده في قول ابن الخطيب :

بِمَادَا عَسَى يُثْنِي عَلَيْكَ مُقَصِّرٌ وَلَمْ يَأَلُ فِيكَ الْوَحْيَ مَدْحًا وَلَا حَمْدًا
بِمَادَا عَسَى يُجْزِيكَ هَاوٍ عَلَى شَفَى مِنَ النَّارِ قَدْ أَسْكَنْتَهُ بَعْدَهَا الْخُلْدَا⁽⁴⁾

(1)- ابن جابر. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين. ص: 38 .

(2)- لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . صص: 476-477.

(3)- ابن جابر. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين. ص: 299 .

(4)- لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . صص: 476 .

حيث يلاحظ في البيتين تكرار صيغة الاستفهام (بماذا) التي أثرت الموسيقى الشعرية بنوع من الإيقاع الداخلي في القصيدة إلى جانب تعاونها مع غيرها من العناصر المكونة لموسيقى الشعر. وسار على مثل ابن الخطيب مواطنه ابن جابر:

وَأرَوَى جَمِيعَ الْجَيْشِ مِنْ نَبْعِ أَنْمَلٍ	أَلَيْسَ الَّذِي فِي كَفِّهِ سَبَّحَ الْحَصَى
لِكُلِّ مُجِيدٍ فِي الْبَلَاغَةِ مُجَزَلٍ	أَلَيْسَ مِنَ الْفُرَّانِ جَاءَ بِمُعْجَزٍ
فَشَقَّ عَلَى نَفْسِ الشَّقِيِّ الْمَذَلِّ	أَلَيْسَ انْشِقَاقُ الْبَدْرِ كَانَ لِأَجَلِهِ
أَلَمْ يُبْصِرُوا فِعْلَ الْعَمَامِ الْمُظَلَّلِ	أَلَمْ يَنْظُرُوا لِلدَّوْحِ تَسْعَى لِقَصْدِهِ
فَأَنَّ أَنْيْنَ الشَّيْقِ الْمُتَمَلِّلِ	أَلَيْسَ الَّذِي قَدْ أَلَمَ الْجُدْعَ فَقْدُهُ
فَعَادَتَ وَلَمْ تُخْلِفْ وَلَمْ تَتَمَهَّلِ	أَلَيْسَ الَّذِي أُعْطِيَ الْغَزَالََةَ عَهْدَهُ
عَلَى الْغَارِ إِذْ جَاؤُوا فَجَالُوا بِأَسْفَلِ	أَلَمْ يَبْتَدِرْهُ الْعَنْكَبُوتُ بِنَسْجِهِ
لِتَصْرِفَهُمْ عَن قَصْدِهِ بِالتَّخْيِيلِ	أَلَيْسَ بِبَابِ الْغَارِ حَامَتُ حَمَامَةٌ
فَأَنْجَاهُ مِنْ جُوعٍ وَتَنْفِيلِ مَحْمَلِ	أَلَيْسَ بَعِيرُ الْقَوْمِ لَأَدَّ بَعْدَلِهِ
لَدَيْهِ مَتَى مَا مَدَّ كَفًّا لِمَأْكَلِ	أَلَمْ يَسْمَعُوا صَوْتَ الطَّعَامِ مُسَبَّحًا
عَلَيْهِ وَمَا يَلْقَاهُ مِنْ كُلِّ جَنْدَلِ	أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْوَحْشَ وَالِدَّوْحَ سَلَّمَتْ
فَقَالَ مُجِيبًا أَنْتَ آخِرُ مُرْسَلِ	أَلَيْسَ الَّذِي قَدْ كَلَّمَ الضَّبَّ سَائِلًا
إِذَا مَا شَرِبْنَا مِنْهُ جَرَعَةً سُنْسَلِ	أَلَيْسَ لَهُ الْحَوْضُ الَّذِي نَأْمَنُ الظَّمَا
وَهُمْ عَن لِحَاقِ السَّمْعِ بَعْدَ بِمَغْزَلِ ⁽¹⁾	أَلَمْ تَقْدِفِ الْجِنَّ النُّجُومَ لِأَجَلِهِ

فقد كرر ابن جابر صيغتي الاستفهام (أليس، ألم) وقد أثرت الموسيقى الشعرية بنوع من الإيقاع الداخلي للقصيدة .

يقول أحد الباحثين «إن من أبرز السمات التي تميز الشعر عن غيره من الكلام تلك الموسيقى الواضحة التي تتأزر مع عناصر أخرى كثيرة حتى يصل ذلك اللون من التعبير إلى قلب قائله وعقله . ويملك على مستمعه حواسه كلها، فيشده إلى ما يريده الشاعر من إيصال تجربته الشعرية إلى المتلقي قارئاً كان أو مستمعا...»⁽²⁾. فالشعر « يحتاج إلى الموسيقى التي تلحنه، وتظهر جماله، وتوضح أوزانه »⁽³⁾ .

(1)- ابن جابر. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين. ص: 449 .

(2)- شعبان صلاح. موسيقى الشعر بين الإبتاع والابتداع. ط3. دار الثقافة العربية، 1998م . ص: 9.

(3)- أحمد الشايب. أصول النقد الأدبي. ط10. مكتبة النهضة المصرية، 1999م . ص: 321.

الفصل الخامس

مستويات التناص عند الشعاعين

المبحث الأول: التناص القرآني

المبحث الثاني: التناص مع الحديث النبوي الشريف

المبحث الثالث: التناص مع الموروث الشعري القديم

المبحث الرابع: التناص من خلال الأمثال والحكم

المبحث الخامس: التناص مع التاريخ

أولاً-التناص: مفهومه، دوره :

« التناص ظاهرة لغوية معقدة تستعصي على الضبط والتقنين إذ يعتمد في تمييزها على ثقافة المتلقي وسعة معرفته وقدرته على الترجيح»⁽¹⁾. « فالتناص يتصل بعمليات الامتصاص والتحويل الجذري أو الجزئي لعديد من النصوص الممتدة بالقبول أو الرفض في نسيج النص الأدبي المحدد. وبهذا فإن النص الأدبي يندرج في فضاء نصي يتسرب خلاله»⁽²⁾.

وتوجد صور متعددة لا تقوم كلها في درجة واحدة، بل هناك درجات عديدة للتناص، مما مكن أن يقودنا إليه التحليل النصي. فهناك مثلا خواص شكلية محددة، مثل الإيقاعات والأوزان والأبنية المقطعية. ومثل أنماط الشخصيات والمواقف التي يمكن استخدامها كحد أدنى للتناص. وتتمثل الدرجة الوسطى من التناص في الإشارات المتضمنة والانعكاسات غير المباشرة. أما الدرجة القصوى من التناص فتقوم بها تلك الممارسات الاقتباسية، والمعارضات ما يحيل على مجموعة الشفرات الأسلوبية والبلاغية المستخدمة في نصوص سابقة بشكل لا يمكن أن يخفى على القارئ المتوسط، وهو المجال الذي تمثله أبواب السرقات ف النقد العربي القديم⁽³⁾.

« ويؤدي التناص دورا بارزا في إثراء التجربة، حيث يكتسب النص "تعددية" من سياقات أخرى مع بقاءه ممرزا في سياقه الخاص، وتتوغل أنماط التناص ما بين استعادة حدث ديني أو تاريخي أو أسطوري، واستبطان هذه الأحداث أو الإشارات بحيث تتولد دلالات جديدة تثري التجربة»⁽⁴⁾.

ويبدو واضحا أن التناص يعتمد اعتمادا أساسيا على عمق ثقافة الأديب وتنوعها، ولقد اهتم النقاد بالحديث عن ضرورة تسلح الكاتب بمختلف ألوان الثقافة، وتعددت توجيهاتهم للكتاب، وكثرت أحاديثهم عن صنوف الثقافات، التي ينبغي أن يتزود بها

(1)-محمد مفتاح . تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص) . ط3. المركز الثقافي الدار البيضاء ،

المغرب، 1992 م . ص:131.

(2)- صلاح فضل. بلاغة الخطاب وعلم النص.(د. ط). عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون

والآداب، الكويت، 1413هـ-1992م . ص : 240 .

(3)- ينظر : المرجع نفسه . صص : 240-241.

(4)-فوزي عيسى. تجليات الشعرية: قراءة في الشعر المعاصر. منشأة المعارف بالإسكندرية، 1997م.ص:21.

الكاتب، والتي يمكن تلخيصها في ضرورة التسلح بالثقافة العربية والإسلامية والتاريخية، والإلمام بالأصول العامة لصناعة الأدب والوقوف على مذاهب الأدباء، ثم نجد منهم من جنح إلى التخصص ومتابعة كل كاتب في الديوان الذي يعمل فيه وتزويده بما يحتاج إليه من معارف خاصة حتى ينجح في أداء مهمته⁽¹⁾.

واستعانة الكاتب في إبداع رسالته بالتناص من البيان القرآني، أو الشعر، أو من خلال الأمثال والحكم إنما هو توظيف لمؤثر لغوي أو أسلوبية، يعطي دلالة تضيف إلى المعنى العام للنص مع ما ينفرد به الموروث الديني من قداسة وامتياز، وعلى التسليم بقيمته الاحتجاجية التي لا تطاولها قيمة.

« وفي العادة يكون المختار لتضمينه أو الاقتباس منه آية من آيات البلاغة. لما فيه من اختيار لفظ أو قوة معنى، وقد بلغ من النفوس مبلغا من الإعجاب صلح معه أن يجري على ألسنتهم ويصبح مثلا سائرا جديرا بالإعادة والتكرار أو يكون ذلك من الأدباء على سبيل التملح و التظرف، كما يبدو في استخدام مصطلحات العلوم والفنون. وفي هذا دليل واضح على مهارة الأديب و سعة ثقافته ووفرة اطلاعه»⁽²⁾.

وفي ضوء هذا المفهوم للتناص فقد قمنا بتتبع تلك الظاهرة التناصية⁽³⁾، في مدائح ابن الخطيب وابن جابر، والتي كان حضورها مكثفا بحيث لا تكاد تخلو مدحة منها، فضلا عما صاحب ذلك من تنوع في مصادرها وتعدد في منابعها، ولذا فقد قصرنا الحديث فيها على خمسة منابع هي: القرآن الكريم، الحديث الشريف، والشعر العربي، والأمثال العربية، والأحداث التاريخية في محاولة منا لمعرفة الآلية التي اعتمدها

(1) - للوقوف على اهتمام النقاد بثقافة الكاتب وألوان هذه الثقافات ينظر: الرسالة العذراء. ابن المدبر.

رسائل البلغاء . صص: 177-178.

ابن قتيبة . أدب الكاتب. ص: 8 . صص: 6-19 .

ابن الأثير. المثل السائر، ج1. ص: 38-14.

ابن طباطبا . عيار الشعر. ص: 10. / أبو هلال العسكري. الصناعتين. ص: 115.

(2) - بدوي طبانة. السرقات الأدبية، دراسة في ابتكار الأعمال الأدبية وتقليدها. ط4. مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1395هـ-1975م . ص: 168.

(3) - سوف استخدم بعض المصطلحات التي تدور في فلك هذه الظاهرة، وهي: التناص، والتضمين، وتداخل النصوص، وذلك بحسب انسجامها مع السياق.

الشاعران في استحضار تلك المنابع ضمن دائرة التركيب اللغوي للمدحة، هل كان يتم مباشرة وبشكل قوالب جاهزة أم كان في صورة خفية وغير مباشرة؟ وإلى أي مدى حرص الشاعران على أن يتصرف في تركيبها سواء بالحذف وبالإضافة أو بالتقديم والتأخير.

I- ابن الخطيب:

استطاع ابن الخطيب أن يوظف مقروءه الثقافي من مختلف فروع المعرفة العقلية و النقلية لخدمة مدائحه النبوية وربما كان يتم ذلك بوعي منه أو بغيره فالأمر سيان، المهم في ذلك أن تكون رؤيتنا لهذا العمل من واقع أن «الشاعر ليس إلا معيدا لإنتاج سابق في حدود من الحرية»⁽¹⁾.

أ- التناص القرآني: حرص الشاعر على التناص من خلال القرآن الكريم وذلك بالاقتراب من آياته، وكان هذا التناص يقع على وجوه متعددة؛ لأنه قد يكون بالاقتراب، دون نص على قرآنية المقتبس، اعتمادا على وضوح نسبه، وقد يكون عن طريق الاستشهاد بالبيان القرآني استشهادا صريح النسبة، لتوكيد البرهنة على الموضوع المحتج له، وقد يأتي التناص عن طريق الإلماح والإيماء دون اقتباس أو استشهاد قرآني صريح⁽²⁾.
ومن أمثلة التناص القرآني عند ابن الخطيب قوله وهو يخاطب الركب الحجازي، ملتصقا منه أن يبلغ شوقه إلى رسول الله، وحنينه إلى زيارته، نيابة عنه، وذلك إذا وصل إلى المدينة المنورة «طيبة» وجاء القبر المقدس .

نَشَدْتُكَ يَا رَكْبَ الْحِجَازِ تَضَاءَلْتُ
لَكَ الْأَرْضُ مَهْمَا اسْتَعْرَضَ السُّهْبُ وَأَمْتَدَّا
وَإِذَا أَنْتَ شَافَهُتِ الدِّيَارَ بِطَيْبَةٍ
وَجِئْتَ بِهَا الْقَبْرَ الْمُقَدَّسَ وَاللَّحْدَا
وَ أَنْسَتْ نُورًا مِنْ جَنَابِ مُحَمَّدٍ
يُدَاوِي الْقُلُوبَ الْغُلْفَ الْأَعْيُنَ الرَّمْدَا⁽³⁾

فقد أشار بعجز البيت الثالث إلى الآية القرآنية في قوله تعالى:

(1) - محمد مفتاح. تحليل الخطاب الشعري : إستراتيجية التناص. ط3. المركز الثقافي العربي، الدار

البيضاء، 1992م . ص :124.

(2) - ينظر : سالم عبد الرزاق سليمان. ترسل الشعراء في الأندلس.(د،ط). دار المعرفة الجامعية، 2008.

ص : 407 .

(3) - لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ص:475.

(وَقَالُوا قُلُوبُنَا خُلْفَةٌ بَلْ كَذَّبْتُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾)

وفي قوله كذلك:

وَنَادَى لِسَانُ الْفَتْحِ فِي عَرَصَاتِهَا كَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ (2)

اقتبس الشطر الثاني من قول المولى عز و جل: (وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَامْرَأَتِهِ
أَكْرَمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَكَدًّا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلَعَلَّمَهُ
مِنَ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ خَالِبٌ لِمَا فِي أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾) .

ونجده قد اقتبس من الآية الكريمة: (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا
فَمُتَلَقِّبُهُ ﴿٤﴾) . بيته هذا:

كَدَحْتَ إِلَى رَبِّ الْجَمَالِ مُلَاقِيًا فَيَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ (5)

ويقول في مدح يد الخلق نبينا محمد ﷺ:

وَبِمَهَبِطِ الرُّوحِ الْأَمِينِ أَمَانَةٌ وَالْيَمْنُ فِيهَا وَالْأَمَانُ لِرُوحِي

يَا صَفْوَةَ اللَّهِ الْمَكِينِ مَكَانُهُ يَا خَيْرَ مُؤْتَمِنٍ وَخَيْرَ نَصِيحِ

أَفَرَضْتُ فِيكَ اللَّهُ صِدْقَ مَحَبَّتِي أَيْكُونُ تَجْرِي فِيكَ غَيْرَ رِيحِ (6)

ففي هذا التصوير استعار « التجر » لما قام به من أعمال توجب محبة الرسول الأعظم،
كما استعار « الريح » لثواب وأجر الآخرة، وهذا التصوير في مجمله مستوحى من قوله
تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٧﴾) .

وفي هذا البيت كذلك يستمد من الآية القرآنية السابقة :

أُولَئِكَ الْأَلَىٰ بِالْأَنْفُسِ اشْتَرَوْا الْهُدَىٰ فَتَجَرُّهُمْ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ رَابِحٌ (8)

(1) -سورة البقرة . الآية : 88 .

(2) - لسان الدين بن الخطيب . الديوان . ص : 604 .

(3) -سورة يوسف . الآية : 21 .

(4) - سورة الانشقاق . الآية : 6 .

(5) - لسان الدين بن الخطيب . الديوان . ص : 367 .

(6) - لسان الدين بن الخطيب . ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ص : 383 .

(7) - سورة البقرة . الآية : 16 .

(8) - لسان الدين بن الخطيب . ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ص : 369 .

وفي مدائحه دائما وهو يثني على النبي صلى الله عليه وسلم يقول :

بِمَادَا عَسَى يُجْزِيكَ هَاوٍ عَلَى شَفَى مِنْ النَّارِ قَدْ أَسْكَنْتَهُ بَعْدَهَا الْخُلْدَا(1)

فقد اقتبس من القرآن الكريم، قوله تعالى: (وَاصْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿2﴾).

ويقول في ميلاد عام أربعة وستين وسبعمائة :

مَثَلُ اللَّهِ نُورُهُ فِي الْمَثَانِي بِمِثَالِ الْمَشْكَاتِ وَالْمُصْبَاحِ(3)

هنا إشارة واضحة جدا إلى قوله تعالى: (اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِيهِ زُجَاجَةٌ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿4﴾).

وَخَفَضَتْ الْجَنَاحَ فِي الْأَرْضِ حَتَّى لَمْ تَدَعْ فَوْقَ ظَهْرِهَا مِنْ جُنَاحٍ(5)

وكان حرصه الاقتباس من الذكر الحكيم وهو يمدح الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه هذا البيت:

سِيْمَاهُمْ التَّقْوَى أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ، فِيمَا بَيْنَهُمْ رُحَمَاءُ(6)

يشير بهذا البيت إلى الآية الكريمة:

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَخْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيْمَاهُمْ فِيهِ وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَرِيٍّ أَخْرَجَ شَطَأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿7﴾).

(1) - لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ص: 476 .

(2) - سورة آل عمران . الآية: 103.

(3) - لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ص: 391 .

(4) - سورة النور . الآية: 35.

(5) - لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ص: 393 .

(6) - المصدر نفسه . ص: 233 .

(7) - سورة الفتح . الآية : 29.

لقد كانت نظرة ابن الخطيب إلى آيات القرآن الكريم نظرة شمولية، بحيث لم يقف عند نص الآية حرفياً، بل حاول أن يتعدى ذلك إلى الإشارة والإيماء، والاستفادة مما حمله القرآن لنا .

أما الجانب الآخر من جوانب الثقافة الدينية الذي هو الحديث الشريف، فقد استطاع ابن الخطيب أن يجعل حصيلته من الحديث رافداً لإبداعه الشعري، فقد ألفيت إشارات عديدة للحديث النبوي الشريف، وكيف ماثل ابن الخطيب تصويره نجد ذلك واضحاً في مدح خير الورى :

وَأَنَا اقْتَدَيْتَنَا فَاهْتَدَيْتَنَا بِصَحْبِهِ وَمَا صَحْبُهُ إِلَّا النُّجُومُ اللَّوَّاحُ (1)

صور أصحاب الرسول ﷺ كالنجوم المضيئة في السماء، وهذا التصوير مستمد من قول الرسول ﷺ: (أَصْحَابِي كَالنُّجُومِ بَأَيِّهِمْ اقْتَدَيْتُمْ اهْتَدَيْتُمْ) (2).

ويصور رحلته إلى البلاد المقدسة وحنينه إليها :

وَقُلْتُ لِحَفْنِي إِنْ دُعِيتَ لِعِبْرَةٍ فَسَاعِدْ بِهَا مَطْلُ الْغَنِيِّ مِنَ الظُّلْمِ
وَلَمْ لَأَ وَقَدْ حَلَّ الرُّكَّابُ بِبَيْتِ رَبِّ وَيُوتُ بِشَحْطِ الدَّارِ مِنْهَا عَلَى رَغْمٍ (3)

فقد استلهم هذا المعنى من حديث الرسول ﷺ: (مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ) (4).

وكرر الحديث مرة أخرى في بيته هذا :

مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ فَفِيمَ ظَلَمْتَنِي؟ وَلَوَيْتَ دِينِي عَن وُجُودِي يَسَارِي (5)

وفي موضع آخر يستعين بقول الرسول ﷺ: (الْمَقْلَمُ وَتَوَكَّلْ) (6). وذلك في قوله:

وَالْمُسْتَعِدُّ لَمَا يُؤَمَّلُ ظَافِرٌ وَكَفَاكَ شَاهِدٌ قِيدُوا وَتَوَكَّلُوا (7)

(1) -لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ص: 369 .

(2) - ينظر: موسوعة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، ج2، جمع: علي حسن الحلبي وآخرون. ط1. مكتبة المعارف، الرياض، 1999م. ص: 56 .

(3) -لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ص: 575 .

(4) -ينظر: د.أ.ي، ونسينك. المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، ج4. ليدن، مكتبة بريل، 1936م. ص: 83.

(5) -لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ص: 492 .

(6) -ينظر: د.أ.ي، ونسينك . المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، ج4. ص: 300.

(7) - لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ص: 495 .

تبدو ظاهرة التناص الشعري واضحة في المدائح النبوية لدى شاعرنا "ابن الخطيب"، حيث وازن في تضمينه ما بين المباشرة والإشارة ، ننظر إلى قوله :

فَقَوْلُ حَبِيبٍ إِذْ يَقُولُ تَشْوِقًا عَسَى وَطَنٌ يَدْنُو إِلَيَّ حَبِيبٌ⁽¹⁾

فقوله(عسى وطن يدنو) استمده من قول أبي تمام:

عَسَى وَطَنٌ يَدْنُو بِهِمْ وَلَعَلَّمَا وَإِنْ تَعَبَ الْأَيَّامَ فِيهِمْ فَرَبِمَا⁽²⁾

أما بيته :

وَتَحْتَمِلِ الرَّكْبَانَ طِيبَ حَدِيثِهِ فَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تَرَوْدِي⁽³⁾

فالشطر الثاني مقتبس من بيت طرفة بن العبد الذي صدره:

"سَبْدِي لَكَ الْأَيَّامُ مَا كُنْتُ جَاهِلًا" .

وكذلك قوله:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي وَالْأَمَانِي ضَالَّةٌ وَقَدْ تُخْطِئُ الْأَمَالَ ثُمَّ تُصِيبُ⁽⁴⁾

وهذا بالطبع تصوير استمده ابن الخطيب من قول الأعشى:

رَأَيْتُ الْمَنَايَا حَبَطَ عَشْوَاءٍ مِنْ تُصِيبِ تُمْتُهُ وَمَنْ تُخْطِئُ يُعَمَّرُ فِيهِمْ⁽⁵⁾

لقد استطاع شاعرنا «إعادة إبداع ما سبق إبداعه»⁽⁶⁾ فقد كون مناخا آخر لتلك الصور المشتركة فظهرت وكأنه هو منتجها،وهذا ما لا يعيب الشاعر مادام أنه قادر على إبراز تلك الصور « في أحسن كسوة »⁽⁷⁾.

(1)– لسان الدين بن الخطيب . ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ص: 323 .

(2)–أبو تمام، حبيب بن أوس بن الحارث الطائي .الديوان،ج3. شرح: الخطيب التبريزي . تحقيق: محمد عبده عزام. ط2. دار المعارف، القاهرة ، 1970م . ص: 272.

(3)– لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ص: 194 . ينظر: ديوان طرفة بن العبد، شرح: الأعلام الشنتمري، تحقيق: درية الخطيب، ولطفي الصقال . مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق ، 1970م .

(4)– لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ص: 321 .

(5)–الأعشى،ميمون بن قيس.الديوان.دار بيروت للطباعة والنشر،بيروت،1406هـ/1986م.ص:58.

(6)–منير سلطان. تشبيهات المتنبي ومجازاته. ط2. منشأة المعارف ، الإسكندرية، 1997م . ص:325 .

(7)– ابن طباطبا . عيار الشعر. ص : 76.

« فالمعنى القديم الذي يأخذه الشاعر ويطبعه شخصيته، ويحوره تحويرا فنيا، هو في الواقع شيء جديد يبعث في النفس إعجابا بالفن تماما كما لو كان هذا المعنى يطرق السمع لأول مرة »⁽¹⁾ .

ويقول من قصيدة، مديحية بدأها بمطلع خمري غزلي، كعادته في المديحيات:

صفراءُ تصفرُّ عن حبابِ كؤوسِها رقتَ فرقاً لنا الزمانُ بذاتها
من كفِّ ساجيةِ الجفونِ كأنما هبتُ وفي الأجفانِ بعضُ سناتها
ولثغرها عند ابتسامِ أقاحه بدرٌ تألقَ في سنا وجناتها
دع عنك هذا والديارَ ومن بها ودع الغرامَ يكونُ بعضُ عفاتها⁽²⁾

فقد تأثر في هذه الأبيات، بل في المطلع كله، بقصيدة أبي نواس التي يقول فيها:

صفراءُ لا تنزلُ الأحرانُ ساحتها لو مسها حجرٌ مسته سراءُ
قامتْ بإبريقها والنيلُ معتكراً فلاح من وجهها في البيتِ لألاءُ
لتلك أبكي ولا أبكي لمنزلةٍ كانت تحل بها هندُ وأسماءُ⁽³⁾

وكذلك في بيته هذا:

دع عنك هذا والديارَ ومن بها ودع الغرامَ يكونُ بعضُ عفاتها⁽⁴⁾

كما أنه تأثر ببيت أبي نواس:

لا تبك ليلى ولا تطربِ إلى هندٍ واشربِ على الوردِ من حمراءِ كالوردِ⁽⁵⁾

فالشعر العربي القديم له حظ وافر وأصبح أشبه ب«اختيار فني ومنهاج في التصوير»⁽⁶⁾

(1) - أحمد الصاوي . فن الاستعارة : دراسة تحليلية في البلاغة والنقد . (د.ط). الهيئة العامة للكتاب، الإسكندرية ، 1979م . ص : 252 .

(2) - لسان الدين بن الخطيب . ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ص : 326 .

(3) - أبو نواس ، الحسن بن هانئ الحكمي . الديوان ، حققه وشرحه وفهرسه: سليم خليل قهوجي ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، 1422هـ/2002م . صص : 32-33 .

(4) - لسان الدين بن الخطيب . ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ص : 188 .

(5) - أبو نواس . الديوان . ص : 267 .

(6) - قاسم الحسيني . الصورة الشعرية في إبداع ابن الخطيب . مجلة كلية الآداب ، تطوان . صص : 286-287 .

د- التناص من خلال الأمثال والحكم :

يحتاج الشاعر إلى النظر في كتب الأمثال الواردة عن العرب نثرا ونظما، وذلك لما يتركز في منطوق المثل من معان ومفاهيم ودلالات جمّة، فإذا أكثر الشاعر من حفظ الأمثال السائغ استعمالها انقادت إليه معانيها، وسيقت إليه ألفاظها، في وقت الاحتياج إلى نظائرها من الوقائع والأحوال، فأودعها في مكانها، واستشهد بها في موضعها، والطريق في استعمالها في النثر كما في حل الأشعار واستعمالها؛ إلا أن الأمثال لا يجوز تبديل ألفاظها، ولا تغيير أوضاعها لأنها بذلك قد عرفت واشتهرت⁽¹⁾. يقول :

مَقَامُكَ حَيْثُ السُّحْبُ هَامِيَةٌ النَّدَى مَقِيلٌ لِإِصْبَاحِ السَّرَى فِيهِ إِخْمَادُ⁽²⁾

فلعلنا نلاحظ ما في هذا البيت من تضمين وإشارة إلى المثل المعروف: «عند الصباح يحمد القوم السرى»

(1) - يراجع: حديث القلقشندي عن وجه احتياج الكاتب إلى حفظ الأمثال وكيفية استعمالها في الكتابة، صبح الأعشى ، الجزء الأول، صص : 346-354 .

(2) - لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ص: 405 .
وينظر: الميداني، أبو الفضل احمد بن محمد. مجمع الأمثال، ج1 ، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد . مطبعة السعادة ، القاهرة ، 1959م . ص : 344.

هـ- التناص مع التاريخ:

عندما يذكر التاريخ ضمن العمل الأدبي وخاصة الشعر منه يتبادر إلى أذهاننا سؤال: على أي نحو يمكن أن تقوم علاقة وثيقة ما بين التاريخ والشعر عند ابن الخطيب...؟ .

لعل مما يميز ابن الخطيب أنه جمع بين فني التاريخ والشعر، فكانت قصائده بوجه عام، و المدحة النبوية على وجه الخصوص مرآة لأحداث تاريخية، على اختلاف فتراتنا وحقبها، فمنها ما يعود للعصور السالفة في محاولة منه لدعم المدحة النبوية فنيا ومعنويا بظلال تلك المرجعية التاريخية، ومنها ما يرمي من ورائها ابن الخطيب أن يكون في منزلة الشاعر المؤرخ، تلك المنزلة التي تضمن للشاعر أن يظل « قابعا في دائرة الشهادة التي يمكن أن نصفه من خلالها بأنه شاهد على عصره»⁽¹⁾.

فالمادة التاريخية القديمة شكلت دعامة قوية للمدحة النبوية خاصة، فقد استعان بها ابن الخطيب كثيرا في بناء المدائح النبوية، ولعل هذا التواجد المستمر للمادة التاريخية من خلال التناص معها، ينبع من فهم ابن الخطيب للتاريخ الذي يرى فيه « وسيلة لضم البشر، يعرفون به أنسابهم في ذلك شرعا وطبعاً ما فيه، ويكتسبون بع عقل التجربة في حال السكون، ويستدلون ببعض ما يبدي الدهر ويخفيه، ويرى العاقل من تصريف قدرة الله تعالى ما يشرح صدره بالإيمان وينفيه، ويمر على مصارع الجبايرة فيحسبه بذلك واعظا ويكفيه»⁽²⁾.

لقد ورد التناص التاريخي كثيرا في المدائح النبوية لابن الخطيب، وقد غلب عليه أن يكون باستحضار الشخصيات التاريخية مثل ما يقول في هذا البيت:

وَيَا عَجَبًا مَنِّي وَفَرَطَ تَشْيَعِي أَهَيْمُ بَوَجْدِي فِيهِ وَهُوَ ابْنُ مَلْجَمٍ⁽³⁾

إنه استحضر شخصية ابن ملجم وهو قاتل علي(ض) بأبعادها التاريخية التي عرفت بالطغيان والظلم، وجعلها بذلك مقابلة لمن أولاه حبا وهام به وجدا .

(1)- عبد الله التطاوي. الشاعر مؤرخا. (د،ط). دار غريب، القاهرة، (د، ت). ص: 11.

(2)- لسان الدين بن الخطيب . الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1. صص: 88-89 . وللمزيد حول مفهوم

التاريخ عند ابن الخطيب، ينظر: محمد بن عبود. ابن الخطيب مؤرخا للأندلس في عهد الطوائف.

مجلة كلية الآداب بتطوان. صص : 159-172.

(3)- لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ص: 569.

ويقول في بيت آخر:

نَالَ مِنْهَا عُقْبَى مُسَيْلِمَةَ⁽¹⁾ الْكَذِّ ابِ إِذْ عَانَدَ الْهَوَى، وَسَجَّاحِ⁽²⁾

كما ذكر شخصية إيوان كسرى في أبياته هذه وهو يمدح النبي ﷺ:

أَشَادَتْ بِهَا الْكُهَّانُ قَبْلَ طُلُوعِهَا وَعَاجَلَ بِالْإِخْمَادِ نِيرَانَ فَارِسِ
وَأَتَتْ عَلَى إِيوَانَ كِسْرَى رَجَّةً وَإِيوَانَ كِسْرَى أَسْرَعَتْ شُرْفَاتُهُ
وَمِنْ هَوْلِهَا إِيوَانَ كِسْرَى قَدِ⁽³⁾ أَنْهَدَا فَلَمْ تُرَ لِلنَّيِّرَانِ مِنْ بَعْدِهَا وَقَدَا
هَدَّتْ قَوَاعِدَهُ وَكَانَ مَشِيدَا وَقَدَّ عَايِنَتْ مَا عَايِنَتْهُ إِلَى الْهَدَمِ

(1) - مسيلمة الكذاب: هو مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب الحنفي الوائلي، كنى أبا ثمامة، ادعى النبوة في زمن الرسول ﷺ، ولد ونشأ باليمامة في القرية المسماة اليوم «بالحبيلية» بالقرب من «العبيدة» بوادي حنفة في نجد، وكان يلقب في الجاهلية بالرحمان وعرف برحمان اليمامة، ولما ظهر الإسلام في غربي الجزيرة العربية وفتح الله لنبيه مكة، جاء وفد بني حنيفة يعلن إسلامه، وعندما عاد الوفد إلى اليمامة كتب مسيلمة إلى محمد ﷺ رسالة يعلمه بأنه أشرك معه: النبوة، وأن له نصف الأرض ولقريش النصف الآخر، فأجابه الرسول برسالة وصفه فيها بالكذاب، وأعلمه أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، وأن العاقبة للمتقين. وادعى مسيلمة بأن الوحي ينزل عليه بآيات شبيهة بالقرآن- في نظره- وفي عهد أبي بكر-رضي الله عنه- بعث إليه الجيش على رأسه خالد بن الوليد، فاقتتل الفريقان اقتتالا شديدا استشهد فيه من المسلمين ما يزيد عن الألف، وانتهت المعركة بانتصار جيش المسلمين بقيادة خالد، وقتل مسيلمة وذلك في عام 12هـ، وكان مسلمة ن المعمرين، ضئيل الجسم، وقال أن اسمه هارون، ومسيلمة لقبه، وتوفي عام 12هـ 633م . ينظر: الزركلي. الأعلام، ج8. صص: 125-126 .

سجّاح : سجّاح بنت الحارث التميمية، زوجة مسيلمة، شاعرة، عارفة بالأخبار، رفيعة الشأن في قومها، ادعت النبوة، كان لها علم بالكتب السماوية، لما بلغها نبأ مقتل زوجها أسلمت، وهاجرت إلى البصرة، وبها توفيت عام 675 م. ينظر: غربال، محمد شفيق. الموسوعة العربية الميسرة. دار القلم ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة ، 1965م . ص : 970.

(2) - لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام. ص: 394.

(3) - هو الأثر الباقي من أحد قصور كسرى أنو شروان، يقع جنوب مدينة بغداد في موقع مدينة قسيفون الذي يقع في منطقة المدائن في محافظة واسط بين مدينة الكوت ومدينة بغداد وتعرف محليا لدى العامة بـ سلمان باك على اسم الصحابي الشهير سلمان الفارسي المدفون هناك، و يشيع بين بعض المسلمين أنه عند ولادة الرسول انطفأت نار الفرس المجوس التي كانت موقودة دوما في الإيوان منذ آلاف السنين وانشق حائطه.

وَأَخْبَرَ شَقًّا⁽¹⁾ أَنْ فِي الْأَرْضِ عِنْدَهَا طُؤَعُ نَبِيِّ طَاهِرِ الْأَبِّ وَالْأُمِّ⁽²⁾

إذن شاعرنا ابن الخطيب استطاع أن « يعقد حواراً مع نصوص أخرى متنوعة القائلين ومختلف الأزمنة والأمكنة »⁽³⁾ .

(1)- شق: من أشهر كهان الجاهلية، يذكر في الأساطير مع زميله « سطيح »، وكان « شق »، بيد واحدة، ورجل واحدة، وهو من المعمرين .

(2)- لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . الصفحات : 483-488-577.

(3)- محمد مفتاح . دينامية النص.(د،ط). الدار البيضاء ، المركز الثقافي العربي ،(د، ت). ص : 89. وذلك الحوار ليس من واقع ما يسمى بالسرقات لاسيما فيما يتعلق بالأدب على وجه الخصوص فقد (كثر الجدل حولها قديماً وحديثاً بحيث إن كثيراً مما اصطلح على تسميته «سرقة أدبية» يمكن أن يكون من باب التناص أو تداخل النصوص المباشرة أو غير المباشرة ، أو التخاطر«التقاء الخواطر» أو غير ذلك)، أحمد الزغبى . التناص التاريخي والديني. مقدمة نظرية مع دراسة تطبيقية للتناص في رواية رؤيا لهاشم غرابية ، مجلة أبحاث اليرموك، الأردن، العدد الأول، المجلد الثالث عشر، 1995م . ص : 176.

لقد حاول ابن جابر أن يضيف على مدائحه النبوية شيئاً من القداسة، والتقليد، والتاريخ وذلك من خلال تضمينه تراكيب من القرآن الكريم، وأخرى من الحديث النبوي الشريف، وكذا من الشعر العربي القديم وبعض الأحداث التاريخية. ونرى بأن هذا التضمين يشكل «رافداً من روافد التناسل... وعامل إثراء وتعميق للرؤيا الشعرية»⁽¹⁾. وقد سار ذلك على نمطين، إما أن يكون بشكل مباشر أو غير مباشر.

أ- **التناسل القرآني**: لقد حذا ابن جابر حذو معاصره ابن الخطيب، من الاعتماد على المصادر الإسلامية في بناء مدائحه النبوية، وهذا من خلال تناسل أبياته مع القرآن الكريم وهذا ما بدا جلياً في ديوانه "نظم العقدين في مدح سيد الكونين" حسب الجدول:

الرقم	البيت الشعري	التناسل مع القرآن
01	يَا مَنْ تَدَانَى قَابَ قَوْسَيْنِ * وَمَنْ قِيلَ لَهُ سَلْ تُعْطَ قَدْ نِلْتَ الرِّضَا وَقَابَ قَوْسَيْنِ كَانَ قُرْبًا عِزًّا مِنَ اللَّهِ وَاحْتِفَاءً تَدَانَى فَأَضْحَى قَابَ قَوْسَيْنِ إِذْ دَنَا فَمَا زَالَ يَرْقَى وَهُوَ مُخْتَرِقُ الْحُجُبِ ابن جابر. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين أوالغين في مدح سيد الكونين. الصفحات: 55-30- 73. * ما بين المقبض وطرفه، و قاب قوسين: كناية عن القرب.	قال المولى عز وجل (ثُمَّ حَنَّا فَتَحَكَّى. فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى) . النجم. الآيتان: 8-9.
02	شَفَى بَعْدَمَا وَافَى وَنَحْنُ عَلَى شَفَا فَكَانَ لِذِي الْجَهْلِ خَيْرٌ دَوَاءً المصدر نفسه . ص: 34 .	(..وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ...) آل عمران. الآية: 103 .
03	أَمَرْتُكَ فَاصْدَعْ بِالَّذِي قَدْ أَمَرْتُ لَأَ تَخْفَ لَكَ مِنْ حِفْظِي أَتَمُّ وَقَاءً المصدر نفسه . ص: 35 .	(فَاذْعَنْ يَمَا تَأْمُرُ وَأَنْرِضْ مَنْ المُفْرِكِينَ). الحجر. الآية: 94 .

(1) - عبد العاطي كيوان. التناسل القرآني في شعر أمل دنقل. ط1. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر.

الرقم	البيت الشعري	التناسل مع القرآن
-------	--------------	-------------------

04	إِلَى الْخَلْقِ أَرْسَلْنَاكَ طَرًّا فَمَنْ يُجِبْ دُعَاكَ فَمَكْتُوبٌ مِنَ السُّعْدَاءِ المصدر السابق. ص: 35	(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا حَافِيًا لِلنَّاسِ...) سبأ . الآية : 28 .
05	إِلَى أُمَّةٍ أَنْتَ الشَّهِيدُ عَلَيْهِمْ وَأَجْعَلُهُمْ يَوْمَ الْجَزَا شُهَدَائِي المصدر نفسه . ص: 35 .	(...لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...) البقرة. الآية : 143 .
06	مَصُونًا عَنِ الْفَحْشَاءِ لَا يَنْطِقُ الْهَوَى وَلَا أَحَدًا أَجَلَ الرِّسْلِ دُونَ مِرَاءِ المصدر نفسه . ص: 37 .	(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلَّا وَهْيٌ يُوحَى...) النجم . الآيتان : 3-4 .
07	يَلْقَاكَ مِنْهُمْ كُلُّ وَجْهِ مُشْرِقٍ كَأَنَّهُ الْبَدْرُ إِذَا اللَّيْلُ سَجَا المصدر نفسه . ص: 43 .	(وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَا...) الضحى . الآية : 2 .
08	وَسَبَّحَ الرَّعْدُ بِحَمْدٍ مَنْ سَقَى صَوْبَ الْحَيَا فَقَالَ لِلْأَرْضِ لَعَا المصدر نفسه . ص: 56 .	(وَيَسْبَحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ...) الرعد . الآية : 13 .
09	مَا أَفْبَحَ اللَّهُوَ عَلَى الْمَرْءِ إِذَا مَا اشْتَعَلَ الرَّأْسُ مَشِيبيًا وَاكْتَسَى المصدر نفسه . ص: 60 .	(...وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا...) مريم . الآية : 4 .
10	وَمَا زَاغَ مِنْ قَلْبٍ وَلَا بَصَرٍ لَهُ عَلَى مَا رَأَى فِي ذَلِكَ الْحِينِ مِنْ عُجْبٍ المصدر نفسه . ص: 73 .	(مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى...) النجم . الآية : 17 .
11	إِنَّ الشَّدَائِدَ لَا تُقْصِرُ مُدَّةً وَمَوَاعِدُ الْأَجَالِ لَنْ تَتَّقَلَّبَا المصدر نفسه . ص: 81 .	(...فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْصِمُونَ...) الأعراف . الآية : 34 .
12	بَدَلْ عَزَّ الْعِدَاةِ ذُلًّا لَمْ تُغْنِ عَزَى لَهُمْ وَلَا تِ المصدر نفسه . ص: 93 .	(أَهْرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى...) النجم. الآية: 19.
	وَمِنْ عَلَامَاتِهِ أَنْتَ فِي * إِنْجِيلِ عِيسَى مُبَشَّرَاتُ	(وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ

13	المصدر نفسه. ص: 94 .	إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِيهِ مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ...﴾. الصف. الآية: 06 .
14	المصدر السابق . ص: 94 .	مَا كَانَ مَا قَالَهُ حَدِيثًا فِيهِ افْتِرَاءٌ وَلَا افْتِنَاتٌ
15	المصدر نفسه . ص: 101 .	فَذَا بِالشَّرْقِ مَاتَ وَذَا بِغَرْبِ وَعِنْدَ اللَّهِ هِ مُجْتَمِعٌ وَمَأْتِي
16	المصدر نفسه . ص: 109 .	وَرَدَّ عَلَيْهِمْ قَائِلًا لَيْسَ شَاعِرًا وَلَا كَاهِنًا بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ يَنْفُثُ
17	المصدر نفسه . ص: 109 .	وَكَذَّبَهُمْ إِذْ قَالَ لَيْسَ بِكَاهِنٍ وَلَيْسَ بِمَجْنُونٍ وَلَا هُوَ يَعْبَثُ
18	المصدر نفسه . ص: 113 .	وَفِي الغَارِ أَضْحَى ثَانِي اثْنَيْنِ قَائِلًا لِصَاحِبِهِ لَا تَخَشْ فَاللَّهُ تَالِثٌ
19	المصدر نفسه . ص: 114 .	زَفَفْتُ لَهُ أَبْكَارَ مَدْحٍ وَعَدْنَتِي بِأَبْكَارِ حُورٍ لَمْ يَنْلَهُنَّ طَامِثٌ
20	المصدر نفسه . ص: 122 .	سُبْحَانَ مَنْ أَسْرَى بِهِ مِنْ بَيْتِهِ لِلْمَسْجِدِ الأَفْصَى بَلِيلٌ قَدْ دَجَا
21	موسى التوراة . المصدر نفسه . ص: 154 .	وَمَهْمَا رَأَتْ عَيْنِي مَحَاسِنَ أَرْضِهَا فَمَا الجَانِبُ الغَرِيبِي *عِنْدِي وَمَا الكَرْخُ *أي جانب الجبل الغربي الذي أعطى فيه
22	النصر . الآية: 1 .	إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ خَابَ العَدَا وَتَلَوُ

	عَلَّتْ بِهِمْ فِي الْجَوِّ عِقَابُهُ الْفَتْحُ المصدر نفسه. ص: 155 .	
23	فَمَا الْعَصَا حِيَةً تَسْعَى بِأَعْجَبٍ مِنْ شَكْوَى الْبَعِيرِ وَلَا مِنْ مَشْيِ أَشْجَارِ المصدر نفسه. ص: 246 .	(فَالْقَاهَا فِإِنَّا هِيَ حِيَةً تَسْعَى). طه . الآية :20 .
24	نَزَّلْنَا وَقَلْنَا سَوْفَ يَرْحَمُ رَبُّنَا وَيَجْعَلُ بَعْدَ الْعُسْرِ فِي أَمْرِنَا يُسْرًا المصدر السابق. ص: 251 .	(...سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا). الطلاق . الآية :7 .
25	وَمَا شَكَّتِ الْكُفَّارُ فِي صَدْقِ قَوْلِهِ وَلَكِنَّهُ الشَّيْطَانُ أَرْهَمُ أَرْأً المصدر نفسه . ص: 280 .	(الْمُتَرَاتِبًا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الكَافِرِينَ تَوَثُّهُمْ أَرَا). مريم . الآية :83 .
26	كُنَّا بِهِ خَيْرَ أُمَّةٍ جُعِلَتْ فِي مُحْكَمِ الذِّكْرِ أُمَّةً وَسَطًا المصدر نفسه . ص: 314 .	(وَحَكَمَكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا...) البقرة . الآية :143 .
27	شَفَى وَكُنَّا عَلَى شِفَا جُرْفٍ فَحِبُّهُ فِي الْقُلُوبِ قَدْ صَبِغَا المصدر نفسه . ص: 352 .	(...أَمْ مِنْ أَسْسٍ بُنْيَانُهُ مَكَلَى شِفَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْمَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ...) التوبة . الآية :109 .
28	إِذَا قَرَأْتَ آيَ الْقِتَالِ سِوْفُهُ جَعَلْنَا عَلَى إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ الْوَقْفَا هَذَا الَّذِي نَزَلْتَ صِدْقًا لِمَوْعِدِهِ إِنَّا فَتَحْنَا فُسْرَ الْقَوْمِ وَابْتَهَلُوا المصدر نفسه . صص: 357-418 .	(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا). الفتح . الآية :1 .
29	لَيْسَ لِي غَيْرُهُ عَدَا مِنْ شَفِيعِ عِنْدَمَا تَبْلُغُ النُّفُوسُ التَّرَاقِي فَادْرِكُوا عَبْدَكُمْ بِوَصْلِ قَدْ بَلَّغَتْ رُوحَهُ التَّرَاقِي المصدر نفسه . صص: 377-384 .	(لَا إِحْيَا بِالْعِزِّ التَّرَاقِي). القيامة . الآية :26 .
30	وَلَقَدْ كَفَى مَا ضَلَّضَ صَاحِبِكُمْ وَمَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ لِمَنْ بِهِ يَتَحَقَّقُ المصدر نفسه . ص: 390 .	(مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى).النجم.الآية:2 (مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى). النجم . الآية :11 .
31	بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ (بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)	

	ذِي بَيَانٍ وَأَسْبَابِكَ المصدر نفسه . ص: 398 .	الشعراء . الآية : 195 .
32	اللَّهُ أَقْسَمَ فِي الْقُرْآنِ أَنَّكَ مَا قَلَّاكَ يَوْمًا كَمَا قَالُوا وَلَا وَدَعَكَ المصدر نفسه . ص: 401 .	(وَالضُّمَى وَاللَّيْلُ إِخَا سَجَى، مَا وَدَعْتُكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى) الضحى . الآيتان : 1-2 .
33	ذَلَّتْ لَهُ الْجَنُّ لَمَّا أُسْمِعَتْ عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ لَمْ تَسْمَعُهُ فِي الْأَوَّلِ المصدر السابق . ص: 484 .	(قَدْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَهْرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا، يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَأَمَّنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا) الجن . الآيتان : 1-2 .
34	ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى حَتَّى دَنَا فَرَأَى وَقِيلَ سَلْ نَمُطْ قَدْ خَيْرَتْ فَأَحْتَمِمْ المصدر نفسه . ص: 494 .	(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى وَهُوَ بِئْسَ بِالْأَفْئِقِ الْإَعْمَى ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى) النجم . الآيات : 5-6-7-8 .
35	لَيْسَ الْكِهَانَةُ مَا جَاءَ الْأَنَامَ بِهِ وَلَيْسَ سِحْرًا وَلَا شِعْرًا مِنَ الْكَلِمِ المصدر نفسه . ص: 504 .	(فَكَخِرَ فَمَا أَنْتَ بِبِعْمَةٍ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ) الطور . الآية : 29 .
36	وَأِنَّمَا هُوَ قُرْآنٌ نَزَّلَ مِنْ رَبِّ السَّمَوَاتِ يَجْلُو قَلْبَ كُلِّ عَمِي المصدر نفسه . ص: 504 .	(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) يوسف . الآية : 2 .
37	عَنْ قَابِ قَوْسَيْنِ رَبِّ الْعَرْشِ خَاطِبَهُ وَشَاهِدَ الْآيَةِ الْكُبْرَى فَلَمْ يَهَمِ المصدر نفسه . ص: 504 .	(فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى) النازعات . الآية : 20 .
38	فَتَبَّتْ اللَّهُ قَلْبًا مِنْهُ طَهَّرَهُ عَنِ الْهَوَى فَبَعِيرِ اللَّهِ لِمِ يَفْمِ المصدر نفسه . ص: 504 .	(...حَتَّى لَكَ لِنُتَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا) الفرقان . الآية : 32 .
39	فَمِنْ عَطَايَاهُ مَا حَازَ الْوُجُودُ وَمِنْ عُلُومِهِ مَا وَرَاءَ الْغَيْبِ مِنْ عِلْمِ المصدر نفسه . ص: 505 .	(مَالِ الْغَيْبِ فَلَا يُظْمِرُ عَلَى تَنْبِيهِ أَحَدًا، إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ...) الجن . الآيتان : 26-27 .
40	كُنَّا بِهِ خَيْرَ أُمَّةٍ خُلِقَتْ قَدْ حَفَّنَا جَاهُهُ وَشَرَّفَنَا المصدر نفسه . ص: 521 .	(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ...) آل عمران . الآية : 110 .
41	ذُو لِيَؤَاءِ الْحَمْدِ وَالْمَوْقِفِ الْمَدِّ الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مَدْعُؤٌ إِلَّا الْمَتَّقِينَ...)	(الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مَدْعُؤٌ إِلَّا الْمَتَّقِينَ...)

الزخرف . الآية :67.	مُودٍ إِذْ يَفْتَرِقُ الصَّاحِبَانَ المصدر نفسه . ص: 525 .	
(يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٍ فِيهَا وَلَا تَأْمِيَةً) الطور . الآية :23.	وَلَقَدْ شَرِبْتُ مِنَ الْمَحَبَّةِ أَكْوَسًا مَا فِي مُدَامَتِهِنَّ مِنْ لَغْوٍ المصدر نفسه . ص: 537 .	42
(...وَاحْفُوا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ مَنْ وَلِيهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٌ مَنْ وَالِيهِ هَيْئًا...) لقمان . الآية :33.	لَا يُعِيْثُ ابْنٌ أَبًا فِيهِ وَلَا وَلَدٌ يُغْنِيهِ فِيهِ وَالِدَاهُ المصدر السابق . ص: 553 .	43
(إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى...) الأنفال . الآية :42.	رَمَى بِحَصَا قَدْ سَبَّحَتْ فِي بَنَانِهِ إِلَى الْعُدْوَةِ الْقُصْوَى مِنَ الْعُدْوَةِ الدُّنْيَا المصدر نفسه . ص: 599 .	44
(يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُخَمَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ بِمَأْ أَرْضَعَتْ...) الحج . الآية :2.	شَافِعٌ لِلْخَلْقِ إِذْ لَا تَرَى وَلِدًا يَذْكُرُهُ الْوَالِدَانَ المصدر نفسه . ص: 525 .	45
(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ...) الأنبياء . الآية :107.	وَمَا كَانَ إِلَّا رَحْمَةً عَمَّتِ الْوَرَى وَسَيَّرًا عَلَى الْإِيْتَامِ وَالضُّعْفَاءِ إِلَى السَّيِّدِ الْمَبْعُوثِ لِلنَّاسِ رَحْمَةً شَفِيعِ الْوَرَى حَسْبِي مَلَاذًا بِهِ حَسْبِي مُحَمَّدٌ الْمَبْعُوثُ لِلْخَلْقِ رَحْمَةً فَكَمْ خَلَّلِ سَوَى وَكَمْ خَلَّةٍ سَدًا فَأَنْتَ الَّذِي لِلْخَلْقِ أَرْسَلْتَ رَحْمَةً فَأَقْبَلْتَ تَدْعُو لِلرَّشَادِ الْقَبَائِلَا المصدر نفسه . ص: 422-194-72-35.	46

فما يلاحظ على الجدول هو اعتماد ابن جابر على التناص مع النص القرآني في كل مدائحه النبوية تقريبا، ويضطر أحيانا إلى إعادة الأبيات وتضمينها آيات قرآنية من خلال التضمين المباشر أو غير المباشر. فقد كرر عدة مرات اقتباس الآيات التالية:

1- (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى، فَكَانَ فَاجِبَ وَسْطَيْنِ أَوْ أَحَدِي) . النجم . الآيتان: 8-9 .

2- (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ...) . الأنبياء . الآية :107.

3- (كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ النَّوَاصِي) . القيامة . الآية :26 .

4- (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا) . الفتح . الآية :1 .

ب- التناص مع الحديث النبوي الشريف: أما تضمين تراكيب الحديث النبوي الشريف. فقد اعتمد عليه شاعرنا كثيرا، وجعله رافدا من روافد الإبداع الشعري عنده . والجدول التالي يوضح لنا ذلك :

الرقم	البيت الشعري	التناص مع الحديث النبوي الشريف
01	هِيَ هَذِهِ الْخَمْسُ الَّتِي لَمْ يُعْطَهَا أَحَدٌ سِوَاكَ لِیَحْضُلَ الْإِزْضَاءُ	قال عليه وسلم: (أُوتِيَتْ خَمْسًا لَمْ يُؤْتَهَنَّ نَبِيٌّ كَانَ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّغْبِ فِيرْعُبُ مِنِّي الْعَدُوُّ عَن مَسِيرَةِ شَهْرٍ، وَجَعَلْتُ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأَحَلَّتْ لِي الْعَنَائِمُ، وَلَمْ تُحَلْ لِأَحَدٍ كَانَ قَبْلِي، وَبِعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ، وَقِيلَ لِي: سَلْ تَعْطُهُ، فَاخْتَبَأْتُهَا شَفَاعَةً لِأُمَّتِي) ﴿ مسند أحمد 145/5.
02	أَخْتَارَهُ اللَّهُ قَبْلَ أَنْ لَمْ يُخْلَقَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْبِيَاءُ	قال عليه وسلم: (إِنِّي عِنْدَ اللَّهِ لَخَاتِمُ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ أَدَمَ لَمَتَجَدَّلَ فِي طِينَتِهِ) ﴿ دلائل النبوة 49/1
03	كَانُوا كَمِثْلِ الْبِنَاءِ أَضْحَى مُكَمَّلًا ذَلِكَ الْبِنَاءِ	قال عليه وسلم: (إِنَّمَا مِثْلِي وَمِثْلُ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي كَمِثْلِ رَجُلٍ بَنَى بِنْيَانًا، فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ وَأَكْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبْنَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَقْفُونَ بِهِ وَ يَقُولُونَ مَا رَأَيْنَا أَحْسَنَ مِنْ هَذَا لَوْلَا مَوْضِعُ هَذِهِ اللَّبْنَةِ، أَلَا فَكُنْتُ تِلْكَ اللَّبْنَةَ) ﴿. دلائل النبوة 49/1
04	مَا أَبْصَرْتُ فِي الْوُجُودِ عَيْنٌ أَكْثَرَ مِنْ وَجْهِهِ بِهَاءِ	عن أبي هريرة (ض): (مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَحْسَنَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، كَانَ الشَّمْسَ تَجْرِي فِي وَجْهِهِ) ﴿.
05	فَلَمْ يُكُنْ مِمَّنْ إِذَا حَجَّ جَفَا بَلْ يَمَّمُ الْقَبْرَ وَرَارَ وَاعْتَنَى	قال عليه وسلم: (مَنْ حَجَّ وَلَمْ يَزُرْنِي فَقَدْ جَفَانِي) ﴿ المقاصد الحسنة: 643-669.
06	وَتَعْلَمُ أَنَّ الدُّنْيَا مَنَامٌ	قال علي بن أبي طالب: (النَّاسُ نِيَامٌ إِذَا

	فَأَخْلَى مَا تَكُونُ إِذَا انْتَبَهْنَا المصدر نفسه . ص: 98 .	مَاتُوا انْتَبَهُوا ﴿ المقاصد الحسنة : 691
07	يَا مَنْ جَرَى مِنْ كَفِّهِ الْمَاءُ وَمَنْ حَنَّ لَهُ الْجِدْعُ وَسَبَّحَ الْحَصَى المصدر السابق . ص: 54 .	قال أبو ذر الغفاري: (إِنِّي لَشَاهِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ... وَفِي يَدَيَّ حَصِيَّاتٍ فَسَبَّخَنَ فِي يَدِهِ ﴿ دلائل النبوة . 432/2.
08	وَرَأَى الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ إِذْ لَهُ زُويَ الْوُجُودِ بِشَرْقِهِ وَيَغْرِبِهِ المصدر نفسه . ص: 68 .	قال عليه وسلم: (...إِنَّ اللَّهَ زُويَ لِي الْأَرْضِ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مَلَكَهَا مَا زُويَ لِي مِنْهَا... ﴿ سنن الترمذي . 472/4.
09	وَتَضَعُصَعُ الْإِيوَانَ خَوْفًا فَاغْتَدَى كِسْرَى كَسِيرًا بِالْهُ مِنْ كَرِبِهِ المصدر نفسه . ص: 69 .	من حديث شريف: (...لَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا الرَّسُولُ ﷺ انْكَسَرَ كِسْرَى، وَسَقَطَتْ مِنْ أَرْبَعِ عَشْرَةَ شَرْفَةً، وَحَمَدَتْ نَارُ فَارِسَ، وَلَمْ تَحْمَدْ قَبْلَ ذَلِكَ... ﴿ دلائل النبوة . 139/1.
10	أَعْطَى إِلَيَّ أَنْ قِيلَ إِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطِيَّةً آمِنٍ أَنْ يُحْوجَا المصدر نفسه . ص: 123 .	جاء في حديث: (...إِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً مَنْ لَا يَخَافُ الْفَقْرَ... ﴿ صحيح ابن حبان 354/10 .
11	وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ إِنَّ أَمَنَكُمْ عَلِيَّ أَبُو بَكْرٍ وَأَوْفَى بِمَوْعِدٍ المصدر نفسه . ص: 160 .	إشارة إلى حديث الرسول ﷺ: (مَا مِنْ أَحَدٍ أَعْظَمَ عِنْدِي يَدًا مِنْ أَبِي بَكْرٍ... ﴿ مجمع الزوائد . 46/9
12	لَكَانَ أَبَا بَكْرٍ وَلَكِنْ أُخْوَةٌ فِي الْإِسْلَامِ مَهْمَا يُنْقِصُ النَّاسُ تَزْدَدُ المصدر نفسه . ص: 161 .	قال عليه وسلم: (لو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر، ولكن إخاء ومودة إلى يوم القيامة. ﴿ مجمع الزوائد . 45/9
13	وَلَا سَلَكَ الشَّيْطَانُ فَجًّا قَدْ اغْتَدَى لَهُ سَالِكًا مِنْ خَوْفِهِ الْمُتَزَيِّدِ المصدر نفسه . ص: 162 .	قال عليه وسلم لعمر: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقَيْتُكَ الشَّيْطَانُ قَطُّ سَالِكًا فَجًّا إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ. ﴿ صحيح مسلم . 234/2.

<p>قال عليه وسلم: (دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَرَأَيْتُ فِيهَا دَارًا أَوْ قَصْرًا، فَقُلْتُ: لِمَنْ هَذَا؟ قَالُوا لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَدْخُلَ فَذَكَرْتُ غَيْرَتَكَ، فَبَكَى عُمَرُ، وَقَالَ: أَيُّ رَسُولِ اللَّهِ، أَوْ عَلَيْكَ يُغَارُ؟). صحيح مسلم. 4/ 1862.</p>	<p>14 فَأَقْبَلَ يَبْكِي قَائِلًا كَيْفَ غَيْرَتِي عَلَيْكَ وَلَوْ أَنَّكَ مَا كُنْتَ أَهْتَدِي المصدر نفسه . ص: 162 .</p>	<p>14</p>
<p>روي عنه عليه وسلم قوله: (بَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ إِذَا رَأَيْتُ قَدْحًا أَتَتْهُ بِيهٍ، فِيهِ لَبَنٌ، فَشَرِبْتُ حَتَّى لَأْرَى الرِّيَّ يَجْرِي فِي أَظْفَرِي، ثُمَّ أُعْطِيتُ فَضْلِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، قَالُوا: فَمَا أَوْلَتْ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الْعِلْمُ). الرياض النضرة. 1/245.</p>	<p>15 فَأَوْلَهُ الْعِلْمَ الَّذِي مِنْهُ نَالَهُ وَأَوَّلَ رُؤْيَا الدُّلُوعِ حُسْنَ التَّأْيِيدِ المصدر السابق . ص: 162 .</p>	<p>15</p>
<p>قال عليه وسلم: (...قَدْ كَانَ فِي الْأُمَّةِ قَبْلَكُمْ مَحْدُثُونَ (مُلْهَمُونَ)، فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ، فَإِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ مِنْهُمْ). صحيح مسلم. 4/1864.</p>	<p>16 وَمِمَّا رَوَوْا إِنْ كَانَ فِي أُمَّتِي فَتَى يُحَدِّثُ فَالْفَارُوقُ مِنْ ذَلِكَ فَاعْدُدِ المصدر نفسه . ص: 163 .</p>	<p>16</p>
<p>قال عليه وسلم: (مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمَنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ). صحيح البخاري. 1/399.</p>	<p>17 فَهَذَاكَ أَنْتَ مِنَ الْجَنَانِ بِرَوْضَةٍ كَرَمْتَ فَمِنْ نَارِ الْجَحِيمِ تُعِيدُ المصدر نفسه . ص: 207 .</p>	<p>17</p>
<p>قال عليه وسلم: (أَصْحَابِي كَالنُّجُومِ، فَبَابِهِمْ اقْتَدَيْتُمْ أَهْتَدَيْتُمْ). كشف الخفاء. 1/147.</p>	<p>18 وَكُنْ بِصَحْبِ رَسُولِ اللَّهِ مُقْتَدِيًا فَإِنَّهُمْ لِلْهُدَى كَالْأَنْجُمِ الزُّهْرُ المصدر نفسه . ص: 215 .</p>	<p>18</p>
<p>قال عليه وسلم: (وَهَلْ يَكْبُ النَّاسُ عَلَيَّ وَجُوهَهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ). مسند أحمد. 5/231.</p>	<p>19 إِنَّ اللِّسَانَ تَكْبُ النَّاسَ عَثْرَتُهُ عَلَيَّ وَجُوهَهُمْ فِي النَّارِ فَاحْتَظِرِ المصدر نفسه . ص: 215 .</p>	<p>19</p>
<p>قال عليه وسلم: (اِغْتَمَّ حَمْسًا قَبْلَ حَمْسٍ، شَبَابُكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصَمْتُكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فُقْرِكَ وَفِرَاغُكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتُكَ قَبْلَ مَوْتِكَ). المستدرک علی الصحیحین. 4/341.</p>	<p>20 خُذْ مِنْ فِرَاغِكَ قَبْلَ الشُّغْلِ مُجْتَهِدًا وَمِنْ حَيَاتِكَ قَبْلَ الْمَوْتِ وَاخْتَصِرِ المصدر نفسه . ص: 217 .</p>	<p>20</p>
<p>قال عليه وسلم لعلی: (أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ فِي</p>	<p>21 أَضْحَى كَهَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَيْهِ كَمَا</p>	<p>21</p>

	رَوَا وَحَسْبُكَ مِنْ فَخْرٍ لِمَفْتَحِرٍ المصدر نفسه . ص: 220 .	بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى . صحيح مسلم . 4/18871.
22	زِيَارَةُ خَيْرِ الْمُرْسَلِينَ بَرَاءَةً لَدَى الْحَشْرِ مِنْ نَارٍ قَدْ تَهَيَّبَتْ حَرًّا المصدر نفسه . ص: 263 .	إشارة إلى الحديث: (مَنْ زَارَ قَبْرِي وَجِبَتْ لَهُ شَفَاعَتِي) . المقاصد الحسنة . 647.
23	وَصَلَاةَ اللَّهِ بَلَّغُهُ تَفْزُ مَرَّةً بِالْعَشْرِ تُجْزَى وَتُوَارَى المصدر السابق . ص: 279 .	قال <small>صلى الله عليه وسلم</small> : (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا) . صحيح مسلم . 4/2068
24	هَذَا هُوَ ابْنُ ذُبَيْحِ اللَّهِ وَابْنُ خَلِي لِ اللَّهِ وَابْنُ خِلَالٍ مَا بَهَا خَلُّ هَذَا هُوَ ابْنُ الذَّبِيحَيْنِ * اللَّذَيْنِ هُمَا أَوْفَى وَأَصْبَرُ مَنْ يُبْلَى فَيَحْتَمِلُ * هما إسماعيل وعبد الله بن عبد المطلب والد الرسول <small>صلى الله عليه وسلم</small> . المصدر نفسه . ص: 412 .	قال الرسول <small>صلى الله عليه وسلم</small> : (أَنَا ابْنُ الذَّبِيحَيْنِ) . البيان والتعريف . 1/293.
25	هَذَا الَّذِي عِنْدَمَا ذُو الْعَرْشِ خَيْرُهُ مَا اخْتَارَ إِلَّا الَّذِي يَبْقَى وَيَنْصِلُ المصدر نفسه . ص: 420 .	قال الرسول <small>صلى الله عليه وسلم</small> : (إِنَّ عَبْدًا خَيْرُهُ اللَّهُ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ، وَيَبِينُ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ) . مشكاة المصابيح . 2/546.
26	فَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ فَهَمَّا شِئْتُمْ طُولُوا المصدر نفسه . ص: 433 .	قال <small>صلى الله عليه وسلم</small> : (أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ) . فتح الباري . 3/229.
27	وَقَوْلُهُ لِمُعَاذٍ إِنْ تَعَشَّ سَتَرِي هَذَا جَنَانًا فَلَمْ يُخْلَفْ وَلَمْ يُطَلِّ المصدر نفسه . ص: 482 .	قال <small>صلى الله عليه وسلم</small> لمعاذ عند عين ماء ضعيفة في تبوك: (يُوشِكُ إِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ أَنْ تَرَى مَا هَا هُنَا قَدْ مَلَى جَنَانًا) . صحيح مسلم . 4/1784.
28	أَبْقَى لَنَا مِنْهُمَا مَا لَا تَضِلُّ بِهِ وَمِنْ صَحَابَتِهِ الْهَادِينَ لِلْسَّبِيلِ المصدر نفسه . ص: 484 .	قال <small>صلى الله عليه وسلم</small> : (...مَا إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضَلُّوا كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ) . الإحكام لابن حزم . 6/243.
29	فَالْعُرْبُ خَيْرٌ أُنَاسٍ ثُمَّ خَيْرُهُمْ	عن ابن عمر قال <small>صلى الله عليه وسلم</small> : (إِنَّ اللَّهَ اخْتَارَ

<p>خَلَقَهُ، فَأَخْتَارَ مِنْهُمْ بَنِي آدَمَ، فَأَخْتَارَ مِنْهُمْ الْعَرَبُ، فَأَخْتَارَ مِنْهُمْ قَرَيْشًا، فَأَخْتَارَ مِنْهُمْ بَنِي هَاشِمٍ، فَأَخْتَارَنِي، وَلَمْ أَزَلْ خِيَارًا مِنْ خِيَارٍ... ﴿وسائل الوصول: 49</p>	<p>قُرَيْشُهُمْ وَهُوَ فِيهِمْ خَيْرٌ خَيْرِهِمْ المصدر نفسه . ص: 501 .</p>
<p>قال عليه وسلم: (...لَمْ تَدْنُو الشَّمْسُ مِنْ الْأَرْضِ (أَي يَوْمَ الْقِيَامَةِ) فَيَغْرُقُ النَّاسُ، فَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَبْلُغُ عَرَقَهُ كَعَبِيهِ... وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ وَسَطَ فِيهِ وَأَشَارَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ فَأَلْجَمَ فَأَهُ... ﴿ . صحيح ابن حبان 324/16 .</p>	<p>30 يَوْمَ تَعْوَمُ الْجُسُومُ فِي عَرَقٍ فَيَشْمَلُ النَّاسَ رَوْعَةً وَعَنَاءً المصدر السابق . ص: 521 .</p>

استطاع ابن جابر أن ينهل من رافد آخر وهو الحديث النبوي الشريف، فوقفنا على إشارات عديدة جدا للحديث النبوي الشريف في المدائح النبوية .
فعلا لقد اتسعت المعارف الإسلامية لابن جابر لتستوعب الحديث النبوي الشريف ليرسم مدى الحب والإخلاص الذي يكنه للنبي ﷺ وتأثره بالأحاديث في مدائحه النبوية.
تنبوأ المصادر الإسلامية بوصفها مصدرا من ثقافة الشاعرين، ابن جابر وابن الخطيب مكانة متقدمة بين بقية المصادر، وهو تقدم يبدو منطقيا في ظل المعتقد الديني والنشأة التي نشأ عليها كل واحد منهما.

لقد حاول الشاعران من خلال المدائح النبوية أن ينوعا من المصادر الإسلامية في شعرهما، فنجد القرآن الكريم أولا، ثم يليه الحديث، وهذه المصادر الإسلامية تسري في عقل ووجدان الشاعرين، الأمر الذي جعل المدحة النبوية عندهما تحفل بالعديد من الصور والمعاني ذات الطابع الإسلامي.

« فالقرآن الكريم على رأس المصادر الإسلامية التي ظهرت بشكل مكثف في المدحة النبوية ولعل التنوع في طريقة الأخذ من القرآن الكريم زاد جمالا إلى جمال».

وعليه نقول إن كلا من ابن الخطيب وابن جابر، كان القاسم المشترك الذي جمعهما هو اشتراكهما في النزعة الإسلامية، وهذا من خلال الاستفادة من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف كمصدر ثقافي في بناء المدائح النبوية، من خلال النظرة الشمولية إلى آيات القرآن، سواء الوقوف عند نص الآية حرفيا أو من خلال الإشارة والإيماء .

ج- التناص مع الموروث الشعري القديم:

تبدو ظاهرة التناص الشعري جلية في مدائح ابن جابر النبوية، إذ دفعته طبيعته الشاعرة إلى الاستعانة بالشعر العربي القديم. إذ حرص على تضمين عدد كبير من أبيات الشعر لشعراء كثيرين جاهليين وعباسيين، والحق أن «الإعجاب بالقديم والإفادة منه، والحرص على تقاليده سمات بارزة في تاريخ الآداب الإنسانية بوجه عام... فالفنان الجيد هو الذي لا يولي ظهره إلى التراث، وليس في هذا غض من فنه أو أصالته»⁽¹⁾.

ولذلك فلا غرابة أن تتسرب مثل تلك الصور من تلك المصادر البيانية إلى مدائح شاعرنا ابن جابر.

الرقم	البيت الشعري	التناص مع الشعر العربي القديم
01	صَغُرْتُ كِبَارُ دُنُوبِهِ لَمَّا أَتَى وَلِعَظْمِ جَاهِكْ تَصَغُرُ الْأَشْيَاءُ	أفاد من بيت <u>المتنبي</u> وَتَعَظُمُ فِي عَيْنِ الصَّغِيرِ صِغَارُهَا وَتَصَغُرُ فِي عَيْنِ الْعَظِيمِ الْعِظَامُ ديوان المتنبي . 379/3.
02	إِنَّا بَنُو الْمَوْتَى فَكَيْفَ نَخَافَ مَا لَا بُدَّ مِنْ كَاسَاتِهِ أَنْ نَشْرِبَا	أفاد من بيت <u>المتنبي</u> نَحْنُ بَنُو الْمَوْتَى فَمَا بَالُنَا نَعَافُ مَا لَا بُدَّ مِنْ شُرْبِهِ ديوان المتنبي 211/1.
03	حَاكَمْتُ نَفْسِي إِلَى نَفْسِي فَمَا سَمِعْتُ كَيْفَ الْخَلَاصُ وَخَصْمِي قَدْ غَدَا حَكْمِي	إشارة إلى قول <u>المتنبي</u> يَا أَعْدَلَ النَّاسِ إِلَّا فِي مُعَامَلَتِي فِيكَ الْخِصَامُ وَأَنْتَ الْخَصْمُ وَالْحَكْمُ ديوان المتنبي 366/3.
04	وَكَانَ طَوِيلَ الْبَاعِ فِي الْبَأْسِ وَالنَّدَى كَرِيمًا مَتَى يَسْتَرْفِدِ الْقَوْمُ يَرْفِدِ	مماثل لبيت <u>طرفة بن العبد</u> وَلَسْتُ بِحَلَالِ التَّلَاعِ مَخَافَةً وَلَكِنْ مَتَى يَسْتَرْفِدُ الْقَوْمُ أَرْفِدِ الزوزني. شرح المعلقات السبع. ص: 56.

(1) -حسن طبل. المعنى الشعري في التراث النقدي. ط2. دار الفكر العربي، القاهرة، 1998م. ص: 19.

05	رَأَيْتُ سِيَهَامَ الْمَوْتِ لَا تُحْطِي الْفَتَى مُسَدَّدَةً مِنْهَا نَصُولٌ وَ أَرْعَاطُ	مماثل لتصوير <u>طرفة بن العبد</u> لَعَمْرُكَ إِنَّ الْمَوْتَ مَا أَخْطَأَ الْفَتَى
----	---	---

		المصدر السابق . ص: 326 . الزوزني . شرح المعلمات السبع . ص: 63 . لَكَ لِطُولِ الْمَرْخَى وَثَنِيَاهُ بِالْيَدِ
06	خَلِيلِي هَذَا قَبْرٌ أَشْرَفِ مُرْسَلٍ قِفَا نَبِّكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزَلٍ المصدر نفسه . ص: 440 .	استمد هذا التصوير من قول امرئ القيس قِفَا نَبِّكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزَلٍ بِسِقْفِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلٍ الزوزني . شرح المعلمات السبع . ص: 7 .
07	وَإِنَّ لَيْلِي إِلَّا أَنْ أُؤَافِيهِ لَيْلُ امْرِئِ الْقَيْسِ مِنْ طُولٍ وَمِنْ سَامٍ المصدر نفسه . ص: 495 .	قصيدة كاملة أعجازها قصيدة امرئ القيس إلا البيت الأول، فإن عجزه صدر البيت الأول من قصيدة امرئ القيس: وَلَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَى سُدُولَهُ عَلِيَّ بِأَنْوَاعِ الْهُمُومِ لِيَبْتَلِي الزوزني . شرح المعلمات السبع . ص: 26 .
08	نَبِيٌّ زَكَ أَصْلًا وَفَرَعًا وَمَنْشَأً وَمِنْ أَيِّ مَا وَجِهٍ نَظَرْتُ فَقَدْ زَكَ المصدر نفسه . ص: 393 .	مستمد من بيت كعب بن زهير أَلَا أَبْلَغَا عَنِّي بِجَيْرٍ رِسَالَةً فَهَلْ لَكَ فِيمَا قُلْتُ بِالْخَيْفِ هَلْ لَكَ ابن قتيبة . الشعر والشعراء . ص: 71 .
09	بَانَتْ سَعَادٌ فَعَفْدُ الصَّبْرِ مَحْلُولُ وَالدَّمْعُ فِي صَفَحَاتِ الْخَدِّ مَبْدُولُ المصدر نفسه . ص: 429 .	عارض بها بردة كعب بن زهير، ومطلعها: بَانَتْ سَعَادٌ فَالْقَلْبِي الْيَوْمَ مَتَبُولُ مُتَيِّمٌ إِتْرَهَا لَمْ يُفَدَ مَكْبُولُ ابن قتيبة . الشعر والشعراء . ص: 80 .
10	أُرْغَمَ أَعْدَائِي بِحَزْمِ نَافِذٍ يَعْرَكُهُمْ عَرَكُ الثَّقَالِ بِالرَّحَى المصدر نفسه . ص: 44 .	أفاد من بيت زهير بن أبي سلمى: فَتَعْرَكُكُمْ عَرَكُ الرَّحَى بِثِقَالِهَا وَتَلْفَحُ كَشَافًا ثُمَّ تَنْتَجُ فَتَنْتِمُ الزوزني . شرح المعلمات السبع . ص: 81 .
11	وَإِنَّكَ خَيْرٌ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَشْرَفُ مَنْ مَشَى فِي الْأَرْضِ بَيْنَنَا المصدر نفسه . ص: 91 .	هذا التصوير مماثل لقول جرير: أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بِطُونَ رَاحٍ ابن قتيبة . الشعر والشعراء . ص: 307 .
12	عَظَمْتَ دُنُوبِي وَالْعِظَائِمُ كُلُّهَا	أفاد من بيت أبي نواس:

<p>يَا رَبُّ إِنَّ عَظُمْتَ ذُنُوبِي كَثُرَةً فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ أبو نواس. الديوان . ص:78.</p>	<p>بِعَظِيمِ جَاهِكِ تَرْتَجِي أَنْ تُفْرَجَا المصدر السابق . ص: 124 .</p>	
<p>يشير إلى بيت <u>هدية بن الخشرم</u>: عَسَى الْكُرْبُ الَّذِي أُمْسَيْتَ فِيهِ يَكُونُ وَرَاءَهُ فَرْجٌ قَرِيبٌ المرزباني. معجم الشعراء. ص:461.</p>	<p>لَا تَيَأْسَنَّ إِنَّ تَتَاءَى أَمَلٌ وَكُلَّمَا عَسَا زَمَانٌ قُلَّ عَسَى المصدر نفسه . ص: 59 .</p>	13
<p>استمد هذا التصوير من قول الشاعر الإسلامي <u>مالك بن الربيع</u>: أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَرَانِي لَيْلَةً يَجْنِبُ الْغَضَا أَرْجِي الْقَلَاصَ النُّوَاجِيَا القرشي. جمهرة أشعار العرب. ص:269.</p>	<p>أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَرَانِي لَيْلَةً أَسُوقُ الْمَطَايَا بَيْنَ مَكَّةَ وَالْعَرَجِ المصدر نفسه . ص: 125 .</p>	14
<p>هذا البيت مستمد من بيت قالته الشاعرة <u>حمدة أو حمدونة بنت زياد الأندلسية</u> في وصف واد: يَرُوعُ حِصَاةَ حَالِيَةِ الْعَدَارِي فَتَلْمَسُ جَانِبَ الْعَقْدِ الْعَظِيمِ المقري. نوح الطيب، ج4. ص: 288 .</p>	<p>تَظُنُّ الْعَدَارِي حِينَ تَسْمَعُ لَفْظَهُ نَثَارَ الْحَلِيِّ عَنْهَا فَتَبْتَدِرُ اللَّفْطَا المصدر نفسه . ص: 317 .</p>	15

إذن فالشعر العربي القديم قد حظي بالقسط الوافر من التصوير في مدائح ابن جابر الأندلسي، في ديوانه "نظم العقدين في مدح سيد الكونين أو الغين في مدح سيد الكونين"

د- التناص من خلال الأمثال والحكم:

تشكل الأمثال والحكم مظهرًا آخر من مظاهر التناص في المدائح النبوية لدى ابن جابر، فقد لجأ إليها بوصفها تركيبًا يخدم الشعر لغة وفكرة، فقد عثرت في هذا الصدد على مثلين عربيين تناص معهما شاعرنا ابن جابر. يقول:

وَجْهٌ لَدَيْهِ يُحْمَدُ السَّيْرُ كَذَا عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ السَّارِيَ السَّرَى
حَمِدُوا وَاللَّهِ عَقِبِي سِرَاهُمْ عِنْدَمَا قَدْ لَاحَ ذَاكَ الصَّبَاحُ⁽¹⁾

فلعلنا نلاحظ ما في هذا البيت من تضمين وإشارة إلى المثل العربي المشهور «عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السَّرَى»⁽²⁾.

ويقول أيضا: مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ أَتَتْكَ جُنْدًا فَأَعْلَنْتِ الْعِدَا «حَالَ الْجَرِيضِ»⁽³⁾

فهذا البيت يتضمن المثل العربي الجاهلي القديم «حَالَ الْجَرِيضِ دُونَ الْقَرِيضِ»⁽⁴⁾.

والجريض: الغصص بالريق، والقريض: الشعر ويعني العجز.

وأختم بهذا البيت:

فَفَنَّدَ فِي الْهَوَى مِنْ لَيْسَ يَدْرِي فَيَا وَيْحَ الشَّجِيِّ مِنَ الْخَلِيِّ⁽⁵⁾.

تناص مع المثل العربي القديم: «وَيْلٌ لِلشَّجِيِّ مِنَ الْخَلِيِّ»⁽⁶⁾.

أما التناص مع الحكم العربية فلم أعثر سوى على حكمة واحد في كل ديوانه، وهذا لتقوية المعنى وتدعيم أفكاره. في قوله:

تَعْتَرُّ بِالْإِهْمَالِ مِنْهُ وَإِنَّمَا شَأْنُ الْقَدِيرِ الْأَخْذُ عَنِ إِمْهَالِ⁽⁷⁾

وفي هذا إشارة تبدو واضحة للحكمة العربية «إِنَّ اللَّهَ يُمְهَلُ وَلَا يُهْمَلُ»، وهي حكمة لا تزال متداولة. وقد ضمنها الشاعر نتيجة ثقافته وتجربته الشعرية، وقد جاءت معبرة

(1) - ابن جابر. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين أو الغين في مدح سيد الكونين. صص: 47-135.

(2) - الميداني. مجمع الأمثال، تحقيق: محمد الدين عبد الحميد. مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، 1955م. ص: 623.

(3) - ابن جابر. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين أو الغين في مدح سيد الكونين. ص: 301.

(4) - محمد أبو صوفة. الأمثال العربية ومصادرها في التراث. مكتبة الأقصى، الأردن، 1982م. ص: 180.

(5) - ابن جابر. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين أو الغين في مدح سيد الكونين. ص: 594.

(6) - الميداني. مجمع الأمثال، ج2. ص: 426.

(7) - ابن جابر. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين أو الغين في مدح سيد الكونين. ص: 462.

عن أفكاره ومعانيه، ومناسبة لتلك التجربة التي عاشها.

ومما سبق يتضح لنا أن الأمثال العربية هي أحد الروافد المهمة التي تأثر بها الشاعر ابن جابر في القرن الثامن الهجري، ووردت العديد من الأمثال العربية القديمة التي وظفها في سياق مدائحه النبوية . وقد أتى بها كوسيلة من وسائل أفكاره، لإحداث التأثير في المتلقي.

هـ- التناص مع التاريخ: لقد استعمل الشاعر "ابن جابر" الاقتباس والإشارة والإلماح إلى الأحداث والأسماء المشهورة والتي تعطي دلالات تضيف إلى المعنى الذي يعبر عنه

الشاعر في مدائحه، فاللجوء إلى التراث التاريخي كمجلوب خارجي، يدعم به الكاتب أفكاره، ويقوي به معانيه، ويستخدمه كدليل وحجة على صدق ما يقال، ولأن كل معطى من معطيات التراث يرتبط دائما بهالة من القيم الفكرية والروحية، بحيث يكفي استدعاء هذا المعطى أو ذلك لإثارة كل الإيماءات والدلالات التي ارتبطت به في وجدان المتلقي . فيستحضر ابن جابر الشخصيات والأحداث التاريخية في مدائحه سواء كانت إيجابية أو سلبية ، حسب الجدول التالي:

الرقم	البيت الشعري	الشخصيات أو الأحداث أو الأماكن التاريخية المستحضرة
01	<p>أَسْرَى لِحَضْرَتِهِ بِهِ رَبُّ الْعُلَا وَأَتَاهُ مِنْ قَبْلِ الْجَلِيلِ نِدَاءٌ سَمِيٌّ إِلَى رَبِّ السَّمَوَاتِ قَدْ سَمَا فَقُوِيلَ بِالْبُشْرَى بِكُلِّ سَمَاءِ</p> <p>ابن جابر.ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين أوالغين في مدح سيد الكونين. ص:24-35.</p>	<p>حادثة الإسراء والمعراج</p>
02	<p>عَدَتْ عَلَى نَفْسِ عَدِيٍّ وَسَقَتْ مِنْهَا إِبْنَ حُجْرٍ كَأَسِ سُمِّ كَالذُّكَا</p> <p>المصدر نفسه . ص: 51 .</p>	<p>- عدي بن زيد العبادي: شاعر جاهلي، ملكه كسرى على العرب، ثم غضب عليه، فحبسه، ومات في حبسه أو قتل. - امرؤ القيس الكندي: أكبر شعراء المعلقات الجاهلية</p>
03	<p>وَاسْتَلَبْتُ مُلْكَ بَنِي سَاسَانَ لَمْ تَتْرُكْ لَهُ عَلَى اللَّيَالِي مُتَمَّا</p> <p>المصدر نفسه . ص: 51 .</p>	<p>الفرس</p>

<p>الأمويون، نسبة إلى مروان بن الحكم</p>	<p>04 وَأَمَكَّتْ مِنْ آلِ مَرْوَانَ يَدَيَّ ذِي وَحَرٍ فَعَاثَ فِيهِمْ وَنَكَى المصدر نفسه . ص: 51 .</p>
<p>المأمون هو الخليفة ابن هارون الرشيد، وابن هند هو معاوية بن أبي سفيان، أو عمرو بن هند الملك الجاهلي</p>	<p>05 لَمْ يَأْمَنِ الْمَأْمُونُ مِنْ صَوْلَتِهَا وَلَا ابْنُ هِنْدٍ مِنْ عَوَادِيهَا خَلَا المصدر نفسه . ص: 51 .</p>
<p>جعفر و الفضل: ولدا يحيى بن خالد البرمكي</p>	<p>06 وَأَتْبَعَتْ جَعْفَرًا الْفَضْلَ وَكَمْ بَاتَ الطَّلَا يَسْقِيهَا صِرْفَ الطَّلَا المصدر السابق . ص: 51 .</p>
<p>- الزباء بنت عمرو : ملكة تدمر - عمرو بن عدي، أراد أن يثأر لخاله جذيمة الوشاح الذي قتلته الزباء ، فلما تمكن منها عمرو سمت نفسها.</p>	<p>07 وَعَالَتِ الزَّبَاءُ فِي مَنْعَتِهَا وَأَظْفَرَتْ عَمْرًا بِهَا فَمَا أَلَا المصدر نفسه . ص: 51 .</p>
<p>- بنو بكر بن وائل قبيلة جاهلية، كان بينها وبين قبيلة تغلب وفارسها عمرو بن هند حروب وحوادث. -عدي بن ربيعة التغلبي، خال امرئ القيس، حاول أن يثأر لأخيه كليب الذي قتله جساس بن مرة فكانت معارك بين تغلب و بكر دامت أربعين سنة .</p>	<p>08 وَ أَنْفَدَتْ فِي آلِ بَكْرِ حُكْمَهَا وَجَرَعَتْ مُهْلَهْلًا كَأَسَّ الْبَلَى المصدر نفسه . ص: 51 .</p>
<p>قوم سبأ في اليمن</p>	<p>09 وَكَمْ سَبَّتْ عَنْ سَبَأٍ مِنْ نِعْمَةٍ فَمَرَّقُوا فِي كُلِّ قَفَرٍ وَقَلَا</p>

	المصدر نفسه . ص: 52 .
10	وَأَهْلَكَتْ عَادًا وَأَفْنَيْتْ جُرْهُمَا وَزَوَّدَتْ مِنْهَا تَمِيمًا بِالصَّلَى المصدر نفسه . ص: 52 .
قوم عاد ونبيلهم هودعليه السلام . جرهم: قبيلة عربية قحطانية . تميم قبيلة عربية من قبائل نجد .	
11	وَأظْفَرَتْ بِأَيْنِ زِيَادٍ مِثْلَ مَا أَفْنَيْتْ يَزِيدَ حَسْرَةً لَمَّا اعْتَلَى المصدر نفسه . ص: 52 .
عبد الله بن زياد بن أبيه شجاع خطيب . - يزيد بن معاوية ثاني خلفاء الأمويين	
12	وَسَيْفٌ اسْتَلَّتْهُ مِنْ عَزَّتِهِ مِنْ بَعْدِ مَا قَدْ خَضَعَتْ لَهُ الطُّلَى المصدر نفسه . ص: 52 .
سيف بن ذي يزن: من ملوك العرب في اليمن، حررها من الأحباش.	
13	وَالدَّوْحُ يُسْمَعُ إِنْ مَرَرْتَ سَلَامُهَا وَاهْتَرَّ تَحْتَكَ لِلسُّرُورِ حِرَاءُ المصدر نفسه . ص: 26 .
غار قرب مكة كان عليه وسلم يتعبد فيه قبل بعثته.	
هم غار ثور الذي اختبأ به عليه وسلم وأبو بكر في أثناء هجرتهم إلى المدينة	
15	لَا تُلُوْهَا عَنْ جَنَابِ سَلْعٍ فَعَنْهُ لَا تَبْتَغِي التَّوَاءَ المصدر نفسه . ص: 29 .
فناء جبل سلع الكائن في المدينة	
16	وَفِي مَنَى تَبْلَغُ الْأَمَانِي وَبِالصَّفَا نُزْرَقُ الصَّفَاءُ المصدر نفسه . ص: 33 .
منى: مكان بين عرفات ومكة الصفاء: جبل قرب الكعبة يبدأ المسلمون به السعي بين الصفا والمروة .	
17	ثُمَّ مَضَى مُرْتَجِلًا فِيمَنْ مَضَى مَيْمَمًا طَيْبَةً لَا يَشْكُو الْعَنَا
طيبة: المدينة المنورة	

	المصدر نفسه . ص: 54 .
18	وَبَدَا يَبْدُرُ فِي مَوَاكِبِ قَوْمِهِ فَعَدَا كَبْدُرٌ فِي كَوَاكِبِ قُطْبِهِ المصدر نفسه . ص: 69 .
19	فَأَشَابَ شَيْبَةً أَمْرُ عْتَبَةَ عِنْدَمَا أَمَرَ السُّيُوفَ الضَّارِبَاتِ بِعَتْبِهِ المصدر نفسه . ص: 70 .
20	لَهُ الْجَنَّةُ الْغُلْيَا بِذَلِكَ فَاشْتَرَى وَتَجْهِيْزَ جَيْشِ الْعُسْرَةِ اذْكُرْ وَعَدِّدْ المصدر نفسه . ص: 164 .
21	وَوَبَّخَ إِذْ جَاءَ الْقَلِيْبَ قَلِيْبَهُمْ فَأَسْمَعَتِ الْهَامُ الْهَوَالِكَ وَالْأَصْدَا المصدر نفسه . ص: 195 .
22	سَلِ اللَّيَالِي عَنْ كِسْرَى وَقَيِّصْرِهَا وَأَلِ عُمْدَانَ وَالْأَقْيَالَ مِنْ مُضَرٍ المصدر نفسه . ص: 216 .
23	وَلَمْ تَمَزْ مِنْ بَنِي مَرْوَانَ إِذْ هَلَكُوا عَيَّ الْوَالِدِ وَلَمْ نَعْرِفْ نَقْيَ عُمْرِ المصدر نفسه . ص: 216 .
24	أَضَحَّتْ فُصُورُهُمْ قَفْرًا وَكَمْ عَمَرَتْ بِنَاصِرٍ مِنْهُمْ دَهْرًا وَمُنْتَصِرٍ المصدر السابق . ص: 217 .

مكان شهير بين مكة والمدينة، شهد أول انتصار للمسلمين على المشركين في أول حرب بينهما.

شبية وأخوه عتبة بنت ربيعة، طلبا مع الوليد بن عتبة مبارزة أبطال المسلمين في بدر، فتصدى لهم عبدة بين الحارث وحمزة وعلي فقتلوه.

في إشارة منه إلى غزوة تبوك عام 9هـ

ويقصد بالقليب: بئر في بدر ألقى المسلمون فيه قتلى المشركين، ووقف الرسول الكريم على حافته يوبخهم .

وهو قصر أسطوري عظيم في صنعاء، يقال سليمان عليه السلام أم الجن لبيئوه لبلقيس .

في إشارة واضحة إلى عمر بن عبد العزيز، الخليفة الراشدي الخامس، من خلفاء بني أمية، اشتهر بعدله وتقاه، مدة.

ويقصد: المنتصر بالله محمد بن المتوكل، خليفة عباسي، بويح بالخلافة سنة

247.		
25	عَلَى أَنْتِي لَمْ أَجْرِ فِيهِ لِعَايَةِ وَلَوْ أَنَّ قَسًّا مُسْعِدِي وَحَرِيرُ	المصدر نفسه . ص: 232 .
	- قس بن ساعدة الأيادي، أحد حكماء العرب وخطبائهم في الجاهلية. - جرير بن عطية، أشهر شعراء العصر الأموي .	
26	وَفِي سَطِيحِ آيَةٍ وَالْفُلُكِ الْمُسَخَّرِ	المصدر نفسه . ص: 242 .
	-سطيح الغساني، ذو خلق عجيب، لم يكن فيه عظم إلا الجمجمة والكفان، كاهن جاهلي شهير، كان الناس يعتقدون بنبوءته.	
27	وَقَالَ شَيْقُ مِثْلَ مَا قَالَ وَلَمْ يُعَيِّرِ	المصدر نفسه . ص: 242 .
	شق: هو رجل من بجيلة، كاهن معاصر لسطيح في الجاهلية، بشر ببعثة النبي.	
28	وَبَعْدَ رَحِيلِ الرَّكْبِ مِنْهَا بِسَاعَةٍ بَدِيرِ بَحِيرًا عِنْدَ تَيْمَاءَ قَدْ مَرَّ	المصدر نفسه . ص: 251 .
	-في إشارة إلى الراهب "بحيرا" الذي عرف محمدًا <small>صلى الله عليه وسلم</small> سيكون نبيا .	
29	وَفِي صُبْحِ ثَانٍ مَبْرُكِ النَّاقَةِ انْتَحُوا وَفِي ظَهْرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ قَدْ وَرَدُوا الْحِجْرًا	المصدر نفسه . ص: 254 .
	اسم للمكان الذي بركت فيه ناقة الرسول <small>صلى الله عليه وسلم</small> عندما وصل إلى المدينة مهاجرا.	
30	فَسَأَلَتْ دَمًا فِيهَا جِفَانٌ مَطِيئًا عَلَى الصَّخْرِ كَالْخَنَسَاءِ حِينَ بَكَتْ صَخْرًا	المصدر نفسه . ص: 255 .
	ويقصد بها الخنساء الشاعرة المخزومة كان الرسول <small>صلى الله عليه وسلم</small> يستنشدتها شعرها .	
31	وَرَزْنَا الْإِمَامَ الْحَبْرَ مَالِكًا الرَّضَى فَلَمْ نَرِ قَبْرًا قَبْلَ ذَا قَدْ حَوَى بَحْرًا	المصدر نفسه . ص: 257 .
	يريد بذلك: الإمام مالك بن أنس، ينسب إليه المذهب المالكي الفقهي، وقبره في البييع.	
32	وَبِالْمَشْعَرِ الْمَبْرُورِ بِنْتًا فَلَمْ تَزَلْ نُدِيمٌ بِهِ التَّعْظِيمَ لِلَّهِ وَالذِّكْرًا	
	المشعر الحرام:مزدلفة، مكان قرب عرفات يبيت فيه	

الحجيج بعد نفرتهم من عرفات في طريقهم إلى منى.	المصدر نفسه . ص: 261 .
- عثمان بن عفان (ض).	33 عَلَى الصَّدِيقِ وَالْفَارُوقِ كَرَّتْ وَفِي دَمِهِ لِدِي النُّورَيْنِ شَحَطُ المصدر نفسه . ص: 311 .
في إشارة إلى القاضي عياض بن موسى، عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته.	34 جَزَى اللَّهُ بِالْحُسْنَى عِيَاضًا فَإِنَّهُ لِأَسْمَاعِنَا أَسْمَى حَلَاهُ فَشَنَّفَا المصدر السابق . ص: 363 .
العزى واللات : صنمان من أصنام الجاهلية .	35 لَمْ يَدْعُ عَزَى وَلَا لَاتَ إِذْ قَدْ آتَى نَخْلَةَ وَالطَّائِفَا المصدر نفسه . ص: 368 .
- هو عبد المطلب جد الرسول صلى الله عليه وسلم .	36 كَمَا فَدَى بَعْدُ عَيْدَ اللَّهِ وَالِدَهُ مِنْ نَذْرِ شَيْبَةَ بَحْرِ الْجُودِ خَيْرٍ وَفِي المصدر نفسه . ص: 373 .
- في إشارة منه إلى إبراهيم وإسماعيل عليهم السلام.	37 مِنْكَ بَدَا سَيِّدُ الْوَرَى وَالِي خَلِيلِهِمُ وَالذَّبِيحِ مُبْنَاكَ المصدر نفسه . ص: 406 .
يشير الشاعر إلى الفترة المكية لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم .	38 هَذَا الَّذِي لَمْ يَزَلْ مِنْ بَعْدِ مَبْعَثِهِ ثَلَاثَ عَشْرَةَ يَدْعُوهُمْ وَيَحْتَمِلُ المصدر نفسه . ص: 416 .
ويريد بذلك: سراقه بن مالك بن جعشم الذي أدرك الرسول صلى الله عليه وسلم وأبا بكر في أثناء الهجرة، وأراد بهما شرا.	39 هَذَا الَّذِي جَاءَهُ عَيْنًا سُرَاقَتُهُمْ فَعَادَ عَوْنًا بِثُوبِ النَّصْحِ يَشْتَمِلُ المصدر نفسه . ص: 417 .
إشارة إلى أبي بن خلف من كبار قريش، أراد قتل الرسول صلى الله عليه وسلم في أحد، لكن	40 هَذَا الَّذِي أَنْجَرَ الْمِعَادَ فِي أَحَدٍ بِقَتْلِهِ لِأَبِي عِنْدَمَا اقْتَتَلُوا المصدر نفسه . ص: 417 .

	الرسول صلى الله عليه وسلم قتله .	
41	هَذَا الَّذِي عَمِلَ الْأَحْزَابُ وَاجْتَمَعُوا لَهُ فَخَابَ بِعَوْنِ اللَّهِ مَا عَمِلُوا المصدر نفسه . ص: 417 .	يشير الشاعر إلى غزوة الأحزاب أو الخندق .
42	وَأَرْشَدَتِ الرَّهْبَانُ سَلْمَانَ نَحْوَهُ وَقَالُوا لِذَاتِ النَّخْلِ يَثْرِبَ فَأَرْحَلِ المصدر نفسه . ص: 448 .	يشير الشاعر إلى سلمان الفارسي(ض)، وهو صحابي جليل .
43	عُبَيْدَةَ سَلَّ عَنْهُمْ وَحَمْرَةَ وَاسْتَمَعَ حَدِيثَهُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنْ عَلِيٍّ المصدر نفسه . ص: 449 .	يشير الشاعر إلى الصحابي الجليل عبيدة بن الحارث(ض) .

44	وَقَوْلُهُ لِمُعَاذٍ إِنْ تَعَشَّ سَتَرِي هَذَا جَنَانًا فَلَمْ يُخْلِفْ وَلَمْ يُطِلْ المصدر السابق . ص: 482 .	يشير الشاعر إلى معاذ بن جبل صحابي أنصاري، أحد ستة الذين جمعوا القرآن الكريم زمن الرسول صلى الله عليه وسلم .
45	وَالْبُخَارِيُّ فِي الْأَشْيَاخِ مَنْقَبَةٌ لَمْ تُلَفَ مِنْ بَعْدِهِ يَوْمًا لَدَى رَجُلٍ المصدر نفسه . ص: 485 .	البيت فيه إشارة إلى محمد بن إسماعيل، إمام المحدثين، وصاحب أصدق كتاب بعد القرآن الكريم.
46	وَبِالرَّضَى عَنْ عَلِيٍّ وَالتَّبْوَلِ وَعَنْ رِيحَانَتَيْهِ وَعَنْ عَمِيهِ مُخْتَمِي المصدر نفسه . ص: 508 .	في إشارة إلى علي بن أبي طالب والسيدة فاطمة الزهراء والحسن والحسين وحمزة والعباس.
47	لَقَدْ سَكَنْتَ مَحَبَّتَكُمْ بِقَلْبِي كَسَكَنْتِي الْحُبَّ قَلْبَ الْعَامِرِيِّ المصدر نفسه . ص: 595 .	يشير ابن جابر إلى قيس بن الملوح، شاعر عذري الذي اشتهر بحب ليلى، فعرف بمجنون ليلى .
48	وَعَنْ أَمِينِ عِبَادِ اللَّهِ كُلِّهِمْ أَبِي عُبَيْدَةَ أَوْفَى النَّاسِ مِنْ رَجُلٍ المصدر نفسه . ص: 486 .	يقصد الشاعر بذلك أبو عبيدة بن الجراح أمين الأمة .
49	ثُمَّ إِنْ عَوْفٍ مُنِيلِ الْمَالِ سَائِلُهُ وَوَاهِبِ الْعَيْرِ مِنْ حِمْلٍ وَمِنْ إِبِلٍ المصدر نفسه . ص: 486 .	البيت فيه إشارة إلى عبد الرحمن بن عوف، أحد المبشرين بالجنة.سأهم في تجهيز غزوة تبوك ب200 أوقية فضة .

<p>يريد ابن جابر طلحة بن عبيد الله، الذي قاتل عن الرسول ﷺ في غزوة أحد .</p>	<p>50 وَطَلْحَةَ الْمُحْسِنِ الْوَاقِي بِرَاحَتِهِ خَيْرَ الْوَرَى رَاضِيًا فِي ذَلِكَ بِالشَّلَلِ المصدر نفسه . ص: 486 .</p>
<p>يشير الشاعر ابن جابر إلى سعيد بن زيد وهو عاشر المبشرين بالجنة .</p>	<p>51 ثُمَّ السَّعِيدِ سَعِيدٍ مَنْ عَدَا وَزَرًا لِمَلَّةِ اللَّهِ فِي أَيَّامِهَا الْأَوَّلِ المصدر نفسه . ص: 486 .</p>
<p>في إشارة للشاعر إلى الزبير بن العوام، أحد المبشرين بالجنة، وأول من سل سيفاً في الإسلام .</p>	<p>52 ثُمَّ الزُّبَيْرِ حَوَارِيَّ النَّبِيِّ وَمَنْ حُسَامُهُ مِنْ قِرَاعِ الْأَسَدِ ذُو فُلِّ المصدر نفسه . ص: 486 .</p>

وعليه يمكن القول بأن عمق ثقافة الشعارين وتنوعها، وتسلحهما بالثقافات العربية، والإسلامية، والتاريخية. قد بدا واضحا بأن التناص يعتمد اعتمادا أساسيا على كل هذا. واعتماد الكاتبين في إبداع رسالتيهما بالتناص من القرآن الكريم، أو الحديث النبوي الشريف، أو الشعر، أو من خلال الأمثال والحكم إنما هو توظيف لمؤثرات لغوية أو أسلوبية .

الفصل السادس

الأشكال الفنية للمدائح النبوية

المبحث الأول: عند لسان الدين بن الخطيب

أولاً: المولديات (الاحتفال بالمولد النبوي)

ثانياً: الموشحات

ثالثاً: الرسائل الشعرية

المبحث الثاني: عند لسان الدين ابن جابر

أولاً: البديعيات

ثانياً: المدائح النبوية التي فيها التورية بكل سور القرآن

ثالثاً: المخمسات أو المسمطات

رابعاً: المعارضات

خامساً: المعشرات

خامساً: المقصورة

إن شعر المديح- بصفة مجملة ومختصرة- هو شعر التغني بالنموذج والمثال، شعر يحتاجه الإنسان ويلجأ إليه حينما تفشل مشاريعه السياسية والاجتماعية، وحينما تنهار الخطابات والصور والتماثيل البشرية. يلجأ إليه الناس حينما تكتسي الحياة لباس الحداد، وتنطفئ أنوار الهداية، ويعم الظلام أرجاء الأرض وباطنها. ولذلك نجد هذا الفن ملازماً للنكسات السياسية والاجتماعية، والإحباطات النفسية. فقد تحولت المدائح النبوية إلى بلسم للجراح الغائرة في كيان المجتمع، ودواء للنزيف اليومي الذي يعيشه الناس في صراعهم من أجل البقاء، وفي نضالهم من أجل الكرامة والعدل والحرية. فقد واكب المديح النبوي سقوط الأندلس، وسجل نبضات القلوب وذبذبات النفوس التي عايشته هذا الحدث، كما واكب هذا الفن المراحل الأخيرة للحضارة العربية الإسلامية، وما عرفته البلاد من تشرذم وتمزق وانحدار نحو المواقع الخلفية وواكب أيضاً الصراعات السياسية والكوارث الطبيعية والهزات الاجتماعية التي عرفتتها المجتمعات العربية.

إن المدائح النبوية لم تكن ترفاً فنياً أو نزوة وجدانية لدى الشعراء، وإنما جاءت كحاجة اجتماعية ونفسية وفنية في ظرف تراكمت فيه الأحزان، وتوالت فيه الاضطرابات، وقد فيه الناس البوصلة التي ترشدتهم إلى بر الأمان وشاطئ النجاة. في زمن غاب فيه النموذج المخلص الذي تتوحد به الكلمة، وتجتمع حوله القلوب، وتلتئم به الجراح. فلم يكن الواقع يقدم للناس ما يحقق لهم هذا المطلب ويمحو عنهم هذه الحيرة. ولم يكن باستطاعتهم سوى استحضار الذاكرة واستدعاء التاريخ واستلهم النموذج من شخص النبي صلى الله عليه وسلم باعتباره المثل المنشود، والتعويض الأمتل لكل ما كان مفقوداً في حياة الناس. فهو الدواء الشافي، وهو السراج الهادي، وهو الرحمة المهداة، وهو سر الكون والوجود.

وهكذا صارت شخصية الرسول تمثل النموذج المنشود في المدائح النبوية بكل ما تمثله هذه الشخصية من رمزية وأبعاد .

وعليه فقد تعددت الأشكال الفنية للمدائح النبوية عند الشعارين ابن جابر ولسان الدين بن الخطيب. فمن خلال تفحص ديوانيهما استخلصنا تفنن الشعارين في ذلك حتى أنشؤوا فيها فنونا أدبية :

I- ابن الخطيب:

1- المولديات (الاحتفال بالمولد النبوي):

لا يمكن معرفة تاريخ البدء باحتفالات المولد النبوي، والمؤكد أنها لم تكن موجودة في عهد صدر الإسلام والخلفاء الراشدين، وأقدم نص وصلنا عن ابن دحية (633هـ) قوله: أنه مر بمدينة اربيل سنة 604 هـ رأى مظفر الكوكبري صهر صلاح الدين الأيوبي الذي صد المغول عن احتلال المدينة معتنيا بعمل المولد النبوي في شهر ربيع الأول من كل عام، فنصف له كتابا سماه "التتوير في مولد السراج المنير" وختمه بقصيدة طويلة، فأجازه بألف دينار ذهب، كما له "الآيات البيئات في ذكر ما في أعضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم من المعجزات" وكتاب "شرح أسماء النبي" (1).

والأرجح أنها تزامنت مع انتشار الصوفية وحلقاتهم، وكانت مناسبة لدعوة وجوه المدينة وإطعام الفقراء وإضفاء صفة التدين على منظميها من الحكام والأغنياء وكان ملوك الأندلس والمغرب يحتفلون بهذه المناسبة مثل ما عرف في عهد المماليك والفاطميين في مصر وجاء في النسخ: «وكان السلطان أبو حمود الممدوح بقصيدة لابن الخطيب في مولد النبي سنة 778 هـ للهجرة يحتفلون غاية الاحتفال، كما كان ملوك المغرب والأندلس في ذلك الوقت وقبله» (2) فالمولديات عند لسان الدين تتألف من مقاطع ثلاثة:

أ- مطلع غزلي تقليدي:

ب- مديح للرسول صلى الله عليه وسلم وذكر معجزاته والحوادث على أيامه، وتوسل به، وتشوق إلى زيارته، ورجاء في شفاعته، وإقرار بالعجز عن الإحاطة بمكارمه وأخلاقه.

ج- وأخيرا يتخلص إلى مدح من رفعت إليه : يقول في المولدية التي رفعها إلى أبي سالم عام 763 هـ، ويبدأها بذكر نجد وحاجز، ويكفي بدعد وسعدى:

تَأَلَّقَ نَجْدِيًّا فَأَذْكُرُنِي نَجْدًا وَهَاجَ لِي الشُّوقَ الْمُبْرَحَ وَالْوَجْدَا
سَقَى اللَّهُ نَجْدًا مَا نَضَحَتْ بِذِكْرهَا عَلَى كَيْدِي إِلَّا وَجَدْتُ لَهَا بَرْدَا
وَأَسَى قَلْبِي فَهُوَ لِلْعَهْدِ حَافِظٌ وَقَلَّ عَلَى الْأَيَّامِ مَنْ يَحْفَظُ الْعَهْدَا

(1)- المقري. نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج2، ص: 306. .

(2)- المصدر نفسه، ج9، ص: 215.

وَقَدْ وَقَعَ التَّسْجِيلُ مِنْ بَعْدِ مَا أَدَّا أَلْجَدُّ حَقَّ الحُبِّ وَالدَّمْعُ شَاهِدٌ
وَأَكْنَى بِدَعْدًا فِي غَرَامِي أَوْ سَعْدًا⁽¹⁾ لِي اللَّهُ كَمْ أَهْذِي بِبَجْدٍ وَحَاجِرٍ

وقبل الانتقال إلى المقصود يخاطب الراكب الحجازي، ملتصقا منه أن يبلغ شوقه إلى رسول الله، وحينه إلى زيارته، نيابة عنه، وذلك إذا وصل إلى المدينة المنورة « طيبة، وجاء القبر المقدس.

نَشَدْتُكَ يَا رَبَّ الحِجَازِ تَضَاءَلْتُ لَكَ الأَرْضُ مَهْمَا اسْتُعْرِضَ السُّهْبُ وَامْتَدَّا
إِذَا أَنْتَ شَافَهْتَ الدِّيَارَ بِطَيْبَةٍ وَجِئْتَ بِهَا القَبْرَ المُقَدَّسَ وَاللَّحْدَا
وَأَنْسَتُ نُورًا مِنْ جَنَابِ مُحَمَّدٍ يُدَاوِي القُلُوبَ العُلْفَ وَالْأَعْيُنَ الرَّمْدَا
فَنُبَّ عَنِ بَعِيدِ الدَّارِ فِي ذَلِكَ الحِمَى وَأَذْرَ بِهِ دَمْعًا وَعَفَّرَ بِهِ خَدَا
وَقُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَبْدٌ تَقَاصَرْتُ خُطَاهُ، وَأَضْحَى مِنْ أَحِبَّتِهِ فَرْدَا
وَلَمْ يَسْتَطِعْ مِنْ بَعْدِ مَا بَعْدِ المَدَى سِوَى لَوْعَةٍ تَعْتَادُ أَوْ مَدْحَةٍ تُهْدَا⁽²⁾

ثم يخلص إلى المديح، ويعتذر عن تقصيره، وعجزه، لأن القرآن لم يترك مجالاً لمادح:

تَقَدَّمْتُ مُخْتَارًا تَأَخَّرْتُ مَبْعَثًا فَقَدْ شَمِلَتْ عَلَيَاؤُكَ القَبْلَ وَالبَعْدَا
بِمَادَا عَسَى يُثْنِي عَلَيْكَ مُقَصِّرٌ وَلَمْ يَأَلْ فِيكَ الوَحْيَ مَدْحًا وَلَا حَمْدًا⁽³⁾

ويستعرض الخوارق التي ظهرت في ليلة ميلاده عليه الصلاة والسلام:

بِمَوْلِدِكَ اهْتَرَّ الوُجُودُ وَأَشْرَقَتْ قُصُورٌ بِبُصْرِي ضَاعَتْ الهَضَبُ وَالوَهْدَا
وَمِنْ رُعبَةٍ الأوثانِ خَرَّتْ مَهَابَةٌ وَمِنْ هَوْلِهِ إِيوانُ فَارِسَ قَدْ هُدَا
رَعَى اللَّهُ مِنْهَا لَيْلَةً أَطْلَعَ الهُدَى عَلَى الأَرْضِ مِنْ أَفَاقِهَا القَمَرَ السَّعْدَا⁽⁴⁾

ويكرر في المولودية التي رفعها إلى أبي الحجاج بعض ما جاء في القصيدة السابقة من المعاني، ويسير على نهجها الذي حدده، بل نراه يعيد احد أبياته بعينه وهو:

(1)– لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . صص: 471-472.

(2)– المصدر نفسه . ص: 475.

(3)– المصدر نفسه . ص: 476.

(4)–المصدر نفسه. ص: 478.

لِي اللَّهُ كَمْ أَهْدِي بِنَجْدٍ وَحَاجِزٍ
وَأَكْنِي بِدَعْدَا فِي غَرَامِي أَوْ سُدْعَا
أَلَا يَا حُدَاةَ الرَّكْبِ يَبْعُونَ يَثْرِبَا
وَيَلْقُونَ فِي اللَّهِ السَّامَةَ وَالْجَهْدَا
بِمَا بَيْنَنَا مِنْ خُلَّةٍ طَابَ ذِكْرُهَا
وَإَبْصَرْتُمْ نُورَ النُّبُوءَةِ سَاطِعَا
فَقُولُوا رَسُولَ اللَّهِ يَا خَيْرَ خَلْقِهِ
إِذَا فَرَعْتَ عُوجَ الْمَطِيِّ بِكُمْ نَجْدَا
غَرِيبٌ بِأَقْصَى الْغَرْبِ طَالَ اسْتِيَاقُهُ
قَدِ اكْتَنَفَ التُّرْبَ الْمُقَدَّسَ وَاللُّحْدَا
يَوْمَلُ نَيْلَ الْقُرْبِ وَالذَّنْبُ مُبْعَدٌ
وَأَكْرَمَ مُخْتَارِ أَبَانَ بِهِ الرُّشْدَا
فَلَوْلَا تَعَلَّاتِ الْمُنَى لَقَضَى وَجْدَا
وَقَدْ سُدَّ مِنْ طُرُقِ التَّخْلِصِ مَا سُدَّ(1)

ثم ينتقل إلى تعداد معجزاته عليه الصلاة والسلام بيتا بيتا حتى يكاد الشعر يستحيل إلى نثر عادي:

وَمَاذَا يَعُدُّ الْوَصْفُ مِنْ مُعْجَزَاتِهِ
وَأَيُّ رَسُولِ اللَّهِ تَسْتَعْرِقُ الْعَدَا
سَمَا فَوْقَ أَطْبَاقِ السَّمَاءِ مُنَاجِيَا
وَكَلَّمَ تَكْلِيمًا بِهَا الْأَحَدَ الْفَرْدَا
وَمَا زَاغَ عَنْهُ الطَّرْفُ، كَلَا، وَلَا طَعَى
فَلِلَّهِ مَا أَجْلَى وَلِلَّهِ مَا أَهْدَى
وَلَمَّا شَكَا الْجَيْشُ اللُّهَامُ لَهُ الظَّمَا
أَسَالَ لَهُ مِنْ مَاءِ أُنْمَلِهِ وَرَدَا
وَأُثِّبَتْ مِنْهُ الرِّيْقُ عَيْنَ قِتَادَةِ
فَاحْكَمَهَا مِنْ بَعْدِ مَا ذَهَبَتْ رَدَا(2)

ولابن الخطيب قصائد مولدية، منها قصيدة في أربعين بيتا في الجنب الكريم لم يستهلها بالغزل وإنما بوصف الشوق إلى الحضرة النبوية، وبعدها إلى مديح من رفعت إليه القصيدة:

هَلْ كُنْتَ تَعْلَمُ فِي هُبُوبِ الرِّيحِ
نَفْسًا يُوجِّجُ لِأَعَجِ التَّبْرِيحِ
وَحَضِيْبَةِ الْمُنْقَارِ تَحْسِبُ أَنَّهَا
نَهَلَتْ بِمُورِدِ دَمْعِي الْمَسْفُوحِ
فَاحَتْ بِمَا تُخْفِي وَنَاحَتْ فِي الدُّجَى
فَرَأَيْتُ فِي الْأَمَاقِ دَعْوَةَ نُوحِ(3)

والقصيدة منظمة بأسلوب القصائد الصوفية في إيهاام المتلقي بين الغزل الظاهري والمعنى المراد.

(1) - لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . صص: 480-481 .

(2) - المصدر نفسه . ص: 483.

(3) - المصدر نفسه . صص: 380-381.

- الفصل السادس: الأشكال الفنية للمدائح النبوية

وكان الأندلسيون "إضافة إلى المولد النبوي" يحتفلون بعاشوراء بطريقتهم الخاصة ويجعلونها مناسبة للتهادي والاحتفاء .

بلغ عدد مدائح لسان الدين النبوية، أو مولدياته، اثنتي عشرة قصيدة، ورد تسع منها في ديوانه (الصيّب والجهم والماضي والكهام). خلافاً لما ذكره محققه محمد الشريف قاهر في تقديمه له، كما ورد أيضاً قصيدة واحدة في (نفاضة الجراب) لسان الدين نفسه، وواحدة في (أزهار الرياض) وواحدة في (نفح الطيب) وكلا الكتابين للمقري، كما تكرر وورد اثنتين من المدائح الاثنتي عشرة الآنف الذكر في (نفح الطيب) وواحدة في (نفاضة الجراب) ورفع أكثرها إلى ملوك ثلاثة بمناسبة المولد النبوي الشريف، وهم: السلطان أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل النصري سابع ملوك بني الأحمر في غرناطة، وكان لسان الدين كاتبه، ثم خليفته السلطان الغني بالله محمد بن أبي الحجاج يوسف الذي استورزه لسان الدين، ثم السلطان أبو سالم إبراهيم المريني ملك فاس في المغرب.

والمولديات . على الرغم من تعددها . تجري جميعها على نسق واحد، يبدأ لسان الدين كلاً منها عادة بالتوجع والحنين إلى حمى الحجاز عبر البرق والريح والنسيم والركب، ثم ينتقل إلى التغني بفضائل النبي صلى الله عليه وسلم ومعجزاته واصطفائه ومكانته والصلاة عليه مع اعتذاره عن تقصيره في زيارته، وتمنيه ذلك لو أتيح له، ثم ينتهي بمدح السلطان الذي قيلت المدحة في عهده، أو قيلت بطلب منه مديحاً دينياً يلاحظ اقتداءه بسنن النبي صلى الله عليه وسلم وهدية .

وللتوضيح أكثر صغت هذا الجدول:

رقم المدحة	عدد الأبيات	الغرض من نظمها	الممدوح الذي ذكر من خلالها
01	54	كتبها على لسان الغني بالله، تعبيراً عن شوقه للديار المقدسة والتقصير في زيارتها	لا يوجد
02	60	ميلاد الرسول <small>صلى الله عليه وسلم</small>	السلطان النصري أبو الحجاج
03	9	التعبير عن حبه للرسول والتقصير في زيارته	لا يوجد
04	39	مدح الرسول <small>صلى الله عليه وسلم</small> والتعبير عن شوقه إلى الديار المقدسة	لا يوجد

- الفصل السادس: الأشكال الفنية للمدائح النبوية

السلطان النصري الغني بالله	ميلاد الرسول <small>صلى الله عليه وسلم</small>	96	05
السلطان المريني أبو سالم	الشوق للديار المقدسة والتقصير في الزيارة، ومن ثم مدح الرسول <small>صلى الله عليه وسلم</small> ، وطلب الشفاعة والتوسل به	83	06
لا يوجد	الشوق للديار المقدسة والتقصير في الزيارة، ومن ثم مدح الرسول <small>صلى الله عليه وسلم</small> ، وطلب الشفاعة والتوسل به	51	07
السلطان النصري أبو الحجاج	ميلاد الرسول <small>صلى الله عليه وسلم</small>	67	08
السلطان النصري أبو الحجاج	ميلاد الرسول <small>صلى الله عليه وسلم</small>	52	09
السلطان المريني أبو سالم	الشوق إلى الديار المقدسة والتعبير عن محبته الصادقة للرسول <small>صلى الله عليه وسلم</small>	65	10
لا يوجد	مدح الرسول <small>صلى الله عليه وسلم</small>	41	11
		617	المجموع

فالمولدية النبوية إما أن تقال بمناسبة الرسول صلى الله عليه وسلم وإما أن تكون بسبب ما يشعر به ابن الخطيب من لوعة البعد ولواعج الحب والشوق لديار الحجاز وروابيها، محاولاً من خلالها الوصول إلى مسوغ يطلب به شفاعة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وربما قال المدحة على لسان سلطانه فيخاطب بها خاتم الرسل، معبراً عن شوقه وتقصيره في زيارة الديار المقدسة.

ولعل ابن الخطيب وجد في إنشاد تلك المدح النبوية تنفيساً لما يعانيه المسلمون في ذلك الحين من وطأة حروب الإسبان النصاري، ورأى أن في ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم واستحضار صفاته ومناقبه واستعراض بعض معجزاته والتذكير بمواقفه الجهادية استنهاضاً لنفوس المسلمين وعزائمهم في سبيل مواجهة ذلك العدوان الضاري من قبل أنصار الصليب.

2-الموشحات:

كانت الموشحات أكبر حركة من حركات التجديد في تاريخ الشعر العربي، كما كانت ثورة عاتية على التقاليد الموروثة في بناء القصيدة العربية التي ظلت تحتفظ بشكلها التقليدي سواء في التزام الأوزان العربية القديمة أو التزام القافية الموحدة ولم تتحرر من هذه القيود بالرغم من محاولات التجديد التي حمل لواءها الشعراء المحدثون منذ القرن الثاني الهجري ثم جاءت الموشحة فثارت على هذه القيود⁽¹⁾.

لقد طرق الوشاحون الموضوعات التي طرقها الشعراء من غزل وخمر ومجون ووصف للطبيعة ومدح وثناء. ولكن الوشاحين لم يقفوا عند هذا الحد وكأنهم أبوا أن يتركوا مجالاً طرقه الشعراء دون أن تكون لهم مشاركة فيه، فأتجهوا إلى الموضوعات الدينية من زهد وتصوف ومدح نبوي، واقتحموا هذا المجال الذي لا تخلو بعض جوانبه من صعوبة ومشقة، ونجحوا في أن يعبروا عن مواجدهم وأشواقهم الدينية تعبيراً صادقاً⁽²⁾.

فلحاجة الأندلسيين إلى قصائد سهلة الإيقاع صالحة للإشاد والترتيل مالوا إلى نظم قصائد تتوافق مجالس الذكر أو مجالس الاحتفال النبوي فكانت الموشحات مادة الغناء والإشاد وكانت تتلى في مجالس الاحتفال النبوي وتعتمد على دورات متلاحقة من تكرار الأقفال الذي يرتكز عليه النغم والمعنى من قبل المرديدين وقراءة الأبيات (الأدوار) من قبل منشد أو أكثر إذا كانت على طريقة النوبة، وقد أورد المقري موشحة في المديح النبوي يصلح إيقاعها وعباراتها للغزل:

لَمْ يَهْفُ قَلْبِي لِحُبِّ نَبِيِّ وَلَا سَعَادَ وَلَا الرَّبَابِ
لَأَقَى شُجُونًا وَالْوَيْلَا مَنْ هَامَ فِي ذَلِكَ الْجَنَابِ
قَلْبِي وَاللَّهِ مُسْتَطَارًّا مَذْجَلٌ فِي بَيْتِهِ الْحَرَامِ
ذِي الْحَجْرِ وَالرُّكْنِ خَيْرِ رُكْنٍ وَزَمَزَمَ الْخَيْرِ وَالْمَقَامِ⁽³⁾

(1)- ينظر: فوزي عيسى. الشعر الأندلسي في عصر الموحدين. ط1. دار الوفاء لندنيا للطباعة والنشر،

الاسكندرية، 2007م. ص: 406.

(2)- ينظر: المرجع نفسه. ص: 389.

(3)- المقري. نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج1. صص: 281-288.

وقد برع شاعرنا لسان الدين بن الخطيب في مدح النبي ﷺ، ونظم فيه موشحات كثيرة أفاض فيها في وصف شوقه إلى زيارة قبر الرسول الكريم، ولهفته إلى رؤية تلك الأماكن المقدسة التي ولدت في أحضانها الرسالة المحمدية، ويصف غربته النفسية وهو بعيد عن تلك الأماكن. ويتألم من عدم قدرته على تحقيق آماله بزيارة قبر الرسول ﷺ، وتفجير تلك الظلال الوارفة، وشم عرف تلك الأنجاد والأغوار، ويعلل عجزه بالضعف والشيب اللذين جعلاه مقيدا بالغرب حيث لا يستطيع زيارة تلك الطلول ويكثر من ترديد أسماء الأماكن الحجازية كالعذيب وبارق وطيبة ومكة.

ونستطيع هنا الاطمئنان إلى صحة الرأي القائل بأن: «أكثر الموشحات التي قيلت في المديح إن لم تكن جميعها قد مزجت بين الطبيعة والغزل (والخمر) قبل أن تدلف إلى صميم المديح»⁽¹⁾.

ولكن هناك موشحة واحدة على الأقل جاءت كلها في موضوع المديح، وهي للوزير أبي عامر بن ينق وذكرها لسان الدين بن الخطيب في جيش التوشيح وأولها:

سراجُ عَدْلِكَ يُزْهِرُ قَدْ عَمَّ كُلَّ الْعِبَادِ
ونورُ وجهك يبهرُ سناه للخلق بادٍ⁽²⁾

وهناك في هذا الصدد موشحة لسان الدين بن الخطيب الشهيرة

جَادَكَ الْغَيْثُ إِذَا الْغَيْثُ هَمِي يَا زَمَانَ الْوَصْلِ بِالْأَنْدَلُسِ
لَمْ يَكُنْ وَصْلُكَ إِلَّا حُلْمًا فِي الْكَرَى أَوْ خُلْسَةِ الْمُخْتَلِسِ

....

(1)- ابن سعيد علي بن موسى العنسي. المغرب في حلي المغرب، تحقيق: د: شوقي ضيف. ط3. دار

المعارف، مصر، 1955م. ص : 136.

(2)- المصدر نفسه . ص : 137.

إذ يقود الدهرُ أشتاتَ المنى
ينقلُ الخطو على ما يرسمُ
زُمرًا بين فرادى وثنى
مثل ما يدعو الوفودَ المؤسمُ
والحيا قد جلَّ الروض سنا
فتغور الزهر فيه تبسمُ

....

وروى النُعمانُ عن ماءِ السّما كيف يروي مالكٌ عن أنسٍ؟
فكساه الحُسن ثوبًا معلما يزدهي منه بأبهى ملبسٍ

....

في ليالٍ كتّمت سرَّ الهوى
بالدجى لولا شمس الغرر
مال نجم الكأس فيها وهوى
مستقيم السير سغد الأثر
وطرّ ما فيه من عيبٍ سوى
أنّه مرّ كلمح البصر

....

حين لذّ الأنس شيئًا أو كما هجم الصبحُ هجومَ الحرسِ
غارت الشهبُ بنا أو ربّما أثرت فينا عيون النرجسِ

....

أيّ شيءٍ لإمرئٍ قد خلصا
فيكون الروضُ قد مكّن فيه
تنهب الأزهار فيه الفرصا
أمنت من مكره ما تتقيه
فاذا الماء تناجى والحصى
وخلّا كلّ خليلٍ بأخيه

....

تبصر الوردَ غيوراَ برّما يكتسي من غيظه ما يكتسي
وترى الآسَ لبيباَ فهما يسرقُ السمعُ بأذني فرسِ

....

يا أهيلَ الحيّ من وادي الغضا
ويقلبي سَكَنَ أنتم بهِ
ضاق عن وجدِي بِكُمْ رَحَبَ الفضا
لا أبالي شرقه من غربه
فأعيدوا عهدَ أنسٍ قد مضى
تُعْتِقُوا عانيكمُ من كربهِ

....

واتّقوا اللهَ وأحيوا مغرما يتلاشى نَفَسًا في نَفَسِ
حبس القلبِ عليكم كرما أفترضون عفاءَ الحبسِ؟

....

ويقلبي منكمو مقتربُ
بأحاديثِ المنى وهو بعيد
قمرٌ أطلع منه المغربُ
شَقْوَةُ المُغْرَى به وهو سعيد
قد تساوى محسنٌ أو مذنبُ
في هواه بين وعدٍ ووعد

....

ساحر المقلّة معسول اللّمي جال في النّفس مجالَ النّفسِ
سدّد السّهمَ وسمّى ورمى ففؤادي نهبة المفترس⁽¹⁾

وتعد بدورها من موشحات المديح، وإن كان الناس لا يذكرون في العادة إلا قسمها الأول الذي يدور حول الغزل ووصف الطبيعة.

(1) – المقري. نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج9. صص: 281-282.

فقد كانت الموشحات في أول الأمر وقفا على الغناء. فكانت تعالج موضوعات الغزل والخمریات ووصف الطبيعة. وما لبثت أن صارت مطية ذلولا للأمداح. حينما استغلها الوشاحون للوصول إلى عطايا الملوك والأمراء وهباتهم...⁽¹⁾.

ويقول د. عبد العزيز الأهواني إن الوشاح الأول « كان قريب العهد بالأصل المشترك-الأغنية الشعبية- فكان منه قريب الشبه بها، ولعله في أول الأمر لم يكن حريصا على أن ينقي إنتاجه من اللغة العامية في جميع مقطوعاته.. كما كانت البساطة طابعا مميزا لهذا الطور. ثم انتقل الأمر على يد عبادة بن ماء السماء وغيره من المثقفين، أصحاب الشعر وناظمي القصائد، ومداحي الأمراء، ومرتادي القصور، إلى مرحلة جديدة التزموا فيها اللغة الفصحى التزاما صارما، ولم يسمحوا للعامية أن تتجاوز حدود الحرية، عربية أو أعجمية والإكثار من القوافي»⁽²⁾.

وهذا الرأي يقود بدوره إلى الاعتقاد بأن الموشحات القديمة كانت بعيدة عن طابع المديح وغيره من الموضوعات التقليدية .

(1)- المصدر السابق، ج3. ص: 411.

(2)- ص: 290 من نسخة صححها وحققها بشير محمد زمان (لم تنشر بعد) .

3- الرسائل الشعرية:

كان للأندلسيين ولاء ثقافي واجتماعي وتاريخي نحو الشرق الإسلامي والجانب الديني يتخذ شكل القدسية تجاه الكعبة المشرفة وقبر الرسول و مرابع مبعثه، وأصبحت فريضة الحج حلقة الترابط ومصدر انبعاث الشوق لزيارة قبره واكتحال عيونهم بروية الروضة الشريفة وأداء الركن الخامس في الشريعة الإسلامية وطلب الشفاعة والغفران، وبدأت الرسائل النبوية بالظهور مع الرسائل الدينية والاجتماعية والأخوية والوصفية التي انتشرت منذ عصر ملوك الطوائف واتخذت شكلا مستقلا يختلف عن الرسائل الأخرى، مبتدئا بالشكوى إلى رسول الله من أحوال بلادهم والمخاطر المحيطة بهم في رسائل تفيض بوجد ملتهب لزيارة قبره الطاهر.

ولابن الخطيب رسالتان على لسان السلطان الغني بالله، حاكم غرناطة في دولة بني الأحمر (635-897هـ)، مطلع الأولى والتي هي في أربع وخمسين بيتا:

دَعَاكَ بِأَقْصَى الْمَغْرِبِينَ غَرِيبٌ وَأَنْتَ عَلَى بُعْدِ الْمَزَارِ قَرِيبٌ⁽¹⁾

والقصيدة كلها في الشوق إلى زيارة مقامه الطاهر مختتما بالصلاة الله عليه:

عَلَيْكَ صَلَاةُ اللَّهِ مَا عَيَّبَ الْفَضَا عَلَيْكَ مُطِيلٌ بِالثَّنَاءِ مُصِيبٌ
وَمَا اهْتَزَّ قَدُّ لِلْغُصُونِ مُرْتَحٌ وَمَا افْتَرَّ ثَغْرٌ لِلْبُرُوقِ شَنِيبٌ

ثم ختمها برسالة نثرية في مناقب الرسول: خلقه، نسبه، منزلته، شفاعته ومعجزاته ومن ثم بيان ما آلت الأوضاع في الأندلس نتيجة تكالب الأعداء عليها وجهود ملك دولة بني الأحمر في الدفاع عن المناطق المتبقية والرجاء منه العون والشفاعة بتسهيل الأسباب في بلوغ النصر وحفظ الإسلام في تلك الجزيرة.

والرسالة الثانية لا تختلف عن الأولى سوى ختام ملحقا النثري بالصلاة والسلام عليه وعل صديقيه و فاروقه المستخلف وصهره ذي النورين وابن عمه سيف المسلول بدر سمائته⁽²⁾.

(1)- لسان الدين بن الخطيب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ص: 320 .

(2)- المقري. نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج9. صص: 58-64.

II- ابن جابر:

1- البديعيات:

ابتكر أبو عبد الله محمد بن أحمد المعروف بابن جابر، صاحب المقصورة المشهورة في المديح النبوي فنا جديدا في علم البديع سماه "الحلة السيرا في مدح خير الورى" والتي عرفت فيما بعد ببديعية العميان، لأنه كان أعمى، وقد شرحها: صديق عمره أبو جعفر بكتاب سماه «طراز الحلة وشفاء الغلة»⁽¹⁾.

وهي قصائد ميمية من البحر البسيط في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكنه ليس الغرض الوحيد فقط، وإنما تشاركه غاية أخرى لدعم الشاعر، هي أن يضم كل بيت من أبيات بديعيته نوعا أو أكثر من أنواع البديع التي كثرت حتى زادت عن خمسين ومئة نوع،

قال عنه الأديب أبو جعفر الألبيري (779هـ): «نادرة في فنها، فريدة في حسنها، تجنى ثمر البلاغة من غصنها، وتنزل سواكب الإجادة من مزنها، لم ينسج على منوالها، ولا سمعت قريحة بمثالها...»⁽²⁾.

فالبديعيات تسير على نهج البردة وزنا ورويا ومضمونا وأجزاء، ويكون كل بيت من أبياتها خاصا بلون من ألوان علم البديع في البلاغة.

يقول ابن جابر في بديعيته:

وَأَنْشُرُ لَهُ الْمَدْحَ وَأَنْتَرُ أَطْيَبَ الْكَلِمِ	بِطَيْبَةِ أَنْزِلَ وَيَمَّمُ سَيِّدَ الْأُمَمِ
وَالْحَقُّ بِمَنْ سَارَ وَالْحَظُّ مَا عَلَى الْعَلَمِ	وَابْدُلْ دُمُوعَكَ وَاغْدُلْ كُلَّ مُصْطَبِرِ
سَلِيلِ مَجْدِ سَلِيمِ الْعَرَضِ مُحْتَرَمِ	سَنَا نَبِيِّ أَبِي أَنْ لَا يُضَيِّعَنَا
هَدَى وَوَفَاضَ نَدَى كَفَيْهِ كَالدَّيَمِ	جَمِيلِ خَلْقٍ عَلَى حَقِّ جَزِيلِ نَدَى
فَكَمْ جَرَى مِنْ جَدَى كَفَيْهِ مِنْ نَعَمِ	كَفَى الْعَدَاةَ، وَكَدَّ الْحَادِثَانَ كَفَى
وَكَمْ صَفَا وَضَفَا جَوْدًا لَجَبْرِهِمْ	وَكَمْ حَبَا وَعَلَى الْمُسْتَضْعَفِينَ حَنَا
عَذْلٍ بَعْدَلٍ وَنُصْحٍ غَيْرِ مُتَّهَمِ	مَا فَاهَ فِي فَضْحِهِ مَنْ فَاءَ لَيْسَ سِوَى
حَامِ شَقَى مِنْ شَفَا جَهْلٍ وَ مِنْ عَدَمِ	حَانَ عَلَى كُلِّ جَانٍ حَابٍ إِنْ قَصَدُوا
جَارًا فَجَازَ وَ نَيْلًا مِنْهُ لَمْ يُرَمِ	لَيْتُ الشَّرَى إِذْ سَرَى مَوْلَاهُ صَارَ لَهُ

(1) - زكي مبارك. المدائح النبوية في الأدب العربي . ص: 213 .

(2) - المقرئ . نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج3. ص: 430 .

كَافِي الْأَزَامِلِ وَ الْأَيْتَامِ كَافِلُهُمْ وَافِي النَّدَى لِمُؤَافِي ذَلِكَ الْحَرَمِ (1)

إلى أن يقول في نهاية البديعية:

صَحْبُ الرَّسُولِ هُمْ سُؤْلِي وَجُودَهُمْ أَرْجُو وَأَنْجُو مِنَ الْبَلْوَى بِبَالِهِمْ
أَحِبُّ مَنْ حَبَّهُمْ مِنْ أَجْلِ مَنْ صَحَبُوا أَجَلٌ وَأَبْغَضُ مَنْ يُعْرَى لِبُغْضِهِمْ
هُمْ مَالِي وَأَمَالِي أَمِيلُ لَهُمْ وَلَا يَمَلُّ لِسَانِي مِنْ حَدِيثِهِمْ
لَكِنْ وَإِنْ طَالَ مَدْحِي لَا أَفِي أَبَدًا فَأَجْعَلُ الْعُذْرَ وَالْإِقْرَارَ مُخْتَتَمِي (2)

فمن الضرورة أن نشير إلى أهمية هذه القصيدة في تاريخ الأدب العربي، لأن صاحبها ابن جابر اخترع بها فنا أدبيا لم يكن معروفا من قبل، ألا وهي البديعيات. وقد وصل إليها ابن جابر بتطويره للمدحة النبوية، وبتأثره ببردة البوصيري الشهيرة من جهة، وبالنظم العلمي الذي برع فيه من جهة ثانية، وابتكر بها فناً كبيراً من فنون الأدب العربي فكان رائداً له (3). ومن الباحثين من جعل مبتكرها ابن جابر، ومنهم (4) من جعله صفي الدين الحلبي، وهو معاصر له، ولقد رجح سبق ابن جابر لأنهم متعاصران، ولأن شارحها أبا جعفر قد صرح بسبقها، وهو معاصر لابن جابر وللحلي معاً. ولأن بديعية الحلبي تفوقت على بديعية ابن جابر، الأمر الذي يشير إلى أنه قد أفاد من قصيدة ابن جابر وتلافى ما رآه فيها من مواضع ضعف. ومهما يكن من أمر فإن ابن جابر في صنيعة هذا قد غدا معلماً من معالم الأدب والبلاغة في تاريخ اللغة العربية، ولقد أتت عليها السيوطي ووصفها بعلو نظمه (5).

وعلى الرغم من أن جل اهتمام ابن جابر قد انصب على الجانب البلاغي فيها، إلا أنه سار في معانيها سيره بمعاني غيرها من مدائحه النبوية تقريباً، لذلك لا نجد في معانيها جدة أو جهداً يوازي الجهد المبذول في الجانب البلاغي منها. إنه بدأها بذكر

(1) - ابن جابر الأندلسي. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين أو الغين في مدح سيد الكونين. صص:

491-492.

(2) - المصدر نفسه . ص: 502.

(3) - ينظر: زكي مبارك. المدائح النبوية. ص: 213.

(4) - ينظر: شوقي ضيف. البلاغة تطور وتاريخ . ص: 273 .

(5) - بغية الوعاة، ج1. ص: 35 .

طيبة والدعوة لزيارة الرسول ﷺ، وضمّنها تغزلاً نبوياً، ثم مدح الرسول، وتحدث عن بعض معجزاته وختمها بالاعتذار منه، لأنه لم يستطع أن يوفيهما حقه في المديح مهما أطل.

وعلى الرغم من التشابه بين هذه البديعية ومدائح ابن جابر النبوية في المعاني والعاطفة والممدوح وغير ذلك، إلا أن هناك فارقاً كبيراً بينهما، نستطيع أن نوجزه بقولنا: إن الفن كان يغالب الصنعة في المدائح النبوية، بينما غلبته الصنعة في هذه البديعة، واتضح ذلك وقوي فيما جاء بعدها من بديعيات، لا نستطيع أن نجد فيها للفن إلا رسوماً دراسة وظلالاً باهتة، الأمر الذي أخرجها من دائرة الشعر إلى دائرة النظم العلمي في علوم البلاغة، وإن لم تصل إلى درجة ألفية ابن مالك وغيرها.

2- المدائح النبوية التي فيها التورية بكل سور القرآن:

لابن جابر بديعية مشهورة «بديعية العميان في أسماء سور القرآن»، «وهي في تورية بسور القرآن ومدح النبي ﷺ وسماها المقري ب غرر القصائد»⁽¹⁾ وهي في ستة وخمسين بيتا نقلها المقري كاملة⁽²⁾.

مطلعها:

فِي كُلِّ فَاتِحَةٍ لِلْقَوْلِ مُعْتَبَرَةٌ حُقَّ الثَّنَاءُ عَلَى الْمَبْعُوثِ بِالْبَقْرَةِ
فِي آلِ عِمْرَانَ قَدَمًا شَاعَ مَبْعَثُهُ نِسَاؤُهُمْ وَالرَّجَالُ اسْتَوْضَحُوا خَبْرَهُ

والقصيدة في مدح الرسول وكل بيت من أبياتها تتضمن التورية بسورة من القرآن الكريم.

بِكَهْفِ رَحْمَاهُ قَدْ لَأَذَّ الْوَرَى وَبِهِ بُشْرَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الْإِنْجِيلِ مُشْتَهَرَةٌ
سَمَاءُ طَهَ، وَحَضَّ الْأَنْبِيَاءَ عَلَى حَجِّ الْمَكَانِ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ عَمَرَهُ⁽³⁾

إلى أن يختم بديعيته بالصلاة على النبي الهادي وأصحابه العشرة، ذكرا كل واحد منهم باسمه:

أَزَكَى الصَّلَاةِ عَلَى الْهَادِي وَعَتْرَتِهِ وَصَحْبِهِ وَخُصُوصًا مِنْهُمْ الْعَشْرَةَ
صِدِّيقُهُمْ عُمَرُ الْفَارُوقُ أَحْزَمُهُمْ عُثْمَانُ ثُمَّ عَلِيٌّ مَهْلِكُ الْفَجْرَةِ
سَعْدٌ سَعِيدٌ زُبَيْرٌ طَلْحَةُ وَأَبُو عُبَيْدَةَ وَابْنُ عَوْفٍ عَاشِرُ الْبَرَّةِ
وَحَمْرَةَ ثُمَّ عَبَّاسٌ وَالْهَمَامَا وَجَعْفَرٌ وَعَقِيلٌ سَادَةُ خَيْرِهِ
وَفِي خَدِيجَةَ وَالزُّهْرَاءِ وَمَا وَلَدَتْ لَدِيٍّ مَدْحٌ سَاهِدِي دَائِمًا دُرَّةَ
عَنْ كُلِّ أَرْوَاجِهِ أَرْضَى وَأَوْثَرَ مَنْ أَضَحَتْ بَرَاءَتُهَا فِي الذِّكْرِ مُسْتَطِرَّةَ
أَوْلِيكَ النَّاسُ آلُ الْمُصْطَفَى وَكَفَى وَصَحْبُهُ الْمُهْتَدُونَ السَّادَةَ الْخَيْرَةَ
أَقْسَمْتُ لَا زِلْتُ أَهْدِيهِمْ شَدَا مَدْحٍ كَالرَّوْضِ يَنْثُرُ مِنْ أَكْمَامِهِ زَهْرَهُ⁽⁴⁾

(1)- المقري . نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب. ج.10. ص: 182.

(2)- المصدر نفسه . صص: 182-185.

(3)- ابن جابر الأندلسي. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين أو الغين في مدح سيد الكونين. ص: 233.

(4)- المصدر نفسه. صص: 236-237.

كما وردت أيضا في نفع الطيب للمقري، ج7/324، وفي أزها الرياض للمقري أيضا، ج4/254، باختلافات يسيرة، وقد أثنى المقري عليها في أزهار الرياض، بعد أن أوردتها، ثناء عظيما يدل على ذوق العصر وقيمه الفنية قائلا: «لم أر من سلك هذا السبيل وانتمى فيه إلى خير قبيل بعد شدة الفحص والبحث، ولعمري إن ما أبداه هذا الناظم من ذلك، لا يجارى ولا يبارى، وإن في مثله لحكمة واعتبارا، قواف في محلها متمكنة سهلة، وألفاظه تسلب العقول من أول وهلة، ومعان رائعة، وتوريات فائقة، وزاد كله مدح خير العالمين عليه الصلاة والسلام حسن طلاوة، وانسجاما ورقة وحلاوة»

وأورد المقري ثلاث مطولات لهذه القصيدة من شعراء آخرين⁽¹⁾. وقام رفيقه أبو جعفر الالبيري بشرح القصيدة وسماها "طراز الحلة وشفاء الغلة"⁽²⁾. واختصر هذا الشرح محمد بن ابراهيم البشتكي (830هـ)، كما نظم في عصره في العراق صفي الدين الحلبي (750هـ) بديعية سماها "الكفاية البديعية في المدائح النبوية" وانتقل هذا الفن إلى النثر فنظم القاضي عياض خطبة في المديح النبوي تتضمن التورية بأسماء سور القرآن⁽³⁾.

ومن ثم انتشر هذا الفن في الشرق، فنظم الشعراء بديعيات في شرح علوم العربية من النحو والصرف والبلاغة... بينهم ابن حجة الحموي (837هـ) الذي نظم معارضة لبديعية ابن جابر في اثنين وأربعين ومئة بيت، عرض فيها فنون البديع من التخلص والاطراد والفكر والترديد والتكرار... وتدخل في منظومات المتون ونشرها في كتابه "خزانة الأدب وغاية الأرب" مع بديعيات أخرى⁽⁴⁾.

(1) - المقري . نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب. ج10. صص: 185-191.

(2) - المصدر نفسه ، ج3 . ص: 430 .

(3) - الخطبة كاملة في نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب. المقري، ج10. ص: 192 .

(4) - ابن حجة الحموي. خزانة الأدب وغاية الأرب . ص: 185.

3-المخمسات أو المسمطات:

هي قصائد مرتبة على حروف المعجم، والتي تتكون من قطع تتألف كل واحدة منها من خمسة أشطر، الأربعة الأولى ذات قافية موحدة والخامسة بحرف روي مختلف، وقد يدخلها التصريع أو التقفية مع الأشطر الأولى في المقطع الأول فتكون الأشطر الخمسة كلها في قافية واحدة، ويعرف الشطر الخامس "بعمود القصيدة" وهو الشطر الذي يكرر من قبل الجالسين في الغالب في المديح النبوي، وقد تكون عبارة "صلوا عليه وسلموا تسليماً" أو أي عبارة أخرى متشابهة، كقصيدة ادريس بن موسى القرطبي (من شعراء القرن الثامن للهجرة) قوله في المقطع الأول:

أَهْلًا بِكُمْ يَا أَهْلَ هَذَا النَّادِي أَهْلَ اعْتِقَادٍ وَالْوَعْدِ وَالْمِيعَادِ
اهْدُوا الصَّلَاةَ إِلَى النَّبِيِّ الْهَادِي وَصَلُّوا السَّلَامَ لَهُ مَعَ الْأَبَادِ
يندى نسيما مذكرا تسنيما⁽¹⁾

يقول ابن جابر:

إِلَى الْمُصْنَفَى الْهَادِي صرَفْتُ رَجَائِي
أَمَانِي لَهُ مَدْحِي غَدَا وَثَنًا أَيْ
أَلَا أَيُّهَا السَّارِي بِخَيْرِ فَنَاءِ
إِذَا جُنْتُ رِبْعًا طَابَ فِيهِ ثَوَائِي فَسَلِّمْ عَلَيَّ ذِي الْجَاهِ وَالْحَسْبِ الْعَالِي
بَشِيرٌ نَذِيرٌ مَنْقُذٌ كُلُّ مَنْدُبِ
بَشَائِرُهُ عَمَّتْ بِشَرْقٍ وَمَغْرِبِ
بَدَا نُورُهُ حَتَّى جَلَّ كُلَّ غَيْهَبِ
بَحِيرًا دَعَا إِذْ جَاءَ هَذَا هُوَ النَّبِيُّ وَمَا زَالَ ذَا ذِكْرٍ لَدَى الزَّمَنِ الْخَالِي
تَحَدَّثْتَ الْأَخْبَارُ قَدَمًا بِنِعْتِهِ
تَلُّوا ذِكْرَهُ فِي الْكُتُبِ مِنْ قَبْلِ وَقْتِهِ
تَبَيَّنَ مِنْ تَوَارِثِهِمْ حَسَنُ سَمْتِ
تَجَلَّى لِإِذْهَابِ الضَّلَالِ وَشْتِهِ وَأَرْسَلَهُ ذُو الْعَرْشِ أَكْرَمَ إِزْسَالِ⁽²⁾

(1)- المقري . نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج10. صص: 295-298 .

(2)- ابن جابر الأندلسي. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين أو الغين في مدح سيد الكونين. ص: 463.

وبعد القرن الثامن للهجرة مرحلة ازدهار الخمسات ومرحلة التصنع والتفنن في إظهار الباع والقدرة الفنية في التلاعب بالأبيات الذي أضيف على تلك القصائد نوعاً من الجمود والزخرفة الفارغة، مثل قصيدة للأديب المعروف حازم القرطاجني المولود في المرية في الأندلس تضمنت إعجاز أبياتها البالغة تسعة وسبعين بيتاً الشطر الأول من معلقة امرئ القيس "قفا نبك" وهي قصيدة تغلب عليها الصنعة والتفكك وبهوت العاطفة⁽¹⁾

ولأبي جعفر الألبيري قصيدة مماثلة⁽²⁾. وللشاعر أبي بكر أحمد بن لب كاتب السلطان الحجاج بن نصر قصيدة مشابهة تتضمن إعجازها أشطر مطولة امرئ القيس "ألا عم صباحاً وهي قصيدة طويلة يتناول في مقدمتها الشيب والدهر ثم مناقب الرسول ومعجزاته مختتماً القصيدة بطلب الشفاعة"⁽³⁾.

ولأبي جعفر الرعيني الغرناطي قصيدة من التشريع أو التوأم وفيها يبني قصيدته على أن يكون لكل قافيتان ووزنان منها:

يَا رَاحِلًا يَبْغِي زِيَارَةَ طَيْبَةٍ نَلْتِ الْمُنَى بِزِيَارَةِ الْأَخْيَارِ
حَيِّ الْعَتِيقِ إِذَا وَصَلْتَ وَصِفْ لَنَا وَادِي مَنْى بِأَطْيَبِ الْأَخْبَارِ⁽⁴⁾

وهذه القصائد محاولات شكلية لإضفاء التغيير على قصائد المدح النبوي التي وصلت في القرون المتأخرة من حكم المسلمين في الأندلس إلى مرحلة التقولب في الشكل والمعاني والموضوعات واستمرت إلى عصرنا الحديث.

(1) - القصيدة كاملة في نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. المقري، ج8. صص: 34-38 .

(2) - القصيدة كاملة في نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. المقري، ج3. ص : 438 .

(3) - القصيدة كاملة في نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. المقري، ج8. صص: 32-34 .

(4) - المقري . نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج1. ص: 54 .

4- المعارضات:

إن قصائد المديح النبوي عبارة عن سلسلة من القصائد الطويلة ابتدأت ببردة كعب بن زهير واستمرت على منوال واحد وتقسيم متشابه كأنها حلقات مترابطة ممتدة عبر الزمن، لذلك فهي قصائد معارضة لبعضها البعض، فقصائد الصرصري والبوصيري وابن جابر وابن الخطيب وابن زمرك... متشابهات من حيث الشكل والمعنى والغرض، وكأنها نسخة واحدة، استنسخت عليها عشرات النسخ بألوان مختلفة، وأورد مؤلف "تاريخ المعارضات في الشعر العربي" اثنتين وعشرين قصيدة معارضة لقصيدة كعب بن زهير⁽¹⁾.

أما المعارضات عند شاعرنا ابن جابر فهي قصائد عارض فيها عدة شعراء، ومن غرر قصائده النبوية قصيدة مطولة عارض فيها القصيدة اللامية « بانة سعاد» لكعب بن زهير، وهي قصيدة تقع في ثمانية وخمسين بيتا من الشعر المحكم الرصين الذي يظهر فيه أثر الجاهلية واضحا جليا، ومطلعها [من البسيط]:

بَانَتْ سَعَادُ فِقَلْبِي الْيَوْمَ مَتْبُولُ مُتَيِّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يَفِدْ مَكْبُولُ
و ما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغن غضيض الطرف مكحول⁽²⁾

يقول ابن جابر في قصيدة من الضرب الثاني من البسيط، وهو المقطوع المردف، على عروض مخبونة، مصرعة البيت الأول، متواترة القافية، مطلقة الروي، جارية على الضم. وهي:

بَانَتْ سَعَادُ فِعْقُدُ الصَّبْرِ مَحْلُولُ وَالْدَمْعُ فِي صَفَحَاتِ الْخَدِّ مَبْدُولُ
لَمْ يَخْفَ حُبِّي عَنْ وَاشٍ وَكَيْفَ بَانَ يَخْفَى وَسَائِلُ دَمْعِي عَنْهُ مَسْئُولُ

(1)- محمد محمود قاسم. تاريخ المعارضات في الشعر العربي. (د،ط). مؤسسة الرسالة، بيروت، 1983م. ص: 222.

* بانة: فارقت.

متبول: غلبه الحب. .

مكبول: مقيد.

البين: الفراق.

أغن: في صوته غنة.

(2)- ابن قتيبة. الشعر والشعراء. ص: 80.

وفيها:

لِي الْأَمَانُ وَحَاشَا أَنْ أُخِيبَ وَ لِي
هَادِي الْبَرِيَّةِ مِنْ بَعْدِ الضَّلَالِ وَ مَنْ
لَهُ الشَّفَاعَةُ حَيْثُ الرُّسُلُ جَائِيَةٌ
وَجَاءَتِ الْخَلْقُ أَفْوَاجًا لِيَلْتَمِسُوا
وَ حَيْثُ جَاؤُوا رَسُولًا قَالَ لَسْتُ لَهَا
حَتَّى إِذَا مَا أَتُوا عِيسَى يَقُولُ لَهُمْ
حَتَّى إِذَا سَأَلُوا الْمُخْتَارَ قَالَ لَهُمْ
هَنَّاكَ يُدْعَى بِهِ سَلْ تُعْطَ وَادْعُ تُجَبَّ
قَلْبٌ عَلَى حُبِّ خَيْرِ الْخَلْقِ مَجْبُولُ
لَهُ عَلَى الرِّسْلِ تَخْصِيصٌ وَ تَفْضِيلُ
وَ كُلُّ شَخْصٍ لِذَاكَ الْيَوْمِ مَجْبُولُ
لَهُمْ شَفِيعًا وَمَا فِي الْأَمْرِ تَمْهِيلُ
فَلَيْسَ لِي عَنْ مَقَامِ الْخَوْفِ تَحْوِيلُ
أَمْرُ الشَّفَاعَةِ لِلْمُخْتَارِ مَوْكُولُ
أَنَا لِذَاكَ وَلِي بِالْأَمْرِ تَكْفِيلُ
وَاشْفَعْ تُشَفِّعْ فَوَعْدُ اللَّهِ مَفْعُولُ⁽¹⁾

وجاء في قصيدة نبوية أخرى، حيث نجد ابن جابر يتهجج نهجا آخر في مدائحه النبوية، فيلتفت إلى المعلقات المشهورة، فيأخذها ويصرف معناها إلى المدح النبوي، فمن ذلك التفاتة إلى معلقة امرئ القيس*، فنراه يأخذ شطرا من كل بيت ويضع إلى جانبه شطرا آخر من عنده، ويصرف المعنى كله إلى المدح النبوي كما يبدو في قوله:

خَلِيلِي هَذَا قَبْرُ أَشْرَفِ مُرْسَلِ
رُؤَيْدِكُمْمَا نَبِيِّ الدُّنُوبِ الَّتِي خَلَتْ
مَنَازِلَ كَانَتْ لِي لِتَصَابِي فَأَقْفَرْتُ
كَأَنِّي وَقَدْ سَارَ الْحَجِيحُ وَوَدَّعُوا
فَدَمَعِي عَلَى ذَنْبِ جَرَى فِي عِرَاصِهَا
أُنَادِيهِمْ مَنْ لِلضَّعِيفِ فَأَقْبَلُوا
فَقُلْتُ رُسُومُ الصَّبْرِ مِنِّي قَدْ عَفَتْ
قِفَا نَبِّكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ
بِسِقْطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ وَ حَوْمَلِ
لِمَا نَسَجْتَهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمَالِ
لَدَى سَمَرَاتِ الْحَيِّ نَاقِفُ حَنْظَلِ
وَقِيَعَانِهَا كَأَنَّهُ حَبُّ فُلْفُلِ
يَقُولُونَ لَا تَهْلِكِ أَسَى وَتَجَمَّلِ
فَهَلْ عِنْدَ رَسْمِ دَارِسٍ مِنْ مَعْوَلِ

(1) - ابن جابر الأندلسي. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين أو الغين في مدح سيد الكونين.

ص: 429 وما بعدها .

* امرئ القيس: بن حجر الملك، قتل بنو أسد أباه حجرا ملكهم، فحاول أن يأخذ بثأره، وقصيدته أشهر المعلقات الجاهلية ومطلعها:

قِفَا نَبِّكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ
بِسِقْطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

(الزوزني. شرح المعلقات. ص: 7)

إلى أن يقول في ختامها:

تَتَبَّعْتُ أَعْجَازَ امْرِئِ الْقَيْسِ نَاسِجًا لَهْنٌ صُدُورًا نَسْجُهَا لَمْ يُهْلَهَلِ
ثَنَّتْهَا بِمَدْحِ الْمُصْطَفَى فَكَأَنَّهَا عَلَى مَدْحِهِ الْعَالِي نُسِجْنَ بِأَوَّلِ
أُرْجِي بِهَا تَسْهِيلَ أَمْرِي فِي غَدِي فَقَدْ جِئْتُ مِنْهَا بِالْمَنِيعِ الْمُسَهَّلِ
عَلَيْهِ صَلَاةُ اللَّهِ تَشْمَلُ آلَهُ وَأَصْحَابَهُ أَعْلَى مَلَاذٍ وَ مَوَائِلِ⁽¹⁾

وعلى هذا النحو يمضي ابن جابر في تضمين معلقة امرئ القيس وصرف جميع معانيها إلى المدح النبوي ويلتزم بهذه الطريقة من بداية القصيدة إلى نهايتها، التي ختمها بالصلاة على النبي .

(1)- ابن جابر الأندلسي. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين أو الغين في مدح سيد الكونين. ص: 440-446.

5- المعشرات:

تسمى أيضا مسمطة، يؤتى فيها بتسعة أشطار مقفاة بقافية واحدة، ثم بعاشر ذي قافية مخالفة لما قبلها وما بعدها، متفقة مع أمثالها في كل شطر عاشر. يقول ابن جابر في قصيدة معشرة من بحر الطويل، وحرف الروي من كل قسم ملتزم في أوله. وهي:

أَعْنِي فَإِنَّ الشَّوْقَ أَعْظَمُ دَائِي	أَمَّا إِنَّ ذِكْرَ الهَاشِمِيِّ دَوَائِي
أَعِدْ لِي حَدِيثَ الْجَزَعِ فَهُوَ شِفَائِي	أَحْنُ إِلَى مَنْ حَازَ كُلَّ وِفَائِي
إِذَا أَسْرَعَ الْحَادِي أَطَلْتُ بُكَائِي	أَقُولُ لَهُ رَفَقًا عَلَى الضُّعْفَاءِ
أَحِبُّ مَقَامِي بِالْحَمَى وَثَوَائِي	أَوْدُ وَ لَكِنْ ذَلِكَ عَنِّي نَائِي
إِذَا أُمَّ خَيْرَ الْعَالَمِينَ رَجَائِي	فَمَا أَنَا أَخْشَى أَنْ تُخَيِّبَ أَمَالِي

* * *

جَمِيلٌ تَرَى مِنْ وَجْهِهِ قَمَرَ الدُّجَى	جَلِيلٌ حَنِينِ الْجُدْعِ مِنْ أَجْلِهِ شَجَا
جَزِيلُ الأيَادِي فَهُوَ لِلنَّاسِ مُلْتَجَا	جَوَادٌ هُوَ الغَيْثُ المُغِيثُ لِمَنْ رَجَا
جَنَى عَفْوِهِ دَانَ فِجَانِيهِ قَدْ نَجَا	جَمَالٌ بِأَنْوَاعِ المَعَالِي تَدَبَّجَا
جَرَتْ مِنْهُ آيَاتٌ تُبَيِّنُ مَنْهَجَا	جَلَا بِأَنْشِقَاقِ البَدْرِ صَدْرَ ذَوِي الحَجَا
جَلَالًا وَقَتَهُ السُّحْبُ فِي الحَرِّ حَيْثُ جَا	وَبَاحَتْ ذِرَاعُ الشَّاةِ بِالسُّمِّ فِي الحَالِ ⁽¹⁾

(1) - ابن جابر الأندلسي. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين أو الغين في مدح سيد الكونين.

6-المقصورة:

وهي تلك القصيدة التي تجمع بين قصيدتي كعب بن زهير والبوصيري بنفحة أندلسية متكونة من مئتين وستة وتسعين بيتا مطلعها:

بَادَرَ قَلْبِي لِلهَوَى وَمَا ارْتَأَى لَمَّا رَأَى مِنْ حُسْنِهَا مَا قَدْ رَأَى
فَقَرَّبَ الوجدُ لِقَلْبِي حُبَّهَا وَكَانَ قَلْبِي قَبْلَ هَذَا قَدْ سَأَى
يَا أَيُّهَا الْعَادِلُ فِي حَبِّي لَهَا أَقْصَرَ فلي سَمْعٌ عَنِ الْعَدْلِ نَأَى
لَوْ أَبْصَرَ الْعَادِلُ مِنْهَا لِمَحَةً مَا فَضَّ بَابَ عَذْلِهِ وَلَا فَأَى
سَرَحْتُ طَرْفِي طَالِبًا شَأْوَ الهَوَى وَتَابَعًا فِي حُبِّهَا مَنْ قَدْ شَأَى
إِنِّي لِأَرْعَاهَا عَلَى تَضْيِيعِهَا عَهْدِي وَمِثْلِي مَنْ وَفَى إِذَا وَأَى
مَنْ مُنْصِفِي مِنْ شَادِنٍ لَمْ أَرْجُهُ لِحَاجَةٍ مِنْ وَصْلِهِ إِلَّا لِأَى
وَإِنْ قَبَضْتُ النَّفْسَ عَنْ سَلْوَانِهِ مَدَّ أَدِيمَ هَجْرِهِ لِي وَمَأَى
لَأَقْطَعَنَّ الْبِيدَ أَفْرِي جِلْدَهَا بَضَامِرٍ يَنْفِي الْحَصَى إِذَا دَأَى
حَتَّى أَزُورَ رَبَّةَ الْخَدْرِ وَقَدْ ذَادَ الْكَرَى عَنِّي الْوُشَاةُ وَذَأَى⁽¹⁾

يبدأها بالنسيب ثم يتخلص إلى مناجاة المكان وبيان الغرض من تنظيم القصيدة، والذي هو التوبة وإصلاح ما فاته من الذنوب في حوار داخلي مع النفس، صعودا بالافتخار الذاتي وهبوطا في الحديث عن الشيب والكبر والدعوة إلى التزهد وعرض الخواطر والحكمة بأسلوب وعظ عن الجود والبخل والغنى والفقر والعلم والجهل والزمن والدهر...والعبرة من التاريخ بتذكير المتلقي بعروش ساسان ومعاوية والمأمون...وتفصيل القول في شمائل الرسول ومعرجه ومعجزاته، كما تحدث عن تفاصيل حجه إلى البيت الحرام واكتحال عينيه بنور قبره، وتغلب الوعظية والمباشرة على القصيدة مع كثرة الخواطر والحكم وقلة الصور البيانية والبديعية وغلبة نظام السرد وفيها ضعف في العاطفة لطول القصيدة، وهي أقرب إلى الشعر التعليمي.

(1)- ابن جابر الأندلسي. ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين أو الغين في مدح سيد الكونين.

فالمديح النبوي فن أدبي نشأ في البيئات الصوفية، ووجد صيغته المكتملة حينما احتك بالتصوف بعد أن ازدهر هذا الأخير وانتشرت مذاهبه وطرقه. وشعر المديح النبوي هو امتداد لشعر المدح الذي يشكل أكثر الأغراض الشعرية ذبوعا وانتشارا في خريطة الشعر العربي عبر عصوره المتلاحقة. وقد ظل مرتبطا بهذا الأصل، ولكنه وجه اهتمام الشعراء إلى وجهة جديدة بحيث يكون الممدوح فيها هو شخص النبي الكريم، وتكون سيرته ودعوته هي مدار المدح والثناء. فإذا كان شعر المدح يهتم بالأحياء ويذكر أفضالهم، فإن المدائح النبوية قيلت -في معظمها- بعد وفاة الرسول الكريم. وكل شعر يقال بعد الوفاة يعد رثاء، لكنه في شخصيه الرسول يسمى مديحا، وكأنهم لحظوا أن الرسول الكريم موصول الحياة، وأنهم يخاطبونه كما يخاطبون الأحياء.

وهكذا استطاعت المدائح النبوية أن تستقل بنفسها، فتصبح فنا جديدا ينضاف إلى الأغراض التي حددتها مصادر النقد الأدبي. لأنه أصبح ظاهرة فنية لها خصوصيتها التي تميزها عن باقي الفنون الأخرى. فجادت قريحة الشعارين ابن جابر ولسان الدين بن الخطيب من خلال ابتكار فنون فيها .

خاتمة

وأخيراً بعد دراستنا للمدائح النبوية لدى لسان الدين ومواطنه ومعاصره ابن جابر، نستطيع أن نجد بعض أوجه التشابه إلى جانب بعض نقاط الاختلاف بين مديحهما النبوي، ونستطيع أن نجمل أوجه التشابه بينهما بما يلي:

- 1- تشابه المعاني لأنها مستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.
 - 2- صدق العاطفة وتدققها ونبضها بالحياة في كثير من الأحيان على الرغم من كثرة ذكرها للأحداث التاريخية، وذلك بفضل ما اتسمت به هذه المدائح بالحب الصادق والإخلاص الشديد.
 - 3- رصانة الأسلوب التي نستطيع أن نتلمسها في كثرة الألفاظ المعجمية والتراكيب الرصينة والأوزان الرحبة كالطويل والبسيط.
 - 4- طول القصائد بعامة، وكأنما قد أرادا بذلك أن يكون مديحهما مناسباً لعظمة الممدوح مستوعباً لصفاته الكثيرة وجوانبه الجليلة جديراً به، لأنهما كانا يخاطبانه حريصين على نيل إعجابه، وكأنهما واقفان أمامه يسمعهما ويراهما.
 - 5- لذلك قد حرصا على المقدمة الغزلية على طريقة المديح الرسمي أو التقليدي، واتسمت هذه المقدمة بالعفة بعامة لتتناسب سمو الممدوح، ما خلا قصيدة ابن جابر اللامية، عللنا سبب ذلك آنفاً.
 - 6- كما تشابها أيضاً بالعناية بالتصنيع عناية تناسبت مع روح عصرهما وعنايته بذلك، فكانت صورة صادقة دقيقة له.
 - 7- بالإضافة إلى ذلك نجد في مدائحهما بعض الأغراض الثانوية، مثل النصح والحكمة والوصف والفخر وغيرها مما ينسجم مع الغرض الرئيس، وهو المديح النبوي.
- وأما نقاط الاختلاف بينهما، فنراها في :

- 1- تفوق شعر المديح النبوي عند ابن جابر على مثلها عند لسان الدين، من حيث الكثرة تفوقاً كبيراً جداً، إذ اقتصر لسان الدين على اثنتي عشرة قصيدة، بينما ملأ ابن جابر منه ديواناً كبيراً، بلغ عدد أوراقه خمساً وثمانين ومئة ورقة، تحتوي كل منها على صفحتين اثنتين، فضلاً عما نجده له من قصائد ومقطعات في كتب الأدب والمجموعات.

2- ونراها أيضاً في أن المدائح النبوية عند لسان الدين "مُناسبات" إن جاز التعبير، إذا قالها بعامة في مناسبة المولد النبوي الشريف، لذلك سميت بالمولديات، ولم يكن الأمر كذلك لدى ابن جابر الذي انطلق لسانه مغرداً في مديح الرسول صلى الله عليه وسلم على مدار العام.

3- كما أن لسان الدين قد رفع قصائده هذه بعامة إلى ممدوح غير النبي صلى الله عليه وسلم ختم بمديحه قصائده، بينما حرص ابن جابر على أن يختم كل مدحة نبوية بالصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم التي جعلها لسان الدين في أثناء أبيات القسم الثاني من مولديته، والذي مدح فيه الرسول صلى الله عليه وسلم. وبذل ضمت مولدية لسان الدين ممدوحين اثنين، أولهما النبي صلى الله عليه وسلم، وثانيهما هو السلطان خلافاً لابن جابر.

4- كما كان لسان الدين أقل شاعرية من ابن جابر الذي كان شاعراً بفطرته التي يفيض منها الشعر كما يفيض الماء من النبع الغزير، ولقد ساعده على ذلك التفوق تفرغه للشعر وإخلاصه له، الأمر الذي لم يتوفر للسان الدين. كما تفوق عليه أيضاً بابتكاره لفن البديعيات، وإبداعه له، وافتحه بذلك فناً من فنون الشعر العربي، سار فيه كثيرون من كبار شعراء العربية في زمنه وبعده، ولعل هذا كان بتأثير رحلته إلى الشرق، وإقامته في بلاد الشام التي كان أدباؤها يعنون مع غيرهم من سكان الشرق العربي بالبديع وفنونه عناية لم يسبقوا إليها، لأنهم رأوا فيه ميداناً رحباً يثبتون فيه ذواتهم، ويتفوقون به على سابقهم وفقاً لنظراتهم الجمالية وآرائهم النقدية وفهمهم للأدب.

ومع ذلك كله يبقى المديح النبوي لدى كل من ابن جابر ولسان الدين معلماً مهماً من معالم شعر كل منهما ومن معالم الشعر العربي بعامة.

قائمة المصادر والمراجع

* القرآن الكريم : رواية ورش .

I-المصادر والمراجع

- 1- إبراهيم أنيس. موسيقى الشعر العربي. ط3. مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1981م.
- 2- ابن أبي الإصبع، أبو محمد زكي الدين عبد العظيم بن عبد الواحد. تحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق: حنفي محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية. (د.ط). لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، (د.ت).
- 3- ابن الأبار، أبو عبد الله بن أبي بكر بن عبد الله بن بكر القضاعي البلنسي الأندلسي. الديوان، تحقيق: عبد السلام الهراس، دار التونسية للنشر، 1985م .
- 4- ابن الأثير، ضياء الدين. المثل السائر في أدب الكتاب و الشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، ج3. ط2. دار الرفاعي، الرياض، 1404هـ، 1984م .
- 5- ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري . أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج1. تحقيق: عادل أحمد الرفاعي. ط1. بيروت، لبنان، 1417هـ/ 1996م.
- 6- ابن الجنان الأنصاري . الديوان. دراسة و تحقيق : منجد مصطفى بهجت.
- 7- ابن الصباغ، محمد بن أحمد. الديوان، تحقيق : نور الهدى الكتاني، رسالة دبلوم السلك الثالث، مرقونة بخزانة كلية الآداب ، الرباط .
- 8- ابن الفارض، عمر بن أبي الحسن علي بن المرشد بن علي. الديوان، شرح: مهدي محمد ناصر الدين. دار الكتب العلمية، بيروت، 1990م.
- 9- ابن القيم، شمس الدين محمد بن أبي بكر. الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن وعلم البيان. (د. ط)، مكتبة المتنبي ، القاهرة ، (د . ت) .
- 11- ابن المعتز، عبد الله بن محمد المعتز بالله العباسي. البديع، تحقيق: عبد المنعم خفاجي ، مكتبة الحلبي، 1945م.
- 12- ابن تيمية، تقي الدين أحمد. قاعدة جلية في التوسل والوسيلة. (د، ط). بيروت، (د،ت).
- 13- ابن جابر الأندلسي ، محمد بن أحمد بن علي . ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين أو الغين في مدح سيد الكونين، تحقيق: أحمد فوزي الهيب. ط1. دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، 1426هـ/2005م .

- 14- ابن جبير، أبي الحسن محمد بن أحمد الكتاني الأندلسي البننسي. الرحلة. دار الكتاب اللبباني.
- 15- ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر علي بن عبد الله. خزنة الأدب وغبابة الأرب . شرح: عصام شعيتو، ط1. دار مكتبة الهلال، بيروت، 1987م .
- 16- ابن حزم الظاهري، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد. الديوان، جمع وتحقيق ودراسة : صبحي زياد عبد الكريم. ط1. دار الصحابة للتراث، طنطا، 1990م.
- 17- ابن رشييق القيرواني، أبو علي الحسن. العمدة في محاسن الشعر و آدابه ونقده، ج1. ط1. دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت، لبنان، (د.ت).
- 18- ابن سعيد علي بن موسى العنسي. المغرب في حلي المغرب، تحقيق: د: شوقي ضيف. ط3. دارالمعارف، مصر، 1955م.
- 19- ابن سنان الخفاجي ، أبو محمد عبد الله بن محمد. سر الفصاحة . دار الكتب العلمية ، بيروت، 1402هـ/1982م.
- 20- ابن طباطبا العلوي، أبو الحسن محمد بن أحمد بن محمد . عيار الشعر، تحقيق: عبد العزيز بن ناصر المانع، توزيع مطبعة الخانجي بالقاهرة .
- 21- ابن عذارى المراكشي. البيان المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب، (قسم الموحدين)، تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني، عبد القادر زمامة، محمد بن تاويت، محمد زنيبر. ط1. دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، 1985م.
- 22- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم. الشعر والشعراء، حققه وضبط نصه: مفيد قميحة. ط1. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1981م .
- 23- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم. لسان العرب، مادة : مدح، ج16. ط1. دار صادر، بيروت، 1374هـ-1955م .
- 24- ابن نباتة المصري، الشيخ جمال الدين الفاروقي. الديوان. دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- 25- ابن هانئ، أبو القاسم محمد بن هانئ الأزدي الأندلسي. الديوان. دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1405هـ/ 1985م .
- 26- أبو العتاهية، إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان العنزي. الديوان، شرح: د:وفاء الباني قمر، بإشراف : حنا الفاخوري. ط1. دار الجيل للطباعة والنشر،

- بيروت، لبنان، 1424هـ-2004م .
- 27- أبو بكر الرازي ، أبو بكر محمد بن يحيى بن زكريا. إيضاح مختار الصحاح.
ط1. تحقيق: وهبة الزحيلي، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1997م
- 28- أبو تمام، حبيب بن أوس بن الحارث الطائي. الديوان، ج3. شرح: الخطيب
التبريزي . تحقيق: محمد عبده عزام. ط2. دار المعارف، القاهرة ، 1970م .
- 29- أبو نواس، الحسن بن هانئ الحكمي. الديوان، حققه وشرحه وفهرسه: سليم خليل
قهوجي، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1422هـ/2002م .
- 30- أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل . الصناعتين ، تحقيق، جابر
قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت ، د ، ت .
- 31- أبو الحسن حازم بن محمد بن حسن بن حازم الأنصاري القرطاجني. الديوان .
تحقيق، عثمان الكعاك ، دار الثقافة ، بيروت لبنان ، 1989م.
- 32- أبو الحسن حازم بن محمد بن حسن بن حازم الأنصاري القرطاجني.
منهاج البلغاء و سراج الأدباء، تحقيق محمد حبيب بلخوجة. ط2. دار الغرب
الإسلامي، بيروت، لبنان، 1971م.
- 33- إحسان عباس . فن الشعر . ط3. نشر وتوزيع دار الثقافة ، بيروت، لبنان، (د،ت).
- 35- أحمد أحمد البدوي. الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية. ط4.
مكتبة نهضة مصر، القاهرة، (د،ت).
- 36- أحمد الشايب. أصول النقد الأدبي. ط10. مكتبة النهضة المصرية، 1999م .
- 37- أحمد الشايب. الأسلوب. ط8. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1991م.
- 38- أحمد الصاوي . فن الاستعارة : دراسة تحليلية في البلاغة والنقد. (د.ط). الهيئة
العامة للكتاب، الإسكندرية ، 1979م.
- 39- أحمد شوقي. الشوقيات. ط1. دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (د،ت) .
- 40- أحمد ضيف. بلاغة العرب في الأندلس. ط2. دار المعارف للطباعة والنشر،
سوسة، تونس، 1988م .
- 41- أحمد فوزي الهيب. الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء. (د،ط).
مؤسسة الرسالة، بيروت، 1986م.
- 42- إسماعيل زردومي. النص الأدبي بين النسق المغلق والمفتوح في المناهج

- النقدية.الملتقى الأدبي الوطني السادس، أبو علي الحسن رن رشيق المسيلي.
النص الأدبي وإشكالية المنهج. أيام 2007/12/2.3.4م.
43-الأعشى، ميمون بن قيس. الديوان. دار بيروت للطباعة والنشر،
لبنان،1406هـ-1986م.
- 44-العلوي، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني. الطراز المتضمن
لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ج1. دار المقتطف، مصر، 1914م .
45-امرؤ القيس، حجر بن الحارث الكندي. الديوان، تحقيق: د: درويش الجويدي.
(د،ط). المكتبة العصرية، صيدا، بيروت،(د،ت).
- 46-إميل ناصف.أروع ما قيل في المديح.(د،ط).دار الجيل ، بيروت،(د،ت).
47-البحثري، عمر بن أبي الحسن علي بن المرشد بن علي .الديوان ، شرح :
إيمان البقاعي، مؤسسة الأعلمي،ج1. بيروت، لبنان،1422هـ-2001م .
- 48-بدوي طبانة . قدامة بن جعفر والنقد الأدبي . مطبعة مخيمر، القاهرة، 1954م.
49-بدوي طبانة. السرقات الأدبية، دراسة في ابتكار الأعمال الأدبية
وتقليدها . ط4. مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1395هـ-1975م .
- 50-البغدادي، أبو طاهر محمد بن حيدر . قانون البلاغة في نقد النثر والشعر. تحقيق:
محسن عياض عجيل. ط1. مؤسسة الرسالة، بيروت،1401هـ-1981م .
- 51-البوصيري، محمد بن سعيد . الديوان، شرح وتعليق: د : محمد التونجي. ط1.
دار الجيل،بيروت، لبنان،2002م.
- 52-التجيبى المرسي ، أبو بحر صفوان ابن إدريس . زاد المسافر وغرة محيا الأدب
السافر، تحقيق ، عبد القادر محداد ، دار الرائد العربي، بيروت ، 1980م .
- 53-التفتازاني، سعد الدين مسعود، كتاب المطول في شرح تلخيص المفتاح .مكتبة آية الله
العظمى المرعشي النجفي، قم ، إيران،1407هـ-1987م .
- 54-التتوخي، أبو يعلى عبد الباقي التتوخي . كتاب القوافي، تحقيق: عمر الأسعد
ومحي الدين رمضان.ط1. دار الإرشاد، بيروت، 1970م.
- 55-ثعلب، أبو العباس أحمد بن يحيى. قواعد الشعر، شرح و تعليق: محمد عبد المنعم
خفاجي. ط1. مكتبة البابي الحلبي، القاهرة،. 1367هـ 1948م .
- 56- جابر عصفور . الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي.

- 57- الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر. البيان و التبيين، تحقيق: عبد السلام هارون ، ج1. ط4. دار الفكر،بيروت،(د.ت).
- 58- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. الحيوان. ج3، تحقيق: عبد السلام محمد هارون. ط1. القاهرة ، 1938م .
- 59- الجلي، شهاب الدين محمود. حسن التوصل إلى صناعة الترس، تحقيق: أكرم عثمان يوسف .(د.ط). دار الرشيد، بغداد، 1980م.
- 60- جمعة شيحة. الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي .(د.ط). تونس، 1994م.
- 61- حسان بن ثابت الأنصاري. الديوان . تحقيق: وليد عرفات، ج1. طبعة أمراء سلسلة جب التذكارية، (د،ت).
- 62- حسن طبل. المعنى الشعري في التراث النقدي. ط2. دار الفكر العربي، القاهرة، 1998م .
- 63- حسين عطوان. مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي.(د.ط)، دار المعارف، مصر، 1974م .
- 64- حسين مؤنس. تاريخ الفكر الأندلسي. ترجمة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1955م.
- 65- الخطيب التبريزي ، أبي زكريا يحيى بن علي بن محمد . الوافي في العروض والقوافي تحقيق، فخر الدين قباوة ، عمر يحيى . ط2 . دار الفكر ، 1975م .
- 66- الخطيب القزويني ، جلال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عمر . تلخيص المفتاح . الطبعة الأخيرة. مكتبة مصطفى البابو الحلبي ، القاهرة .
- 67- خليل بن أبيك الصفدي. الوافي بالوفيات، ج1. تحقيق: س ديورينغ، طبع: فراننتز شتاينر، فيسبادن، ألمانيا، 1974م .
- 68- خير الدين الزركلي. الأعلام. دار العلم للملايين، ج5. بيروت، 1984م.
- 69- دعل بن علي الخزاعي. الديوان. تحقيق : إبراهيم الأميوني. ط1. دارالكتب العلمية، لبنان، 1418هـ/ 1998م .
- 70- رجاء عيد. دراسة في لغة الشعر.(د، ط). منشأة المعارف، الإسكندرية ، 1985م .
- 71- رجاء عيد. التجديد الموسيقي في الشعر العربي.(د، ط). منشأة المعارف، الإسكندرية،(د،ت).

- 72- روبرت شولز. البنيوية في الأدب، ترجمة: حنا عبود.(د.ط).إتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1984م .
- 73-زكي مبارك . المدائح النبوية في الأدب العربي. ط1. منشورات المكتبة العصرية، صيدا ، بيروت،1935.
- 74- الزمخشري، جار الله أبي القاسم محمود بن عمر. أساس البلاغة. تحقيق: عبد الرحيم محمود. دارالمعرفة، بيروت،(د، ت).
- 75- سالم عبد الرزاق سليمان. ترسل الشعراء في الأندلس.(د،ط). دار المعرفة الجامعية،2008م.
- 76- سامي الدهان . المديح. ط4 . دار المعارف ، القاهرة ، 1980م .
- 77- سبط ابن العجمي. كنوز الذهب في تاريخ حلب، ج1، تحقيق: شعث والبكور. دار القلم العربي، حلب، 1996م .
- 78-السكاكي، أبو يعقوب يوسف. مفتاح العلوم. ط2 . مكتبة الحلبي، القاهرة ،1990م.
- 79-السموأل، بن غريص بن عادياء بن رفاعة بن الحارث الأزدي. الديوان. في مجلد واحد مع (ديوان عروة بن الورد وديوان حاتم الطائي). دار بيروت،1406هـ،1986م
- 80- سيسل دي لويس . الصورة الشعرية ، ترجمة : أحمد نصيف الجنابي ، دار الرشيد ، العراق .
- 81-الشريف الرضي،أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى الديوان،مجلد2، شرح: يوسف شكري فرحات.ط1. دار الجيل، بيروت،لبنان،1415هـ/1995م .
- 82- شعبان صلاح. موسيقى الشعر بين الإتياع والابتداع. ط3. دار الثقافة العربية، 1998م .
- 83- شوقي ضيف. تاريخ الأب العربي،عصر الدول والإمارات(الأندلس).ط1.دار المعارف،مصر، (د،ت).
- 84- شوقي ضيف. تاريخ الأدب العربي(العصر الجاهلي).ط2.دار المعارف، مصر،1965
- 85-شوقي ضيف. تاريخ الأدب العربي(العصر العباسي الثاني). ط4. دار المعارف، مصر،(د، ت).
- 86- شوقي ضيف. عصر الدول والإمارات(الجزيرة العربية والعراق وإيران).

- جامعة حلب، 1994م.
- 87- شوقي ضيف . في النقد الأدبي. ط6. دار المعارف، مصر، (د، ت).
- 88- الشيخ غدير . ديوان جرير . ط 1. مؤسسة الأعلمي، بيروت، 1420هـ-1999م.
- 89- صلاح فضل. بلاغة الخطاب وعلم النص.(د.د.ط).عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1413هـ-1992م .
- 90- صلاح فضل. علم الأسلوب: مبادئه وإجراءاته. ط3. نادي جدة الأدبي، جدة ، 1988م.
- 91- صلاح فضل . نظرية البنائية في النقد الأدبي.(د.ط). منشورات مؤسسة مختار للنشر ، القاهرة، 1992م.
- 92- طرفة بن العبد، بن سفيان بن سعد أبو عمرو. الديوان، شرح: الأعلم الشنتمري، تحقيق: درية الخطيب، ولطفي الصقال. مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 1970م
- 93- الطيبي، شرف الدين حسين بن محمد. التبيان في علم البديع والبيان، تحقيق: هادي الهلال. ط1. عالم الكتب، بيروت، 1407هـ-1987م .
- 94- عبد الحميد عبد الله الهرامة. آثار أبي زيد الفازازي. ط1. دار قتيبة للطباعة والنشر، 1991م
- 95- عبد الحميد محمود . المعجزة والإعجاز في سورة النمل. (د، ط)، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، (د، ت).
- 96- عبد الخالق محمود. شعر ابن الفارض في ضوء النقد الأدبي الحديث. ط3. دار المعارف، القاهرة، 1984م .
- 97- عبد الرحمن البرقوقي . البيان في ديوان المتتبي، ج1. دار الكتاب العربي، بيروت، 1400هـ/1980م.
- 98- عبد الرزاق عبد المطلب. الجديد في النحو والبلاغة . ط2. دار شريفة للطباعة والنشر والتوزيع، 1995م .
- 99- عبد السلام المسدي. قضية البنيوية. (د. ط). دار الجنوب للنشر، تونس، 1995م .
- 100- عبد السلام هارون. الأساليب الإنشائية في النحو العربي. ط2. مكتبة الخانجي، القاهرة، 1979م.
- 101- عبد العزيز الفشتالي. شعر عبد العزيز الفشتالي، جمع ودراسة وتحقيق:

نجاه المريني.

102- عبد العزيز حمودة. المرايا المحدبة. (د. د. ط). المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أبريل، 1998م .

103- عبد العزيز عبد المجيد . ابن الأبار حياته وكتبه . الطبعة الحسنية ، تطوان، المغرب، 1954م.

104- عبد العظيم المطعني. التشبيه البليغ. دار الأنصار القاهرة، 1980م.

105- عبد القادر حسين . فن البديع. ط1. دار الشروق ، بيروت، 1983م.

106- عبد القار الجرجاني، علي بن محمد بن علي السيد الزين أبو الحسن الحسيني. التعريفات . طبع المطبعة الحميدية، سوريا، 1312هـ .

107- عبد القاهر الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني. دلائل الإعجاز، تحقيق: الإمام محمد عبده و الشنقيطي. ط1. مطبعة المنار، 1366هـ .

108- عبد القاهر الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني. أسرار البلاغة . ط1. طبعة مصطفى المراغي، القاهرة ، 1987 م .

109- الجرجاني، ركن الدين محمد بن علي. الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، تحقيق: عبد القادر حسين. دار نهضة مصر، القاهرة، 1981م.

110- عبد العزيز الجرجاني، القاضي علي بن عبد العزيز. الوساطة بين المتبني وخصومه، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، وعلي محمد البجاوي. (د. د. ط). المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، (د.ت).

111- عبد الله التطاوي. الشاعر مؤرخا. (د، ط). دار غريب، القاهرة، (د، ت).

112- عبد الله الطيب المجذوف. المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ، ج1. ط1. (د، ت). عبد الحميد . مطبعة السعادة ، القاهرة ، 1959م .

113- عبد الوهاب بن منصور. أعلام المغرب العربي، ج3. ط1. المكتبة الملكية، الرباط، 1979م.

114- عزالدين إسماعيل. الشعر العربي المعاصر: قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية. ط3. دار الفكر العربي ، بيروت، 1981م .

115- علوي الهاشمي. السكون المتحرك : دراسة في البنية والأسلوب،

- ج2. ط1. إتحاد كتاب الإمارات، الإمارات، 1993م .
- 116- علي عبد الله وافي. اللغة والمجتمع. ط1. شركة ومكتبات عكاظ، جدة، 1983م.
- 117- علي يونس . نظرة جديدة في موسيقى الشعر العربي .
- 118- عمر بن الفارض ، حياته وشعره . مكتبة كرم ، دمشق، (د، ت).
- 119- عمر فروخ. تاريخ الأدب العربي. ط3. دار العلم للملايين، بيروت، 1981م.
- 120- عمر موسى باشا. أدب الدول المتتابعة. (د، ط). دار الفكر الحديث، بيروت، 1967م .
- 121- غازي شبيب. فن المديح النبوي في العصر الملوكي، أشرف عليه وراجعته: ياسين الأيوبي. ط1. المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1998م.
- 122- غازي طليمات ، عرفان الأشقر. الشعر في العصر الأموي. ط1. دار الفكر، دمشق، مكتب الأسد، (د، ت).
- 123- فايز الداية . جماليات الأسلوب. ط2 . دار الفكر المعاصر، دمشق، 1996م.
- 124- الفرزدق، همام بن غالب بن صعصعة الدارمي التميمي. الديوان. دار صادر.
- 125- فوزي عيسى. الشعر الأندلسي في عصر الموحدين. ط1. دار الوفاء لنديا الطباعة والنشر، الإسكندرية، 2007م .
- 126- فوزي عيسى . تجليات الشعرية : قراءة في الشعر المعاصر. (د. ط) . منشأة المعارف بالإسكندرية، 1997م .
- 127- الفيومي، أحمد بن محمد بن علي المقري. المصباح المنير، ج1، مادة: خلص ، بيروت: دار الفكر ، (د. ت).
- 128- قدامة بن جعفر، أبو الفرج. نقد الشعر. تحقيق: محمد عيسى منون. ط1. القاهرة، 1934م.
- 129- القرشي، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب، جمهرة أشعار العرب في الجاهلية و الإسلام تحقيق: علي محمد البجاوي. نهضة مصر، القاهرة، (د. ت) .
- 130- القزويني، جلال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن. الإيضاح في علوم البلاغة : المعاني والبيان والبديع. (د. ط)، دار الجيل ، بيروت، (د. ت).
- 131- كعب بن زهير، بن أبي سلمى المزني أبو المضرب . الديوان. قراءة: د. محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، لبنان.

- 132- الكلاعي، أبو القاسم محمد بن عبد الغفور. إحكام صنعة الكلام، تحقيق: محمد رضوان الداية. (د.ط). دار الثقافة ، بيروت، 1966م .
- 133- الكميت بن زيد، بن خنيس بن مجالد بن ذؤيبية . الهاشميات .
- 134- لسان الدين بن الخطيب، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن الخطيب . الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان. ط1. مكتبة الخانجي، القاهرة، 1974م .
- 135- لسان الدين بن الخطيب، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن الخطيب . ديوان الصيِّب والجهام والماضي والكهام، تحقيق: محمد الشريف قاهر، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر 1973م .
- 136- لسان الدين بن الخطيب، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن الخطيب. الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة ، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة ، بيروت، لبنان، 1983م.
- 137- ليونارد جاكسون . بؤس البنيوية، دراسة فكرية، ترجمة: تامر ديب. ط1. منشورات وزارة الثقافة، سوريا، 2001م.
- 138- مالك بن المرحل . ديوان موطأ الفصيح .
- 139- مالك بن عبد الرحمن المالقي الأندلسي. الديوان، تح: عبد الله بن محمد، مراجعة محمد الحسن الدد والشنقيطي. ط1. دار الذخائر للنشر والتوزيع، الرياض، 2003م.
- 140- محمد مجيد السعيد . الشعر في عصر المرابطين والموحدين. ط2. الدار البيضاء للموسوعات، بيروت، لبنان، 1985م.
- 141- محمد أبو صوفة. الأمثال العربية ومصادرها في التراث. مكتبة الأقصى، الأردن، 1982م.
- 142- محمد أبو موسى. دلالات التركيب : دراسة بلاغية. ط2. مكتبة وهبة، القاهرة، 1987م .
- 143- محمد أحمد دقالي . الحنين في الشعر الأندلسي (في القرن السابع الهجري). ط1. دار الوفاء لندنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، 2008م.
- 144- محمد الهادي الطرابلسي . خصائص الأسلوب في الشوقيات. (د، ط). منشورات الجامعة التونسية ، (د، ت) .

- 145- محمد حسن عبد الله . الصورة والبناء الشعري .
146- محمد زكي العشماوي . قضايا النقد الأدبي والبلاغة . الإسكندرية ، 1967م.
147- محمد عبد الله عنان . لسان الدين بن الخطيب(حياته وتراثه الفكري). ط1 .
مكتبة الخانجي، القاهرة، 1388هـ/ 1968م .
148- محمد عبد الله عنان. دولة الإسلام في الأندلس (نهاية الأندلس وتاريخ
العرب المنتصرين) .
149- محمد عبد الله عنان. دولة الإسلام في الأندلس(عصر المرابطين والموحدين).
150- محمد عبد الله عنان. دولة الإسلام في الأندلس(عصر الموحدين وانهايار الأندلس
الكبرى). ط4. مكتبة الخانجي، القاهرة، 1997م .
151- محمد قطب . واقعا المعاصر.(د،ط) . مكتبة رحاب الجزائر، (د ، ت) .
152- محمد محمود قاسم. تاريخ المعارضات في الشعر العربي.(د، ط). مؤسسة
الرسالة، بيروت، 1983م.
153- محمد مصايف. جماعة الديوان في النقد . ط1 . مطبعة البعث ، قسنطينة ،
الجزائر ، 1974م .
154- محمد مصطفى بدوي . كولردج ، القاهرة، 1958م .
155- محمد مفتاح . تحليل الخطاب الشعري: إستراتيجية التناص . ط3.
المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء وبيروت، 1992م.
156- محمد مفتاح . دينامية النص.(د،ط).الدار البيضاء،المركز الثقافي العربي،(د، ت).
157- محمود سالم محمد . المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي.(د، ط).
دار الفكر، دمشق، 1996م.
158- محمود علي مكي . المدائح النبوية . ط1. دار نوبار للطباعة ، روض الفرج،
شبرا، القاهرة، 1991م.
159- محمود مندور. في الميزان الجديد. ط3. مكتبة نهضة مصر، القاهرة، (د، ت).
160- محيي الدين بن عربي ، محمد بن علي بن محمد الحاتمي الطائي الأندلسي.
ترجمان الأشواق. دار صادر، بيروت، لبنان. ط1.
161- مخائيل نعيمة . الغربال. ط11م . مؤسسة نوفل، بيروت، 1978م .
162- مسعود كواتي ومحمد الشريف سيدي موسى . أعلام مدينة الجزائر و متيجة،

- تصدير: عبد الحميد حاجيات. ط1. دار الحضارة، الجزائر، 2007م.
- 163- مصطفى مندور. اللغة والحضارة. (د،ط). منشأة المعارف، الإسكندرية، 1974م.
- 164- مصطفى ناصف. الصورة الأدبية. ط1. دار مصر للطباعة، 1974م.
- 165- مصطفى ناصف. اللغة بين البلاغة والأسلوبية. النادي الأدبي جدة، 1987م.
- 166- المقري، أحمد بن محمد المقري التلمساني. أزهار الرياض في أخبار عياض، ج1، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1939م.
- 167- المقري، أحمد بن محمد المقري التلمساني. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. تحقيق: إحسان عباس، ج3. ط1. دار صادر، (د،ت).
- 168- المناوي. فيض القدير شرح الجامع الصغير، ج5، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، 1938.
- 169- منير سلطان. تشبيهات المتنبي ومجازاته. ط2. منشأة المعارف، الإسكندرية، 1997م.
- 170- ميجان الرويلي، سعد البازعي. دليل النقد الأدبي، إضاءة لأكثر من سبعين تياراً ومصطلحاً نقدياً معاصراً. المركز الثقافي العربي.
- 180- الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد. مجمع الأمثال، ج1، تحقيق: محمد محي الدين
- 181- ناظم رشيد. الأدب العربي في العصر الوسيط. (د،ط). دار الكتب العلمية للطباعة والنشر، جامعة الموصل، 1992م.
- 182- النووي. الأذكار النووية، تحقيق: الأرنؤوط، دار الملاح، دمشق، 1971م.
- 183- النووي. رياض الصالحين، تحقيق: رباح والدقاق، (د،ط)، دار المأمون، دمشق، 1976م.
- 184- اليزابيث درو. الشعر كيف نفهمه ونتذوقه. ترجمة: محمد الشوش. مكتبة منيمنة، بيروت، 1961.
- 185- يوسف اشباخ. الأندلس في عصر المرابطين والموحدين، ترجمة: محمد عبد الله عنان، ج2. ط2. مكتبة الخانجي، القاهرة، 1966م.
- 186- يوسف بن إسماعيل النبھاني. المجموعة النبھانية في المديح النبوي، ج3.

دار المعرفة، بيروت، 1974م.

187- يوسف حسين بكار. بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد

الحديث. ط2. دار الأندلس، بيروت، لبنان، 1982م.

الدوريات:

1- أحمد الزغبى . التناص التاريخي والديني. مقدمة نظرية مع دراسة تطبيقية للتناص في رواية رؤيا لهاشم غرابية ، مجلة أبحاث اليرموك، الأردن، العدد الأول، المجلد الثالث عشر، 1995م .

2- إغناطيوس كراتشوفسكي . البديع العربي في القرن التاسع . تر، مكارم الغمري ، مجلة فصول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مج 6 ، ع 1 ، 1985 م .

3- جودت الركابي . الحداثة والبنوية في معرفة النص الأدبي، مجلة آفاق الثقافة والتراث ، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث ، العدد: 10، 1995م .

4- صبري حافظ. جماليات الحساسية والتغيير الثقافي . مجلة فصول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،م 6 ، ع 4 ، 1986 م .

5- عاطف جودة ناصر . البديع في تراثنا الشعري . مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة ، مصر، مج4، ع 2 ، 1984 م .

6- قاسم الحسيني. الصورة الشعرية في إبداع ابن الخطيب. مجلة كلية الآداب، تطوان.

7- محمد بن عبود. ابن الخطيب مؤرخاً للأندلس في عهد الطوائف. مجلة كلية الآداب بتطوان.

المعاجم:

1- بدوي طبانة . الاقتضاب و أمثله في: (معجم البلاغة العربية) ج 2.

2- مجمع اللغة العربية. المعجم الوسيط . ط2. دار المعارف، مصر، 1973م.

3- محمد أحمد درنيقة . معجم أعلام شعراء المدح النبوي، قدم له وضبط أشعاره: ياسين الأيوبي. ط1. دار مكتبة الهلال، بيروت، لبنان، 1996م .

4- بدوي طبانة . معجم البلاغة العربية . المجلد الأول. ط2. دار العلوم، الرياض، 1402هـ - 1982 م .

5- ياقوت الحموي. معجم البلدان، ج 5 . ط 2. دار صادر ، بيروت، لبنان، 1995م.

6- أحمد مطلوب. معجم المصطلحات البلاغية وتطورها. (د.ط)،المجمع

- العلمي، بغداد، 1403هـ/1983م .
- 7- مجدي وهبة وكامل المهندس. معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب. مكتبة لبنان، بيروت، 1984م.
- 8- د . أ. ي، ونسينك. المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، ج4. ليدن، مكتبة ابريل، 1936م.
- 9- المنجد في اللغة والإعلام. ط21. دار المشرق، بيروت، لبنان، 1960م.

الموسوعات:

- موسوعة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، ج2، جمع: علي حسن الحلبي وآخرون. ط1. مكتبة المعارف، الرياض، 1999م.
- غربال، محمد شفيق. الموسوعة العربية الميسرة. دار القلم ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة، 1965م .
- عبد عون الروضان . موسوعة شعراء صدر الإسلام والعصر الأموي. دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، (د،ت) .

الرسائل الجامعية :

- عبد الحميد بن صخرية . شعر الفقهاء في الأندلس من القرن الخامس إلى نهاية القرن الثامن هجري ، أطروحة دكتوراه، باتنة الجزائر، 2005م .
- صونيا بوعبد الله . قصيدة المديح النبوي بالمغرب الأوسط في القرنين الثامن والتاسع الهجريين . رسالة الماجستير. إشراف د: علي عالية، جامعة باتنة، 2011م .
- سعيد بن مسفر بن سعيد العاصمي المالكي. المدحة في شعر لسان الدين بن الخطيب الغرناطي: البعد والتشكيل. رسالة لنيل درجة الماجستير، جامعة أم القرى، مكة، السعودية، 1422هـ/1423هـ.
- علي عالية. شعر الفلاسفة في الأندلس في القرن الخامس والسادس الهجريين. أطروحة دكتوراه دولة في الأدب العربي . جامعة باتنة، 2004/2005م.
- قاسم الحسيني. بناء القصيدة في الشعر الأندلسي، رسالة دكتوراه من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، جامعة محمد الخامس «مخطوطة»، إشراف د: عباس الجراري، 1989م .

فهرس الموضوعات

الموضوعات	الصفحة
مقدمة:.....	أ ، ب ، ج ، د ، هـ ، و ، ز ، ح
الفصل الأول : فن المديح : النشأة والتطور.....	13-65
1- فن المديح: مفهومه ونشأته وتطوره.....	14-19
1-1- المديح في الإصطلاح اللغوي:.....	14-15
1-2- المديح في الاصطلاح الفني:.....	15-17
1-3- المديح في الأدب العربي:.....	17-18
1-4- عوامل نشأة المديح:.....	18-19
2- تطور المديح في الأدب العربي عبر العصور:.....	19-23
1-2- في العصر الجاهلي:.....	19-20
2-2- في صدر الإسلام:.....	20-21
2-3- في العصر الأموي:.....	21-22
2-4- في العصر العباسي:.....	22
2-5- بعد العصر العباسي:.....	22-23
3- المديح الديني :.....	23-30
1-3- مديح العزة الالهية:.....	24-27
2-3- المديح الديني السياسي:.....	27
3-3- المديح النبوي:.....	27-30
4- فن المديح النبوي: نشأته وتطوره ودوافعه.....	31-40
1-4- النشأة والتطور:.....	31-34
2-4- شعر المديح النبوي في الأدب المغربي والأندلسي:.....	34-35
3-4- دوافع شعر المديح النبوي:.....	36-40
1-3-4- حرب الفرنجة أو ما سماها الغرب بالحروب الصليبية:.....	36
2-3-4- انتشار موجة الزهد والتصوف:.....	36
3-3-4- كثرة الطواعين والأوبئة والمجاعات والزلازل والجوائح:.....	36-37
4-3-4- عناية المماليك بموسم الحج ومحمله وقوافله:.....	37

- 4-3-5- ضعف دولة الموحدين وسقوط المدن الأندلسية:.....37-40
- 5- موضوعات ومضامين شعر المديح النبوي:.....41-63
- 5-1- مدح وتعظيم وحب الرسول(ص):.....41-45
- 5-2- معجزات النبي(ص):.....45-48
- 5-3- التشوق لزيارة قبر المصطفى(ص):.....48-51
- 5-4- الحنين والشوق إلى المربع النبوية:.....51-60
- 5-5- التوسل إلى النبي بأساليب الرجاء لنيل الشفاعة في الآخرة:.....60-61
- 5-6- المولدات الخاصة باحتفالات عيد المولد النبوي:.....61-63
- 6- أوجه التداخل بين المديح النبوي وشعر التصوف:.....63-66
- الفصل الثاني: ترجمة لحياة الشاعرين : لسان الدين بن الخطيب و ابن جابر**
- و دراسة ديوانيهما:.....66-104
- I- ترجمة لحياة الشاعرين:.....67-71**
- 1-1- لسان الدين بن الخطيب:.....67-69
- 2-1- ابن جابر الأندلسي:.....69-71
- II- دراسة الديوانين (الأغراض والموضوعات):.....72-87**
- 1- ديوان لسان الدين بن الخطيب:.....72-73
- 1-1- طبقات الديوان:72-73
- 1-1-1- نسخة الأستاذ محمد الفاسي:.....72
- 1-1-2- نسخة الشيخ العربي الحريشي:.....72-73
- 1-1-3- نسخة الأستاذ محمد المنوني:.....73
- 1-1-4- نسخة القرويين:.....73
- 1-1-5- نسخة الأستاذ محمد الشاذلي النيفر:.....73
- 1-2- أهم أغراضه الشعرية:.....74-79
- 1-2-1- المدح:.....74
- 1-2-2- الغزل:.....74-75
- 1-2-3- الرثاء:.....75-76
- 1-2-4- الهجاء:.....76-77
- 1-2-5- الإخوانيات:.....77-78
- 1-2-6- المولدات:.....78-79
- 2- ديوان ابن جابر الهواري الأندلسي:.....80-85

- 85-82..... 1-2-طبغات الديوان:
- 83-82..... 1-1-2-نسخة مصر:
- 83..... 2-1-2-نسخة العراق:
- 83..... 3-1-2-نسخة برلين:
- 84..... 4-1-2-نسخة فرنسا:
- 85..... 3-2-دراسة العنوان:
- 87-85..... 4-2-أهم أغراضه الشعرية:
- 86-85..... 1-4-2-المدح:
- 87..... 2-4-2-المواعظ والحكم:
- 102-88..... III-موضوعات قصيدة المديح النبوي:
- 95-88..... 1-لسان الدين بن الخطيب:
- 89-88..... 1-1-الشوق والحنين إلى النبي(ص):
- 90..... 2-1-التغني بفضائل النبي(ص):
- 93-90..... 3-1-تعداد معجزاته(ص):
- 95-94..... 4-1-الإشادة بليلة الرسول(ص):
- 95..... 5-1-الاستجداد بالرسول:
- 95..... 6-1-طلب الغوث والشفاعة من الرسول(ص):
- 96..... 2-ابن جابر الأندلسي:
- 102
- 96..... 1-2-الشوق لرؤية النبي(ص):
- 97-96..... 2-2-التغني بفضائل النبي(ص):
- 99-98..... 3-2-تعداد معجزات النبي(ص):
- 100-99..... 4-2-الحديث عن غزوة بدر:
- 101-100..... 5-2-مدح كل من له شرف بالقرب منه:
- 101..... 6-2-طلب نيل الشفاعة في الآخرة:
- 102..... 7-2-محبة الكائنات الحية له(ص):
- 102..... 8-2-معجزة الإسراء والمعراج:
- 104-103..... IV-المقارنة بين الشاعرين من حيث الموضوعات والقوافي:
- 153-105..... الفصل الثالث: بنية قصيدة المديح النبوي عن الشاعرين:
- 108-106..... 1-تحديد مصطلح البنية:
- 153-109..... 2-بنية قصيدة المديح النبوي:

- 115-109.....:1-2-المطلع
- 131-116.....:2-2-المقدمات
- 121-117.....:1-2-2-المقدمة الغزلية
- 126-122.....:2-2-2-المقدمة الطللية
- 131-127.....:3-2-2-مقدمة الشوق والحنين
- 144-131.....:3-2-حسن التخلص
- 153-145.....:4-2-حسن الختام أو المقطع
- الفصل الرابع: البنية الفنية لقصيدة المديح النبوي عن الشعراء: 224-154**
- 167-155.....:1-المعجم الشعري
- 167-156.....:1-1-الألفاظ والأساليب
- 160-157.....:1-1-1-ألفاظ الشوق والحنين المباشرة
- 163-161.....:2-1-1-الألفاظ الدالة على الحنين
- 165-164.....:3-1-1-الألفاظ الدالة على الحرب والسلاح
- 167-166.....:4-1-1-ألفاظ التوسل والشفاعة وطلب الاستغاثة
- 177-168.....:2-مستوى التركيب
- 177-168.....:1-2-1-تعاقب وتكرار الألفاظ والأساليب
- 177-169.....:1-1-2-تعاقب وتكرار الأسماء
- 170-169.....:أ-ألفاظ الليل والنهار
- 173-171.....:ب-تعاقب وتكرار صفات الرسول(ص):
- 175-174.....:د-تكرار ذكر الأماكن المقدسة
- 177-176.....:هـ-تعاقب وتكرار أسماء الحبيبة
- 189-178.....:2-2-تكرار الأفعال و تعاقبها
- 184-180.....:3-2-تكرار وتعاقب الأساليب الإنشائية عند ابن الخطيب
- 181-180.....:1-3-2-أسلوب النداء
- 183-181.....:2-3-2-أسلوب الاستفهام
- 183.....:3-3-2-أسلوب التمني
- 184-183.....:4-3-2-أسلوب الأمر والنهي
- 189-185.....:4-2-تكرار وتعاقب الأساليب الإنشائية عند ابن جابر
- 186-185.....:1-4-2-أسلوب النداء

- 187-186.....2-4-2- أسلوب الاستفهام:
- 188-187.....2-4-3- أسلوب التمني:
- 189-188.....2-4-4- أسلوب الأمر والنهي:
- 208-190.....3-بناء الصورة الشعرية:
- 196-194.....3-1- الصورة التشبيهية:
- 200-197.....3-2- الصورة الإستعارية:
- 202-201.....3-3- الصورة الكنائية:
- 208-203.....3-4- الصورة البديعية:
- 205-204.....3-4-1- التصريح:
- 206-205.....3-4-2- الجناس:
- 208-206.....3-4-3- الطباق والمقابلة:
- 224-209.....3-5-بناء الموسيقى:
- 217-210.....3-5-1- الموسيقى الإيقاعية الخارجية:
- 214-210.....أ-موسيقى الوزن:
- 217-215.....ب-القافية:
- 224-218.....3-5-2-الموسيقى الإيقاعية الداخلية:
- 261-225.....الفصل الخامس: مستويات التناص عن الشعراء:
- 228-226.....1-التناص، مفهومه، دوره:
- 238-228.....2-التناص عند ابن الخطيب:
- 231-228.....2-1-التناص القرآني:
- 232.....2-2-التناص مع الحديث النبوي الشريف:
- 234-233.....2-3-التناص مع الموروث الشعري القديم:
- 235.....2-4-التناص من خلال الأمثال والحكم:
- 238-236.....2-5-التناص التاريخي:
- 261-239.....3-التناص عند ابن جابر:
- 244-239.....3-1-التناص القرآني:
- 249-245.....3-2-التناص مع الحديث النبوي الشريف:
- 252-250.....3-3-التناص مع الموروث الشعري القديم:
- 254-253.....3-4-التناص من خلال الأمثال والحكم:
- 261-255.....3-5-التناص التاريخي:

287-262.....	الفصل السادس: الأشكال الفنية للمدائح النبوية:
263.....	1-توطئة:
274-264.....	2-الأشكال الفنية للمدائح النبوية عند ابن الخطيب:
268-264.....	1-2-المولديات:
273-269.....	2-2-الموشحات:
274.....	2-3-الرسائل الشعرية:
287-275.....	3-الأشكال الفنية للمدائح النبوية عند ابن جابر:
277-275.....	1-3-البديعيات:
279-278.....	2-3-المدائح النبوية التي فيها التورية بكل سور القرآن:
281-280.....	3-3-المخمسات أو المسمطات:
284-282.....	3-4-المعارضات:
285.....	3-5-المعشرات:
287-286.....	3-3-المقصورة:
290-288.....	-خاتمة:
306-291.....	- قائمة المصادر و المراجع :
313-307.....	- فهرس الموضوعات :
314.....	ملخص البحث:

مأخذ

يهدف هذا البحث إلى التعريف بالمدائح النبوية في الشعر الأندلسي في القرن الخامس الهجري، وهذا من خلال الشعاعين « لسان الدين بن الخطيب وابن جابر ». باعتبارها تحتل مكانا مشرقا في ديوان شعرنا العربي، وهي تلك المدائح التي صنفت من الأغراض الدنيوية، واكتست رداء الصدق، حيث كان حب سيد الخلق صلى الله عليه وسلم هو الدافع إليها، فاختلفت بذلك عن غيرها من المدائح التي كانت من الأغراض الدنيوية.

كانت الحياة الأدبية في المشرق والمغرب والأندلس مواراة بالحركة والنشاط في القرن الثامن الهجري، ففي الأندلس والمغرب لقي الأدباء تشجيعا كبيرا من رجالات الدولة، الذين كان كثير منهم يقول الشعر، ويتذوقه، ويفتح لهم مجالسه، ويناقشهم، ويتخذ منهم رؤساء لدواوين الإنشاء، ويستوزرهم. وقراءة عميقة في كتب ذلك العصر مثل الإحاطة والنفاسة والكتيبة الكامنة لابن الخطيب، ونثير الجمان لابن الأحمر، والعبر لابن خلدون وغيرها، تعطينا صورة واضحة عما كان يزخر به هذا القرن من الشعراء الذين كانت تتجاذبهم دول الأندلس والمغرب المتعددة المتناحرة المملأى بالاضطرابات والفتن والصراعات. أما في المشرق العربي آنذاك فنجد المماليك قد جمعوا الشام ومصر والحجاز وغيرها في دولة واحدة، حققت - رغم وجود عدد من السلبات - كثيرا من الازدهار والقوة والأمن، مما ترك آثارا طيبة على الحياة الفكرية والأدبية، وخلفوا أشعارا كثيرة، عبرت عن روح ذلك العصر من خلال المقاييس الفنية التي كانت سائدة فيه.

كانت الصلات الفكرية والأدبية بين المغرب والمشرق العربيين وثيقة سريعة مستمرة، تمدها قوافل الحجاج والمعتمرين ومحبي جوار الرسول صلى الله عليه وسلم والتجار بمدد مستمر لا ينقطع، يحمل معه - فيما يحمل - الفكر والعلم والتصوف والأدب والكتب، بالإضافة إلى الكثير من المغاربة الذين يمموا وجوههم قبل المشرق، حازه ومصره وشامه، طالبين فيه الأمن الذي افتقدوه في بلادهم آنذاك، ولقد حفظت لنا الكتب أسماء كثيرين، منهم ابن عربي وابن خلدون وابن جابر وأبو جعفر، وغيرهم.

تركت هذه الهجرة آثارها المتعددة على الحياة الدينية والفكرية والأدبية بعامه، وعلى الشعر بخاصة، وعلى المديح النبوي موضوع بحثي بصورة أخص .

فالمدائح النبوية تحتل مكانا مشرقا في ديوان شعرنا العربي، واكتست رداء الصدق؛ حيث كان حب سيد الخلق صلى الله عليه وسلم هو الدافع إليها، فاختلفت بذلك عن غيرها من المدائح التي كانت من الأغراض الدنيوية دافعها الأول.

وعلى امتداد العصور التي تمتد بيننا وبين عصر النبوة الزاهي راح الشعراء ينثرون مدائحهم على أعتاب الحبيب صلى الله عليه وسلم، إذن فهي مدائح تتميز بطول الامتداد الزمني كما تميزت بالكثرة من حيث الكم أيضا؛ إذ لا يمكن حصر جميع مدائح الرسول صلى الله عليه وسلم في عصر من العصور، فضلا عن حصر ما أبدعه الشعراء طوال هذه الحقبة الطويلة.

نخلص من هذا أن المدائح النبوية تميزت بالكثرة والشمولية، فقد حاولت الإحاطة بجوانب السيرة العطرة لسيد الخلق صلى الله عليه وسلم و تقديمها في بيان شعري أخذ. ومن المحطات التي توقف لديها الشعراء تعداد صفاته الخلقية والخلقية وإظهار الشوق لرؤيته وزيارة قبره والأماكن المقدسة التي ترتبط بحياة الرسول صلى الله عليه وسلم، مع ذكر معجزاته المادية والمعنوية ونظم سيرته شعرا والإشادة بغزواته وصفاته المثلى والصلاة عليه تقديرا وتعظيما.

ويظهر الشاعر المادح في هذا النوع من الشعر الديني تقصيره في أداء واجباته الدينية والدنيوية، ويذكر عيوبه وزلاته المشينة وكثرة ذنوبه في الدنيا، مناجيا الله بصدق وخوف مستعظفا إياه طالبا منه التوبة والمغفرة. وينتقل بعد ذلك إلى الرسول صلى الله عليه وسلم طامعا في وساطته وشفاعته يوم القيامة.

وغالبا ما يتداخل المديح النبوي مع قصائد التصوف وقصائد المولد النبوي التي تسمى بالمولديات.

ومن المعهود أن هذا المدح النبوي الخالص لا يشبه ذلك المدح الذي كان يسمى بالمدح التكسبي أو مدح التملق الموجه إلى السلاطين والأمراء والوزراء، وإنما هذا المدح خاص بأفضل خلق ألا وهو محمد صلى الله عليه وسلم ويتسم بالصدق والمحبة والإخلاص والتضحية والانغماس في التجربة العرفانية والعشق الروحاني.

فالمدائح النبوية تميزت بالكثرة والشمولية، فقد حاولت الإحاطة بجوانب السيرة العطرة لسيد الخلق و تقديمها في بيان شعري أخذ. ومن المحطات التي توقف لديها الشعراء تعداد صفاته الخلقية والخلقية وإظهار الشوق لرؤيته وزيارة قبره والأماكن المقدسة التي ترتبط بحياة الرسول صلى الله عليه وسلم، مع ذكر معجزاته المادية والمعنوية ونظم سيرته شعرا والإشادة بغزواته وصفاته المثلى والصلاة عليه تقديرا وتعظيما.

هذا وجاءت فصول البحث كالآتي:

الفصل الأول: تناولت فيه مفهوم فن المديح في الاصطلاح اللغوي والفني، ونشأته وتطوره. ثم وقفت عند المديح في الأدب العربي . كما تطرقت للمديح الديني، وكذا

- ملخص البحث -

المديح النبوي . وبعدها تحدثت عن شعر المديح النبوي في الأدب المغربي والأندلسي. لأسلط بعدها الضوء على موضوعات ومضامين شعر المديح النبوي. خاتما هذا الفصل بالكشف عن أوجه التداخل بين المديح النبوي وشعر التصوف. الفصل الثاني: أفردته لترجمة حياة الشاعرين لسان الدين بن الخطيب وابن جابر، مع دراسة ديوانيهما .

الفصل الثالث:توجّهت عنايةً إلى دراسة بنية القصيدة المديحية عند الشاعرين، حيث تعرضت للمطالع والمقدمات و حسن التخلص،و حسن الختام أو المقطع. وكان ذلك عن طريق دراسة نماذج لكل منهما .

الفصل الرابع: اهتم بدراسة المعجم الشعري،من خلال دراسة:الألفاظ والأساليب، مستوى التركيب .ثم بناء الصورة في شعر المدائح النبوية، والتشبيه ودوره في خلق الصورة، والاستعارة و دورها في خلق الصورة عند الشاعرين. دون إهمال الصورة الكنائية التي كان حضورها قويا في شعر المدائح النبوية. رفقة نظيرتها البديعية .وفي جانب الموسيقى فقد كان لها صدى هي كذلك من خلال الموسيقى الإيقاعية الداخلية وكذا الخارجية.

وفي الفصل الخامس كان الحديث عن مستويات التناص عند الشاعرين، من خلال تتبع تلك الظاهرة التناصية في مدائحهما،من خلال خمس مصادر هي: القرآن الكريم،والحديث الشريف، والموروث الشعري العربي،والأمثال والحكم العربية، الأحداث التاريخية .

أما الفصل السادس فقد أخصّ ببحث الأشكال الفنية للمدائح النبوية عند الشاعرين. فكانت المولديات، و الموشحات، والرسائل الشعرية،و المعارضات عند ابن الخطيب. وعند ابن جابر كانت البديعيات،و الخمسات، والمعارضات،والمعشرات أهم الأشكال الفنية في مدائحه النبوية.

وختمت بحثي باستعراض أبرز النتائج التي توصلت إليها من خلال دراستي للمدائح النبوية عند ابن الخطيب وابن جابر .

وإني لأرجو ختاماً أن تكون دراستي هذه حلقة تضاف إلى سلسلة الدراسات التي اهتمت بترائنا العربي الإسلامي القديم.

Résumé de recherche

Cette recherche vise à introduire madaih prophétique dans la poésie andalouse dans le cinquième siècle, et ce à travers les poètes «lissane edine Ibn al-Khatib et ibn Jabir». Comme el madaih occupent une place dans le diouane de la poesie arabe, sont ceux qui sont classés éloges de fins mondaines, ils ont assumé la robe et l'honnêteté, où l'amour du prophete mohamed est le motif principal de sorte qu'ils soient différents des autres louanges qui étaient de fins banales.

madaih prophétiques étaient nombreux, j'ai essayé de prendre les aspects de la Biographie parfumé de maître de la création et de la soumission dans des poemes qui coupent le souffle. Parmi les stations dont les poetes étaient intéressés des qualités morales et éthiques du prophete et de montrer le désir de le voir et de visiter sa tombe et les lieux saints associés à sa vie, en citant ses miracles matériels et moraux et organisé une poésie louant les gazaouettes et les attributs de l'idéal et de prière pour lui dans l'appréciation et la vénération.

Les chapitres sont comme suit:

Chapitre I: j'ai étudié le concept de l'art de la louange adressée dans la terminologie linguistique et technique, ses origines et son évolution. Et puis je me tiens à la louange dans la littérature maghrébine et andalouse. J'ai également porté sur l'éloge religieux, ainsi que les éloges du Prophète. Enfin, j'ai montré quelques aspects communs de madaih et de poemes de soufisme.

Chapitre II: réservé à traduire la vie des poètes Ibn al-Khatib et Ibn jabir, avec l'étude de leurs diouanes.

Chapitre III : mon attention est dirigée à l'étude de la structure des poèmes ou j'ai observé les introductions et les conclusions en étudiant des modèles.

Chapitre IV: intéressé à étudier le lexique poétique, à travers l'étude des mots et des méthodes, le niveau de l'installation de la construction. Puis les poemes à la louange du Prophète, et la métaphore et de son rôle dans la création de l'image, sans pour autant négliger l'image que sa présence a été fortement ressentie dans la louange du Prophète. En musique, il était un écho est également à travers la musique rythmique interne, ainsi que externe.

Dans le cinquième chapitre, nous parlons de niveaux d'intertextualité à travers cinq sources: le Coran, le Hadith, le patrimoine poétique arabe, les proverbes arabes, et les événements historiques.

Le sixième chapitre a été distingué pour examiner les formes d'art des louanges du Prophète chez les deux poètes. Chez l'Ibn al-Khatib, on trouve elmouldiat, elmouchihat, lettres ... Quant à ibn Jaber on trouve Alibdieiat, Almkhmsat, Almashrat ...

J'ai achevé ma recherche en présentant les plus importants résultats à travers mon étude des louanges du Prophète à Ibn al-Khatib Jabir Ibn.

je l'espère, enfin, que cet épisode sera ajouté aux études qui ont porté sur l'ancienne série du patrimoine arabo-islamique.

Research Summary

This research aims to introduce madaih in Andalusian poetry in the fifth hidjer century, and this through the poets «Ibn al-Khatib and Ibn Jabir.» they occupie a great place in the diwan of the Arab language, those are classified praise from mundane purposes, but it assumed honesty, where it was master while love is the motive. صلى الله عليه وسلم of creation

madaih prophetic characterized as numerous , tried to take aspects of fragrant Biography of master of creation, and stations that stopped to have poets census moral and ethical qualities and show the longing to see him and , صلى الله عليه وسلم visit his grave and the holy places associated with the life of the Prophet with material and moral miracles and organized his poetry praising.

The chapters are as follows:

Chapter One: the concept of the art of praise addressed in the linguistic and technical terminology, and its origins and evolution. And then he stood at the praise in Arabic literature. Also it touched on the religious eulogy, as well as the praise of the Prophet. Then he talked about poetry in praise of the maghreb and Andalusian literature. Then to shine a light on the issues and implications of the Prophet's praise.

Chapter II: to translate the lives of poets Ibn al-Khatib and Ibn Jabir.

Chapter III : study of the structure of the poem elmadaih, its introductions and its conclusions.

Chapter IV: interested in studying the poetic lexicon, through the study of words and methods, installation level. Then building's poem in praise of the Prophet, and the metaphor and its role in creating the image, without neglecting the image that its presence was strongly felt in praise of the Prophet. In music it was an echo is also through internal rhythmic music, as well as external.

In the fifth chapter we were talking about intertextuality levels through five sources: the Koran and the Hadith, and the Arab poetic heritage, and Arabic proverbs, and historical events.

The sixth chapter has been singled out to examine art forms of the Prophet's praises. It was Almouldiat, and aroused, poetry, letters, and oppositions at the Ibn al-Khatib. When ibn Jaber has Alibdieiat, and Almkhmsat, and oppositions, and Almashrat the most important art forms in Mdaih prophetic.

She concluded the review of the most prominent research findings through my study of the Prophet's praises at Ibn al-Khatib and Ibn Jabir.

And I hope my conclusion that this episode be added to the studies that have focused on the ancient Arab-Islamic heritage series.

Google Traduction pour les entreprises :Google Kit du traducteurGadget TraductionOutil d'aide à l'export